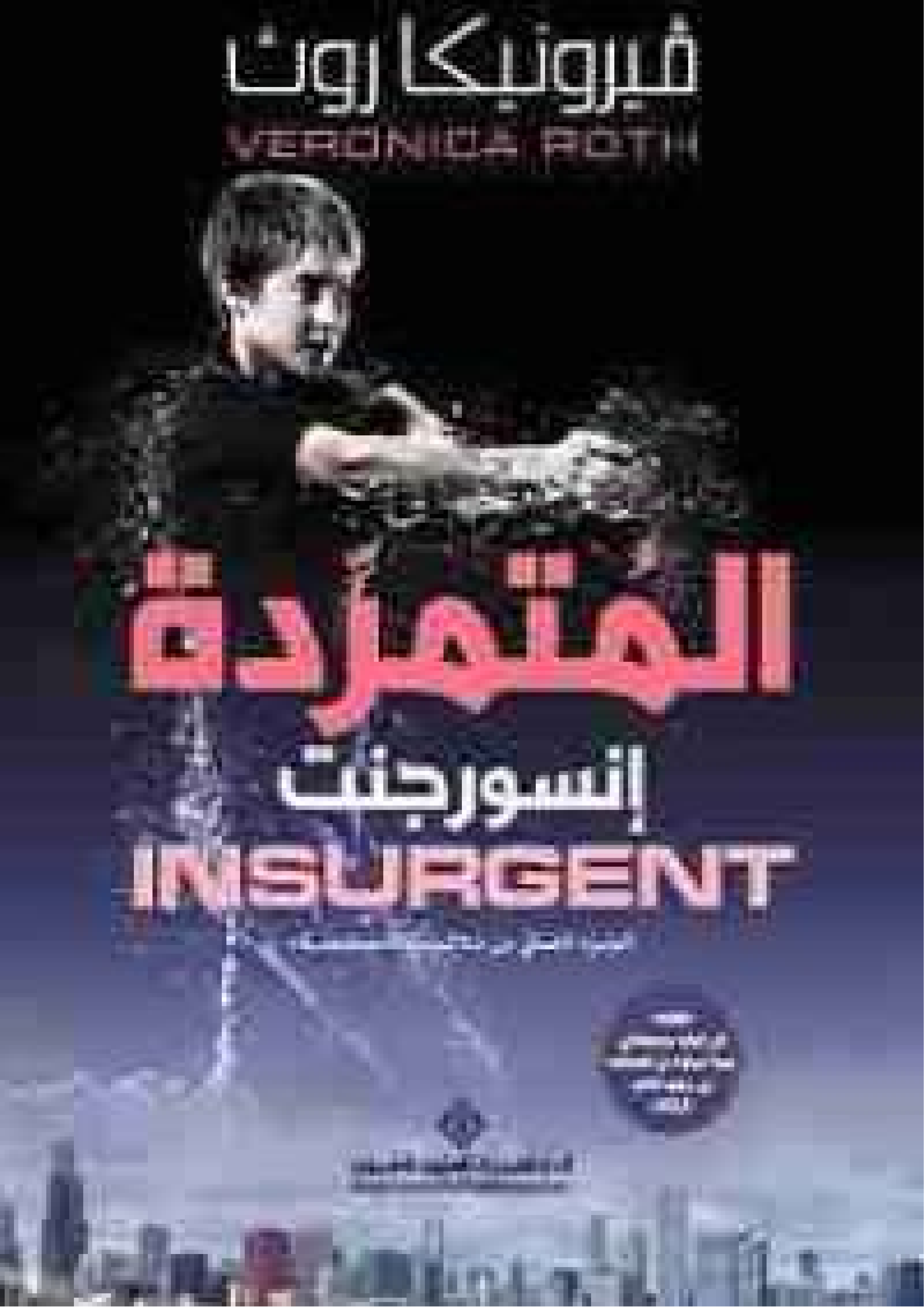
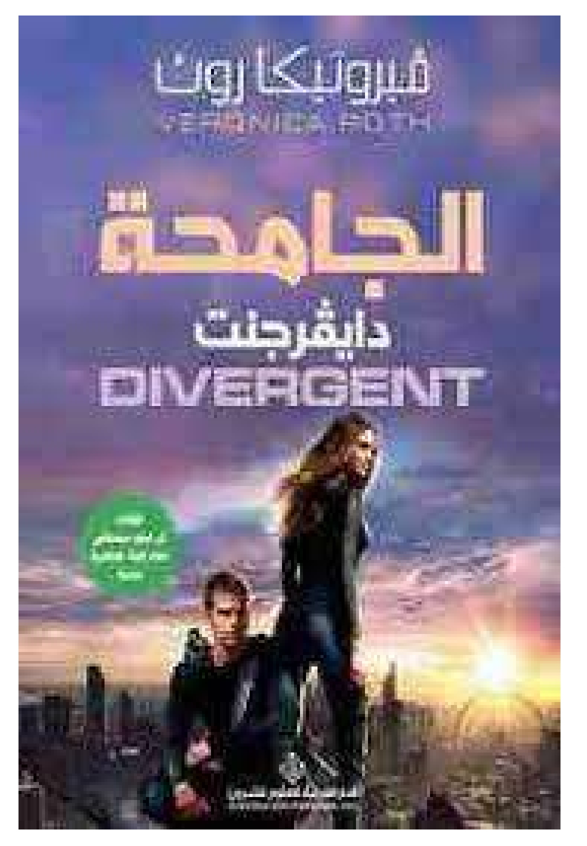

فيرونيكا روث
VERONICA ROTH
المتمردة
إنسورجنت
INSURGENT

المتمردة

الجزء الثاني من ثلاثية "الجامحة"



ترجمة

زبنة إدريس

هـ - 2015 م



الفصل الأوّل

استيقظت وأنا أردّد اسمه.

ويل.

قبل أن أفتح عينيّ، شاهدته وهو يتهاوى على الرصيف مجدّداً، بلا حياة.

أنا من قتله.

انحنى توبياس أمامي، ووضع يده على كتفي الأيسر. ارتجّ القطار فوق السكّة، ووقف ماركوس، وبيتر، وكاليب عند الباب. أخذت نفساً عميقاً، وحبسته، في محاولة لتنفيس شيء من الضغط الذي أخذ يتراكم في صدري.

قبل ساعة، لم يبدُ شيء ممّا حدث حقيقياً بالنسبة إليّ. غير أنّني بدأت أعي الواقع الآن.

زفرت الهواء من صدري، لكنّ الضغط ظلّ موجوداً.

قال توبياس، وعيناه تبحثان عن عينيّ: "تعالي، تريس. علينا أن نقفز".

كان الظلام حالكاً، ما دمنا سنترجّل من القطار، فهذا يعني أنّنا اقتربنا من السياج. ساعدني توبياس على الوقوف، وقادني إلى الباب.

قفز الآخرون واحداً تلو الآخر: بيتر أوّلاً، ومن ثمّ ماركوس، ومن بعده كاليب. وقفت على حافة المقطورة وأمسكتُ بيد توبياس، فلفحني الهواء، مثل يد تدفعني إلى الخلف، نحو الأمان.

غير أنّنا قفزنا في الظلام، وهبطنا بقوّة على الأرض. آلمت الصدمة الجرح الذي أحدثته الرصاصة في كتفي. فعضضت على شفتي لأمنع نفسي من الصراخ، وبحثتُ عن أخي.

رأيته جالساً على العشب على بعد عدّة أقدام منّي، يدلّك ركبته، فسألته: "هل أنت بخير؟"

هزّ رأسه. سمعته يشهق كما لو كان يقاوم الدموع، فاستدرت عنه.

نـزلنا على العشب بالقرب من السياج، على بعد عدّة ياردات من الطريق البالي الذي تعبره شاحنات جماعة الوئام لإيصال الطعام إلى المدينة، والبوّابة التي تمرّ عبرها. كانت البوّابة مغلقة حاليّاً، تعيق دخولنا. أطلّت علينا أبراج السياج، وبدت عالية وليّنة بحيث يصعب تسلّقها، ومتينة بحيث يصعب اختراقها.

قال ماركوس: "من المفترض وجود حرّاس من جماعة الشجاعة هنا، أين هم يا ترى؟"

أجاب توبياس: "ربّما كانوا تحت تأثير المحاكاة، وهم الآن... من يدري أين وماذا يفعلون".

ذكّرني وزن القرص الصلب في جيبـي الخلفي أنّنا أوقفنا المحاكاة، لكنّنا لم ننتظر لنرى ما حدث بعد ذلك. ماذا حلّ بأصدقائنا، وزملائنا، وقادتنا، وجماعاتنا؟ لا سبيل إلى معرفة ذلك.

اقترب توبياس من صندوق معدني صغير على الطرف الأيمن للبوّابة، وفتحه، فظهرت لوحة مفاتيح.

قال وهو يطبع سلسلة من الأرقام: "آمل ألاّ تكون جماعة المعرفة قد غيّرت هذا الرقم". توقّف عند الرقم الثامن، ففُتحت البوابة.

سأله كاليب: "كيف عرفتَ الرمز؟" كان صوته عميقاً من شدّة الانفعال، حتّى إنّه بدا على وشك الاختناق.

قال توبياس: "كنت أعمل في غرفة المراقبة في مقرّ الشجاعة، وأراقب نظام الأمن. نحن لا نغيّر الرموز سوى مرّتين في السنة".

قال كاليب: "كم أنت محظوظ"، ونظر إلى توبياس بحذر.

قال توبياس: "لا علاقة للحظّ بذلك. عملت هناك لكي أخرج متى شئت".

ارتجفت. فقد تحدّث عن الخروج كما لو كنّا محاصَرين. في الواقع، لم أفكّر بالأمر على هذا النحو من قبل، وقد بدا لي ذلك جنونياً الآن.

مشينا في مجموعة صغيرة. حمل بيتر ذراعه الدامية على صدره، تلك الذراع التي أطلقتُ عليها النار، في حين وضع ماركوس يده على كتف بيتر، ليسنده. كان كاليب يمسح خدّيه من وقت إلى آخر، فأدركت أنّه يبكي لكنّني لم أعرف كيف أواسيه، أو لماذا لم أكن أبكي أنا أيضاً.

عوضاً عن ذلك، مشيت في المقدّمة، ومشى توبياس إلى جانبي بصمت، ومع أنّه لم يلمسني، إلاّ أنّ وجوده أشعرني بالثبات.

* * *

كانت الأضواء البعيدة هي أوّل علامة على اقترابنا من مقرّ جماعة الوئام. ثمّ تحوّلت مربّعات الضوء إلى نوافذ متوهّجة. وظهرت مجموعة من المباني الخشبية والزجاجية.

قبل أن نتمكّن من بلوغها، علينا أن نمرّ ببستان. غرقت قدماي في التراب، بينما تشابكت الأغصان فوقي على شكل نفق. تدلّت من بين الأوراق فاكهة داكنة جاهزة للقطف. واختلطت رائحة التفّاح المهترئ، الحادّة والحلوة، بعطر الأرض الرطبة في أنفي.

عندما اقتربنا، ترك ماركوس بيتر، ومشى في المقدّمة. قال: "أنا أعرف الطريق".

قادنا من أمام المبنى الأوّل إلى المبنى الثاني إلى اليسار. كانت كلّ الأبنية، باستثناء المشاتل، مصنوعة من الخشب الداكن نفسه، الخشن

وغير المطلي. تناهت إلى مسمعي ضحكة من إحدى النوافذ المفتوحة. فبدا التنافر بينها وبين السكون الأصمّ في داخلي صارخاً.

فتح ماركوس أحد الأبواب. كان من الممكن لانعدام التدابير الأمنية أن يصدمني، لو لم نكن في مقرّ الوئام. فهم غالباً ما يخلطون بين الثقة والغباء.

لم نسمع في هذا المبنى سوى صرير أحذيتنا. حتّى بكاء كاليب هدأ، مع أنّه لم يكن مسموعاً قبل ذلك.

توقّف ماركوس عند غرفة مفتوحة، جلست فيها جوانا ريس، ممثّلة جماعة الوئام، تحدّق من إحدى النوافذ. عرفتها لأنّه من الصعب نسيان جوانا، سواء رأيتها مرّة أو آلاف المرّات. فقد امتدّت ندبة سميكة من أعلى عينها اليمنى إلى شفتها، بحيث أعمت إحدى عينيها وسبّبت لها لدغة وهي تتحدّث. ومع أنّني لم أسمعها تتكلّم سوى مرّة واحدة، لكنّني أتذكّر. لولا تلك الندبة، لكانت امرأة جميلة.

قالت عندما رأت ماركوس: "آه، الحمد لله". اقتربت منه فاتحة ذراعيها. لكن عوضاً عن معانقته، اكتفت بلمس كتفيه، كما لو أنّها تذكّرت نفور جماعة نكران الذات من الاحتكاك الجسدي العارض.

قالت: "وصل أعضاء حزبك الآخرون إلى هنا منذ بضع ساعات، لكنّهم كانوا غير واثقين من نجاتك". كانت تشير إلى مجموعة نكران الذات التي كانت مع أبـي وماركوس في المنـزل الآمن. حتّى إنّني لم أفكّر بالقلق عليهم.

نظرت من فوق كتف ماركوس إلى توبياس أوّلاً، ومن ثمّ إلى كاليب، وإليّ، وأخيرا إلى بيتر.

هتفت عندما وقع نظرها على قميص بيتر المخضّب بالدم: "آه، ربّاه. سأرسل بطلب طبيب. يمكنني منحكم الإذن بالمكوث هذه الليلة، لكن

غداً، يجب أن يقرّر أعضاء الجماعة معاً، و". نظرت إلينا أنا وتوبياس مضيفة: "لن يعجبهم على الأرجح وجود شجعان في مجمّعنا. بالطبع، أطلب منكم تسليم أيّ أسلحة تملكونها".

تساءلت فجأة كيف عرفت أنّني من الشجاعة. فما زلت أرتدي قميص أبـي الرمادي.

في تلك اللحظة، تصاعدت رائحته، التي امتزجت فيها رائحة الصابون والعرق، وملأت أنفي، وملأت رأسي به. فشددت قبضتي بقوّة، بحيث غرزت أظافري بجلدي. *ليس هنا، ليس الآن*.

سلّم توبياس سلاحه، لكن عندما مددت يدي إلى الخلف لأُخرج سلاحي المخبّأ، أمسك بيدي، وأبعدها عن ظهري. ثمّ شبك أصابعه بأصابعي، ليموّه حركته.

أعلم أنّه من الذكاء الاحتفاظ بأحد أسلحتنا، لكنّ تسليمه كان سيريحني.

"أنا جوانا ريس". قالت ذلك وهي تمدّ يدها نحوي، ومن ثمّ نحو توبياس. هذه تحية الشجعان، وقد فاجأني اطّلاعها على عادات الجماعات الأخرى. أنسى دائماً مدى حرص الوئام على مراعاة مشاعر الآخرين، حتّى أرى ذلك بنفسي.

"هذا تـ-" بدأ ماركوس بتعريفها علينا، لكنّ توبياس قاطعه قائلاً: "اسمي فور، وهذه تريس، وكاليب، وبيتر".

قبل يومين، لم يكن أحد سواي بين الشجعان يعرف اسم "توبياس". فقد كان ذلك هو الجزء الذي كشفه لي عن نفسه. وأنا أعرف لماذا يخفي هذا الاسم عن العالم خارج مجمّع الشجاعة، فهو يربطه بماركوس.

نظرت جوانا إليّ، وارتسمت على وجهها ابتسامة عوجاء وهي ترحّب بنا قائلة: "أهلاً بكم في مجمّع الوئام. دعونا نهتمّ بكم".

* * *

تركناهم يفعلون ذلك. أعطتني ممرّضة من الوئام مرهماً صنعته جماعة المعرفة يسرّع على الشفاء لأضعه على كتفي، ثمّ قادت بيتر إلى جناح الاستشفاء لعلاج ذراعه. اصطحبتنا جوانا إلى الكافيتريا، فوجدنا عدداً من أفراد نكران الذات الذين كانوا في المنـزل الآمن مع كاليب وأبـي. كانت سوزان هناك، وعدد من جيراننا القدامى، بينما امتدّت صفوف من الطاولات الخشبية على طول الغرفة. ألقوا علينا التحية، لا سيّما على ماركوس، بابتسامات باهتة ودموع محبوسة.

تمسّكت بذراع توبياس. فقد أحسست بوطأة أعضاء جماعتي القديمة، وحياتهم، ودموعهم.

وضع أحد أفراد نكران الذات كوباً يحتوي على سائل ساخن تحت أنفي وقال: "اشربـي هذا، سيساعدك على النوم كما ساعد آخرين، من دون أحلام".

كان السائل وردياً داكناً، بلون الفراولة. فأمسكت بالكوب، وشربته بسرعة. شعرت لبضع ثوانٍ، أنّ حرارة السائل ملأت فراغي الداخلي. وبينما كنت أفرغ القطرات الأخيرة في فمي، أحسست بالاسترخاء. قادني أحدهم عبر أحد الأروقة، إلى غرفة تحتوي على سرير. وكان هذا كلّ شيء.

الفصل الثاني

فتحت عينيّ مذعورة، وأنا ممسكة بالأغطية. لكنّني لم أكن أركض في شوارع المدينة أو أروقة مقرّ الشجاعة. كنت في سرير في مقرّ الوئام، وكان الجو عابقاً برائحة نشارة الخشب.

تحرّكت، وشعرت بشيء يضغط على ظهري. مددت يدي إلى الخلف، والتفّت أصابعي حول المسدّس.

للحظة، رأيت ويل واقفاً أمامي، يفصل بيننا مسدّسان - *يده، كان بإمكاني أن أصيب يده، لماذا لم أفعل، لماذا؟* - وكدت أن أصرخ باسمه.

ثمّ اختفى.

نهضت من السرير، ورفعت الفراش بإحدى يديّ، ثمّ أسندته بركبتيز وضعت المسدّس تحته، وخبّأته هناك. ما إن غاب عن نظري ولم يعد يضغط على جسدي، حتّى إنّجلت الغمامة عن ذهني.

بعد انخفاض معدّل الأدرينالين الذي أفرزه جسدي أمس، وزوال أثر الشراب الذي ساعدني على النوم، أصبح ألم كتفي مبرحاً. كنت أرتدي ملابس الأمس. بدا طرف القرص الصلب من تحت الوسادة، وكنت قد دسسته هناك قبل أن أستغرق في النوم. كان يحتوي على بيانات المحاكاة التي تحكّمت بالشجعان، فضلاً عن سجلّ بما فعلته جماعة المعرفة. شعرت أنّه مهمّ جدّاً لألمسه، لكن لم يكن بإمكاني تركه هناك، فأخذته وخبّأته بين المنضدة والجدار. من جهة، فكّرت بإتلافه، لكنّني أدركت من جهة أخرى أنّه يحتوي على التسجيل الوحيد لموت والدَيّ. لذلك، قرّرت إبقاءه مخبّأً.

سمعت طرقة على الباب، فجلست على طرف السرير، وحاولت تسوية شعري.

قلت: "تفضّل".

فُتح الباب، وأطلّ توبياس بحيث قسم الباب جسده إلى نصفين. كان يرتدي سروال الجينـز نفسه، لكنّه استبدل قميصه الأسود بقميص أحمر داكن استعاره على الأرجح من أحد أعضاء جماعة الوئام. كان اللون غريباً عليه، وبدا زاهياً جدّاً. لكن عندما أسند رأسه إلى الخلف على إطار الباب، بدت عيناه الزرقاوان أفتح لوناً.

"سيجتمع أعضاء الوئام بعد نصف ساعة". أضاف وهو يرفع أحد حاجبيه بحركة ميلودرامية: "*ليقرّروا مصيرنا*".

هززت رأسي بأسف. "لم أتخيّل يوماً أنّ مصيري سيكون بين أيدي حفنة من جماعة الوئام".

"ولا أنا. آه، أحضرت لكِ شيئاً". فتح غطاء زجاجة صغيرة تحتوي على سائل صافٍ، ومدّها نحوي. "هذا مسكّن. تناولي ملء قطّارة كلّ ستّ ساعات".

"شكراً". عصرت القطّارة في حلقي. كان الدواء بطعم الليمون القديم.

شبك إبهامه بعروة حزامه وقال: "كيف حالك، بياتريس؟"

"هل ناديتني للتوّ *بياتريس*؟"

ابتسم مجيباً: "فكّرت بالمحاولة. ألم يعجبك؟"

"ربّما في المناسبات الخاصّة فقط. في أيّام التلقين، وفي أيّام الاختيار..." توقّفت عن الكلام. كنت على وشك أن أعدّد بعضاً من الأيّام الأخرى، لكنّ جماعة نكران الذات وحدها هي التي تحتفل بتلك الأيّام. وأفترض أنّ للشجعان أيّاماً خاصّة بهم، لكنّني لا أعرفها. على كلّ حال، بدت فكرة الاحتفال بأيّ شيء سخيفة في هذه اللحظة، بحيث امتنعت عن المتابعة.

"اتّفقنا". تبدّدت ابتسامته وهو يضيف: "كيف حالك، تريس؟"

لم يكن السؤال غريباً بعد كلّ ما مررنا به، لكنّني توتّرت بعد سماعه، وخفت أن يقرأ ما يجول في خاطري. لم أكن قد أخبرته بعد عن ويل. أريد ذلك، لكنّني لا أعرف كيف أبدأ. فمجرّد التفكير بلفظ الكلمات بصوت عالٍ يجعلني أشعر بثقل كبير، وقد أتهاوى على ألواح الأرضية.

"أنا..." هززت رأسي عدّة مرّات. "لا أعرف، فور. أنا واعية. أنا..." واصلتُ تحريك رأسي. فمرّر يده على خدّي، وعانقني. أحسست في تلك اللحظة أنّ فراغ صدري ومعدتي لم يعد ملحوظاً.

ليس عليّ إخباره. يمكنني أن أحاول النسيان، وقد يساعدني على ذلك.

قال: "أعرف. أنا آسف، لم يكن يجدر بـي أن أسأل".

للحظة فكّرت بسؤاله، *من أين لك أن تعرف؟* لكنّ شيئاً في تعبيره ذكّرني أنّه يعرف ما هي الخسارة. فقد خسر أمّه في صغره. ومع أنّني لا أذكر كيف ماتت، إلاّ أنّنا حضرنا جنازتها.

فجأة، تذكّرته ممسكاً بستائر غرفة الجلوس، وكان في التاسعة من عمره تقريباً، يرتدي ملابس رمادية، وعيناه مغمضتان. كانت الصورة عابرة، وقد تكون من وحي الخيال، وليست ذكرى.

نهض قائلاً: "سأتركك لكي تجهّزي نفسك".

* * *

يقع حمّام النساء على بعد بابين في الممرّ. أرضيته مكسوّة بالبلاط البنّي الداكن، ولكلّ حجرة استحمام جدران خشبية وستارة من النايلون تفصلها عن الجناح المركزي. عُلّقت على الجدار الخلفي لافتة كُتب عليها: *حفاظاً على الموارد، لا تجري مياه الاستحمام سوى لخمس دقائق.*

كانت المياه باردة، لذلك لم أكن بحاجة إلى مزيد من الوقت حتّى لو توفّر لي. اغتسلت بسرعة بيدي اليسرى، وأبقيت يدي اليمنى ممدودة على جانبـي. أعطى المسكّن الذي أحضره لي توبياس مفعولاً سريعاً، وتلاشى ألم كتفي تقريباً.

عندما خرجت من الحمّام، وجدت مجموعة ملابس تنتظرني على السرير. كان بينها ملابس صفراء وحمراء، من جماعة الوئام، وأخرى رمادية تنتمي إلى نكران الذات، وهي ألوان نادراً ما أراها مجتمعة. أعتقد أنّ أحد أفراد نكران الذات هو من أحضر لي الملابس. فهذه من الأمور التي يفكّرون بها.

ارتديت سروالاً أحمر داكناً مصنوعاً من قماش الدنيم، غير أنّه كان طويلاً جدّاً بحيث احتجت إلى ثنيه ثلاث مرّات، مع قميص رمادي مقاسه كبير عليّ. غطّت أكمامه أصابعي، فثنيتها هي أيضاً. كانت الحركة تؤلم يدي اليمنى، لذلك حاولت إبقاء حركتي بطيئة ومحدودة.

طرق أحدهم على الباب. "بياتريس؟" كان الصوت الناعم هو صوت سوزان.

فتحت لها الباب، فدخلت تحمل صينية طعام وضعَتها على السرير. بحثت في وجهها عن ملامح الخسارة. فوالدها، الذي كان أحد قادة الجماعة، لقي حتفه في الهجوم. مع ذلك، لم أرَ سوى التصميم الهادئ الذي يميّز جماعتي القديمة.

قالت: "أعتذر لأنّ الملابس لا تناسبك، لكنّني واثقة أنّنا نستطيع إيجاد شيء أفضل إن سمحت لنا جماعة الوئام بالبقاء".

أجبت: "إنّها جيّدة، شكراً لك".

"سمعت أنّك مصابة. هل تحتاجين إلى المساعدة لتسريح شعرك، أو ارتداء حذائك؟"

كنت على وشك أن أرفض، لكنّني أحتاج فعلاً إلى المساعدة.
"أجل، شكراً".
جلستُ على مقعد أمام المرآة، ووقفَت خلفي. بدت عيناها مدرّبتان بإخلاص على المهمّة التي تقوم بها، عوضاً عن النظر إلى نفسها في المرآة. فهما لم ترفّان إلى الأعلى ولو للحظة واحدة، بينما هي تمرّر المشط عبر شعري. كما أنّها لم تسألني عن كتفي، ولا كيف تعرّضتُ لإطلاق النار، ولا عمّا حدث عندما تركت مخبأ نكران الذات لإيقاف المحاكاة. فشعرت أنّني لو شرّحتها، لوجدتها ناكرة للذات حتّى العظم.
سألتها: "هل التقيتِ بروبرت؟" كان شقيقها روبرت قد اختار الوئام يوم اخترتُ الشجاعة، لذلك فهو موجود هنا في مكان ما. أتساءل ما إذا كان اجتماعهما شبيهاً باجتماع شملي مع كاليب.
أجابت: "رأيته أمس لمدّة وجيزة، ثمّ تركته ليحزن مع جماعته بينما أحزن مع جماعتي. لكنّني سررت برؤيته مجدّداً".
بدت نبرتها ختامية، كأنّها تعلن إغلاق الموضوع.
قالت سوزان: "من المؤسف حدوث ذلك في هذا الوقت. فقد كان زعماؤنا على وشك القيام بأمر رائع".
"حقّاً؟ وما هو؟"
احمرّت سوزان خجلاً. "لا أدري. عرفتُ وحسب أنّ شيئاً ما على وشك الحدوث. لم أشأ أن أكون فضولية، غير أنّني لاحظتُ أشياء وحسب".
"لن ألومك حتّى لو كنتِ فضولية".
هزّت رأسها، وواصلَت التسريح. أتساءل ماذا كان يفعل قادة نكران الذات، بمن فيهم أبـي. كما أنّ افتراض سوزان أنّ ما كان يجري رائع

أدهشني فعلاً. في الواقع، أتمنّى لو أستطيع التصديق مجدّداً أنّ الناس قادرون على ذلك.

أتمنّى ذلك.

قالت: "فتيات الشجاعة يسدلن شعرهنّ، أليس كذلك؟"

أجبت: "أحياناً. هل تعرفين كيف تجدلينه؟"

حوّلت بأصابعها شعري إلى ضفيرة واحدة وصلت إلى منتصف عمودي الفقري. حدّقتُ بقوّة إلى صورتي في المرآة حتّى إنّتهت، ثمّ شكرتها وغادرَت بابتسامة صغيرة وهي تغلق الباب خلفها.

واصلتُ النظر إلى المرآة، لكنّني لم أكن أرى نفسي. ما زلت أشعر بأصابعها تحتكّ بمؤخّر عنقي، تماماً مثل أصابع أمّي في آخر صباح أمضيتُه معها. ترقرقت عيناي بالدموع، ورحت أهزّ جسدي إلى الأمام والخلف على المقعد، في محاولة لإبعاد الذكرى عن رأسي. كنت أخشى، إن بدأتُ بالبكاء، ألاّ أتوقّف حتّى أذبل مثل حبّة زبيب.

رأيتُ على المنضدة علبة خياطة. كانت تحتوي على لونين من الخيوط، أحمر وأصفر، فضلاً عن مقصّ.

غمرني السكون وأنا أحلّ ضفيرة شعري، وأسرّحه مجدّداً. بعد ذلك، فرقته إلى نصفين، وتأكّدت أنّه مسطّح تماماً، ثمّ أطبقت عليه المقصّ بذقني.

كيف يمكنني أن أبقى على حالي بعدما رحلَت واختلف كلّ شيء؟ لا لا أستطيع ذلك.

قصصته بخطّ مستقيم قدر الإمكان، مستخدمة فكّي كدليل. كان الجزء الخلفي هو الأصعب، لأنّني لا أستطيع رؤيته جيّداً، فبذلت قصارى جهدي، مستدلّة باللمس عوضاً عن النظر. أحاطت بـي نصف دائرة من الخصل الشقراء على الأرض.

بعدما انتهيت، غادرت الغرفة، من دون أن أنظر مجدّداً إلى المرآة.

* * *

عندما أتى توبياس وكاليب لإحضاري لاحقاً، حدّقا إليّ كما لو أنّني لست الفتاة التي تركاها بالأمس.

ارتفع حاجبا كاليب دهشة، وقال: "قصصت شعرك". كانت ملاحظته للتفاصيل في وسط الصدمة من خصال جماعة المعرفة. انتصب شعره من الجهة التي كان ينام عليها، وبدت عيناه حمراوين.

قلت: "أجل، فالجوّ... حارّ جدّاً".

"أنت على حقّ".

مشينا معاً في الممرّ، وتصاعد صرير الألواح الخشبية تحت أقدامنا. افتقدتُ لصدى خطواتي في مجمّع الشجاعة، ولهواء السرداب البارد. لكنّ أكثر ما افتقدت إليه هو مخاوف الأسابيع الماضية، التي بدت صغيرة إلى جانب مخاوفي الآن.

خرجنا من المبنى، فباغتنا الهواء الحارّ في الخارج مثل وسادة تضغط على وجوهنا. كان عابقاً برائحة الخضرة، مثل رائحة ورقة الشجر عندما تمزّقها إلى نصفين.

سأل كاليب: "هل يعرف أحد أنّك ابن ماركوس؟ أعني من جماعة نكران الذات؟"

أجاب توبياس، وهو ينظر إلى كاليب نظرة خاطفة: "ليس على حدّ علمي، وأفضّل ألاّ تذكر لهم ذلك".

نظر إليه كاليب عابساً: "لا أحتاج إلى ذكر ذلك، بل يمكن لأيّ شخص يملك عينين أن يراه بنفسه. على أيّ حال، كم عمرك؟"

"ثمانية عشر عاماً".

"ألا تظنّ إذاً أنّك كبير على أختي الصغرى؟"

ضحك توبياس قليلاً وأجاب: "لم تعد أختك *الصغرى*".

قلت: "كفّا عن ذلك أنتما الاثنان". كان ثمّة حشد من الناس بالأصفر يمشون أمامنا، باتّجاه مبنى قصير وعريض مصنوع بالكامل من الزجاج. كان أثر أشعّة الشمس المنعكس على الألواح الزجاجية أشبه بالقرصة على عينيّ. فحميت وجهي بيدي، وواصلت السير.

كانت أبواب المبنى مفتوحة على مصرعيها. حول أطراف البيت الزجاجي الدائري، نمت النباتات والأشجار في أحواض مياه أو برك صغيرة. وثُبّتت عشرات المراوح حول القاعة لنفخ الهواء الحارّ، فبدأت أتعرّق على الفور. إلاّ أنّ هذا التفصيل تلاشى عندما تفرّق الحشد من أمامي، ورأيت بقيّة القاعة.

في الوسط، نمت شجرة ضخمة، وامتدّت أغصانها فوق معظم مساحة البيت الزجاج، في حين برزت جذورها من الأرض، مكوّنة شبكة كثيفة من اللحاء. وفي المساحات التي تفصل بينها، لم أرَ تراباً، بل مياهاً، وقضباناً معدنية تثبّت الجذور. لا يجب أن يفاجئني ذلك، لأنّ أبناء الوئام يمضون حياتهم في إنجازات زراعية من هذا القبيل، بمساعدة تكنولوجيا المعرفة.

وقفت جوانا ريس على كتلة من الجذور، وانسدل شعرها فوق النصف المشوّه من وجهها. تعلّمت من تاريخ الجماعات أنّ جماعة الوئام لا تملك قائداً رسمياً، بل هم يصوّتون على كلّ شيء، وتأتي النتيجة عادة بالإجماع تقريباً. فهم أشبه بأجزاء عديدة لعقل واحد، وجوانا هي لسان حالهم.

تربّع أعضاء الوئام على الأرض في مجموعات تشبه بعض الشيء جذور الشجرة، في حين جلس أعضاء نكران الذات في صفوف مرصوصة

على بعد عدّة ياردات إلى اليمين. تأمّلت الحشد لبضع ثوانٍ قبل أن أدرك ما أبحث عنه؛ أبواي.

ازدردت ريقي، وحاولت النسيان. وضع توبياس يده على أسفل ظهري، وقادني إلى طرف قاعة الاجتماعات، خلف نكران الذات. قبل أن نجلس، همس في أذني: "يعجبني شعرك".

استطعت أن أرسم ابتسامة صغيرة على وجهي، واتّكأت عليه قليلاً عندما جلسنا.

رفعت جوانا يديها، وخفضت رأسها، فتوقّفت كلّ الأحاديث في الغرفة على الفور. غرق كلّ أعضاء الوئام في الصمت. منهم من أغمض عينيه، ومنهم من كان يلفظ كلمات لا أسمعها، بينما حدّق بعضهم بعيداً.

شعرت بكلّ ثانية تمرّ. وعندما رفعت جوانا رأسها، كان صبري قد نفد.

قالت: "لدينا اليوم مسألة ملحّة، وهي التالية: كيف سنتصرّف في هذا الزمن من الصراع كأشخاص يسعون إلى السلام؟"

التفت كلّ من أعضاء الوئام الموجودين في القاعة إلى الشخص الجالس بقربه، وبدأ بالكلام.

مرّت الدقائق في الحديث، فسألت: "كيف ينجزون أيّ شيء هنا؟"

أجاب توبياس: "لا تهمّهم الكفاءة، بل الاتّفاق. انظري".

وقفت امرأتان باللباس الأصفر على بعد عدّة أقدام وانضمّتا إلى ثلاثة رجال. وتحرّك شابّ بحيث تحوّلت دائرته الصغيرة إلى دائرة أكبر مع المجموعة المجاورة. هكذا، راحت الحشود الصغيرة في القاعة تكبر وتتمدّد، في حين أخذت الأصوات بالانخفاض، إلى أن أصبح عدد

المجموعات ثلاثة أو أربعة. لم أكن أسمع سوى أجزاء ممّا يقولون: "سلام - الشجاعة - المعرفة - مخبأ - تورّط-".

قلت: "هذا غريب".

قال: "بل أجده جميلاً".

نظرتُ إليه.

ضحك قليلاً وسألني: "ماذا؟ لكلّ منهم دور متساوٍ في الحكم. لذلك يشعر كلّ منهم بحجم متساو من المسؤولية، وهذا ما يولّد لديهم الاكتراث، ويجعلهم لطفاء. أعتقد أنّ هذا جميل".

قلت: "وأنا أعتقد أنّه لا يمكن أن يدوم. هذا ينفع بالتأكيد جماعة الوئام. لكن ماذا يحدث إن لم يرغب الجميع بعزف البانجو وزراعة المحاصيل؟ ماذا يحدث عندما يرتكب أحدهم أمراً فظيعاً ولا ينفع الكلام لحلّ المشكلة؟"

هزّ كتفيه مجيباً: "أعتقد أنّنا سنكتشف ذلك".

بعد ذلك، وقف شخص من كلّ من المجموعات الكبيرة واقترب من جوانا، وهو يمرّ بحذر فوق جذور الشجرة الكبيرة. توقّعت منهم التحدّث مع بقيّتنا، لكنّهم وقفوا عوضاً عن ذلك في دائرة مع جوانا وبقيّة ممثّلي المجموعات، وتكلّموا بصوت منخفض. فبدأت أشعر أنّني لن أعرف أبداً ماذا يقولون.

قلت: "ألن يسمحوا لنا بمشاركتهم في النقاش؟"

أجاب: "أشكّ في ذلك".

لقد انتهى أمرنا.

عندما قال كال واحد ما لديه، جلسوا مجدّداً، وتركوا جوانا وحدها في وسط القاعة. فوقفت أمامنا، وثنت ذراعيها على صدرها. إلى أين

سنذهب عندما يطلبون منّا الرحيل؟ هل نعود إلى المدينة المحفوفة بالمخاطر؟

قالت جوانا: "لقد ربطتنا علاقة وثيقة بجماعة المعرفة منذ زمن طويل. فنحن نحتاج إلى بعضنا للبقاء، وقد تعاونّا دائماً. لكنّ علاقتنا بنكران الذات كانت قوية أيضاً في الماضي، ولا أظنّ أنّه من اللائق ردّ يد الصداقة الممدودة منذ وقت طويل".

كان صوتها حلواً كالعسل، ويتحرّك كالعسل أيضاً، ببطء وحذر. مسحتُ العرق عن جبيني بظاهر يدي.

تابعت قائلة: "نشعر أنّ الطريقة الوحيدة للحفاظ على صداقتنا مع الجماعتين هي بالوقوف على الحياد وعدم التدخّل. ومع أنّ وجودكم هنا مرحّب به، إلاّ أنّه يعقّد هذا الأمر".

قلت في نفسي، *وصلنا إلى صلب الموضوع.*

قالت: "لذلك توصّلنا إلى أنّنا مستعدّون لجعل مقرّنا ملجأً لأعضاء كلّ الفصائل تحت عدّة شروط. أوّلاً، لا يسمح بإدخال أيّ سلاح من أيّ نوع كان إلى المجمّع. ثانياً، في حال وقوع أيّ نـزاع خطير، سواء كان لفظياً أو جسدياً، سيُطلب من كلّ الأطراف المعنية الرحيل. ثالثاً، لا يُسمح بمناقشة الخلاف، ولو سرّاً، ضمن المجمّع. ورابعاً، على كلّ من يمكث هنا أن يساهم في رفاهة هذه البيئة بالعمل. وسنبلّغ هذا القرار للمعرفة، والنـزاهة، والشجاعة بأقرب وقت ممكن".

تحوّل نظرها إلى توبياس وإليّ، وركّزته علينا وهي تضيف: "نرحّب ببقائكم هنا فقط إن كنتم قادرين على الالتزام بقواعدنا. هذا هو قرارنا".

فكّرت بالمسدّس المخبّأ تحت فراشي، وبالتوتّر الذي يسود بيني وبين بيتر، وبين توبياس وماركوس، وأحسستُ بجفاف في فمي. أنا لست بارعة في تجنّب الخلافات.

قلت لتوبياس بصوت منخفض: "لن نمكث هنا طويلاً".

قبل لحظة، لم تكن الابتسامة قد فارقت وجهه تماماً. أمّا الآن، فقد تقلّصت زاويتا فمه وهو يقول: "كلاّ، لن نفعل".

الفصل الثالث

عدت في ذلك المساء إلى غرفتي، ودسست يدي تحت الفراش للتأكّد من أنّ المسدّس ما زال هناك. لامست أصابعي الزناد، وأحسست بتقلّص في حلقي كما لو أنّني أعاني من التحسّس. فسحبت يدي وركعت على طرف السرير، ثمّ أخذت أبتلع الهواء بصعوبة إلى أن زال هذا الشعور.

أخذت أهزّ رأسي يميناً ويساراً. *ما خطبك؟ تماسكي.*

هذا يعني أن أجمع مختلف أجزائي مع بعضها كمن يشدّ رباط حذاء. شعرت بالاختناق، لكنّني أحسست على الأقلّ أنّني قوية.

شعرت بحركة في الجوار، فنظرت عبر النافذة المواجهة لبستان التفّاح. كانت جوانا ريس وماركوس إيتون يمشيان جنباً إلى جنب، قبل أن يتوقّفا في حديقة الأعشاب لقطف أوراق النعناع. خرجت من غرفتي قبل أن أفهم لماذا أردت أن أتبعهما.

أسرعت عبر المبنى لكي لا أفقد أثرهما. لكن ما إن خرجت منه، حتّى أصبحت أكثر حذراً. مشيت حول الطرف المقابل للمبنى الزجاجي، وبعدما رأيت جوانا وماركوس يختفيان بين صفّ من الأشجار، انحنيت وأنا أتقدّم على طول الصفّ التالي، على أمل أن تخفيني الأغصان في حال التفت أحدهما إلى الخلف.

قالت جوانا: "... بالإرباك حيال توقيت الهجوم. هل أنّ جانين انتهت من التخطيط أخيراً، وتحرّكت فوراً، أم أنّ حادثة ما دفعتها إلى ذلك؟"

رأيت وجه ماركوس من خلال جذوع الأشجار. شدّ على شفتيه، وهمهم.

رفعت جوانا حاجبها السليم، قائلة: "أفترض أنّنا لن نعرف أبداً، أليس كذلك؟"

"ربّما لا".

وضعت يدها على ذراعه، والتفتت نحوه. فتصلّبتُ في مكاني، وخفت للحظة أن تراني، غير أنّها اكتفت بالنظر إلى ماركوس. فقرفصتُ، وتقدّمت نحو إحدى الأشجار لأختبئ خلف جذعها. احتكّ اللحاء بعمودي الفقري، لكنّني لم أتحرّك.

قالت: "لكنّك *تعلم*. أنت تعلم لماذا شنّت هجومها في هذا التوقيت. ربّما لم أعد أنتمي إلى جماعة النـزاهة، لكنّني ما زلت أميّز الصدق من الكذب".

"الفضول لا يخدم سوى المصالح الذاتية، جوانا".

لو كنتُ جوانا، لأعطيته ردّاً لاذعاً على هذا التعليق، غير أنّها أجابت بلطف. "جماعتي تعتمد عليّ لتقديم المشورة، وإن كنت تعرف معلومات بهذه الخطورة، من المهمّ أن أعرفها أنا أيضاً لكي أطلعهم عليها. أنا واثقة أنّك تفهم ذلك، ماركوس".

"ثمّة سبب لعدم معرفتك كلّ ما أعرفه. فمنذ زمن بعيد، ائتُمنت جماعة نكران الذات على بعض المعلومات الحسّاسة. وقد هاجمتنا جانين للاستحواذ عليها. وإن لم أكن حذراً، ستدمّرها. هذا كلّ ما أستطيع قوله لك".

"لكن بالتأكيد-"

قاطعها ماركوس: "كلاّ، هذه المعلومات أكثر أهمّية بكثير ممّا تتخيّلين. فقد خاطر معظم زعماء هذه المدينة بحياتهم لحمايتها من جانين، وماتوا في سبيل ذلك. ولن أخاطر بها الآن لمجرّد إشباع فضولك الأناني".

صمتت جوانا لبضع ثوانٍ. كان الظلام قد أصبح دامساً الآن، بحيث عجزتُ تقريباً عن رؤية يديّ. كما كان الهواء عابقاً برائحة التراب والتفّاح، فحاولت عدم التنفّس بصوت عالٍ.

قالت جوانا: "أنا آسفة. لا بدّ أنّني فعلت شيئاً جعلك تعتقد أنّني لست جديرة بالثقة".

أجابها: "في آخر مرّة ائتمنت ممثّلاً لإحدى الجماعات على هذه المعلومات قُتل جميع أصدقائي. لذلك، لم أعد أثق بأحد بعد الآن".

لم أستطع المقاومة، فانحنيت إلى الأمام لكي أنظر من حول جذع الشجرة. كانا منشغلَين جدّاً، ولم يلاحظا الحركة. وقفا بالقرب من بعضهما، لكنهما لم يتلامسا. في الواقع، لم يسبق لي أن رأيت ماركوس بهذا التعب، أو جوانا بهذا الغضب. غير أنّ وجهها لان قليلاً، ولمست ذراع ماركوس مجدّداً، بشيء من الملاطفة هذه المرّة.

قالت: "من أجل تحقيق السلام، علينا أن نثق ببعضنا أوّلاً. لذلك، أتمنّى أن تغيّر رأيك. تذكّر أنّني كنت دائماً صديقتك، ماركوس، حتّى عندما لم يكن لديك كثير من الناس تتحدّث معهم".

مالت إليه، وطبعت قبلة على خدّه، ثمّ مشت إلى آخر البستان. وقف ماركوس لبضع ثوان، وبدت عليه الدهشة، ثمّ بدأ يمشي نحو المجمّع.

كان الحديث الذي دار خلال نصف الساعة الأخير يعصف بذهني. فقد ظننت أنّ جانين اعتدت على جماعة نكران الذات للاستيلاء على السلطة، لكنّ الهجوم كان يهدف إلى سرقة معلومات لا يعرفها أحد سواهم.

ثمّ هدأت أفكاري فجأة عندما تذكّرت شيئاً قاله ماركوس: *خاطر معظم زعماء هذه المدينة بحياتهم لحمايتها*. هل كان أبي واحداً من أولئك الزعماء؟

يجب أن أعرف. لا بدّ لي من معرفة الشيء المهمّ الذي يدفع جماعة نكران الذات إلى الموت من أجله، وجماعة المعرفة إلى القتل من أجله.

* * *

توقّفت قبل أن أطرق على باب توبياس، وأصغيت إلى ما يجري في الداخل.

قال توبياس وهو يضحك: "كلاّ، ليس *كذلك*".

"ماذا تعني؟ لقد قلّدتك تماماً". كان الصوت الثاني هو صوت كاليب.

"كلاّ لم تفعل".

"حسناً، أعد ذلك مجدّداً".

فتحتُ الباب في اللحظة التي كان فيها توبياس، الجالس على الأرض مادّاً إحدى ساقيه، يرمي سكّين الزبدة على الجدار المقابل. فانغرز نصلها في قطعة كبيرة من الجبن وضعاها على سطح المنضدة. وقف كاليب بالقرب منه وهو يحدّق غير مصدق، أوّلاً إلى الجبن، ومن ثمّ إليّ.

قال: "أخبرني أنّه معجزة فريدة من نوعها في جماعة الشجاعة. هل يمكنك فعل ذلك أنت أيضاً؟"

بدا بحال أفضل من ذي قبل. فعيناه لم تعد حمراوين، بل تألّقت فيهما شرارة الفضول القديمة، كما لو كان يهتمّ بالحياة من جديد. كان شعره البنّي مشعّثاً، وقميصه مزرّر بشكل خاطئ. أخي وسيم باستهتاره، كما لو كان لا يدري كيف يبدو مظهره معظم الوقت.

أجبت: "بيدي اليمنى، ربّما، لكن أجل، فور هو من معجزات جماعة الشجاعة. هل يمكنني أن أسأل *لماذا* ترميان السكاكين على الجبن؟"

التقت عينا توبياس بعينيّ وأنا ألفظ اسم فور. لم يكن كاليب يدري أنّ توبياس يحمل تفوّقه طوال الوقت في لقبه.

قال توبياس وهو يسند ظهره إلى الجدار وينظر إليّ: "أتى كاليب ليحدّثني بأمر، ثمّ بدأنا نرمي السكاكين بطريقة ما".

قلت وأنا أبتسم ببطء: "كما يحدث غالباً".

بدا في غاية الاسترخاء، برأسه المستند إلى الخلف، وذراعيه المتدلّيتين فوق ركبتيه. حدّقنا إلى بعضنا لبضع ثوان أخرى، بحيث تجاوزنا الحدّ المقبول اجتماعياً. فتنحنح كاليب.

قال وهو ينقل نظره بين توبياس وبيني: "على أيّ حال، عليّ العودة إلى غرفتي. فأنا أقرأ كتاباً حول أنظمة تنقية المياه. نظر إليّ الشابّ الذي أعطاني إيّاه كما لو كنتُ مجنوناً لرغبتي في قراءته. أعتقد أنّه دليل تصليح، لكنّه مثير للاهتمام". صمت قليلاً ثمّ أضاف: "المعذرة، لا بدّ أنّكما تعتقدان أنّني مجنون أنتما أيضاً".

أجاب توبياس ساخراً: "إطلاقاً. ربّما يجدر بك أنت أيضاً قراءة هذا الدليل، تريس. يبدو أنّه من الكتب التي تعجبك".

قال كاليب: "يمكنني أن أعيرك إيّاه".

"ربّما لاحقاً". عندما أغلق الباب خلفه، ألقيت نظرة قاسية على توبياس.

"شكراً لك، لن يكفّ الآن عن الحديث معي حول أنظمة تنقية المياة وكيفية عملها. مع أنّني أعتقد أنّني أفضّل ذلك عمّا يود أن يكلّمني عنه".

رفع توبياس حاجبيه متسائلاً: "حقّاً؟ وما هو؟ الزراعة المائية؟"

"ماذا؟"

"إنّها إحدى طرق الزراعة هنا. أنا واثق أنّك لا تريدين أن تعرفي".

قلت: "أنت محقّ، لا أريد أن أعرف. عمّ كنتما تتحدّثان؟"

"عنكِ. أعتقد أنّه أراد أن يلعب دور الأخ الأكبر: لا تعبث مع أختي، وما إلى ذلك". نهض واقفاً.

"وبم أجبته؟"

أتى نحوي.

قال: "أخبرته كيف تقرّبنا من بعضنا، وهنا أتت فكرة رمي السكّاكين، وقلت له إنّني لا أعبث معك".

أحسست بدفء يحيط بـي وهو يقترب منّي ويعانقني.

قال: "هذا ليس ما أتيتِ من أجله".

"كلاّ".

"لماذا أتيتِ إذاً؟"

"ومن يأبه؟"

"تريس"

"حسناً، حسناً". أغمضت عينيّ. لقد أتيت إلى هنا لأمر هامّ، لإخباره بالحديث الذي سمعته.

جلسنا جنباً إلى جنب على سرير توبياس، ورويت له ما جرى منذ البداية. قصصت عليه كيف تبعت ماركوس وجوانا إلى البستان. وذكرت سؤال جوانا عن توقيت الهجوم، وردّ ماركوس عليها، والجدال الذي تبع ذلك. في تلك الأثناء، راقبت تعابيره. لم تبدُ عليه آثار الصدمة أو الفضول، بل ظهر على فمه ذاك الالتواء المرير الذي يصاحب أيّ ذكر لماركوس.

سألته عندما انتهيت: "حسناً، ما رأيك؟"

قال بحذر: "أعتقد أنّ ماركوس يحاول أن يشعر أنّه أكثر أهمّية ممّا هو عليه".

لم يكن هذا الجواب الذي توقّعته.

"إذاً... ماذا؟ هل تظنّ أنّ كلامه مجرّد هراء؟"

"أعتقد أنّ جماعة نكران الذات تملك معلومات على الأرجح، وترغب جانين في معرفتها، لكن أظنّ أنّه يبالغ بأهمّيتها. أعتقد أنّه يحاول إرضاء غروره بإفهام جوانا أنّه يملك شيئاً تريده، وأنّه لن يعطيها إيّاه".

أجبته عابسة: "لا أظنّ... لا أظنّ ذلك، لم يكن يبدو أنّه يكذب".
"أنت لا تعرفينه بقدر ما أعرفه. إنّه أستاذ في الكذب".
صحيح، أنا لا أعرف ماركوس، وبالطبع ليس بقدره. لكنّ حدسي كان يدفعني إلى تصديق ماركوس، وأنا أثق بحدسي عادة.
قلت: "ربّما كنت محقّاً، لكن ألا يجدر بنا معرفة ما يجري؟ لمجرّد التأكّد على الأقلّ؟"
"أظنّ أنّ الأهمّ حاليّاً هو معالجة الوضع الحالي. علينا العودة إلى المدينة، لمعرفة ما يجري هناك. كما علينا إيجاد طريقة للإطاحة بجماعة المعرفة. بعد ذلك، يمكننا ربّما أن نكتشف ما كان يعنيه ماركوس، بعد حلّ كلّ هذه المشاكل. اتّفقنا؟"
هززت رأسي موافقة. تبدو الخطّة جيّدة وذكية، بيد أنّني لا أصدّقه، لا أعتقد أنّ المضي قدماً أهمّ من اكتشاف الحقيقة. فعندما اكتشفت أنّني جامحة... وعندما اكتشفت أنّ جماعة المعرفة تخطّط للهجوم على نكران الذات... غيّرت تلك الاكتشافات كلّ شيء. فالحقيقة لها أساليبها في تغيير كلّ المخطّطات.
من الصعب إقناع توبياس بفعل شيء لا يريده، والأصعب هو إثبات أحاسيس لا أملك أيّ دليل عليها باستثناء حدسي.
هكذا وافقت، غير أنّني لم أبدّل رأيي.

الفصل الرابع

قال كاليب: "التكنولوجيا الحيوية موجودة منذ زمن طويل، لكنّها لم تُثبت دائماً فاعليتها". وراح يتناول قطعة الخبز المحمّص، من النصف أوّلاً، كما اعتاد أن يفعل في صغره.

جلس أمامي في الكافتيريا، على الطاولة الأقرب إلى النوافذ. كان قد حُفر على طرف الطاولة الخشبية الحرفان "د" و"ت"، يربط بينهما قلب، وذلك في نقش صغير جدّاً، غير ظاهر تقريباً. مرّرت أصابعي فوق النقش، بينما كان كاليب يتحدّث.

"غير أنّ علماء المعرفة طوّروا هذا المحلول المعدني الفعّال للغاية منذ مدّة. وتبيّن أنّه أفضل من التراب في الزراعة. إنّه الشكل السابق لذاك المرهم الذي وضعوه على كتفك، فهو يعجّل نموّ الخلايا الجديدة".

كانت عيناه تشعّان بمعلومات جديدة. لم يكن كلّ أعضاء المعرفة متعطّشين إلى السلطة ومعدومي الضمير، مثل قائدتهم جانين ماثيوس. بعضهم مثل كاليب، يفتنهم كلّ شيء، ولا يشعرون بالرضى حتّى يعرفون كيفيّة عمله.

أسندت ذقني على يدي، وابتسمت له قليلاً. بدا متفائلاً هذا الصباح، وقد فرحت لأنّه وجد ما يصرفه عن حزنه.

سألته: "ثمّة تعاون بين جماعة المعرفة والوئام، إذاً؟"

"تجمعهما علاقة وثيقة لا يمكن أن نجدها بين المعرفة وأيّ جماعة أخرى. هذا مذكور في كتاب تاريخ الجماعات، ألا تذكرين؟ يطلقون عليهما اسم *الجماعتين الأساسيّتين*، فمن دونهما، لا يمكننا البقاء. وتطلق عليهما بعض نصوص المعرفة اسم *الجماعتين المثريتين*. ومن مهام المعرفة كجماعة هو أن تصبح على حدّ سواء أساسيّة ومثرية".

لم أفهم تماماً كم يحتاج مجتمعنا إلى وظيفة جماعة المعرفة. غير أنّهما أساسيّتان *بالفعل*، فمن دونهما لا تتوفّر زراعة منتجة، ولا علاجات طبّية كافية، ولا تقدّم تكنولوجي.

قضمت تفّاحتي.

سألني: "ألن تأكلي الخبز؟"

قلت: "يبدو طعمه غريباً. يمكنك تناوله إن أردت".

قال وهو يأخذ قطعة الخبز من طبقي: "أنا مندهش كيف يعيشون هنا. فهم يتمتّعون تماماً بالاكتفاء الذاتي. لديهم مصادر الطاقة الخاصّة بهم، ومضخّات المياه، ونظام تنقية المياه، وموارد الغذاء... إنّهم مستقلّون".

قلت: "مستقلّون ولا يتدخّلون بشيء. لا بدّ أنّ هذا جميل".

هذا جميل *بالفعل*، على ما يبدو. كان ضوء الشمس يتسلّل من النوافذ الكبيرة بالقرب من طاولتنا، بحيث شعرت أنّني جالسة في الخارج. جلست مجموعات من أعضاء الوئام على الطاولات الأخرى، وبدت ملابسهم زاهية فوق بشرتهم السمراء. أمّا عليّ، فقد بدا الأصفر باهتاً.

قال مبتسماً: "أفهم إذاً أنّ الوئام ليست من الجماعات التي كنتِ مؤهلة للانضمام إليها".

"كلاّ". انفجرَت مجموعة الوئام الجالسة على بعد عدّة مقاعد منّا بالضحك. في الواقع، لم يكلّفوا أنفسهم عناء النظر باتّجاهنا منذ أن جلسنا لتناول الطعام. "أبقِ صوتك منخفضاً، اتّفقنا؟ هذا ليس من الأمور التي أودّ نشرها".

انحنى فوق الطاولة لكي نتكلّم بصوت منخفض، وقال: "المعذرة. ما كانت إذاً؟"

شعرت بالتوتّر، وتصلّب جسدي. "لماذا تريد أن تعرف؟"

"تريس، أنا أخوك. يمكنك إخباري بأيّ شيء".

لم يُبعد عنّي نظرَ عينيه الخضراوين. كان قد تخلّى عن نظّارته غير المجدية التي وضعها لمجرّد انتمائه إلى المعرفة، لصالح قميص رمادي عائد لنكران الذات، وقصّة الشعر القصيرة التي تميّز أعضاءها. بدا تماماً مثلما كان منذ بضعة أشهر، حين كنّا نعيش في منـزل واحد، وكلّ منّا يفكّر بتغيير جماعته من دون أن يملك الشجاعة الكافية لإخبار الآخر. كان عدم الثقة به بما فيه الكفاية لإخباره خطأً لا أودّ تكراره.

قلت: "نكران الذات، والشجاعة، والمعرفة".

رفع حاجبيه بتعجّب: "*ثلاث* جماعات؟"

"أجل، لماذا؟"

"هذا كثير. كان يتحتّم على كلّ منّا اختيار موضوع للبحث في فترة التلقين في جماعة المعرفة، وكان موضوعي هو المحاكاة في اختبار الجدارة. لهذا السبب أعرف الكثير عن طريقة تصميمه. من الصعب جدّاً على الشخص أن يحصل على نتيجتين، فالبرنامج لا يسمح بذلك. لهذا السبب، لا أعرف كيف يمكن أن تحصلي على *ثلاثة*".

قلت: "في الواقع، اضطرّت المسؤولة عن الاختبار إلى تعديله. وحاولَت جعله يذهب في هذا الاتّجاه في مشهد الباص لكي تتمكّن من استبعاد المعرفة، إلاّ أنّها لم تستطع".

أسند كاليب ذقنه على قبضة يده قائلاً: "لقد تجاوزَت البرنامج. أتساءل كيف استطاعت المسؤولة عن الاختبار فعل ذلك، فهذا شيء لا نتعلّمه".

عبستُ مفكّرة. كانت توري فنّانة أوشام، ومتطوّعة لإجراء اختبارات الجدارة. من أين عرفَت كيفيّة تعديل برنامج اختبار الجدارة؟ إن كانت

ماهرة في استخدام أجهزة الكمبيوتر، فهذه مجرّد هواية، وأشكّ أن تسمح هذه الهواية لشخص ما بالعبث بنظام المحاكاة الذي ابتكرته جماعة المعرفة.

ثمّ تذكّرت شيئاً قالته مرّة في أحد أحاديثنا. *انتقلنا أنا وأخي من جماعة المعرفة.*

قلت: "كانت تنتمي إلى المعرفة. ربّما هذا هو السبب".

"ربّما". راح يطرق بأصابعه على خدّه، من اليسار إلى اليمين، يفصل بيننا طعام الإفطار الذي نسيناه تقريباً. "وماذا يعني هذا بالنسبة إلى كيميائك الدماغية؟ أو علم التشريح؟"

ضحكت قليلاً. "لا أدري. كلّ ما أعرفه أنّني أكون واعية تماماً خلال جلسات المحاكاة، وفي بعض الأحيان يمكنني أن أوقظ نفسي. حتّى إنّها لا تعمل أحياناً، مثل محاكاة الهجوم".

"وكيف توقظين نفسك؟ ماذا تفعلين؟"

"أنا..." حاولت أن أتذكّر. أحسست كما لو أنّ وقتاً طويلاً مضى منذ أن مررت بإحداها، مع أنّه لم يمضِ أكثر من بضعة أسابيع. "تصعب عليّ الإجابة، لأنّ محاكاة الشجاعة يفترض أن تنتهي عندما نهدأ. لكن في إحدى الجلسات... تلك التي اكتشف توبياس حقيقتي فيها... فعلتُ أمراً مستحيلاً. فقد كسرت الزجاج بمجرّد وضع يدي عليه".

سرح كاليب بأفكاره، كمن ينظر بعيداً. أعرف أنّ كلّ هذا لم يحدث معه في محاكاة اختبار الجدارة. لذلك، ربّما كان يتساءل كيف يبدو، أو كيف يمكن أن يحدث. أحسست بحرارة في خدّيّ، فهو يحلّل دماغي كما يحلّل جهاز كمبيوتر أو آلة.

قلت: "مهلاً، عد إلى هنا".

قال وهو يعيد تركيزه عليّ: "آسف، فهذا..."

"مذهل، أجل، أعرف. تبدو دائماً أنّك خرجت من هذا العالم عندما يذهلك أمر ما".

أضحكه كلامي.

سألته: "هل يمكننا تغيير الموضوع؟ قد لا يكون ثمّة خونة من المعرفة أو الشجاعة في الجوار، لكن ما زلت أتجنّب الحديث عن هذا الموضوع علناً".

"حسناً".

قبل أن نواصل الحديث، فُتح باب الكافيتريا، ودخلت مجموعة من أعضاء نكران الذات. كانوا يرتدون ملابس الوئام، مثلي. ولكن مثلي أيضاً، كانت حقيقة انتمائهم واضحة. فهم صامتون، لكنّهم غير كئيبين، بل ابتسموا لأعضاء الوئام وهم يمرّون بهم، وأحنوا رؤوسهم، حتّى إنّ بعضهم توقّف لتبادل المجاملات.

جلست سوزان بالقرب من كاليب وهي تبتسم. كان شعرها مشدوداً إلى الخلف في عقدته المعتادة، غير أنّه كان يلمع كالذهب. جلست هي وكاليب على مسافة أقرب بقليل ممّا يفعل الأصدقاء، مع أنّهما لم يتلامسا. هزّت رأسها لتحيّتي وقالت: "أنا آسفة، هل قاطعتكما؟"

أجابها كاليب: "كلاّ. كيف حالك؟"

"بخير، وأنت؟"

كنت على وشك الفرار من قاعة الطعام عوضاً عن المشاركة في حديث متأنٍّ ومهذّب من أحاديث نكران الذات عندما دخل توبياس، وبدا عليه الضيق. لا بدّ أنّه كان يعمل في المطبخ هذا الصباح، كجزء من اتّفاقنا مع الوئام. أمّا أنا، فيتوجّب عليّ العمل في غرف الغسيل غداً.

سألته وهو يجلس بالقرب منّي: "ماذا جرى؟"

"في سعي جماعة الوئام إلى حلّ النـزاع، نسيت على ما يبدو أنّ التدخّل يولّد مزيداً من المشاكل. إن بقينا هنا أكثر من ذلك، سأضرب أحدهم، وهذا لن يسرّ أحداً".

رفع كلّ من كاليب وسوزان حاجبيهما باستغراب. كما توقّف عدد من أعضاء الوئام الجالسين على الطاولة المجاورة عن الكلام، ونظروا إلينا.

قال لهم توبياس: "هل سمعتم؟" فحوّل الجميع أنظارهم عنّا.

وضعت يدي على فمي لإخفاء ابتسامتي."كما قلت، ماذا جرى؟"

"أخبرك لاحقاً".

لا بدّ أن للأمر علاقة بماركوس. فتوبياس لا يحبّ نظرات الريبة التي يوجّهها إليه أعضاء نكران الذات عندما يتحدّث بقسوة عن ماركوس، وسوزان جالسة أمامنا. وضعت يديّ على حضني.

جلس عدد من أعضاء نكران الذات على طاولتنا، لكن ليس إلى جانبنا تماماً، بل على بعد مقعدين، احتراماً، مع أنّ معظمهم أومأوا بالتحّية. كانوا من أصدقاء وجيران أسرتي، ومن زملاء والديّ في العمل. في السابق، كان وجودهم يشجّعني على الصمت وعدم الظهور. أمّا الآن، فقد جعلني أرغب في التحدّث بصوت أعلى، والابتعاد قدر الإمكان عن هويتي القديمة والألم الذي يرافقها.

تصلّب توبياس تماماً عندما وضع أحدهم يده على كتفي الأيمن، مسبّباً الألم لذراعي. فشددت على أسناني لكي أحبس الأنين.

قال توبياس من دون أن ينظر إلى الرجل الواقف خلفي: "إنّها مصابة في كتفها".

"أنا آسف". رفع ماركوس يده وجلس إلى يساري. "مرحباً".

سألته: "ماذا تريد؟"

قالت سوزان بهدوء: "بياتريس، لا داعي-"

قاطعها كاليب بهدوء: "رجاءً، سوزان". فضغطت على شفتيها، ونظرت بعيداً.

نظرتُ إلى ماركوس عابسة: "طرحتُ عليك سؤالاً".

قال: "أودّ مناقشة مسألة معكم". بدا تعبيره هادئاً، غير أنّه كان غاضباً، فتوتُّر صوته يخونه. "تناقشتُ مع بقيّة أعضاء نكران الذات بهذا الأمر، وقرّرنا الرحيل. فبما أنّ الصراع سيستمرّ حتماً في مدينتنا، من الأنانية أن نمكث هنا في حين أنّ من تبقّى من جماعتنا ما زالوا داخل ذلك السياج. ونودّ أن نطلب منكم مرافقتنا".

لم أتوقّع ذلك. لماذا يريد ماركوس العودة إلى المدينة؟ هل هو فعلاً مجرّد قرار اتّخذته الجماعة، أم أنّه ينوي فعل شيء، شيء يتعلّق بالمعلومات التي تملكها نكران الذات؟

حدّقتُ إليه لبضع ثوانٍ، ثمّ نظرت إلى توبياس. كان قد استرخى قليلاً، لكنّ نظره ما زال مثبّتاً على الطاولة. لا أعرف لماذا يتصرّف بهذا الشكل بوجود أبيه. لا أحد، ولا حتّى جانين، يخيف توبياس.

سألته: "ما رأيك؟"

قال توبياس: "أظنّ أنّ علينا الرحيل بعد غد".

قال ماركوس: "حسناً، شكراً". ثمّ نهض وجلس على الطرف الآخر من الطاولة، مع بقيّة أعضاء الجماعة.

اقتربت من توبياس، غير واثقة كيف أطمئنه من دون أن أجعل الأمور أسوأ. حملت تفّاحتي بيدي اليسرى، وأمسكت يده من تحت الطاولة بيدي اليمنى.

مع ذلك، لم أستطع تحويل نظري عن ماركوس. أودّ أن أعرف المزيد عمّا قاله لجوانا. وفي بعض الأحيان، إن أردتَ الحقيقة، عليك أن تطلبها.

الفصل الخامس

بعد الإفطار، قلت لتوبياس إنّني ذاهبة في نـزهة، لكنّني تعقّبت ماركوس عوضاً عن ذلك. توقّعت منه الذهاب إلى عنبر الضيوف، إلاّ أنّه عبَر الحقل الواقع خلف قاعة الطعام، ودخل مبنى تنقية المياه. تردّدت على الدرجة السفلية. هل أريد حقّاً فعل ذلك؟

ارتقيت الدرجات، وعبرت الباب الذي أغلقه ماركوس خلفه للتوّ. كان مبنى تنقية المياه صغيراً، مؤلّفاً من غرفة واحدة تحتوي على عدد من الآلات الضخمة. بحسب ما يبدو، كانت الآلات تستقبل المياه القذرة الآتية من بقيّة المجمّع، منها ما يعمل على تنقيتها، ومنها ما يحلّلها، بينما تضخّ المجموعة الأخيرة المياه النظيفة إلى المجمّع. وكانت كلّ الأنابيب مخفية تحت الأرض، ما عدا أنبوب واحد يمتدّ فوق الأرض لإيصال المياه إلى محطّة توليد الطاقة، بالقرب من السياج. كانت المحطّة تزوّد المدينة بأكملها بالطاقة، مستخدمة مزيجاً من الرياح، والمياه، والطاقة الشمسية.

وقف ماركوس بالقرب من مصافي المياه. كانت الأنابيب شفّافة، بحيث تمكّنتُ من رؤية المياه المشوبة باللون البنّي التي تمرّ عبر الأنبوب، لتختفي في الآلة، ثمّ تخرج صافية. وقف كلّ منّا يشاهد عمليّة التنقية، وتساءلتُ ما إذا كان يفكّر بما أفكّر فيه، أي أنّ الحياة ستكون رائعة لو أنّها تجري بهذه الطريقة، تُخرج القذارة من حياتنا، وترسلنا إلى العالَم نظيفين. إلاّ أنّ بعض الأوساخ مقدّر لها البقاء.

حدّقت إلى ظهر ماركوس. لا بدّ لي من فعل ذلك الآن.

الآن.

فاجأته قائلة: "سمعتك، في ذلك اليوم".

التفت ماركوس بسرعة. "ماذا تفعلين، بياتريس؟"

كتفت ذراعَيّ مجيبة: "لقد تبعتك إلى هنا. سمعتك تتحدّث مع جوانا عن دوافع هجوم جانين على نكران الذات".

"وهل علّمك أبناء الشجاعة أنّه من اللائق اقتحام خصوصية الآخرين، أم تعلّمته بنفسك؟"

"أنا فضولية بطبعي، لا تغيّر الموضوع".

كان جبين ماركوس مجعّداً، لا سيّما بين حاجبيه، وكان فمه محاطاً بخطوط عميقة. بدا مثل رجل أمضى حياته في العبوس. ربّما كان وسيماً في شبابه، وربّما ما زال كذلك بالنسبة إلى نساء جيله، مثل جوانا، لكن كلّ ما أراه عندما أنظر إليه هو حفرتين سوداوين مكان عينيه، كما بدا في مشهد خوف توبياس.

"إن كنت قد سمعتني أتحدّث مع جوانا، فأنت تعرفين إذاً أنّني لم أخبرها حتّى هي بذلك. ما الذي يجعلك تعتقدين إذاً أنني سأكشف المعلومات لك *أنت*".

لم أجد جواباً في البداية. لكنّني قلت بعد قليل: "لقد... لقد مات أبـي". كانت تلك هي المرّة الأولى التي أقولها بعدما أخبرت توبياس، على متن القطار بوفاة أبويّ. كانت تلك الحقيقة في ذلك الوقت مجرّد خبر بالنسبة إليّ، منفصلة عن أيّ عاطفة. إلاّ أنّها الآن فاجأتني مثل ضربة مطرقة على صدري، وهي تختلط مع الضوضاء المحتدمة في الغرفة. فأيقظت وحش الحزن، الذي أنشب مخالبه في عينيّ وحلقي.

أجبرت نفسي على المتابعة.

قلت: "ربّما لم يمت فعلاً في سبيل المعلومات التي تحدّثت عنها، لكن أريد أن أعرف ما إذا كان قد خاطر بحياته من أجلها".

تشنّج فم ماركوس. قال: "بلى، لقد فعل".

امتلأت عيناي بالدموع، فقاومت البكاء.

قلت وأنا أختنق تقريباً: "حسناً، إذاً ما كان ذلك؟ هل كانت معلومات تحاول حمايتها؟ أم سرقتها؟ أم ماذا؟"

"كانت..." هزّ ماركوس رأسه. "لن أخبرك بذلك".

تقدّمت نحوه. "لكنّك تريد استعادتها، وهي موجودة لدى جانين".

ماركوس هو *بالفعل* كاذب بارع، أو على الأقلّ ماهر في إخفاء الأسرار. لم يصدر عنه أيّ ردّ فعل. أتمنّى لو كنت أستطيع أن أرى مثل جوانا، مثل جماعة النـزاهة، أتمنّى لو كنت أستطيع قراءة تعابيره. قد يكون على وشك البوح لي بالحقيقة. ربّما لو ضغطت عليه بما فيه الكفاية، سينهار.

قلت: "قد أتمكّن من مساعدتك".

التوت شفة ماركوس العليا. قال كما لو كان يبصق الكلمات في وجهي: "ليس لديك أيّ فكرة كم يبدو هذا سخيفاً. ربّما نجحتِ في إيقاف هجوم المحاكاة، أيّتها الفتاة، لكن بفضل الحظّ وحده، وليس المهارة. سأموت من شدّة الصدمة إن تمكّنتِ من فعل شيء مفيد مرّة أخرى قبل زمن طويل".

هذا هو ماركوس الذي يعرفه توبياس. إنّه الشخص الذي يعرف تماماً أين يضرب ليسبّب أكبر قدر من الضرر.

ارتعد جسدي من شدّة الغضب. "توبياس على حقّ. أنت لست سوى رجل حقير متغطرس وكاذب".

رفع ماركوس حاجبيه. "هل قال ذلك؟"

"كلاّ. هو لا يذكرك بما فيه الكفاية لقول أيّ شيء من هذا القبيل. أنا عرفت بمفردي". شددت على أسناني متابعة: "أنت لا شيء تقريباً بالنسبة إليه. ومع الوقت، أهمّيتك تتضاءل".

لم يجبني ماركوس، بل التفت إلى نظام تنقية المياه. وقفت للحظة أتلذّذ بانتصاري، واختلط صوت المياه المتدفّقة مع نبضات قلبـي في أذنيّ. غادرت المبنى، ووصلت إلى منتصف الطريق عبر الحقل قبل أن أدرك أنّني لم أفز، بل ماركوس هو الذي فاز.

أيّاً تكن الحقيقة، عليّ إيجادها في مكان آخر، لأنّني لن أسأله مجدّداً.

* * *

حلمت في تلك الليلة أنّني في حقل، وأنّني أواجه سرباً من الغربان المتجمّعة على الأرض. عندما كششت عدداً منها، أدركت أنّها تحوم فوق رجل، وتنقر ملابسه الرمادية التي تنتمي إلى نكران الذات. طارت الغربان فجأة، من دون سابق إنذار، وأدركت أنّ الرجل هو ويل.

ثمّ استفقت.

دفنت وجهي في الوسادة، وأصدرت، عوضاً عن اسمه، شهقة زلزلت جسدي. شعرت بوحش الحزن مجدّداً، يتلوّى في الفراغ الذي كان يحتلّه قلبـي ومعدتي.

رحت أشهق وأنا أضغط يديّ على صدري، بينما أطبق ذاك الإحساس الوحشي بمخالبه على حلقي، وشدّ على مجرى الهواء. جلست، ووضعت رأسي بين ركبتيّ، ثمّ رحت أتنفّس إلى أن زال عنّي شعور الاختناق.

ارتعشت على الرغم من حرارة الجوّ. فخرجت من السرير، وتسلّلت عبر الرواق نحو غرفة توبياس. أضاءت ساقاي العاريتان تقريباً في الظلام. صدر عن بابه صرير وأنا أفتحه، وكان عالياً بما فيه الكفاية لإيقاظه.

حدّق إليّ للحظة، ثمّ قال: "ادخلي"، وبدا صوته نعساً. ثمّ تراجع قليلاً، وأفسح لي مكاناً على سريره.

كان عليّ التفكير بذلك. فأنا أنام بقميص قطني طويل أعارتني إيّاه جماعة الوئام. كان طوله يتجاوز ردفي بالكاد، ولم أفكّر بارتداء سروال قصير قبل المجيء. تمدّدت واستدرت نحوه.

سألني: "هل رأيت حلماً مزعجاً؟"

أومأت برأسي.

"ماذا جرى؟"

هززت رأسي، رافضة إخباره أنّني أرى كوابيس عن ويل، وإلاّ سيتحتّم عليّ أن أشرح السبب. ماذا سيكون رأيه بـي، إن عرف بما فعلت؟ كيف ستصبح نظرته لي؟

أبقى يده على خدّي.

قال: "نحن على خير ما يرام، كما تعلمين. أعني أنا وأنت".

شعرت بألم في صدري، وهززت رأسي موافقة.

همس مضيفاً: "لا شيء آخر على خير ما يرام، فقط نحن".

"توبياس".

عصفت الأفكار العصبية برأسي، لكنّ كلّ أجزائي الباقية كانت تعرف ما تفعله تماماً، لأنّها نبضت كلّها بالوتيرة نفسها، وأرادن الشيء نفسه، ألا وهو الهرب من نفسها لتصبح جزءاً منه.

مرّت أصابعه عرضاً على ضمادة كتفين فشعرت بألم مفاجئ. لم يكن الألم مبرحاً، غير أنّه أعادني إلى الواقع. لا يمكنني أن أكون معه بهذه الطريقة ما دام السبب هو رغبتي في صرف ذهني عن الحزن.

بقيت مستلقية للحظة. لم أكن أنوي البكاء، فالوقت ليس مناسباً. كلان ينبغي أن أتوقّف، لكنّني لم أستطع أبعاد الدموع عن عينيّ، مهما رففتهما.

قلت: "أنا آسفة".

قال بكآبة تقريباً: "لا تعتذري"، ومسح الدموع عن خدّيّ.

أعلم أنّني كالعصافير، خلقت نحيلة وقصيرة القامة لأتمكّن من الطيران، مع بنية مستقيمة وهشّة. لكن عندما يلمسني كما لو أنّه لا يحتمل إبعاد يده عنّي، لا أتمنّى أن أكون مختلفة.

قلت بصوت متهدّج: "لا أودّ أن أكون بهذا الضعف، لكنّني أشعر أنّني في غاية..." ورحت أهزّ رأسي.

قال: "أنت مخطئة. لا يهمّ ما إذا كان والداك في مكان أفضل، فهما ليسا معك، وهذا *خاطئ*، تريس. ما كان يجب أن يحدث. ما كان يجب أن يحدث لك، وكلّ من يقول إنّ كلّ شيء على ما يرام هو كاذب".

شهقتُ مجدّداً، فأحاطني بذراعيه بقوّة حتّى شعرت بصعوبة في التنفّس، لكن لا يهمّ ذلك. تحوّل بكائي المتحفّظ إلى نحيب بشع، بفم مفتوح، ووجه متشنّج، وبدا كأنّ حيواناً محتضراً يخرج من حلقي. إن استمرّ ذلك، سأنهار، وقد يكون هذا أفضل. ربّما من الأفضل أن أتحطّم ليرتاح كاهلي من كلّ هذه الهموم.

بقي توبياس صامتاً لمدّة طويلة، إلى أن هدأت مجدّداً.

قال: "نامي. وإن راودتك أحلام سيّئة، سأحاربها".

"بماذا؟"

"بيديّ، طبعاً".

أحطت خصره بذراعي، وأخذت نفساً عميقاً. كان عطره خليط من رائحة العرق والهواء العذب والنعناع، المنبعث من المرهم الذي

يستخدمه أحياناً لتدليك عضلاته. أشعرتني رائحته بالأمان أيضاً، مثل النـزهات في البستان الغارق بأشعّة الشمس، ووجبات الإفطار الصامتة في قاعة الطعام. وفي اللحظات التي سبقت استغراقي في النوم، نسيت تقريباً مدينتنا التي تمزّقها الحرب، وكلّ الصراع الذي سيلحق بنا إن لم نبحث عنه نحن أوّلاً.

قبل أن أستغرق في النوم، سمعته يهمس: "أحبّك، تريس". وربّما كنت لأجيبه بالمثل، لو لم يغلبني النوم.

الفصل السادس

استيقظت في ذلك الصباح على صوت آلة الحلاقة. وقف توبياس أمام المرآة، وأمال رأسه لكي يتمكّن من رؤية زاوية فكّه.

احتضنت ركبتيّ المغطّاتين بالملاءة، ورحت أراقبه.

قال: "صباح الخير، هل نمت جيّداً؟"

"أجل". نهضت من السرير، وبينما كان يرجع رأسه إلى الخلف ليحلق ذقنه، أحطته بذراعيّ، وضغطت جبيني على ظهره، في المكان الذي بدت فيه أوشام الشجاعة من تحت قميصه.

وضع آلة الحلاقة، وغطّى يديّ بيديه. لم يكسر أيّ منّا الصمت. أصغيت إليه وهو يتنفّس، ويمرّر يده فوق أصابعي، وقد نسي ما كان يفعله.

قلت بعد قليل: "عليّ الذهاب للاستعداد". لم أكن راغبة في الذهاب، لكن يجب أن أعمل في الغسيل، ولا أريد لجماعة الوئام أن يقولوا إنّني لم أنفّذ جانبـي من الصفقة التي عرضوها علينا.

قال: "سأعطيك شيئاً تلبسينه".

مشيت حافية في الرواق بعد بضع دقائق، وأنا أرتدي القميص الذي نمت به، وسروالاً قصيراً استعاره توبياس من جماعة الوئام. عندما عدت إلى غرفتي، وجدت بيتر واقفاً بالقرب من سريري.

تصلّبت تلقائياً، وبحثت في الغرفة عن آلة حادّة.

قلت بصوت ثابت قدر الإمكان: "اخرج". لكن كان من الصعب أن أمنع صوتي من الارتجاف. فقد تذكّرت غصباً عنّي نظرة عينيه وهو يحملني فوق النهر أو يدفعني على الجدار في مجمّع الشجاعة.

التفت نحوي. مؤخّراً أصبح ينظر إليّ من دون مكره المعتاد، ويبدو عوضاً عن ذلك منهكاً، ومتراخي الجسد، بيده المعلّقة بالرباط. غير أنّني لن أنخدع بسهولة.

"ماذا تفعل في غرفتي؟"

اقترب منّي قائلاً: "لماذا تطاردين ماركوس؟ رأيتك البارحة بعد الإفطار".

حدّقت إليه مجيبة: "هذا ليس من شأنك، اخرج من هنا".

"أنا هنا لأنّني لا أعرف لماذا تحتفظين بذلك القرص الصلب. لا يبدو عليك أنّك متوازنة تماماً هذه الأيّام".

ضحكت قائلة: " *أنا* غير متوازنة؟ أجد هذا الكلام مضحكاً بعض الشيء، وهو يخرج من فمك".

شدّ بيتر على شفتيه، من دون أن يقول شيئاً.

ضاقت عيناي، وأنا أسأله: "بماذا يهمّك القرص الصلب على أيّ حال؟"

"أنا لست غبياً. أعرف أنّه يحتوي على أكثر من بيانات المحاكاة".

"كلاّ، أنت لست غبياً. تظنّ أنّك إن سلّمته إلى المعرفة، سيغفرون لك سلوكك الطائش، ويعيدونك إلى حظيرتهم".

قال وهو يقترب مجدّداً: "لا أريد العودة إلى حظيرتهم، وإلاّ لما ساعدتك في مجمّع الشجاعة".

وكزت مرفقه بسبّابتي، وضغطت عليه بظفري. "لقد ساعدتني لأنّك لم تشأ أن أطلق النار عليك مرّة أخرى".

فأمسك بإصبعي، قائلاً: "قد لا أكون خائناً لجماعة محبّة لنكران الذات، لكنّني لا أحبّ الخضوع لسيطرة أحد، لا سيّما المعرفة".

أرجعت يدي إلى الخلف، لأبعدها عن قبضته. كانت يداي متعرّقتين.

"لا أتوقع منك أن تفهم". مسحت يديّ بطرف قميصي، وأنا أقترب من المنضدة. "أنا واثقة لو أنّ كانت جماعة النـزاهة هي التي تعرّضت للهجوم عوضاً عن نكران الذات، لتركتَ أسرتك تُقتل من دون اعتراض. غير أنّني لست كذلك".

"حذاري ممّا تقولينه عن أسرتي، أيّتها المتزمّتة".

اقترب منّي، لكنّني تحرّكت بحذر بحيث وقفت بينه وبين الأدراج. لن أكشف مكان القرص الصلب بإخراجه في أثناء وجوده، لكنّني لا أريد أن أترك الطريق إليه خالياً.

تحوّل نظره إلى المنضدة خلفي، إلى الطرف الأيسر، الذي خبّأت فيه القرص الصلب. فعبست، ثمّ لاحظت أمراً لم أنتبه إليه من قبل: انتفاخ بسيط في أحد جيوبه.

قلت: "أعطني إيّاه حالاً".

"كلاّ".

"أعطني إيّاه وإلاّ سأقتلك وأنت نائم".

ابتسم بخبث. "أتمنّى لو ترين كم تبدين مضحكة وأنت تهدّدين الناس. أنت مثل فتاة صغيرة تقول لي إنّها ستخنقني بالحبل الذي تقفز عليه".

بدأت أقترب منه، فتراجع نحو الرواق.

"لا تدعوني *فتاة صغيرة*".

"سأدعوك بما أشاء".

تحرّكت على الفور، ووجهت لكمة بيدي اليسرى إلى نقطة ضعفه: الجرح الذي خلّفته الرصاصة في ذراعه. أفلت من الضربة، لكن عوضاً عن

المحاولة مجدّداً، أمسكت بذراعه بقوّة، وشددتها جانباً. صاح بيتر بملء رئتيه، وقبل أن يدرك ما يجري، ركلته على ركبته، فسقط أرضاً.

هُرع الناس إلينا، بملابسهم الرمادية، والسوداء، والصفراء، والحمراء. اندفع بيتر نحوي، وهو منحنٍ، ولكمني على بطني. فانحنيت، لكنّ الألم لم يوقفني، بل أطلقت صوتاً يتراوح بين الأنين والصراخ، واندفعت نحوه رافعة مرفقي الأيسر نحو فمي لكي أضربه في وجهه. أمسك بـي أحد أعضاء الوئام من ذراعيّ، وأبعدني عن بيتر. فشعرت بالألم في كتفي المصاب، لكنّني لم آبه من شدّة الغضب. اندفعت نحوه، وحاولت أن أتجاهل الوجوه المصدومة لأعضاء الوئام، ونكران الذات، وتوبياس، من حولي. في حين ركعت امرأة بالقرب من بيتر، وهي تهمس له بكلمات مطمئنة. حاولت أن أتجاهل أنينه وشعور الذنب الذي قلّص معدتي. أنا أكرهه، ولا يهمّني شيء. أكرهه.

قال توبياس: "تريس، اهدئي!"

فصرخت: "لقد أخذ القرص الصلب! سرقه منّي! إنّه معه".

اقترب توبياس من بيتر، وتجاهل المرأة المنحنية بقربه، ثمّ ضغط بقدمه على صدر بيتر لتثبيته. بعد ذلك، مدّ يده إلى جيب بيتر، وأخرج القرص الصلب.

قال له توبياس بهدوء: "لن نبقى مختبئين إلى الأبد، ولم يكن هذا التصرّف ذكياً من جانبك". ثمّ التفت إليّ مضيفاً: "ولا من جانبك أنت أيضاً. هل تريدان أن نتعرّض للطرد؟"

عبست، بينما أخذ الرجل التابع إلى الوئام يجرّمي عبر الممرّ. حاولت أن أتخلّص من قبضته.

"ماذا تظنّ أنّك فاعل؟ دعني وشأني!"

قال بلطف: "لقد انتهكت بنود اتّفاق السلام، وعلينا اتّباع البروتوكول".

قال توبياس: "اذهبـي معه، أنت بحاجة إلى تبريد أعصابك".

نظرت إلى وجوه المجتمعين. لم يعارض أحد منهم توبياس. نظروا إليّ بينما تركت أعضاء الوئام يرافقونني عبر الممرّ.

قال أحدهم: "انتبهي، الأرض غير مستوية هنا".

أخذ رأسي يضجّ، في إشارة إلى أنّني بدأت اهدأ. فتح الرجل التابع إلى الوئام، الذي بدأ الشيب يغزو رأسه، باباً إلى يساري. كان ثمّة ملصق على الباب كُتب عليه غرفة النـزاع.

عبست وسألته: "هل هذا مكان للاستراحة أم ماذا؟" هذا أمر قد تفعله جماعة الوئام: يحبسونني لأستريح، ثمّ يعلّمونني كيفيّة التنفّس للاسترخاء أو التفكير بإيجابية.

كانت الغرفة مشرقة بحيث أغمضت عينيّ نصف إغماضة لأتمكّن من الرؤية. أطلّت نوافذ كبيرة في الجدار المقابل على البستان. على الرغم من ذلك، بدت الغرفة صغيرة، وذلك على الأرجح بسبب السقف المكسوّ بالألواح الخشبية، شأنه شأن الجدران والأرضية.

قال الرجل الكهل، مشيراً إلى مقعد في وسط الغرفة: "اجلسي من فضلك". كان المقعد مصنوعاً من الخشب غير المصقول، على غرار كلّ المفروشات في مجمّع الوئام، وبدا متيناً، كما لو كان لا يزال مزروعاً في الأرض. لم أجلس.

قلت: "لقد انتهى الشجار، ولن أكرّر ذلك مجدّداً، ليس هنا".

قال الرجل الأصغر سنّاً: "علينا احترام البروتوكول. اجلسي رجاءً، وسنناقش ما جرى، ثمّ نسمح لك بالخروج".

كانا يتحدّثان بصوت ناعم. لا يهمسان، مثلما يتحدّث أعضاء نكران الذات، الذين يسيرون دائماً بهدوء، ويحاولون عدم التسبّب بالإزعاج. كان صوتهما منخفضاً، ولطيفاً، فتساءلتُ ما إذا كانوا يعلّمون هذا الشيء للمبتدئين هنا، أي أفضل السبل للكلام، والمشي، والابتسام، والتشجيع على السلام.

جلست رغماً عنّي على طرف الكرسي حتّى أتمكّن من النهوض بسرعة، إن لزم الأمر. وقف الرجل الأصغر سنّاً أمامي، في حين تعالى صرير من خلفي. نظرت إلى الخلف، فرأيت الرجل الأكبر سنّاً، مشغولاً بشيء ما على المنضدة.

"ماذا تفعل؟"

أجاب: "أحضّر الشاي".

"لا أظنّ أنّ الشاي هو الحلّ".

قال الشابّ مبتسماً، وهو يعيد انتباهي نحو النافذة: "أخبرينا إذاً، ما هو الحلّ برأيك؟"

"طرد بيتر من هذا المجمّع".

قال الرجل بلطف: "يبدو لي أنّك أنت من هاجمه. في الواقع، أنت من أطلق عليه النار".

"لا فكرة لديك عمّا فعله ليستحقّ ذلك". احمرّت وجنتاي مجدّداً، وتسارعت نبضات قلبـي. "لقد حاول قتلنا أنا وشخص آخر. طعنه في عينه... بسكّين *الزبدة*. إنّه شرّير، ولديّ كلّ *الحقّ*-"

شعرت فجأة بألم حادّ في عنقي. ثمّ ظهرت بقع سوداء أمامي، وحجبت رؤيتي.

قال: "أنا آسف، يا عزيزتي. نحن نتبع البروتوكول وحسب".

كان الرجل الأكبر سناً يحمل حقنة ما زالت تحتوي على بضع قطرات من ذاك الشيء الذي حقنني به. كان لون المحلول أخضر، بلون العشب. رففت عينيّ، فاختفت البقع السوداء، لكنّ العالم ما زال يسبح أمامي كما لو كنت أتأرجح إلى الأمام والخلف في كرسيّ هزّاز.

قال الرجل الأصغر سنّاً: "كيف حالك الآن؟"

"أشعر..." كنت على وشك أن أقول: بالغضب، الغضب على بيتر، وعلى جماعة الوئام. *لكنّ هذا ليس صحيحاً* . لذا، ابتسمت مجيبة: "أنا بخير، أشعر قليلاً كما لو كنت... أعوم، أو أتأرجح. *وأنت*، كيف حالك؟"

"الدوار هو أحد الآثار الجانبية لهذا المصل، لذلك، من المستحسن أن تستريحي بقيّة هذا اليوم. وأنا بخير، شكراً على السؤال. يمكنك الذهاب الآن، إن شئت".

سألته: "هل تعرف أين أجد توبياس؟" عندما أتخيّل وجهه، أفيض شوقاً إليه، وأشعر بالرغبة في رؤيته. "أعني، فور. إنّه وسيم، أليس كذلك؟ لا أعرف حقّاً ما يعجبه بـي. أنا لست جذّابة جدّاً، أليس كذلك؟"

أجاب الرجل: "في معظم الوقت، كلاّ. لكن أظنّ أنّ بمقدورك ذلك، إن حاولتِ".

"شكراً لك، هذا لطف منك".

"أظنّ أنّه في البستان، فقد رأيته يخرج بعد العراك".

ضحكت قليلاً. "العراك، كم هذا سخيف..."

لقد بدا لي سخيفاً بالفعل أن توجّه ضربة إلى أحدهم، كما لو كنت تداعبه، لكن بقوّة. المداعبة ألطف بكثير. ربّما كان يجدر بـي أن أربّت على ذراع بيتر. لكان هذا أفضل لكلينا، ولما آلمتني أصابعي.

نهضت واستدرت نحو الباب. استندت إلى الجدار لاستعادة توازني، ووجدته متيناً. مشيت متعثّرة في الممرّ، وأنا أضحك على اختلال توازني.

عدت خرقاء من جديد، كما كنت في صغري. كانت أمّي تبتسم لي قائلة: "احذري أين تضعين قدمك، بياتريس. لا أريدك أن تؤذي نفسك".

خرجت من المبنى، فبدت أوراق الشجر الخضراء أكثر خضرة، بحيث شعرت أنّني أستطيع تذوّقها تقريباً. ربّما كان هذا ممكناً، مثل العشب الذي قرّرت أن أمضغه حين كنت طفلة لأعرف طعمه. كدت أسقط على الدرج وأنا أتمايل، وانفجرت ضاحكة عندما دغدغ العشب قدميّ الحافيتين. بعد ذلك، رحت أتجوّل في البستان.

"فور!" لماذا أنادي رقماً؟ آه تذكّرت، لأنّ هذا هو اسمه. فناديته مجدّداً: "فور! أين أنت؟"

"تريس؟" خرج صوت من بين الأشجار عن يميني. وبدا كما لو أنّ الشجرة تتحدّث معي. ضحكت، لكن بالطبع كان توبياس هو الذي أطلّ من خلف الأغصان.

اندفعت نحوه، ومالت الأرض تحت قدميّ، فأوشكت على السقوط. غير أنّه أمسك بـي وثبّتني.

"تريس، ماذا فعلوا بك؟ أنت تتصرّفين كالمجانين".

"كلامك غير لطيف. لقد وضعوني في مزاج جيّد، هذا كلّ شيء".

"أريد أن أعرف ماذا جرى".

عبست للحظة، ثمّ ابتسمت عندما بدأت أفهم.

هتفت: "لهذا السبب أنا أعجبك! لأنّك لست لطيفاً جدّاً أنت أيضاً. أصبح الأمر الآن منطقياً أكثر".

قال: "تعالي، سنذهب لرؤية جوانا".

"أنت تعجبني أيضاً".

أجاب بصوت حازم: "هذا مشجّع. تعالي. آه، سأحملك".

حملني بين ذراعيه، فأحطت عنقه بذراعيّ، وطبعت قبلة على خدّه. ثمّ رحت أؤرجح قدميّ إلى الأعلى والأسفل مستمعة بالهواء الذي يداعبهما بينما توجّه إلى المبنى الذي تعمل فيه جوانا.

عندما وصلنا، كانت جالسة خلف المكتب، تعضّ على ممحاة قلم الرصاص، وأمامها كومة من الأوراق. فغرت فاها دهشة عندما نظرت إلينا. كانت تغطّي جانب وجهها الأيسر خصلة كثيفة من الشعر الأسود.

قلت لها: "لا ينبغي لك حقّاً إخفاء هذه الندبة، فأنت تبدين أجمل إن رفعت شعرك عن وجهك".

أنـزلني توبياس بقوّة على الأرض. فآلمت الصدمة كتفي قليلاً، لكنّ الصوت الذي أحدثته قدماي عندما ارتطمتا بالأرض أضحكني. غير أنّ جوانا وتوبياس لم يشاركاني الضحك. هذا غريب.

سألها توبياس: "ماذا فعلتم بها؟ أخبريني ماذا فعلتم؟"

عبست جوانا مجيبة: "أنا... لا بدّ أنّهم أعطوها جرعة زائدة. فقامتها قصيرة جدّاً، وعلى الأرجح لم يأخذوا طولها ووزنها بعين الاعتبار".

"أعطوها جرعة زائدة ممّ؟"

قلت: "صوتك جميل".

قال: "تريس، اصمتي من فضلك".

قالت جوانا: "من مصل السلام. إن أُعطي هذا المصل بجرعات صغيرة، فإنه يولّد تأثيراً مهدّئاً وخفيفاً يحسّن المزاج. أثره السلبـي الوحيد هو دوار طفيف. نحن نعطيه لأعضاء جماعتنا الذين يواجهون صعوبة في الحفاظ على السلام".

ضحك توبياس ساخراً: "أنا لست أحمق. كلّ عضو من أعضاء جماعتك لديه مشاكل في الحفاظ على السلام، لأنّهم بشر. أنتم تضعونه على الأرجح في خزّانات المياه".

لم تجبه جوانا لبضع ثوان، بل كتفت ذراعيها.

قالت: "أنت تعرف طبعاً أنّ هذا غير صحيح، وإلاّ لما وقع هذا العراك. لكن كلّ ما نتّفق على فعله هنا، ننفّذه معاً، كجماعة. لو استطعت إعطاء هذا المصل لكلّ سكّان المدينة، لفعلت، ولما كنتَ أنت في هذا الوضع، بكلّ تأكيد".

"آه، طبعاً. فتخدير الشعب بأكمله هو الحلّ الأفضل لمشكلتك. يا لها من خطّة عظيمة".

قالت بلطف: "السخرية غير لائقة، فور. أنا آسفة على هذا الخطأ، حقّاً. لكنّها خرقت بنود اتّفاقنا، وأخشى أنّكم لن تتمكّنوا من البقاء هنا لمدّة أطول نتيجة لذلك. فالعراك بينها وبين ذاك الشابّ، بيتر، هو أمر لا يمكننا نسيانه".

قال توبياس: "لا تقلقي، نحن ننوي الذهاب بأقرب فرصة ممكنة بشرياً".

قالت مبتسمة: "هذا جيّد. فالسلام بين الوئام والشجاعة لا يحدث سوى إن حافظنا على مسافة بيننا".

"هذا يفسّر الكثير".

"عفواً؟ إلام تلمح؟"

أجاب وهو يصرّ على أسنانه: "هذا يفسّر لماذا، تحت غطاء *الحياد* - كما لو أنّ هذا الشيء ممكن! - تركتمونا نُقتل على أيدي جماعة المعرفة".

تنهّدت جوانا بهدوء، ونظرت عبر النافذة. امتدّت في الخارج باحة صغيرة زُرعت فيها عرائش العنب. تسلّقت العرائش زوايا النافذة، وبدت كما لو أنّها تحاول الدخول والمشاركة في الحديث.

قلت: "جماعة الوئام لا تفعل شيئاً من هذا القبيل، إنّه عمل دنيء".

بدأت جوانا تقول: "نحن نرفض التورّط حفاظاً على السلام -"

قاطعها توبياس ساخراً: "السلام. أنا واثق أنّ المدينة ستكون في غاية السلام عندما نموت جميعاً أو نخضع بجبن، تحت تهديد السيطرة على العقل، أو نعلق في محاكاة لا نهاية لها".

تشنّج وجه جوانا، فقلّدتُ تعابير وجهها. غير أنّني لم أجدها مريحة. ولا أعرف لماذا تفعل ذلك.

قالت ببطء: "القرار ليس بيدي. لو كان كذلك، لاختلف حديثنا الآن".

"هل تعنين أنّك تختلفين معهم؟"

"أعني أنّ وظيفتي لا تقوم على معارضة جماعتي علناً، لكنّني قد أفعل، بيني وبين نفسي".

قال توبياس: "سنرحل أنا وتريس في غضون يومين. لكن أتمنّى ألاّ تغيّر جماعتك قرارها بتأمين ملجأ في هذا المجمّع".

"نحن لا نتراجع عن قراراتنا بسهولة. ماذا عن بيتر؟"

قال: "سيكون عليك التعامل معه بشكل منفصل، لأنّه لن يرافقنا".

أمسك توبياس بيدي وبدا ملمس بشرته لطيفاً، مع أنّها ليست ناعمة. ابتسمت معتذرة لجوانا، غير أنّ تعبير وجهها لم يتغيّر.

قالت: "فور، إن أردت أنت وأصدقاءك البقاء... من دون أن تتأثّروا بمصلنا، تجنّبوا الخبز".

شكرها توبياس ثمّ سلكنا الممرّ معاً، وأنا أتعثّر في كلّ خطوة.

الفصل السابع

زال أثر المصل بعد خمس ساعات، وكانت الشمس على وشك الغروب. حبسني توبياس في غرفتي لبقية اليوم، وكان يتحقّق من وضعي كلّ ساعة. عندما دخل هذه المرّة، كنت جالسة على السرير، أحدّق إلى الجدار.

قال وهو يضغط جبينه على الباب: "الحمد لله. بدأت أظنّ أنّ مفعوله لن يزول أبداً، وأنّني سأضطرّ إلى تركك هنا... لشمّ الأزهار، أو أيّاً يكن ما ترغبين في فعله وأنت تحت تأثير ذلك الشيء".

"سأقتلهم. أنا أعني ما أقول".

"لا تكترثي لهم، سنرحل قريباً على أيّ حال". أغلق الباب خلفه، ثمّ أخرج القرص الصلب من جيبه الخلفي. "أظنّ أنّه علينا إخفاء هذا القرص خلف منضدتك".

"لكنّه كان هناك".

"أعرف، لهذا السبب لن يبحث عنه بيتر هنا مرّة أخرى". أبعد توبياس المنضدة عن الجدار بيد، ووضع القرص خلفها باليد الأخرى.

"لماذا لم أستطع مقاومة مصل السلام؟ ما دام دماغي مهيّأً لمقاومة مصل المحاكاة، لماذا تأثّر بهذا المصل؟"

أجاب: "أنا حقّاً لا أدري". جلس بقربي على السرير، فاهتزّ الفراش تحت ثقله. "ربّما لكي تقاومي أيّ مصل، يجب أن تكوني *راغبة* في ذلك".

"في الواقع، من الواضح أنّني *أردت* ذلك". تكلمت بعصبية، لكن من دون قناعة. هل أردتُ ذلك؟ أم أنّه كان جميلاً أن أنسى الغضب، والألم، وكلّ شيء لبضع ساعات؟

قال وهو يضع ذراعه على كتفيّ: "في بعض الأحيان، لا يريد الناس سوى أن يكونوا سعداء، حتّى لو لم يكن ذلك حقيقياً".

كان على حقّ. حتّى في هذه اللحظة، كان السلام موجود بيننا لأنّنا لم نتحدّث عن أمور معيّنة؛ عن ويل، أو والديّ، أو عنّي وأنا أطلق النار تقريباً على رأسه، أو عن ماركوس. لكنّني لا أجرؤ على تخريبها السلام بالحقيقة، لأنّني متشبّثة به طلباً للدعم.

قلت بهدوء: "ربّما كنتَ محقّاً".

"هل *تستسلمين*؟" بدت الدهشة على وجهه وهو يضيف ساخراً: "يبدو أنّ هذا المصل نفعك في النهاية..."

دفعته بأقصى قوتي قائلة: "اسحب كلامك، اسحبه *حالاً*".

"حسناً، حسناً!" ورفع يديه مستسلماً. "كلّ ما في الأمر... أنّني لست لطيفاً جدّاً أنا أيضاً، كما تعلمين. لهذا السبب تعجبينني-"

صرخت وأنا أشير إلى الباب: "اخرج من هنا!"

قبّل توبياس خدّي وهو يضحك، ثمّ غادر الغرفة.

* * *

في ذلك المساء، منعني إحراجي ممّا جرى من الذهاب لتناول العشاء، فأمضيت الوقت بين أغصان شجرة تفّاح في آخر البستان، أقطف التفّاح الناضج. تسلّقت بقدر ما استطعت، حتّى آلمتني عضلاتي. اكتشفت أنّ الخمول يفتح الباب للحزن، فقرّرت أن أشغل نفسي.

كنت أمسح جبيني بطرف قميصي، وأنا واقفة على أحد الأغصان، عندما سمعت صوتاً. كان بعيداً في البداية، يختلط بطنين زيز الحصاد. وقفت أصغي، ثمّ أدركت بعد لحظة أنّها سيّارات.

كانت جماعة الوئام تملك حوالى عشر شاحنات تستخدمها في نقل البضائع، لكنّها لا تفعل ذلك سوى في العطل الأسبوعية. شعرت بوخز في عنقي. إن لم تكن الوئام هي التي تستخدمها، لا بدّ أنّها المعرفة. لكن عليّ أن أتأكّد.

أمسكت غصناً فوقي بيديّ الاثنتين، لكنّني دفعت نفسي إلى الأعلى بذراعي الأيسر فقط. دُهشت لأنّني ما زلت قادرة على فعل ذلك. وقفت منحنية، بينما تشابكت الأغصان والأوراق بشعري. وسقطت بضع تفّاحات على الأرض عندما تحرّكت. في الواقع، أشجار التفّاح ليست عالية جدّاً، وقد لا أتمكّن من الرؤية على مسافة بعيدة.

استخدمت الفروع القريبة كدرجات، واستخدمت يديّ لتثبيت نفسي وأنا ألتوي وأنحني بين الأغصان. تذكّرت يوم تسلّقت عجلة فيريس، وكانت عضلاتي ترتجف، ويداي تؤلمانني. أنا مصابة الآن، لكنّني أقوى، وأصبح التسلّق أسهل عليّ.

أصبحت الأغصان أرقّ وأضعف. لعقت شفتيّ ونظرت إلى الغصن التالي. عليّ أن أصعد إلى أعلى نقطة ممكنة، لكنّ هذا الغصن قصير وليّن على ما يبدو. وضعت قدمي عليه، لأختبر قوّته، فالتوى، لكنّه ظلّ متيناً. بدأت أرفع نفسي لأنقل إليه القدم الأخرى، فانكسر.

شهقت وأنا أسقط إلى الخلف، وتشبّثت بجذع الشجرة في آخر لحظة. يجب أن يكون هذا الجذع عالياً بما فيه الكفاية. فوقفت على رؤوس أصابعي، ونظرت باتّجاه الصوت.

في البداية لم أرَ شيئاً غير مساحة من الأراضي الزراعية، وشريط من الأرض الخالية، فضلاً عن السياج، والحقول، والأبنية التي تقع خلفها. غير أنّني لمحت بقعاً تقترب من البوّابة، وبدا لونها فضّياً عندما سقط عليها

الضوء. سيّارات ذات أسطح سوداء - ألواح شمسية، هذا يعني شيئاً واحداً. جماعة المعرفة.

خرج نفسي كالفحيح. لم أسمح لنفسي بالتفكير، بل بدأت أُنـزل قدماً تلو الأخرى بسرعة، بحيث كان لحاء الشجر يُنـزع عن الأغصان ويتساقط على الأرض. ما إن وطأت قدماي الأرض، حتّى بدأت أركض.

أخذت أعدّ صفوف الأشجار وأنا أمرّ بها. *سبعة، ثمانية* . كانت الأغصان منخفضة، فرحت أمرّ من تحتها. *تسعة، عشرة* . حملت يدي اليمنى على صدري وأنا أسرع، وآلمني كتفي الجريح مع كلّ خطوة. *أحد عشر، إثنا عشر*.

عندما وصلت إلى الصفّ الثالث عشر، توجّهت يميناً، عبر أحد الممرّات. كانت الأشجار كثيفة في الصفّ الثالث عشر. وقد تشابكت أغصانها مكوّنة متاهة من الأوراق، والأغصان، والتّفاح.

آلمتني رئتاي بسبب نقص الأوكسجين، لكنّني اقتربت من نهاية البستان. كان العرق يتصبب من جبيني عندما وصلت إلى قاعة الطعام، وفتحت الباب، ثمّ شققت طريقي عبر مجموعة من أعضاء الوئام. وجدت توبياس هناك، جالساً في إحدى زوايا الكافتيريا مع بيتر، وكاليب، وسوزان. بالكاد استطعت رؤيتهم بين البقع التي تشوب حقلي البصري، لكنّ توبياس لمس كتفي.

"المعرفة"، هذا كلّ ما استطعت قوله.

سألني: "أهم آتون إلى هنا؟"

أومأت برأسي.

"هل نملك الوقت للهرب؟"

لم أكن واثقة من ذلك.

في هذا الوقت، انتبه أعضاء نكران الذات الجالسين إلى الطرف الآخر من المائدة، واجتمعوا حولنا.

قالت سوزان: "لماذا يتوجّب علينا الهرب؟ لقد أمّنت لنا جماعة الوئام الملجأ، ولن يسمحوا بنشوب قتال".

قال ماركوس: "ستواجه جماعة الوئام صعوبة في تطبيق تلك السياسة، فكيف يوقفون قتالاً من دون قتال؟"

هزّت سوزان رأسها موافقة.

قال بيتر: "لكن لا يمكننا الرحيل، فنحن لا نملك الوقت. سيروننا".

قال توبياس: "تريس لديها مسدّس. يمكننا استخدامه أثناء الهرب".

بدأ يتوجّه إلى عنبر النوم.

قلت: "انتظر، لديّ فكرة". نظرت إلى أعضاء نكران الذات. "يمكننا التنكّر. فجماعة المعرفة لن يتمكّنوا من التأكّد أنّنا ما زلنا هنا. يمكننا الادّعاء أنّنا ننتمي إلى الوئام".

قال ماركوس: "إذاً، من لا يرتدون ملابس الوئام، فليذهبوا إلى غرفهم. أمّا البقية، فأسدلوا شعركم، وقلّدوا سلوكهم".

غادر أعضاء نكران الذات الذين يلبسون ألواناً رمادية قاعة الطعام، وعبروا الباحة نحو عنبر الضيوف. ما إن دخلوا، حتّى ذهبت إلى غرفتي، ثمّ ركعت على يديّ وركبتيّ، ومددت يدي تحت الفراش بحثاً عن المسدّس.

تلمّست الفراش لبضع ثوان قبل أن أعثر عليه، وعندما فعلت، تقلّص حلقي، ولم أعد قادرة على التنفّس. لا أريد لمس المسدّس، لا أريد لمسه مجدّداً.

هيّا، تريس . دسست المسدّس تحت حزام سروالي الأحمر. لحسن الحظّ، كان السروال فضفاضاً. لمحت قوارير المرهم الشافي والمسكّن على

المنضدة قرب السرير، فوضعتهما في جيبي تحسّباً في حال تمكنّا من الهرب.

بعد ذلك، مددت يدي خلف المنضدة لإخراج القرص الصلب.

إن أمسكت بنا جماعة المعرفة، وهذا مرجّح، سيفتّشوننا، ولا أريد أن أسلّمهم محاكاة الهجوم مجدّداً ببساطة. لكنّ هذا القرص يحتوي أيضاً على تسجيلات المراقبة خلال الهجوم، وعلى تسجيلات خسائرنا، ووفاة أبويّ. إنّها الذكرى الوحيدة التي أملكها لهما. وبما أنّ أعضاء نكران الذات لا يلتقطون الصور، فإنّه يحتوي على التوثيق الوحيد لمظهرهما.

بعد سنوات من الآن، عندما تبدأ ذكرياتي تتلاشى، ماذا سيبقى لديّ لأتذكّر شكلهما؟ ستتغيّر ملامحهما في ذهني، ولن أراهما مجدّداً على الإطلاق.

لا تكوني غبية، هذا ليس مهمّاً.

ضغطت على القرص حتّى آلمتني يدي.

لماذا إذاً أشعر *أنّه بهذه الأهمّية؟*

قلت بصوت عال: "لا تكوني غبية". صررت على أسناني، ثمّ أمسكت بالمصباح الموضوع إلى جانب السرير. سحبت المقبس من مكانه، ثمّ رميت غطاء المصباح على الفراش، وانحنيت فوق القرص الصلب. رففت عينيّ لإبعاد الدموع، ثمّ رحت أضربه بقاعدة المصباح، التي خلّفت فيه التواءً.

ضربته مراراً وتكراراً، حتّى تحطّم، وانتشرت أجزاؤه على الأرض. بعد ذلك، ركلت الأجزاء تحت المنضدة، وأعدت المصباح إلى مكانه، ثمّ خرجت إلى الممرّ، وأنا أمسح عينيّ بظاهر يدي.

بعد دقائق، رأيت حشداً صغيراً من الرجال والنساء بالملابس الرمادية، ومعهم بيتر، واقفين في الردهة، يبحثون بين أكوام من الملابس.

قال كاليب: "تريس، ما زلت ترتدين اللون الرمادي".

شددت على قميص أبـي، وتردّدت.

قلت: "إنّها لأبـي". إن غيّرتها، سأضطر إلى تركها خلفي. عضضت على شفتي لكي يعيد إليّ الألم توازني. عليّ أن أتخلّص منها، فهي مجرّد قميص، لا أكثر.

قال كاليب: "سأرتديها تحت ملابسي، ولن يروها أبداً".

وافقت، ثمّ تناولت قميصاً أحمر من كومة الملابس المتضائلة. كان كبيراً بما فيه الكفاية ليخفي الانتفاخ الذي سبّبه المسدّس. دخلت غرفة مجاورة لأبدّل ملابسي، وأعطيت كاليب القميص الرمادي عندما خرجت. كان الباب مفتوحاً، فرأيت توبياس وهو يلقي بملابس نكران الذات في سلّة مهملات.

سألته وأنا أطلّ من الباب المفتوح: "هل تظنّ أنّ جماعة الوئام ستكذب من أجلنا؟"

هزّ توبياس رأسه مجيباً: "بكلّ تأكيد، ما دام هذا يمنع وقوع صراع".

كان يرتدي قميصاً أحمر اللون ذا ياقة، وسروال جينـز ممزّقاً عند الركبة. بدا المزيج مضحكاً عليه.

قلت: "قميصك جميل".

كشّر مجيباً: "هذا الشيء الوحيد الذي غطّى الوشم على عنقي".

ابتسمت بعصبية. فقد نسيت أمر الأوشام، غير أنّ القميص يخفيها جيّداً.

دخلت سيّارات المعرفة المجمّع. كانت خمسة، وكلّها فضّية ذات أسطح سوداء. أخذت محرّكاتها تخرخر مع مرور عجلاتها فوق الأرض غير المستوية. تسلّلتُ إلى داخل المبنى، وتركتُ الباب مفتوحاً ورائي، بينما انشغل توبياس بقفل سلّة المهملات.

توقّفت السيّارات، وفُتحت أبوابها، ثمّ ترجّل منها خمسة رجال ونساء على الأقلّ بملابس المعرفة الزرقاء.

نـزل منها أيضاً خمسة عشر شخصاً بملابس الشجاعة السوداء.

عندما اقترب الشجعان، رأيت أشرطة من القماش الأزرق ملفوفة حول أذرعهم، الأمر الذي لا يشير سوى إلى ولائهم للمعرفة، الجماعة التي سيطرت على عقولهم.

أمسك توبياس بيدي، وقادني إلى داخل عنبر النوم.

قال: "لم أكن أظنّ أنّ جماعتنا بهذا الغباء. المسدّس معك، أليس كذلك؟"

أجبت: "أجل، لكن لا أضمن أن أتمكّن من استخدامه بدقّة بيدي اليسرى".

"عليك المحاولة". إنّه يؤدّي دائماً دور المدرّب.

أجبته: "سأفعل". وارتجفتُ قليلاً وأنا أضيف: "هذا إن بقينا على قيد الحياة".

وضع يديه على ذراعيّ وقال: "ما عليك سوى الوثب قليلاً أثناء سيرك، والادّعاء أنّك خائفة من بنادقهم، والتصرّف مثل زهرة البنفسج الذابلة، عكس ما أنت عليه تماماً، وستكونين بخير".

"حسناً".

رنّ جرس، وتردّد صوته مرّتين. إنّها الدعوة إلى قاعة الطعام، التي يجتمع فيها أعضاء الوئام في مناسبات أقلّ رسمية من الاجتماع الذي حضرناه. فانضممنا إلى حشد نكران الذات المتنكّر بزيّ الوئام.

نـزعت الدبابيس من شعر سوزان، فتسريحة شعرها صارمة جدّاً بالنسبة إلى الوئام. ابتسمت لي بامتنان، بينما انسدل شعرها على كتفيها،

وكانت المرّة الأولى التي أراه فيها هكذا. لقد جعل فكّها المربّع أكثر استدارة.

يفترض بـي أن أكون أكثر شجاعة من أعضاء نكران الذات، لكن لم يبدُ عليهم القلق بقدري. راحوا يوزّعون الابتسامات وهم يمشون بصمت زائد عن اللزوم. فمشيت بينهم، ووكزت إحدى السيدات الأكبر سنّاً قائلة: "اطلبـي من الأولاد اللعب".

"اللعب؟"

"إنّهم يتصرّفون باحترام... وتزمّت"، وتشنّجت وأنا ألفظ الكلمة التي كانت لقبـي في جماعة الشجاعة. "وهذا ليس من عادات أولاد الوئام. افعلي وحسب. اتّفقنا؟"

لمست المرأة كتف أحد أولاد نكران الذات، وهمست في أذنه بشيء، وبعد بضع ثوان، بدأت مجموعة صغيرة من الأولاد يركضون في الردهة، وهم يصيحون: "التقطتك!" "كلاّ، هذا قميصي!"

انتقلت العدوى إلى كاليب، الذي وكز سوزان، فراحت تضحك. حاولت الاسترخاء، ورحت أمشي وأنا أثب مثلما اقترح عليّ توبياس، وأؤرجح ذراعي كلّما انعطفت. عجيب كيف أنّ الادّعاء بالانتماء إلى جماعة مختلفة يغيّر كلّ شيء، حتّى الطريقة التي أمشي بها. لا بدّ أنّ هذا يفسّر سبب قدرتي على الانتماء بسهولة إلى ثلاث جماعات.

انضممنا إلى أعضاء الوئام الذين كانوا أمامنا ونحن نعبر الباحة نحو قاعة الطعام، ونختلط بهم. بقيت عيني على توبياس، ولم أشأ الابتعاد كثيراً عنه. لم يطرح أعضاء الوئام أسئلة، بل تركونا نذوب في جماعتهم.

وقف اثنان من خونة الشجاعة عند الباب، حاملين أسلحتهم، فتصلّب جسدي. فجأة، رأيت حقيقة وجودي، عَزلاء، في مبنى محاط

بأعضاء المعرفة والشجاعة. وإن اكتُشف أمري، لن أتمكّن من الفرار، بل سيقتلونني على الفور.

فكّرت في الخروج، لكن كيف أفلت منهم؟ حاولت أن أتنفّس بشكل طبيعي، لكنّني أوشك أن أمرّ من أمامهم. *لا تنظري، لا تنظري*. خطوات تفصلني عنهم. *أبعدي نظرك، بعيداً*.

شبكت سوزان ذراعها بذراعي وقالت: "أنا أخبرك نكتة مضحكة".

وضعت يدي على فمي، وأجبرت نفسي على الضحك بصوت عالٍ وغريب، لكن بالنظر إلى ابتسامتها، كان قابلاً للتصديق. مشينا على هذه الحال كما تفعل فتيات الوئام، ونحن نلقي نظرات عابرة على الشجعان، ثمّ نضحك مجدّداً. استغربت كيف استطعت ذلك مع الثقل الذي يضغط بداخلي.

عندما وصلنا، تمتمت شاكرة.

أجابت: "عفواً".

جلس توبياس أمامي على إحدى الطاولات الطويلة، بينما جلست سوزان بالقرب منّي. أمّا بقيّة أعضاء نكران الذات فتوزّعوا في الغرفة، وجلس كاليب وبيتر على بعد عدّة مقاعد.

رحت أطرق بأصابعي على ركبتيّ بانتظار حدوث شيء. جلسنا على هذه الحال طويلاً، وتظاهرت أنّني أصغي إلى فتاة من الوئام جالسة إلى يساري. لكنّني كنت أنظر إلى توبياس من وقت إلى آخر، ويبادلني النظر، كما لو كنّا نمرّر الخوف بيننا.

أخيراً، دخلت جوانا مع امرأة من المعرفة. توهّج قميصها الأزرق الزاهي فوق بشرتها السمراء، وراحت تفتّش الغرفة وهي تتحدّث مع جوانا. حبست أنفاسي عندما وقع نظرها عليّ، ثمّ تنفّستُ الصعداء عندما تابعَت مسح الغرفة من دون تردّد. لم تعرفني.

على الأقلّ، ليس بعد.

ضرب أحدهم على الطاولة، فهدأت الغرفة. حان الوقت. الآن، إمّا أن تسلّمنا أو لا.

قالت جوانا: "إنّ أصدقاءنا من جماعتي المعرفة والشجاعة يبحثون عن بعض الأشخاص، عدد من أعضاء نكران الذات، وثلاثة من الشجاعة، ومبتدئ سابق في جماعة المعرفة". ابتسمت متابعة: "حرصاً على التعاون الكامل، قلت لهم إنّ أولئك الأشخاص كانوا هنا في الواقع، لكنّهم رحلوا. وهم يطلبون الإذن لتفتيش المكان، ما يعني أنّ علينا التصويت. هل ثمّة من يعترض على التفتيش؟"

بدا من نبرة صوتها أنّ مَن يعترض، عليه أن يبقي فمه مغلقاً. لا أدري ما إذا كان أعضاء الوئام يلتقطون هذا النوع من التفاصيل، لكنّ أحداً لم يقل شيئاً. أعطت جوانا موافقتها للمرأة بإيماءة من رأسها.

قالت المرأة لحرّاس الشجاعة المتجمّعين عند المدخل: "ليبق ثلاثة منكم هنا، أمّا البقية، فقوموا بتفتيش الأبنية وأخبروني إن وجدتم شيئاً. انطلقوا".

بإمكانهم إيجاد الكثير، أجزاء القرص الصلب، الملابس التي نسيت إلقاءها، النقص المريب للحلي والزينة في غرفنا. شعرت بنبض خلف عينيّ بينما كان جنود الشجاعة الثلاثة يروحون ويجيئون بين صفوف الطاولات.

شعرت بوخز في عنقي عندما مرّ أحدهم خلفي بخطوات ثقيلة وعنيفة. لم تكن المرّة الأولى في حياتي التي أشعر فيها بالسعادة لكوني قصيرة القامة وعادية المظهر. فأنا لا أجذب الانتباه.

على عكس توبياس، فهو يحمل غروره في وقفته، وفي الطريقة التي ينظر فيها حوله. هذه ليست من سمات أعضاء الوئام، ولا يمكن أن تنتمي سوى إلى الشجعان.

نظرت إليه الجندية المتوجّهة نحوه على الفور. ضاقت عيناها وهي تقترب، ثمّ توقّفت خلفه مباشرة.

أتمنّى لو أنّ ياقة قميصه كانت أعلى. أتمنّى لو أنّه لا يملك أوشاماً بهذا القدر. أتمنّى...

قالت: "شعرك قصير جدّاً مقارنة بشباب الوئام".

... لو لم يقصّ شعره مثل شباب نكران الذات.

قال: "الجو حارّ".

ربّما كان العذر لينجح لو أنّه عرف كيف يقدّمه، لكنّه قاله بنبرة لاذعة.

مدّت يدها، وأبعدت بسبّابتها ياقة قميصه لرؤية أوشامه.

تحرّك توبياس.

أمسك بيد المرأة، وشدّها إلى الأمام بحيث فقدت توازنها. ارتطم رأسها بطرف الطاولة وسقطت. عبر الغرفة، انطلقت رصاصة، تبعتها صرخة، وانخفض الجميع تحت الطاولات، أو انحنوا بجانب المقاعد.

الجميع باستثنائي أنا. بقيت جالسة حيث كنت قبل انطلاق العيار الناري، متشبّثة بطرف الطاولة. أعرف أين أنا، لكنّني لم أعد أرى الكافتيريا. كنت أرى الزقاق الذي هربت عبره بعد موت أمّي. كنت أحدّق إلى المسدّس الذي أحمله بيديّ، وإلى البشرة الناعمة بين حاجبيّ ويل.

خرجت حشرجة من حلقي. كنت لأصرخ لو لم أكن أصرّ على أسناني. تلاشت الذكريات، لكنّني ما زلت عاجزة عن الحركة.

أمسك توبياس المرأة من مؤخّر عنقها، ورفعها بقوّة للوقوف على قدميها. كان يحمل مسدّسها بيده. استخدمها كدرع وهو يطلق النار من فوق كتفها الأيمن على الجندي الواقف في الجهة المقابلة من القاعة.

صاح: "تريس! أحتاج إلى المساعدة هنا".

رفعتُ قميصي قليلاً لأمسك بقبضة المسدّس، فاحتكّت أصابعي بالمعدن. شعرت أنّه شديد البرودة، بحيث آلم أناملي، لكن هذا مستحيل، فالجوّ حارّ جدّاً هنا. وقف أحد الشجعان في آخر الممرّ، وصوّب مسدّسه نحوي، فأحسست أنّ الفوّهة السوداء تتّسع من حولي، ولم أعد أسمع سوى نبض قلبـي.

اندفع كاليب إلى الأمام واستولى على مسدّسي. حمله بيديه الاثنتين، وأطلق النار على ركبتَي الرجل المنتمي إلى الشجاعة، والواقف على بعد أقدام منه.

صرخ الرجل وانهار على الأرض، وهو يمسك بساقه، ممّا أتاح لتوبياس الفرصة لإصابته في الرأس. كان ألمه عابراً.

راح جسدي يرتعد بأكمله، ولم أستطع إيقافه. ما زال توبياس قابضاً على عنق المرأة، لكن هذه المرّة وجّه مسدّسه إلى امرأة المعرفة.

قال: "كلمة أخرى وأطلق النار".

فتحت المرأة فمها، لكنّها لم تتكلّم.

قال بصوت ملأ القاعة: "مَن هم معنا فليبدأوا بالهرب".

نهض أعضاء نكران الذات من أماكنهم، من تحت الطاولات والمقاعد، وبدأوا يتوجّهون إلى الباب. سحبني كاليب من مقعدي، وبدأت ألحق بهم.

فجأة، رأيت شيئاً. كانت حركة خاطفة، فقد رفعت المرأة المنتمية إلى المعرفة مسدّساً صغيراً، وصوّبته على رجل يرتدي قميصاً أصفر أمامي.

كان حدسي، وليس حضور ذهني، هو الذي دفعني إلى الانخفاض إلى الأمام. اصطدمت يداي بالرجل، وأصابت الرصاصة الجدار عوضاً عنه، وعوضاً عنّي.

قال توبياس، مشيراً إلى المسدّس الذي تحمله المرأة: "اخفضي سلاحك. أنا قادر على إصابتك بسهولة، على عكسك تماماً".

رففت عينيّ بضع مرّات لأزيل الغشاوة عنهما. فرأيت بيتر يحدّق إليّ، بعدما أنقذت حياته للتوّ. مع ذلك، لم يشكرني.

خفضت المرأة مسدّسها، فتوجّهنا أنا وبيتر نحو الباب، وتبعنا توبياس، وهو يمشي إلى الخلف، ليبقي مسدّسه مصوّباً على المرأة. وفي اللحظة الأخيرة قبل أن يعبر العتبة، أغلق الباب بينه وبينها.

عندئذٍ، بدأنا نركض جميعنا.

أسرعنا لاهثين عبر الممرّ المركزي للبستان. كان هواء الليل ثقيلاً، وعابقاً برائحة تشبه رائحة المطر. سمعنا صياحاً خلفنا، وأبواباً تُصفق. رحت أركض أسرع من أيّ وقت، كما لو كنت أتنفّس الأندرينالين عوضاً عن الهواء. سمعت هدير المحرّكات يلاحقني بين الأشجار، ثمّ أمسك توبياس بيدي.

عبرنا حقلاً للذرة في صفّ طويل. في هذا الوقت، كانت السيّارات قد لحقت بنا. تسلّلت أضواؤها الأمامية بين سيقان النباتات الطويلة، مضيئة ورقة هنا، وقرن ذرة هناك.

صاح أحدهم بصوت يشبه صوت ماركوس: "انتشروا!"

انقسمنا وتفرّقنا في الحقل، مثل مياه سُكبت أرضاً. أمسكتُ بذراع كاليب، وسمعت سوزان وهي تلهث خلفه.

كنّا ندوس على نباتات الذرة، التي خلّفت أوراقها السميكة جروحاً في خدّي وذراعيّ. حدّقت إلى ظهر توبياس ونحن نركض. وسمعت صوت

ارتطام ثقيل، وصرخة. كان الصراخ يعلو من كلّ مكان، عن يميني ويساري. ثمّ تناهى إلينا صوت الرصاص. ها هم أعضاء نكران الذات يموتون مجدّداً، تماماً كما حدث عندما تظاهرت أنّني تحت تأثير المحاكاة. وليس بيدي حيلة سوى الهرب.

وصلنا أخيراً إلى السياج. ركض توبياس بجانبه وهو يضغط عليه، إلى أن وجد فجوة. فأبعد الأسلاك إلى الخلف لكي نتمكّن أنا، وكاليب، وسوزان من الزحف من تحتها. لكن قبل أن نبدأ بالركض مجدّداً، وقفت ونظرت إلى الوراء، إلى حقل الذرة الذي غادرناه للتوّ. رأيت أضواء السيّارات تتوهّج في البعيد، لكنّني لم أعد أسمع شيئاً.

همست سوزان: "أين الباقون؟"

أجبتها: "لقد رحلوا".

شهقت سوزان، بينما شدّني توبياس نحوه بقوّة، وبدأنا نتقدّم إلى الأمام. كان وجهي يؤلمني بسبب الجروح التي خلّفتها أوراق الذرة، لكنّ عينيّ لم تدمعا. كان مقتل أعضاء نكران الذات مجرّد حمل آخر لن أتمكّن من إنـزاله عن كاهلي.

بقينا بعيدين عن الطريق الترابـي الذي سلكته جماعتا المعرفة والشجاعة لدخول مجمّع الوئام، وتبعنا سكك الحديد باتّجاه المدينة. لم يكن ثمّة مكان للاختباء هنا، لا أشجار ولا مبانٍ تحمينا، لكن لا يهمّ. فجماعة المعرفة لا تستطيع اختراق السياج على أيّ حال، وسيستغرقون وقتاً للوصول إلى البوّابة.

قالت سوزان، التي كانت تسير في مكان ما خلفي في الظلام: "عليّ... التوقّف..."

توقّفنا، فانهارت على الأرض تبكي، وركع كاليب بجانبها. نظرنا أنا وتوبياس إلى المدينة، التي ما زالت مضاءة، لأنّ منتصف الليل لم يحلّ

بعد. وددت لو أشعر بشيء، الخوف، الغضب، الحزن، لكن لا شيء بتاتاً. كلّ ما أشعر به هو الحاجة إلى متابعة الطريق.

التفت توبياس إليّ.

سألني: "ماذا جرى، تريس؟"

"ماذا؟" شعرت بالخجل من ضعف صوتي. لم أعرف ما إذا كان يتحدّث عن بيتر، أو عمّا جرى قبل ذلك، أو عن شيء آخر.

"لقد جمدت في مكانك! كان أحدهم على وشك أن يقتلك، ولم تتحرّكي". بدأ يصيح الآن. "ظنّنت أنّني أستطيع الاعتماد عليك لإنقاذ حياتك على الأقلّ!"

قال كاليب: "ما بالك! دعها وشأنها".

قال توبياس، وهو يحدّق إليّ: "كلاّ، لن أفعل". لان صوته وهو يسأل مجدّداً: "ماذا جرى؟"

ما زال يعتقد أنّني قوية، قوية بما فيه الكفاية إلى حدّ أنّني لا أحتاج إلى تعاطفه. كنت أظنّ أنّه محقّ، لكنّني لم أعد واثقة من ذلك الآن.

تنحنحت مجيبة: "لقد شعرت بالذعر. لن يحدث هذا مرّة أخرى".

رفع أحد حاجبيه.

كرّرت بصوت أعلى هذه المرّة: "لن يحدث".

بدا مقتنعاً وهو يقول: "حسناً. علينا إيجاد مكان آمن، فقريباً سيتجمّعون ويبدأون بالبحث عنّا".

سألته: "هل تظنّ أنّهم يكترثون بنا إلى هذا الحدّ؟"

أجاب: "أجل. على الأرجح، نحن الوحيدَين اللذين يريدوننا حقّاً، باستثناء ماركوس، الذي قُتل على الأرجح".

لا أدري كيف توقّعت أن يقولها؛ بارتياح، لأنّ ماركوس، أباه ومصدر التهديد في حياته، قد رحل أخيراً، أم بألم وكآبة، لأنّ أباه ربّما قُتل، ولا

جدوى أحياناً من الحزن. غير أنّه قالها كما لو كانت مجرّد أمر واقع، كأنّه يخبرنا بالاتجاه الذي سنسلكه، أو بالوقت من النهار.

"توبياس..." غير أنّني أدركت أنّني لا أدري ماذا أقول له.

قال من وراء كتفه: "حان الوقت للذهاب".

ساعد كاليب سوزان على الوقوف، فمشت مستندة إلى ذراعه التي أحاط بها ظهرها، وساعدها على السير قدماً.

لم أدرك حتّى تلك اللحظة أنّ فترة التدريب في مجمّع الشجاعة علّمتني درساً هامّاً، ألا وهو كيفيّة الاستمرار.

الفصل الثامن

قرّرنا أن نتبع سكّة الحديد لأنّ أيّاً منّا لم يكن ماهراً في الملاحة. تنقّلت من عارضة إلى أخرى، بينما مشى توبياس بتوازن على السكّة، ولم يترنّح سوى أحياناً، وتبعنا كاليب وسوزان. كنت ألتفت كلّما سمعت صوتاً، وأبقى متوتّرة إلى أن أدرك أنّها الرياح أو صرير حذاء توبياس على السكّة. تمنّيت لو كان باستطاعتي مواصلة الركض، لكن يكفي أنّ ساقيّ ما زلتا تتحرّكان.

ثمّ تناهى إليّ هدير ضعيف صادر عن سكّة الحديد.

انحنيت وضغطت راحتيّ على السكّة، ثمّ أغمضت عينيّ للتركيز على المعدن تحت يديّ. بدا الاهتزاز أشبه بتنهيدة خرجت من صدري. حدّقت من بين ركبتيّ سوزان إلى السكّة الممتدّة أمامي، فلم أرَ أيّ ضوء في البعيد. لكنّ هذا لا يعني شيئاً، فمن الممكن أن يسير القطار من دون صفّارة أو مصابيح تؤذن بوصوله.

رأيت وميض مقطورة صغيرة، كانت بعيدة، لكنّها تقترب بسرعة.

قلت: "إنّه آتٍ". بذلت مجهوداً للوقوف في حين أنّ كلّ ما أريده هو الجلوس أرضاً. بيد أنّني نهضت، ومسحت يديّ بسروالي. "أظنّ أنّه علينا الصعود".

سأل كاليب: "حتّى لو كانت المعرفة هي التي تشغّل القطار؟"

قال توبياس: "لو كانت جماعة المعرفة تشغّله، لركبوا فيه للذهاب إلى مجمّع الوئام بحثاً عنّا. أظنّ أنّ الأمر يستحقّ المخاطرة، فقد نتمكّن من الاختباء في المدينة. أمّا هنا، فنحن ننتظر وصولهم".

ابتعدنا جميعاً عن السكّة. أعطى كاليب تعليمات مفصّلة لسوزان للصعود إلى قطار متحرّك، على نحو لا يمكن سوى لعضو في المعرفة فعله.

شاهدت المقطورة الأولى وهي تقترب، وأصغيت إلى إيقاعها وهي تتنقّل فوق العوارض الحديدية، وإلى همس العجلات المعدنية على السكّة.

مع مرور أوّل مقطورة من أمامي، بدأت أركض، متجاهلة ألم ساقيّ. ساعد كاليب سوزان على الصعود إلى مقطورة في الوسط، ثمّ قفز خلفها. أخذت نفساً عميقاً، ثمّ رميت بجسدي إلى اليمين لأسقط على أرض المقطورة، في حين تدلّت ساقاي من حافّتها. أمسك كاليب بذراعي اليسرى وسحبني إلى الداخل. أمّا توبياس، فاستخدم قبضة الباب، وأرجح نفسه إلى أن أصبح في الداخل.

نظرت إلى الأعلى، وحبست أنفاسي.

رأيت أعيناً تلمع في الظلام، ثمّ ظهرت أشكال في المقطورة، وكانت أكثر منّا عدداً.

المنبوذون.

* * *

أخذت الرياح تصفر في المقطورة. وقف الركّاب، وكانوا جميعهم مسلّحين، باستثنائي أنا وسوزان. كان أحد المنبوذين الذي غطّت رقعة إحدى عينيه، يحمل مسدّساً مصوّباً على توبياس. فتساءلت من أين حصل عليه.

بجانبه، وقفت امرأة منبوذة تحمل سكّيناً، مثل سكّين تقطيع الخبز. وخلفه، حمل شخص آخر عارضة خشبية كبيرة غُرز فيها مسمار.

قالت المرأة المنبوذة المسلّحة بالسكّين: "لم يسبق لي أن رأيت الوئام مسلّحين من قبل".

بدا الرجل المنبوذ مألوفاً. كان يرتدي ملابس رثّة مختلفة الألوان؛ قميص قطني أسود، تعلوه سترة ممزّقة من سترات نكران الذات، فوق

سروال جينـز أزرق مرقّع بخيط أحمر، وحذاء بنّي. كانت ملابس كلّ الفصائل ممثّلة في المجموعة أمامي: سراويل النـزاهة السوداء مع قمصان الشجاعة السوداء، والملابس الصفراء مع القمصان الزرقاء. وكانت معظمها ممزّقة، أو ملطّخة بشيء ما، لكنّ بعضها لم يكن كذلك. ربّما لأنّه سُرق حديثاً.

قال صاحب المسدّس: "هؤلاء ليسوا من الوئام، بل من الشجاعة".

عندئذٍ تذكّرته. إنّه إدوارد، المبتدئ الذي ترك الشجاعة بعدما هاجمه بيتر بسكّين زبدة. لهذا السبب يضع رقعة على عينه.

تذكّرتُ كيف ثبّتّ رأسه وهو ممدّد على الأرض يصرخ، ونظّفت الدماء التي خلّفها وراءه.

قلت: "مرحباً، إدوارد".

حيّاني بإيماءة من رأسه، لكنّه لم يخفض المسدّس. "تريس".

قالت المرأة: "أيّاً كنتم، عليكم النـزول من هذا القطار إن أردتم البقاء على قيد الحياة".

قالت سوزان، بشفتها المرتعشة: "أرجوك". ترقرقت عيناها بالدموع وهي تضيف: "كنّا نركض... لقد مات الباقون، ولا..." بدأت تنتحب مجدّداً. "لا أظنّ أنّني قادرة على المواصلة، أنا..."

شعرت برغبة غريبة في ضرب رأسي بالجدار، فنحيب الآخرين يزعجني. ربّما كان هذا الإحساس أنانياً من جانبـي.

قال كاليب: "إنّنا هاربون من جماعة المعرفة. إن نـزلنا، سيسهل عليهم إيجادنا. لذلك، نكون شاكرين إن سمحتم لنا بالذهاب إلى المدينة معكم".

قال إدوارد وهو يميل رأسه: "حقّاً؟ وماذا فعلتم من أجلنا؟"

قلت: "لقد ساعدتك عندما تركك الجميع، ألا تذكر؟"

قال إدوارد: "أنت، ربّما. لكنّ ماذا عن الآخرين؟"

اقترب توبياس خطوة، بحيث لامس مسدّس إدوارد حنجرته تقريباً.

قال توبياس: "أنا أدعى توبياس إيتون، ولا أظنّ أنّكم ترغبون في طردي من هذا القطار".

كان تأثير الاسم على الحاضرين فورياً وغريباً، إذ خفضوا أسلحتهم على الفور، وتبادلوا نظرات ذات مغزى.

قال إدوارد باستغراب: "إيتون؟ حقّاً؟ عليّ الإقرار أنّني فوجئت". ثمّ تنحنح مضيفاً: "حسناً، يمكنكم البقاء. لكن عندما نصل إلى المدينة، عليكم المجيء معنا".

ابتسم قليلاً، وتابع: "نعرف شخصاً كان يبحث عنك، توبياس إيتون".

* * *

جلسنا أنا وتوبياس على حافة المقطورة، وتدلّت أقدامنا منها.

"هل تعرف من يكون؟"

هزّ توبياس رأسه بالإيجاب.

"من؟"

"من الصعب أن أشرح. لديّ الكثير لأخبرك إيّاه".

اتّكأت عليه قائلة: "أجل، وأنا كذلك".

* * *

لا أعرف كم مضى من الوقت قبل أن يطلبوا منّا النـزول. لكن عندما فعلوا، اكتشفت أنّنا في الجزء الذي يعيش فيه المنبوذون، على بعد ميل تقريباً من المكان الذي نشأت فيه. عرفت كلّ مبنى مررنا به، لأنّني كنت أسلك هذا الطريق للعودة إلى المنـزل كلّما فاتني قطار المدرسة. ذاك هو

المبنى ذو القرميد المحطّم، وهذا هو المبنى الذي يتّكئ عليه عمود الإنارة.

وقفنا نحن الأربعة عند باب المقطورة في صفّ واحد. فبدأت سوزان تبكي.

تساءلَت: "ماذا لو تأذّينا؟"

أمسكت بيدها قائلة: "سنقفز معاً، أنا وأنت. لقد فعلت هذا عشرات المرّات ولم أتأذَّ أبداً".

هزّت رأسها موافقة، وشدّت على أصابعي بقوّة آلمتني.

قلت: "واحد، اثنان، *ثلاثة*".

قفزت، وسحبتها معي. عندما ارتطمت قدماي بالأرض، اندفعت إلى الأمام، لكنّ سوزان سقطت على الرصيف وتدحرجت على جانبها. لكن باستثناء خدش أصاب ركبتها، بدت بخير. أمّا الباقون، فقفزوا من دون صعوبة، حتّى كاليب الذي لم يقفز من القطار سوى مرّة واحدة من قبل، على حدّ علمي.

لست واثقة من يعرف توبياس بين المنبوذين. قد يكون درو أو مولي، اللذين فشلا في تدريبات الشجاعة، لكنّهما لا يعرفان اسمه الحقيقي. بالإضافة إلى ذلك، لا بدّ أنّ إدوارد قتلهما على الأرجح، نظراً إلى استعداده التامّ لقتلنا. لا بدّ أنّه أحد أعضاء نكران الذات، أو أحد زملائه في المدرسة.

بدا أنّ سوزان هدأت قليلاً. فقد كانت تسير بمفردها الآن إلى جانب كاليب، وقد جفّت وجنتاها مع توقّف الدموع.

مشى توبياس بجانبي، ولمس كتفي بلطف.

"لقد مضى زمن منذ أن فحصت كتفك. كيف حاله؟"

"لا بأس. لحسن الحظّ، أحضرت معي مسكّن الألم". كنت سعيدة بالتحدّث في موضوع خفيف، حتّى لو كان جرحاً. "لا أظنّ أنّني أعطيه الفرصة ليلتئم، فأنا أستعمل يدي باستمرار أو أسقط عليها".

"سيكون هناك متّسع من الوقت ليلتئم، ما إن ينتهي كلّ هذا".

"أجل". أضفت في سرّي، *وربّما لن يهمّ ما إذا شُفيت أم لا، لأنّني سأكون ميتة.*

قال وهو يخرج سكّيناً صغيراً من جيبه الخلفي، ويعطيني إيّاها: "خذي هذه تحسّباً".

وضعتها في جيبي، وشعرت بمزيد من التوتّر الآن.

قادنا المنبوذون عبر الشارع، ثمّ انعطفنا يساراً عبر زقاق قذر تفوح منه رائحة القمامة. أخذت الجرذان تفرّ من أمامنا مرعوبة، ولم أرَ سوى أذيالها وهي تختبئ بين أكوام القمامة، ومستوعبات القمامة الفارغة، وصناديق الكرتون الخالية. رحت أتنفّس من فمي لكي لا أتقيّأ.

توقّف إدوارد بالقرب من أحد أبنية الطوب المتداعية ودفع باباً فولاذياً. فأجفلت وأحسست أنّ المبنى قد ينهار بأكمله إن دفعه بقوّة. كانت النوافذ مكسوّة بطبقة سميكة جدّاً من السخام، بحيث لا يمكن للضوء أن يتخلّلها تقريباً. تبعنا إدوارد إلى غرفة شديدة الرطوبة. وفي ضوء قنديل متمايل، رأيت... أناساً.

منهم من كان جالساً بالقرب من لفائف الفرش، ومنهم من كان يتفحّص علب طعام مفتوحة، بينما قام آخرون بشرب بقايا الماء من الزجاجات. أمّا الأطفال، فكانوا يتنقّلون بين الكبار، من دون أن يلتزموا بلون ملابس معيّن. إنّهم أطفال المنبوذين.

كنّا في مستودع للمنبوذين. وكان المنبوذون، الذين يفترض بهم أن يكونوا مشتّتين، ومعزولين، وبلا جماعة... معاً في الداخل. كانوا معاً، كما لو أنّهم *جماعة*.

لا أعرف ماذا توقّعت، لكنّني فوجئت كم يبدون طبيعيين. لم يكونوا يتعاركون، أو يتجنّبون بعضهم. بعضهم يخبر النكات، وبعضهم الآخر يتحدّث بهدوء. لكن تدريجيّاً، بدأوا يدركون أنّه لا يفترض بنا أن نكون هناك.

قال إدوارد، وهو يدعونا بسبّابته: "تعالوا، إنّها هنا".

استُقبلنا بالنظرات والصمت ونحن نتبع إدوارد إلى عمق المبنى الذي يفترض أن يكون مهجوراً. أخيراً، لم أستطع كبت فضولي أكثر من ذلك.

"ماذا يجري هنا؟ لماذا تعيشون معاً على هذا النحو؟"

قال إدوارد من وراء كتفه: "ظننتِ أنّهم، أو بالأحرى، أنّنا منقسمون. في الواقع، كانوا كذلك لمدّة من الزمن. فقد كانوا يتضوّرون جوعاً للتفكير بشيء آخر غير البحث عن الطعام. ثمّ بدأ المتزمّتون يعطونهم المأكل، والملبس، والأدوات، وكلّ شيء. فأصبحوا أكثر قوّة، وجلسوا ينتظرون. هكذا كانوا عندما وجدتهم، وقد رحّبوا بـي".

دخلنا إلى قاعة مظلمة. أحسست كما لو كنت في البيت، في هذا الظلام والهدوء الذي يشبه أقبية مقرّ الشجاعة. أمّا توبياس، فأخذ يلفّ خيطاً من قميصه حول إصبعه، إلى الأمام والخلف، مراراً وتكراراً. كان يعرف بمن سنلتقي، على عكسي تماماً. هل يعقل ألاّ أعرف سوى القليل عن الشابّ الذي يقول إنّه يحبّني، ذاك الشابّ الذي كان اسمه الحقيقي قوياً بما فيه الكفاية لإبقائنا على قيد الحياة في قطار مليء بالأعداء؟

توقّف إدوارد عند باب معدني، وطرق عليه بقبضته.

قال كاليب: "لحظة واحدة، قلت إنّهم ينتظرون؟ ماذا ينتظرون بالضبط؟"

أجاب إدوارد: "انهيار العالم، وها قد حدث أخيراً".

فُتح الباب، ووقفت أمامنا امرأة ذات نظرة كسولة. تفحّصتنا نحن الأربعة بنظراتها الثابتة.

قالت: "مشرّدون؟"

"كلاّ، تيريز". أشار بإبهامه، من فوق كتفه، إلى توبياس. "هذا توبياس إيتون".

حدّقت تيريز إلى توبياس لبضع ثوانٍ، ثمّ هزّت رأسها. "بكلّ تأكيد. لحظة واحدة".

أغلقَت الباب مجدّداً، ورأيت توبياس يزدرد ريقه بتوتّر.

قال له كاليب: "أنت تعرف من ستأخذ، أليس كذلك؟"

قال توبياس: "كاليب، اسكت من فضلك".

دُهشت حين قمع أخي فضوله المعرفي.

فُتح الباب مجدّداً، وتراجعت تيريز لتسمح لنا بالدخول. دخلنا إلى غرفة مِرجَل قديمة، وظهرت آلاتها فجأة من الظلام بحيث ارتطمت بركبتَيّ ومرفقَيّ. قادتنا تيريز عبر متاهة التمديدات المعدنية إلى آخر الغرفة، وهناك تدلّت عدّة مصابيح من السقف فوق طاولة.

وقفت امرأة متوسّطة السنّ خلف الطاولة، ذات شعر مجعّد أسود اللون، وبشرة سمراء. كانت ملامحها صارمة وحادّة على نحو جعلها غير جميلة تقريباً، لكن ليس تماماً.

أمسك توبياس بيدي. في تلك اللحظة، أدركت أنّه يملك هو والمرأة الأنف نفسه، أنف معقوف، وكبير بعض الشيء على وجهها، لكنّه مناسب لحجم وجهه. كانا يملكان أيضاً الفكّ القوي نفسه، مع الذقن المميّزة،

والشفة العليا المنفرجة، والأذنين البارزتين. وحدهما عيناها كانتا مختلفتين عن عينيه الزرقاوين، وتمتازان بلون داكن جدّاً بحيث بدتا سوداوين.

قال بصوت مرتجف قليلاً: "إيفلين".

إيفلين هو اسم زوجة ماركوس ووالدة توبياس. في تلك اللحظة، ارتخت أصابعي الممسكة بيد توبياس. فمنذ بضعة أيّام فقط، كنت أتذكّر جنازتها. *جنازتها*. وها هي الآن واقفة أمامي، بعينيها الأكثر برودة من عينَي أيّ امرأة عرفتها في جماعة نكران الذات.

"مرحباً". استدارت حول الطاولة، وهي تراقبه. "أنت تبدو أكبر سنّاً".

"أجل، هذا ما يفعله مرور الوقت بالإنسان".

كان يعرف أنّها على قيد الحياة. منذ متى يا ترى؟

ابتسمت قائلة: "إذاً، لقد أتيت أخيراً-"

قاطعها قائلاً: "ليس للسبب الذي تظنّينه. نحن هاربون من جماعة المعرفة، وفرصتنا الوحيدة للفرار أجبرتني على قول اسمي لأتباعك المسلّحين على هذا النحو الرديء".

لا بدّ أنّها أغضبته بشكل ما. لكن لا يمكنني سوى التفكير أنّني لو اكتشفت أنّ أمّي ما زالت على قيد الحياة بعدما ظننت أنّها ماتت منذ مدّة طويلة، فلن أتحدّث معها على هذا النحو، أيّاً يكن ما فعلَته.

آلمتني تلك الفكرة. فصرفتها عن ذهني، وركّزت على ما يدور أمامي. وُضعت على الطاولة خلف إيفلين خارطة كبيرة انتشرت عليها علامات. من الواضح أنّها خارطة للمدينة، لكنّني لست واثقة إلام ترمز العلامات. عُلّقت على الجدار خلفها سبّورة تظهر رسماً بيانياً، كُتبت عليه معلومات غامضة باختصارات لا أعرفها.

"فهمت". بقيت ابتسامة إيفلين، لكن اختفت منها ملامح التسلية. "عرّفني إذاً على أصدقائك اللاجئين".

انخفضت نظراتها إلى يدينا المتشابكتين. فترك توبياس يدي وأشار إليّ أوّلاً. "هذه تريس برايور، وهذا أخوها، كاليب، وصديقتهما سوزان بلاك".

قالت: "برايور. أعرف عدّة أشخاص من هذه الأسرة، لكن لا أعرف أحداً يدعى تريس. أمّا بياتريس..."

قلت: "وأنا أعرف عدّة أشخاص أحياء من أسرة إيتون، لكن لا أعرف أحداً يدعى إيفلين".

"أفضّل اسم إيفلين جونسون، لا سيّما بين مجموعة من نكران الذات".

"وأنا أفضّل اسم تريس، كما أنّنا لسنا من نكران الذات، ليس جميعنا على أيّ حال".

رمقت إيفلين توبياس قائلة: "أصدقاؤك شيّقون".

قال كاليب من خلفي: "أهذا تعداد للسكّان؟" تقدّم فاغراً فاه. "و... ما هذا؟ مخابئ المنبوذين؟" وأشار إلى أوّل خطّ في الرسم البياني، الذي كُتب عليه *7......... esH nrG*. "أعني هذه الأماكن على الخارطة؟ إنّها مخابئ كهذا، أليس كذلك؟"

رفعت إيفلين أحد حاجبيها قائلة: "أنت تطرح كثيرا من الأسئلة". عرفتُ هذا التعبير، فهو ينتمي إلى توبياس، شأنه شأن بُغضها للأسئلة. "لأغراض أمنية، لن أجيب على أيّ منها. على كلّ حال، حان وقت العشاء".

أشارت إلى الباب، فتوجّه سوزان وكاليب نحوه، وتبعتُهما، ومن خلفي توبياس وأمّه. عدنا أدراجنا عبر متاهة الآلات.

قالت بصوت منخفض: "أنا لست غبية. أعرف أنّك لا تريد التعاطي معي على الإطلاق، ومع أنّني ما زلت أجهل السبب-"

ضحك توبياس ساخراً.

تابعت تقول: "لكنّني سأجدّد دعوتي. يمكننا الاستفادة من مساعدتك هنا، وأعرف أنّ رأيك بنظام الجماعات مشابه لرأيي-"

قال توبياس: "إيفلين، لقد اخترت الشجاعة".

"يمكنك الاختيار مجدّداً".

"ما الذي يجعلك تظنّين أنّني مهتمّ بتمضية وقت *بالقرب* منك؟"

سمعت خطواته تتوقّف، فأبطأت من سرعتي لأسمع ردّها.

"لأنّني أمّك". قالت ذلك، بصوت متهدّج وضعيف على نحو غير معهود. "لأنّك ابني".

"أنت لا تفهمين. ليس لديك أيّ فكرة عمّا فعلته بـي". بدا مقطوع الأنفاس. "أنا لا أريد الانضمام إلى عصبتك الصغيرة من المنبوذين، بل أودّ الخروج من هنا بأسرع ما يمكن".

"عصبتي *الصغيرة* من المنبوذين هي بضعف حجم جماعة الشجاعة. من الأفضل لك أن تأخذها على محمل الجدّ، لأنّ أفعالها قد تحدّد مستقبل هذه المدينة".

بعد أن قالت ذلك، تجاوزته، وتجاوزتني. تردّدت كلماتها في رأسي: *بضعف حجم جماعة الشجاعة*. متى أصبحوا بهذا العدد؟

نظر إليّ توبياس، بحاجبيه المنخفضين.

سألته: "منذ متى وأنت تعرف؟"

"منذ عام تقريباً". استند إلى الجدار، وأغمض عينيه. "أرسلَت إليّ رسالة مشفّرة وأنا في مجمّع الشجاعة، وطلبت منّي لقاءها في باحة

القطار. ذهبتُ، بداعي الفضول، ووجدتها هناك. كانت حيّة ترزق. غير أنّ اللقاء لم يكن سعيداً، كما تتخيّلين على الأرجح".

"ولماذا تركَت نكران الذات؟"

"بسبب علاقة غرامية". هزّ رأسه مضيفاً: "ولا عجب في ذلك، لأنّ أبـي..." هزّ رأسه مجدّداً. "حسناً، لنقل إنّ ماركوس لم يكن يحسن معاملتها أكثر منّي".

"هل... أنت غاضب منها لهذا السبب؟ لأنّها خانته؟"

فتح عينيه وأجاب بصوت صارم جدّاً: "كلاّ، ليس لهذا السبب".

اقتربت منه كما لو كنت أقترب من حيوان برّي، وأحسب حساب كلّ خطوة أخطوها على الأرض الإسمنتية. "لماذا إذاً؟"

"أفهم أنّها أرادت أن تترك أبـي. لكن هل فكّرت بأخذي معها؟"

زممت شفتيّ. "آه، تركتك *معه*".

تركته وحده مع أسوأ كوابيسه. لا عجب أن يحقد عليها.

"أجل". ركل الأرض، وأضاف: "هذا ما فعلته".

مددت يدي لأمسك بيده، فشبك أصابعه بأصابعي بحيث ملأ الفراغات بينها. أدركت أنّ هذه الأسئلة تكفي في الوقت الراهن، فتركت الصمت يخيّم علينا إلى أن قرّر الكلام.

قال: "يبدو لي أنّه من الأفضل لنا مصادقة المنبوذين عوضاً عن معاداتهم".

"ربّما، لكن ماذا سيكون ثمن تلك الصداقة؟"

هزّ رأسه مجيباً: "لا أدري، غير أنّنا قد لا نملك خياراً آخر".

الفصل التاسع

أشعل أحد المنبوذين ناراً لكي نتمكّن من تسخين الطعام. من أرادوا الأكل جلسوا في حلقة حول وعاء معدني يحتوي على النار، فقاموا أوّلاً بتسخين المعلّبات، ثمّ مرّروا الملاعق، والأشواك، والمعلّبات بين بعضهم البعض ليتمكّن الجميع من تناول لقمة من كلّ شيء. حاولت عدم التفكير بعدد الأمراض التي يمكن أن تنتشر بهذه الطريقة وأنا أغمس ملعقتي في علبة حساء.

جلس إدوارد على الأرض بالقرب منّي، وأخذ علبة الحساء من بين يديّ.

"إذاً الجميع أتى من نكران الذات؟" ألقى عدداً من قطع المعكرونة وقطعة جزر في فمه، ومرّر العلبة إلى امرأة جالسة إلى يساره.

أجبت: "كنّا. لكن كما ترى، أنا وتوبياس انتقلنا، و..." فجأة، انتبهت إلى أنّه لا يجدر بـي إخبار أحد أنّ كاليب انضمّ إلى المعرفة. "كاليب وسوزان ما زالا في نكران الذات".

قال: "وهو أخوك. تركت أسرتك لتصبحي من الشجعان؟"

أجبته بانـزعاج: "تبدو مثل أعضاء النـزاهة. هلاّ احتفظت بأحكامك لنفسك؟"

مالت تيريز قائلة: "في الواقع، كان من جماعة المعرفة، وليس النـزاهة".

قلت: "أجل، أعرف، أنا-"

قاطعتني قائلة: "وأنا أيضاً، لكنّني رحلت عنهم".

"ماذا جرى؟"

"لم أكن ذكية بما فيه الكفاية". هزّت كتفيها، وأخذت علبة فاصولياء من إدوارد، ثمّ غمست ملعقتها فيها. "لم أحصل على مجموع عالٍ بما فيه الكفاية في اختبار الذكاء في فترة التلقين. لذلك قالوا لي: إمّا أن تمضي بقيّة حياتك في تنظيف مختبرات الأبحاث، أو أن ترحلي. وهكذا رحلت".

نظرت إلى الأسفل، ولعقت ملعقتها التي خرجت نظيفة من فمها. أخذت منها الفاصولياء وأعطيتها لتوبياس، الذي كان يحدّق إلى النار.

سألت: "وهل بينكم كثيرون من المعرفة؟"

هزّت تيريز رأسها مجيبة: "معظمنا من الشجاعة، في الواقع". وأشارت برأسها نحو إدوارد، الذي علا وجهه العبوس. "ومن ثمّ المعرفة، والنـزاهة، وحفنة من الوئام. وبما أنّ أحداً لا يرسب في تلقين نكران الذات، ليس لدينا سوى بضعة أشخاص منهم، باستثناء عدد من الذين لم يُقتلوا في هجوم المحاكاة، ولجأوا إلينا".

قلت: "لا أظنّ أنّ عدد الشجعان الكبير يفاجئني".

"أجل في الواقع. فتدريباتكم هي الأسوأ، هذا فضلاً عن مسألة الشيخوخة".

سألتها: "الشيخوخة؟" نظرت إلى توبياس، الذي كان يصغي إلى الحديث الآن، ويبدو طبيعياً تقريباً، وقد بدت عيناه داكنتين في ضوء اللهب.

قال: "عندما يبلغ الشجعان مستوى معيّناً من التدهور الجسدي، يُطلب منهم الرحيل بشكل أو بآخر".

"وما هو الشكل الآخر؟" أخذ قلبـي ينبض، كما لو أنّني عرفت الجواب مسبقاً.

قال توبياس: "فلنقل إنّ البعض يفضّلون الموت على التشرّد".

قال إدوارد: "هؤلاء أغبياء. أنا أفضّل التشرّد على جماعة الشجاعة".

قال توبياس ببرود: "من حظّك إذاً أنّ مصيرك آل إلى هنا".
ضحك إدوارد ساخراً: "من حظّي؟ نعم، أنا محظوظ بعيني العوراء وكلّ ما أنا فيه".
قال توبياس: "سمعت شائعات على ما أذكر تفيد أنّك أنت من افتعل ذلك الهجوم".
قلت: "ما الذي تقوله؟ لقد فاز، هذا كلّ شيء. فشعر بيتر بالغيرة، وقام..."
رأيت ابتسامة على وجه إدوارد، فتوقّفت عن الكلام. ربّما كنت أجهل تفاصيل ما حدث خلال التلقين.
قال إدوارد: "وقع حادث محرّض، لم يخرج منه بيتر منتصراً. غير أنّه بالتأكيد لا يبرّر غرز سكّين في العين".
قال توبياس: "كفى جدلاً. إن كان الخبر يريحك، فقد أصيب برصاصة في ذراعه عن بعد قدم خلال هجوم المحاكاة".
يبدو أنّ الخبر أراح إدوارد بالفعل لأنّ ابتسامته رسمت خطّاً أعمق في وجهه.
سأل: "ومن فعل ذلك؟ أنت؟"
هزّ توبياس راسه مجيباً: "بل تريس".
قال إدوارد: "حسناً فعلتِ".
أومأت برأسي، لكنّني شعرت بالغثيان لأنّني أتلقّى تهنئة على ذلك. في الواقع، ليس إلى هذا الحدّ. فهذا بيتر، بعد كلّ شيء.
حدّقت إلى ألسنة اللهب التي كانت تلتهم أجزاء الحطب. تحرّكت وتلوّت، مثل أفكاري. تذكّرت أوّل مرّة أدركت فيها أنّني لم أرَ عجوزاً بين الشجعان، وأنّ سنّ أبـي لا يسمح له بتسلّق ممرّات السرداب. بدأت أفهم الأمور الآن أكثر ممّا أريد.

سأل توبياس إدوارد: "هل تعرف شيئاً عمّا يجري الآن؟ هل اصطفّ كلّ أعضاء الشجاعة مع المعرفة؟ وهل فعلت جماعة النـزاهة شيئاً؟"

تحدّث إدوارد، وفمه مليء بالطعام: "جماعة الشجاعة منقسمة، نصفها في مقرّ المعرفة، والنصف الآخر في مقرّ النـزاهة. أمّا من بقي من نكران الذات، فهم معنا. لم يحدث الكثير بعد، باستثناء ما جرى معكم، على ما أظنّ".

أومأ توبياس برأسه. أحسست بشيء من الارتياح عندما عرفت أنّ نصف الشجعان على الأقلّ ليسوا خونة.

أكلت ملعقة تلو الأخرى، حتّى شبعت. بعد ذلك، أحضر لنا توبياس صناديق وبطّانيات للنوم، فعثرت على زاوية فارغة لنستلقي فيها. عندما انحنى ليفكّ رباط حذائه، بان رمز الوئام على أسفل ظهره، والتفّت أغصانه فوق عموده الفقري. حين استقام، مشيت فوق البطّانيات، وأحطته بذراعيّ، ومرّرت أصابعي فوق الأوشام.

تخيّلت عين المعرفة المحدّقة، وميزان النـزاهة غير المتوازن، ويدي نكران الذات المتشابكتين، ونيران الشجاعة.

قال: أتمنّى لو كنّا وحدنا".

"هذا ما أتمنّاه دوماً".

* * *

غفوت على أصوات الأحاديث البعيدة. هذه الأيّام، أنام بسهولة أكبر عند وجود أصوات حولي. فأركّز على الصوت عوضاً عن الأفكار التي قد تتسلّل إلى رأسي في السكون. فالضوضاء والحركة هما ملجأ الحزانى والمذنبين.

عندما استيقظت، كانت النيران قد أصبحت مجرّد وميض ضعيف، ولم يبقَ سوى عدد قليل من المنبوذين غير نيام. استغرقت بضع ثوان لأفهم لماذا استفقت، فقد سمعت صوتَي إيفلين وتوبياس على بعد خطوات منّي. بقيت ساكنة، وتمنّيت ألاّ يكتشفا أنّني واعية.

قال: "عليك إخباري بما يجري هنا إن كنت تتوقّعين منّي التفكير بمساعدتكم. مع أنّني ما زلت غير واثق ماذا تريدين منّي".

رأيت ظلّ إيفلين يتراقص على الجدار بفعل وهج النار. كانت نحيلة وقوية، مثل توبياس تماماً. لفّت شعرها حول أصابعها وهي تتكلّم.

"ماذا تودّ أن تعرف بالضبط؟"

"أخبريني عن الرسم البياني، والخارطة".

أجابت: "كان صديقك على حقّ في اعتقاده أنّ الخارطة والرسم البياني يُظهران مخابئنا. لكنّه مخطئ بشأن تعداد السكّان... إلى حدّ ما. فالأعداد لا توثّق جميع المنبوذين، بل بعضهم وحسب. وأنا واثقة أنّك تستطيع أن تخمّن من منهم".

"لست في مزاج للتخمين".

تنهّدت مجيبة: "الجامحون. نحن نوثّق أعداد الجامحين".

"وكيف تعرفونهم؟"

"قبل هجوم المحاكاة، تضمّن جزء من جهود المساعدة التي قدّمتها جماعة نكران الذات إجراء اختبارات على المنبوذين بحثاً عن شذوذ وراثي معيّن. في بعض الأحيان، كان يتضمّن ذلك إعادة إخضاع الشخص لاختبار الجدارة. وفي أحيان أخرى، كان الأمر أكثر تعقيداً. لكنّهم شرحوا لنا أنّهم يشتبهون بوجود أعلى نسبة من الجامحين بيننا".

"لا أفهم. لماذا-"

"لماذا نملك أعلى نسبة من الجامحين؟" بدا صوتها ساخراً. "بالطبع، من يعجزون عن حبس أنفسهم ضمن نمط تفكير معيّن هم الأكثر ميلاً إلى مغادرة الجماعة أو الفشل في تدريباتها، أليس كذلك؟"

قال توبياس: "ليس هذا ما عنيته. أريد أن أعرف لماذا تهتمّون بعدد الجامحين".

"جماعة المعرفة تبحث عن الطاقة البشرية، وقد وجدوها مؤقّتاً لدى الشجعان. غير أنّهم سيبحثون عن المزيد، وسنكون نحن الخيار التالي، ما لم يكتشفوا أنّنا نملك من الجامحين أكثر من أيّ مجموعة أخرى. وفي حال لم يفعلوا، أودّ أن أعرف كم لدينا من الأشخاص المقاومين للمحاكاة".

"حسناً، لكن لماذا كانت جماعة نكران الذات مهتمّة إلى هذا الحدّ بإيجاد الجامحين؟ هم لا يريدون مساعدة جانين، أليس كذلك؟"

أجابت: "بالطبع لا، لا أدري في الواقع. فنكران الذات يمتنعون عن إعطاء معلومات لمجرّد إرضاء الفضول. ولا يقولون لنا سوى ما يجب أن نعرفه برأيهم".

تمتم قائلاً: "هذا غريب".

"ربّما يجدر بك أن تسأل أباك عن ذلك، فهو من أخبرني عنك".

"عنّي؟ ماذا عنّي؟"

"أخبرني عن شكوكه أنّك جامح. فقد كان يراقبك دائماً، ويتابع سلوكك. كان شديد الانتباه إليك. لهذا السبب... لهذا السبب ظننت أنّك ستكون أكثر أماناً معه، أكثر أماناً معه منّي".

لم يقل توبياس شيئاً.

"أرى الآن أنّني كنت مخطئة".

بقي صامتاً.

"أتمنّى-"

قاطعها بصوت مرتجف: "إيّاك والاعتذار. هذا ليس جرحاً يمكنك تضميده بكلمة أو اثنتين، وببعض العناق، وما إلى ذلك".

"حسناً، حسناً. لن أفعل".

"ألهذا السبب يتّحد المنبوذون؟ ماذا تنوون أن تفعلوا؟"

"نريد الانقلاب على جماعة المعرفة. ما إن نتخلّص منهم، لن يبقى أمامنا الكثير لنسيطر على الحكم".

"أهذا ما تتوقّعين منّي مساعدتك فيه؟ الإطاحة بحكومة فاسدة وتنصيب طغاة منبوذين مكانها؟" ضحك ساخراً. "هذا مستحيل".

"نحن لا نريد أن نكون طغاة، بل نريد تأسيس مجتمع جديد بلا جماعات".

جفّ فمي. بلا جماعات؟ عالم لا يعرف فيه الإنسان من هو أو إلى أين ينتمي؟ لم أستطع أن أتخيّل ذلك، بل كلّ ما خطر في بالي هو الفوضى والعزلة.

ضحك توبياس. "صحيح. وكيف ستنقلبون على المعرفة؟"

"في بعض الأحيان، يحتاج التغيير الجذري إلى تدابير جذرية". ارتفع كتف ظلّ إيفلين. "أتخيّل أنّ الأمر سيشتمل على مستوى عالٍ من الدمار".

ارتجفت وأنا أسمع كلمة دمار. أشعر في مكان ما، في الأجزاء المظلمة منّي، أنّني أتوق إلى الدمار، ما دام موضوعه هو جماعة المعرفة. لكنّ هذه الكلمة أصبحت تحمل معنى جديداً بالنسبة إليّ، بعدما جرى مؤخّراً: جثث بملابس رمادية ملقاة على الأرصفة والطرقات، وزعماء نكران الذات يُقتلون في حدائق منازلهم، بالقرب من صناديق البريد.

ضغطت وجهي على الصندوق الذي كنت ممدّدة فوقه بقوّة آلمت جبيني، لمجرّد طرد تلك الذكريات بعيداً، *بعيداً*.

قالت إيفلين: "أمّا لماذا نحتاجك، في الواقع لكي ننفّذ هذه الخطّة، نحتاج إلى مساعدة الشجعان. فهم يملكون الأسلحة والخبرة القتالية. وأنت قادر على ردم الهوّة بيننا وبينهم".

"هل تعتقدين أنّني مهمّ عندهم؟ أنا لست كذلك. أنا مجرّد شخص لا يهاب الكثير".

قالت: "ما أعنيه هو أن *تصبح* مهمّاً". وقفت، وامتدّ ظلّها من السقف إلى الأرض. "أنا واثقة أنّك تستطيع إيجاد طريقة لذلك، إن أردت. فكّر في الأمر".

أبعدت شعرها المجعّد إلى الخلف، وعقصته. "الباب مفتوح دوماً".

بعد بضع دقائق، تمدّد بجانبي. لم أكن أرغب في الاعتراف أنّني كنت أتنصّت عليهما، لكنّني رغبت في إخباره أنّني لا أثق بإيفلين، ولا بالمنبوذين، ولا بأيّ شخص يتحدّث بهذا البرود عن إبادة جماعة بأكملها.

لكن قبل أن أستجمع الشجاعة للكلام، هدأت أنفاسه، واستغرق في النوم.

الفصل العاشر

مرّرت يدي على الجهة الخلفية من عنقي لأرفع شعري الملتصق ببشرتي. كان جسدي يؤلمني بأكمله، لا سيّما ساقاي، اللتان تؤلمهما قلّة الحركة. كما أنّ رائحتي لم تكن طيّبة، فأنا بحاجة إلى الاستحمام.

مشيت في القاعة، ودخلت الحمّام. إلاّ أنّني لم أكن الوحيدة التي رغبت في الاستحمام. فقد وجدت مجموعة من النساء الواقفات أمام المغاسل، نصفهنّ عاريات، ونصفهنّ الآخر غير منـزعجات إطلاقاً من ذلك. وجدت مغسلة خالية في الزاوية، فوضعت رأسي تحت الحنفية، وتركت الماء البارد يسيل فوق أذنيّ.

قالت سوزان: "مرحباً". فالتفتّ جانباً، وانسكب الماء على خدّي وفي أنفي. كانت تحمل منشفتين، واحدة بيضاء والأخرى رمادية، أطرافهما بالية.

قلت: "أهلاً".

قالت: "عندي فكرة". أدارت ظهرها لي وحملت منشفة بحيث أخفتني عن البقيّة. فتنهّدت مرتاحة لحصولي على بعض الخصوصية، بقدر ما هو ممكن على الأقلّ.

خلعت ملابسي بسرعة، ثمّ تناولت الصابونة الموضوعة على المغسلة.

سألتني: "كيف حالك؟"

"أنا بخير". أعرف أنّها تسأل لأنّ تقاليد الجماعة تملي عليها ذلك. تمنّيت لو أنّها تتكلّم معي بحرّية. "كيف حالك، سوزان؟"

أجابت، بينما كنت أفرك شعري بالصابون: "أنا أفضل. قالت لي تيريز إنّه ثمّة مجموعة كبيرة من اللاجئين المنتمين إلى نكران الذات في أحد مخابئ المنبوذين".

وضعت رأسي تحت الحنفية مجدّداً، ورحت أدلّكه هذه المرّة بيدي اليسرى لإزالة الصابون عنه. "آه؟ وهل ستذهبين؟"

"أجل، إلاّ إن كنتم بحاجة إلى مساعدتي".

أجبتها وأنا أغلق الحنفية: "شكراً على العرض، لكنّ جماعتك تحتاج إليك أكثر". أتمنّى لو أنّني لست مضطرة إلى ارتداء ملابسي. فالجوّ حارّ جدّاً على سروال الجينـز. غير أنّني تناولت المنشفة الأخرى عن الأرض وجفّفت نفسي بسرعة.

ارتديت القميص الأحمر الذي خلعته منذ قليل. لم أكن أرغب في ارتداء ملابس متّسخة مجدّداً، لكن لا خيار لديّ.

قالت سوزان: "أظنّ أنّ بعض النساء المنبوذات يملكن ملابس احتياطية".

"أنت محقّة على الأرجح. حسناً، حان دورك".

حملت المنشفة لسوزان وهي تغتسل. بدأت ذراعاي تؤلمانني بعد برهة، لكن مثلما تجاهلت الألم من أجلي، سأتجاهله من أجلها. تساقط رذاذ الماء على كاحلي وهي تغسل شعرها.

قلت بعد قليل: "لم أفكّر يوماً أن نجد أنفسنا معاً في هذا الوضع، ونستحمّ على مغسلة في مبنى مهجور، ونحن هاربتان من جماعة المعرفة".

قالت سوزان: "كنت أظنّ أنّنا سنعيش بجوار بعضنا، ونذهب إلى المناسبات الاجتماعية معاً، ونرسل أطفالنا إلى محطّة الباص معاً".

عضضت على شفتي. هذا خطأي بالطبع ألاّ يتحقّق هذا الأمر أبداً، لأنّني اخترت جماعة أخرى.

قالت: "أنا آسفة، لم أكن أقصد فتح هذا الموضوع. غير أنّني أشعر بالأسف لأنّني لم أنتبه أكثر. لو فعلت، لكنت عرفت ربّما ما تمرّين به. لقد تصرّفت بأنانية".

ضحكت قليلاً. "سوزان، لا خطأ في ما فعلتِه".

"لقد انتهيت، هلاّ ناولتني تلك المنشفة؟"

أغمضت عينيّ، واستدرت لكي تأخذ منّي المنشفة. عندما دخلت تيريز إلى الحمّام، لتسرّح شعرها على شكل ضفيرة، طلبت منها سوزان ملابس.

عندما غادرنا الحمّام، كنت أرتدي سروال جينـز، وقميصاً أسود ذا ياقة واسعة تنـزلق عن كتفيّ. أمّا سوزان، فارتدت سروال جينـز واسعاً وقميصاً أبيض من قمصان النـزاهة بياقة عالية، أغلقتها حتّى عنقها. كان أعضاء نكران الذات محتشمون إلى أبعد الحدود.

عندما دخلت القاعة الكبيرة مجدّداً، كان بعض المنبوذين يمشون حاملين عبوات الطلاء والفراشي. راقبتهم إلى أن أُغلق الباب خلفهم.

قالت إيفلين من خلفي: "إنّهم ذاهبون لكتابة رسالة على المخابئ الأخرى، على إحدى اللوحات الإعلانية. ستكون عبرة عن رموز مكوّنة من معلومات شخصية، كاللون المفضّل، أو الحيوان الأليف الذي اعتنوا به في طفولتهم".

لم أفهم لماذا تخبرني عن رموز المنبوذين إلى أن استدرت. رأيت في عينيها نظرة مألوفة مثل تلك التي رأيتها في عينيّ جانين عندما أخبرت توبياس أنّها طوّرت مصلاً للسيطرة عليه: الفخر.

قلت: "فكرتكم ذكية".

"كانت كذلك في الواقع". هزّت كتفيها، لكنّها لم تخدعني. فهي لم تكن غير مكترثة إطلاقاً. "لقد كنت من المعرفة قبل أن أنضمّ إلى نكران الذات".

"آه، أظنّ أنّك لم تتمكّني إذاً من مواكبة حياة الأوساط الاجتماعية".

لم تلتقط الطعم. "شيء من هذا القبيل، أجل". صمتت قليلاً، ثمّ أضافت: "أظنّ أنّ أباك رحل للسبب نفسه".

كنت على وشك الالتفات عنها لإنهاء المحادثة، لكنّ كلامها ولّد نوعاً من الضغط في ذهني، كما لو كانت تعصر رأسي بين يديها. فحدّقت إليها مذهولة.

عبسَت متسائلة: "ألم تعرفي؟ أنا آسفة، نسيت أنّ أعضاء الجماعات نادراً ما يتحدّثون عن جماعاتهم القديمة".

سألتها بصوت ضعيف: "ماذا؟"

"لقد ولد أباك في جماعة المعرفة. وكان والداه على علاقة طيّبة بوالدَي جانين ماثيوس، قبل وفاتهما. حتّى إنّ أباك وجانين كانا يلعبان معاً في طفولتهما. كنت أراقبهما وهما يمرّران الكتب لبعضهما في المدرسة".

تخيّلت أبـي، وقد أصبح رجلاً ناضجاً، يجلس بالقرب من جانين الشابّة، إلى طاولة الغداء في الكافتيريا القديمة، وبينهما كتاب. كانت الفكرة سخيفة، بحيث دفعتني تقريباً إلى الضحك. لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً.

مع ذلك...

مع ذلك، فهو لم يتحدّث يوماً عن أسرته أو طفولته.

كما أنّه لم يكن يتمتّع بذلك السلوك الهادئ الذي يملكه شخص نشأ في جماعة نكران الذات.

وكانت كراهيته لجماعة المعرفة شديدة إلى حدّ أنّ أسبابها قد تبدو *شخصية*.

قالت إيفلين: "أنا آسفة، بياتريس. لم أكن أقصد فتح الجروح".

عبست مجيبة: "بلى، تقصدين".

"ماذا تعنين-"

أجبتها بصوت منخفض: "أصغي إليّ جيّداً". تحقّقت من خلف كتفها من عدم وجود توبياس وأنّه لا يسمعني. لم أرَ سوى كاليب وسوزان جالسين على الأرض في الزاوية، يمرّران مرطباناً من زبدة الفول السوداني لبعضهما البعض، لكن لا أثر لتوبياس.

قلت: "أنا لست غبية، بل أفهم تماماً أنّك تحاولين استغلاله. وسأخبره بذلك ما لم يكن قد فهم أساساً".

قالت: "يا بنيّتي، أنا أسرته. أنا دائمة، أمّا أنت فلست سوى عابرة".

"حقّاً؟ أمّه تخلّت عنه ووالده ضربه. كيف يمكن ألاّ يكون ولاؤه لدمه، ولأسرة كهذه؟"

ابتعدت عنها، بيدين مرتعشتين، وجلست بالقرب من كاليب على الأرض. كانت سوزان قد نهضت، لتساعد إحدى المنبوذات في التنظيف. مرّر لي مرطبان زبدة الفول السوداني، فغتذكّرت صفوف نباتات الفول السوداني في البيوت الزجاجية لدى جماعة الوئام. كانوا يزرعون الفول السوداني لأنّه غني بالبروتينات والدهون، وهما عنصران مهمّان للمنبوذين بشكل خاصّ. غرفت بعضاً من الزبدة بأصابعي وأكلتها.

هل يجب أن أخبره بما قالته إيفلين للتوّ؟ لا أريده أن يعتقد أنّ المعرفة تجري في دمه. لا أريد إعطاءه أيّ سبب للعودة إليهم.

هكذا، قرّرت أن أحتفظ بهذه المعلومة لنفسي في الوقت الراهن.

قال كاليب: "كنت أرغب في التحدّث معك".

هززت رأسي، وأنا ألعق الزبدة العالقة على سقف حلقي.

قال: "تريد سوزان الذهاب لرؤية جماعة نكران الذات، وأنا كذلك. كما أنّني أودّ التأكّد أنّها بخير. لكنّني لا أرغب في تركك".

قلت: "لابأس بذلك".

"لماذا لا تأتين معنا؟ سيرحّب أعضاء نكران الذات بعودتك، أنا واثق من ذلك".

وأنا أيضاً، فالناكرون للذات لا يحقدون على أحد. غير أنّني كنت أترنّح على حافة هاوية الحزن، وإن عدت إلى جماعة أمّي وأبـي القديمة، سأسقط حتماً.

بهززت رأسي رافضة. "يجب أن أذهب إلى مقرّ النـزاهة لمعرفة ما يجري، فأنا أكاد أجنّ. لكن عليك الذهاب، فسوزان بحاجة إليك. صحيح أنّها تبدو أفضل حالاً، لكنّها ما زالت تحتاج إلى دعمك".

هزّ كاليب رأسه موافقاً: "حسناً، سأحاول اللحاق بك، لكن كوني حذرة".

"أولست كذلك دائماً؟"

"كلاّ، أظنّ أنّ الكلمة المناسبة لك عادة هي متهوّرة".

شدّ كاليب على كتفي السليم بخفّة، بينما غرفت المزيد من الزبدة بأصابعي.

خرج توبياس من حمّام الرجال بعد بضع دقائق، وقد بدّل قميص الوئام الأحمر بقميص قطني أسود، وبدا شعره القصير رطباً. التقت نظراتنا، وعرفت أنّ وقت الرحيل قد حان.

* * *

كان مقرّ النـزاهة كبيراً بما فيه الكفاية لاحتواء عالم بأكمله، أو هكذا بدا لي.

يشرف البناء الإسمنتي الواسع على ما كان نهراً في ما مضى. واللافتة التي كُتب عليها "المركز الـ ري" كانت في الماضي "المركز التجاري" لكنّ معظم الناس يسمّونه مركز عديمي الرحمة لأنّ جماعة النـزاهة لا ترحم، لكنّها صادقة. ويبدو أنّهم تبنّوا هذا اللقب.

لم أعرف ماذا أتوقّع، لأنّني لم أدخل إليه أبداً. وقفنا أنا وتوبياس في الخارج، ونظرنا إلى بعضنا.

قال: "ها قد وصلنا".

لم أستطع رؤية شيء يتجاوز انعكاس صورتي على الأبواب الزجاجية. بدوت متعبة وقذرة. وللمرّة الأولى، يخطر لي أنّنا لسنا مضطرّين لفعل أيّ شيء. يمكننا الاختباء مع المنبوذين، وترك البقية يزيلون هذه الفوضى. يمكننا أن نكون لا أحد، آمنَين معاً.

لم يكن قد أخبرني بعد بالحديث الذي دار بينه وبين أمّه في الليلة الماضية، ولا أظنّ أنّه سيفعل. بدا متحمّساً جدّاً للذهاب إلى مقرّ النـزاهة، بحيث بدأت أتساءل ما إذا كان يخطّط لشيء ما من دوني.

لا أعرف لماذا دخلت من الباب. ربّما رأيت أنّنا ما دمنا قد وصلنا إلى هذا الحدّ، يمكننا الدخول لرؤية ما يجري. لكنّني شككت أنّ السبب يرجع إلى قدرتي على التمييز بين الخطأ والصواب. فبما أنّني جامحة، لا يمكنني أن أكون إنسانة عادية، ولا وجود للأمن في حياتي، كما أنّ لديّ كثيراً من المشاغل التي تعدّ أهمّ من تمضية الوقت مع توبياس. وكذلك الأمر بالنسبة إليه على ما يبدو.

كانت الردهة كبيرة وحسنة الإضاءة، أرضيّتها مكسوّة بالرخام الأسود الذي يمتدّ ليصل إلى أحد المصاعد. احتلّ رمز النـزاهة المرسوم بالبلاط

الأبيض وسط القاعة، وكان عبارة عن كفّتين غير متوازنتين ترمزان إلى وزن الحقيقة مقابل الكذب. كانت القاعة تعجّ بالشجعان المسلّحين.

اقتربت منّا جندية ربطت ذراعها بحمّالة، ثمّ رفعت بندقيتها، وصوّبتها على توبياس.

قالت: "عرّفا عن نفسيكما". كانت شابّة، لكن ليس بما فيه الكفاية لتعرف توبياس.

اجتمع الآخرون خلفها. رمَقَنا بعضهم بريبة، والباقون بفضول، لكنّ الأغرب هو الوميض الذي رأيته في أعين البعض، دليلاً على تعرّفهم على توبياس ربّما، لكن كيف لهم أن يعرفونني.

قال: "أنا فور". ثمّ أشار نحوي قائلاً: "وهذه تريس، وكلانا ننتمي إلى جماعة الشجاعة".

نظرت إلينا الجندية بدهشة لكنّها لم تخفض بندقيتها.

هتفت: "أحتاج إلى بعض المساعدة هنا". اقترب بعض الشجعان، لكن بحذر، كما لو كنّا نشكّل خطراً.

قال توبياس: "هل من مشكلة؟"

"هل أنتما مسلّحان؟"

"بالطبع أنا مسلّح. أولست من الشجعان؟"

قالت بعنف، كما لو كانت تتوقّع الرفض: "ارفعا أيديكما". نظرت إلى توبياس. لماذا يتصرّف الجميع كما لو كنّا على وشك مهاجمتهم؟

قلت ببطء: "لقد دخلنا من الباب الأمامي. هل تظنّون أنّنا كنّا سنفعل ذلك لو أنّنا أتينا لإيذائكم؟"

لم يبادلني توبياس النظر، بل اكتفى بوضع يديه على مؤخّر رأسه. وبعد لحظة، فعلت مثله. تجمّع حولنا جنود الشجاعة، وقام أحدهم بتفتيش ساقَي توبياس، بينما أخذ الآخر المسدّس الموضوع تحت حزامه.

وقف أمامي جندي آخر، ذو وجه مستدير وخدّين ورديين، ونظر إليّ باعتذار.

قلت: "لديّ سكّين في جيبـي الخلفي. إن لمستني، ستندم".

تمتم معتذراً، ومدّ أصابعه لسحب السكّين بحرص شديد متجنّباً لمسي.

سألهم توبياس: "ماذا يجري؟"

تبادلت الجندية النظرات مع بعض الجنود الآخرين.

قالت: "أنا آسفة، لكنّنا أُمرنا باعتقالكما فور وصولكما".

الفصل الحادي عشر

أحاطوا بنا، لكنّهم لم يكبّلوا أيدينا، واقتادونا إلى المصاعد. ومع أنّني سألت مرّات عديدة عن سبب اعتقالنا، إلاّ أنّ أحداً لم يقل شيئاً أو ينظر إليّ على الأقلّ. أخيراً استسلمت والتزمت الصمت، كما فعل توبياس.

وصلنا إلى الطابق الثالث، واقتادونا من هناك إلى غرفة صغيرة ذات أرضية من الرخام الأبيض، عوضاً عن الأسود. اقتصر أثاثها على مقعد موضوع أمام الجدار الخلفي. كانت كلّ جماعة تملك غرف اعتقال لمسبّبـي المتاعب، لكنّني لم أدخل تلك الغرف من قبل.

أغلقوا الباب خلفنا، وأوصدوه، فأصبحنا وحدنا مجدّداً.

جلس توبياس على المقعد، مقطّب الجبين، بينما رحت أمشي أمامه ذهاباً وإياباً. لو كان يملك أدنى فكرة عن سبب وجودنا هنا، لأخبرني، لذلك لن أسأل. مشيت خمس خطوات إلى الأمام، وخمساً إلى الخلف، مراراً وتكراراً، بالوتيرة نفسها، على أمل أن أفهم شيئاً.

ما دامت المعرفة لم تسيطر على جماعة النـزاهة، وهذا ما قاله إدوارد، فلماذا تعتقلنا جماعة النـزاهة؟ ماذا فعلنا لهم؟

إن كانت المعرفة لم تسيطر عليهم، فالجريمة الوحيدة المتبقّية هي الاصطفاف معهم. هل فعلتُ شيئاً يمكن تفسيره على أنّه اصطفاف مع المعرفة؟ عضضت على شفتي السفلية بقوّة آلمتني. أجل، فعلت. لقد قتلتُ ويل، فضلاً عن عدد من الشجعان الآخرين. صحيح أنّهم كانوا تحت تأثير المحاكاة، لكن ربّما كانت النـزاهة لا تعرف بذلك، أو تعتقد أنّه ليس مبرّراً كافياً.

قال توبياس: "هلاّ هدأت من فضلك، أنت تثيرين أعصابـي".

"هذا ما أحاول فعله".

انحنى إلى الأمام، وأسند مرفقيه على ركبتيه، ثمّ ركّز نظره بين قدميه، وقال: "شفتك المجروحة تخالفك الرأي".

جلست بالقرب منه، واحتضنت ركبتيّ بإحدى ذراعيّ، بينما تدلّت الذراع اليمنى إلى جانبـي. بقي صامتاً لمدّة طويلة، بينما أخذت ذراعي تشتدّ أكثر حول ساقيّ. أحسست أنّني كلّما أصبحت أصغر حجماً، سأكون أكثر أماناً.

قال: "أخشى أحياناً أنّك لا تثقين بـي".

قلت: "أنا أثق بك. بالطبع أثق بك، لماذا تظنّ خلاف ذلك؟"

"يبدو أنّه ثمّة شيء تمتنعين عن إخباري به. مع أنّني أخبرتك أموراً..."

هزّ رأسه متابعاً: "ما كنت لأخبرها لأحد. ثمّة ما يحدث معك، ولم تخبريني به بعد".

"لقد حدث الكثير مؤخّراً، كما تعلم. على أيّ حال، ماذا عنك أنت؟ يمكنني قول الشيء نفسه".

وضع يده على خدّي، متجاهلاً سؤالي، مثلما تجاهلت سؤاله.

قال بصوت هادئ: "إن كان الأمر يتعلّق بوالديك، أخبريني وسأصدّقك".

كان يجب أن تكون نظراته مليئة بالقلق، نظراً إلى المكان الذي نحن فيه، لكنّها كانت ثابتة وقاتمة. حملتني عيناه إلى أماكن مألوفة، أماكن آمنة يمكنني الاعتراف فيها بسهولة أنّني قتلت أعزّ أصدقائي، من دون أن أخشى ما ستكون عليه نظرة توبياس إليّ عندما يكتشف فعلتي.

وضعت يدي على يده، وقلت بصوت ضعيف: "أنا لا أخفي شيئاً".

قال: "حسناً"، وعصر شعور الذنب معدتي.

فُتح الباب، وتوافد منه بضعة أشخاص، اثنان من النـزاهة يحملان البنادق، ورجل من النـزاهة أسمر البشرة وأكبر سنّاً، وامرأة من الشجاعة لم أعرفها. ثمّ دخل جاك كانغ، ممثّل جماعة النـزاهة.

بحسب مقاييس معظم الجماعات، كان زعيماً شابّاً، لم يتجاوز التاسعة والثلاثين من عمره. لكن بحسب مقاييس الشجاعة، لم يكن هذا يعني شيئاً. فقد أصبح إريك قائداً للشجعان في سنّ السابعة عشر. وهذا على الأرجح أحد الأسباب التي تدفع الجماعات الأخرى إلى عدم أخذ آرائنا أو قراراتنا على محمل الجدّ.

كان جاك وسيماً أيضاً، شعره قصير أسود، وعيناه الدافئتان منحرفتان، مثل عينَي توري، كما أنّ عظام خدّيه عالية. لكن على الرغم من جاذبيته، لم يكن معروفاً بسحره، ربّما لأنّه ينتمي إلى النـزاهة، الذين يعتبرون السحر خدّاعاً. مع ذلك، فأنا أثق به لإخبارنا بما يجري من دون إضاعة الوقت بالمجاملات، وهذا كافٍ بحدّ ذاته.

قال: "سمعت أنّكما تبدوان مربكَين حيال سبب اعتقالكما". كان صوته عميقاً، لكنّه مستوٍ على نحو غريب، كما لو كان لا يسبّب الصدى حتّى لو صدر من أعماق كهف خالٍ. "وبالنسبة إليّ، هذا يعني إمّا أنّكما متّهمان زوراً أو بارعَين في التمثيل. والأمر الوحيد-"

قاطعته متسائلة: "بماذا نحن متّهمَين؟"

"هو متّهم بارتكاب جرائم ضدّ الإنسانية. *وأنت* متّهمة بالتآمر معه".

"جرائم ضدّ الإنسانية؟" أخيراً، بدا توبياس غاضباً. ألقى على جاك نظرة اشمئزاز. "ماذا؟"

"لقد رأينا لقطات فيديو للهجوم. لقد كنتَ *تشغّل* محاكاة الهجوم".

قال توبياس: "كيف رأيتم التسجيل؟ لقد أخذنا البيانات".

قال جاك: "ما أخذتموه هو نسخة عن البيانات. لكنّ اللقطات التي سُجّلت في مجمّع الشجاعة خلال الهجوم أُرسلت أيضاً إلى أجهزة الكمبيوتر الأخرى في جميع أنحاء المدينة. وكلّ ما رأيناه هو تسجيل لك وأنت تشغّل المحاكاة، وهي تتعرّض للضرب المبرح قبل أن تستسلم. بعد ذلك توقّفتما، وتصالحتما فجأة كالعشّاق، ثمّ سرقتما القرص الصلب معاً. ربّما كان أحد الأسباب الممكنة هو انتهاء المحاكاة، وعدم رغبتكما في وقوعه بين أيدينا".

أوشكت على الضحك. إنّه إنجازي البطولي العظيم، ربّما العمل الهامّ الوحيد الذي فعلته في حياتي، وها هم يظنّون أنّني كنت أتعامل مع المعرفة.

قلت: "المحاكاة لم تنتهِ، بل *أوقفناها*. أنت-"

رفع جاك يده. "أنا غير مهتمّ بما تقولينه الآن. سأعرف الحقيقة عندما تستجوبان كلاكما تحت تأثير مصل الحقيقة".

كانت كريستينا قد أخبرتني عن هذا المصل ذات مرّة. قالت إنّ الجزء الأصعب من تلقين جماعة النـزاهة هو إعطاء المبتدئين مصل الحقيقة للإجابة عن الأسئلة الشخصية أمام كلّ من في الجماعة. وأنا لست بحاجة إلى الغوص في أعماق نفسي لأعرف أنّ مصل الحقيقة هو آخر شيء أريده أن يدخل جسدي.

هززت رأسي قائلة: "مصل الحقيقة؟ كلاّ، هذا مستحيل".

قال جاك وهو يرفع حاجبيه: "هل لديك ما تخفينه؟"

رغبت في أن أقول له إنّ أيّ شخص يملك ذرّة كرامة يرغب في الاحتفاظ ببعض الأمور لنفسه، لكنّني لم أرغب في إثارة شكوكه. لذلك هززت رأسي نافية.

تحقّق من ساعته وقال: "حسناً إذاً. الساعة الآن هي الثانية عشرة، سيبدأ الاستجواب عند الساعة السابعة. لا تكلّفا نفسيكما عناء الاستعداد له. فمن غير الممكن حجب أيّ معلومات تحت تأثير مصل الحقيقة".

استدار على أعقابه، وغادر الغرفة.

قال توبياس: "يا له من رجل لطيف".

* * *

رافقتني مجموعة من الشجعان المسلّحين إلى الحمّام في بداية العصر. فأخذت وقتي هناك، وتركت يديّ تتوهّجان احمراراً تحت المياه الساخنة، وأنا أحدّق إلى نفسي في المرآة. عندما كنت في جماعة نكران الذات، التي تحظر النظر إلى المرايا، كنت أعتقد أنّ المرء يتغيّر كثيراً خلال ثلاثة أشهر. إلاّ أنّ بضعة أيّام غيّرت مظهري هذه المرّة.

لقد بدوت أكبر سنّاً. ربّما كان الشعر القصير هو السبب، أو لأنّني أرتدي كلّ ما حدث معي مثل قناع. في كلتا الحالتين، كنت أعتقد أنّني سأكون سعيدة إن لم أعد أبدو طفلة. لكن كلّ ما أشعر به الآن هو غصّة تخنقني. فأنا لم أعد الفتاة التي عرفها أبواي. لن يتعرّفا عليّ بعد اليوم.

ابتعدت عن المرآة، وفتحت الباب بأسفل يديّ.

عندما أوصلني الشجعان إلى غرفة الاعتقال، وقفت مطوّلاً عند الباب. بدا توبياس مثلما رأيته أوّل مرّة، بقميصه الأسود، وشعره القصير، وتعابيره الجادّة. كانت رؤيته تملأني بالحماسة والتوتّر. تذكّرت عندما أمسكت بيده خارج غرفة التدريب، لبضع ثوان فقط، وعندما جلسنا معاً على الصخور بالقرب من النهر، فأحسست بالشوق إلى الماضي.

سألني: "هل أنت جائعة؟" وقدّم لي شطيرة من طبق بجانبه.

أخذتها وجلست، ثمّ أسندت رأسي إلى كتفه. لم يبقَ أمامنا سوى الانتظار، وهذا ما نفعله. أكلنا حتّى فرغ الطعام. وجلسنا حتّى شعرنا بعدم الارتياح. بعد ذلك تمدّدنا بقرب بعضنا على الأرض، بحيث تلامس كتفانا، وحدّقنا إلى السقف الأبيض نفسه.

سألني: "ما الذي تخشين البوح به؟"

"كلّ شيء، كلّ شيء. لا أريد أن أبوح بأيّ شيء".

هزّ رأسه موافقاً. أغمضت عينيّ وتظاهرت بالنوم. لم يكن في الغرفة ساعة لكي أعدّ الدقائق المتبقّية لموعد الاستجواب. لذلك، لم يكن للوقت وجود في هذا المكان، باستثناء إحساسي به وهو يضغط عليّ، مع الاقتراب المحتّم للساعة السابعة، ويسحقني على الأرض.

ربّما لما شعرت بثقل الوقت على هذا النحو لو لم أكن أعاني من إحساس الذنب الناتج عن معرفتي للحقيقة، وإخفائها عن الجميع، حتّى عن توبياس. ربّما لا يجدر بي أن أخاف من قول شيء، لأنّ الصدق سيجعلني أخفّ وزناً.

لا بدّ أنّني استغرقت في النوم، لأنّني استيقظت فجأة على صوت الباب وهو يُفتح. دخل عدد من الشجعان ونحن ننهض، ونادى أحدهم باسمي. مرّت كريستينا من بينهم، وارتمت عليّ. عانقتني، وشدّت بأصابعها على كتفي حتّى صرخت من الألم.

قلت: "كتفي مصاب، آخ".

أفلتتني قائلة: "يا إلهي! أنا آسفة، تريس".

لم تكن تبدو مثل كريستينا التي أذكرها. فقد قصّت شعرها كالصبيان، وبدت بشرتها رمادية بعد أن كانت بنّية دافئة. ابتسمت لي، لكنّ ابتسامتها لم تبلغ عينيها، اللتين بدتا متعبتين. حاولت أن أردّ لها

الابتسامة، لكنّ توتّري حال دون ذلك. ستكون كريستينا حاضرة في الاستجواب، وستسمع ما فعلته بويل، ولن تغفر لي أبداً.

إلاّ إن تمكّنت من مقاومة المصل، وحجبتُ الحقيقة.

لكن هل أرغب في ذلك حقّاً؟ هل أريدها أن تعيش بداخلي إلى الأبد؟

قالت ونحن نغادر غرفة الاعتقال: "هل أنت بخير؟ سمعت أنّك هنا، لذلك طلبت مرافقتك. أنا أعرف أنّك لم تفعلي ذلك، فأنت لست خائنة".

"أنا بخير، شكراً لك. كيف حالك؟"

"آه، أنا..." تهدّج صوتها، وعضّت على شفتها. "هل أخبرك أحد... أعني، قد لا يكون الوقت مناسباً، لكن..."

"ماذا؟ ماذا جرى؟"

"... لقد قُتل ويل في الهجوم".

نظرت إليّ بقلق، وبتوقّع. ماذا تتوقّع؟

آه. يُفترض أنّني لم أعرف بعد بوفاة ويل. يمكنني التظاهر بالانفعال، لكنّني لن أكون مقنعة على الأرجح. من الأفضل أن أقرّ أنّني أعرف، لكن لا أدري كيف أشرح لها ذلك من دون قول كلّ شيء.

شعرت فجأة بالغثيان. هل أنا أقيّم فعلاً أفضل طريقة لخداع صديقتي؟

"أعرف، فقد رأيته على الشاشات عندما كنت في غرفة التحكّم. أنا آسفة، كريستينا".

هزّت رأسها قائلة: "آه، حسناً. أنا... مسرورة لأنّك تعرفين. لم أشأ إخبارك بذلك ونحن في ردهة".

ضحكة قصيرة، وابتسامة عابرة، لكن كلتاهما كانتا غريبتين عنها.

دخلنا أحد المصاعد. شعرت بتوبياس وهو يحدّق إليّ، فهو يعرف أنّني لم أرَ ويل على الشاشات، ولا يعرف أنّ ويل مات. نظرت أمامي مباشرة، وتظاهرت أنّ نظراته لا توتّرني.

قالت: "لا تقلقي حيال مصل الحقيقة، فالأمر سهل جدّاً. بالكاد تعرفين ما يجري وأنت تحت تأثيره. ولا تعرفين ما قلته إلاّ بعد أن تعودي إلى الواقع. لقد مررت بهذه التجربة مرّة في طفولتي، وهي شائعة جدّاً في النـزاهة".

تبادل بقيّة الشجعان في المصعد النظرات. في الحالات العادية، لا يسمح للشخص بالتحدّث عن جماعته القديمة، لكنّ الظروف التي نحن فيها ليست عادية. ول كنا في ظروف طبيعية، ما كان من الممكن لكريستينا أبداً أن ترافق أعزّ صديقاتها، المتّهمة بالخيانة، إلى استجواب علني.

سألتها: "هل الباقون بخير؟ يوريا، لين، مارلين؟"

"كلّهم هنا، باستثناء زيك، شقيق يوريا، الموجود مع الشجعان الآخرين".

"ماذا؟" زيك الذي شدّ أحزمتي وأنا أنـزلق على السلك، أصبح خائناً؟

توقّف المصعد في الطابق الأخير، وخرج منه الباقون.

قالت: "أعرف، لقد فوجئنا جميعاً".

أمسكت بذراعي، وقادتني إلى الباب. مشينا في رواق مكسوّ بالرخام الأسود؛ من السهل أن يضيع المرء في مقرّ النـزاهة، لأنّ كلّ ممرّاته متشابهة. عبرنا رواقاً آخر، ودخلنا من باب مزدوج.

كان المركز من الخارج عبارة عن مبنى منخفض، مع جزء ضيّق يرتفع في الوسط. ومن الداخل، يشكّل هذا الجزء غرفة مجوّفة بارتفاع

ثلاثة طوابق، تحتوي جدرانها على مساحات خالية عوضاً عن النوافذ. رأيت سماء المغيب من فوقي خالية من النجوم.

احتلّ رمز النـزاهة الأسود وسط الأرضيات الرخامية البيضاء هنا، فيما أضيئت القاعة بأكملها بصفوف من المصابيح الصفراء الخافتة التي اصطفّت على الجدران. كان كلّ صوت فيها يولّد الصدى.

وجدنا معظم أعضاء النـزاهة ومن بقي من الشجاعة مجتمعين أساساً. جلس بعضهم على المقاعد المدرّجة التي تحيط بطرف القاعة، لكنّها لم تكن كافية للجميع، فاحتشد الباقون حول رمز النـزاهة. وفي وسط الرمز، بين كفّتي الميزان، وُضع مقعدان خاليان.

مدّ توبياس يده ليمسك بيدي، فشبكت أصابعي بأصابعه.

قادنا حرّاس الشجاعة إلى وسط الغرفة، فاستُقبلنا في أفضل الأحوال بالهمهمات، وفي أسوئها بالسخرية. وجلس جاك كانغ في الصفّ الأمامي على المدرّج.

تقدّم منّا رجل أسمر مسنّ، يحمل صندوقاً أسود بيديه.

قال: "أنا أدعى نايلز، سأقوم باستجوابكما". أشار إلى توبياس قائلاً: "أنت ستبدأ أوّلاً. لذا، تقدّم من فضلك..."

شدّ توبياس على يدي، ثمّ أفلتها، ووقفت مع كريستينا على طرف رمز النـزاهة. كان هواء الغرفة دافئاً. إنّه هواء الصيف الرطب، وهواء المغيب، لكنّني شعرت بالبرد.

فتح نايلز الصندوق الأسود. كان يحتوي على حقنتين، واحدة لتوبياس، والأخرى لي. أخرج منديلاً مطهّراً من جيبه، وأعطى توبياس إيّاه. لم يكن الشجعان يهتمّون بهذا النوع من التفاصيل.

قال نايلز: "مكان الحقنة هو في العنق".

كلّ ما سمعته بينما كان توبياس يمسح بشرته بالمطهّر هو صوت الهواء. تقدّم نايلز، وغرز الإبرة في عنق توبياس، ثمّ عصر السائل القاتم المائل إلى اللون الأزرق في عروقه. آخر من رأيته يحقن توبياس بشيء كانت جانين، وهي تخضعه لمحاكاة جديدة، فعّالة حتّى على الجامحين، على حدّ ظنّها. في ذلك اليوم، اعتقدت أنّني خسرته إلى الأبد.

ارتجفت.

الفصل الثاني عشر

"سأطرح عليك سلسلة من الأسئلة البسيطة لكي تعتاد على المصل وهو يأخذ مفعوله الكامل. والآن، ما هو اسمك؟"

جلس توبياس مسدلاً كتفيه وخافضاً رأسه، كما لو كان جسده ثقيلاً جدّاً عليه. عبس وتشنّج في مقعده، ثمّ أجاب عبر أسنانه المشدودة: "فور".

ربّما كان الكذب غير ممكن مع مصل الحقيقة، لكن يبقى باستطاعة المرء اختيار الحقيقة التي يرغب في قولها: ينادونه فور، لكنّه ليس اسمه.

قال نايلز: "هذا لقبك، ما هو اسمك الحقيقي؟"

"توبياس".

وكزتني كريستينا متسائلة: "هل كنت تعرفين؟"

أومأت بالإيجاب.

"ما هو اسم والديك، توبياس؟"

فتح توبياس فمه ليجيب، ثمّ أغلقه كما لو كان يحاول منع الكلام من الخروج.

سأل قائلاً: "ما علاقة ذلك؟"

أخذ أعضاء النـزاهة يتمتمون من حولي، وعلا العبوس وجوه البعض. رفعت حاجبـي وأنا أنظر إلى كريستينا.

قالت: "من الصعب للغاية عدم الإجابة فوراً على الأسئلة مع مصل الحقيقة. هذا يعني أنّ إرادته قوية جدّاً، وأنّ لديه ما يخفيه".

قال نايلز: "ربّما لم يكن للأمر أهمّية من قبل، لكنّه أصبح مهمّاً الآن بعد أن قاومت الإجابة عن السؤال. أعطني اسم أبويك من فضلك".

أغلق توبياس عينيه. "إيفلين وماركوس إيتون".

كانت الكنية مجرّد وسيلة إضافية لتحديد الهوية، ولا تفيدنا سوى في منع وقوع أيّ التباس في الوثائق الرسمية. عندما نتزوّج، يأخذ أحد الزوجين كنية الآخر، أو يختار كلاهما كنية جديدة. مع ذلك، ومع أنّه يمكننا الاحتفاظ بكنيتنا الأصلية في جماعتنا الجديدة، إلاّ أنّنا نادراً ما نذكرها.

غير أنّ الجميع عرف كنية ماركوس. بدا ذلك من الجلبة التي علت في الغرفة بعدما تحدّث توبياس. فجميع أعضاء النـزاهة كانوا يعرفون أنّ ماركوس هو المسؤول الحكومي الأكثر نفوذاً، ولا بدّ أنّ بعضهم قرأ المقال الذي نشرته جانين عن قسوته تجاه ابنه. إنّه أحد الأمور الصحيحة التي قالتها. والآن، أصبح الجميع يعرفون أنّ توبياس هو ذلك الابن.

توبياس إيتون هو اسم قوي الأثر.

انتظر نايلز إلى أن عمّ الصمت، ثمّ تابع يسأل: "انتقلت من جماعتك إذاً، أليس كذلك؟"

"أجل".

"انتقلت من نكران الذات إلى الشجاعة؟"

أجاب توبياس بنبرة لاذعة: "*أجل*، أليس هذا واضحاً؟"

عضضت على شفتي. عليه أن يهدأ، فهو يكشف الكثير. كلّما امتنع عن الإجابة، أصرّ نايلز أكثر على سماعها.

قال نايلز: "من أهداف هذا الاستجواب هو تحديد ولائك. لذلك، عليّ أن أسأل: لماذا غيّرت جماعتك؟"

حدّق توبياس إلى نايلز، وأبقى فمه مغلقاً. مرّت الثواني في صمت مطبق. كلّما حاول أن يقاوم المصل لوقت أطول، بدا ذلك أصعب عليه. فقد احمرّ خدّاه، وأصبحت أنفاسه أسرع وأثقل. أحسست بالألم من أجله. فمن حقّه الاحتفاظ بتفاصيل طفولته لنفسه، إن كان هذا ما

يريد. ومن القسوة أن تسعى جماعة النـزاهة إلى إجباره على البوح بها، وسلبه حرّيته.

قلت بحرارة لكريستينا: "هذا فظيع، وخاطئ".

"ماذا؟ إنّه سؤال بسيط".

هززت رأسي. "أنت لا تفهمين".

ابتسمت كريستينا قليلاً، وقالت: "أنت تهتمّين حقّاً لأمره". غير أنّني كنت مشغولة جدّاً في مراقبة توبياس لأجيبها.

قال نايلز: "سأسألك مجدّداً. من الأهمّية بمكان أن نفهم مدى ولائك للجماعة التي اخترتها. لماذا انتقلت إلى الشجاعة، توبياس؟"

قال توبياس: "لحماية نفسي، انتقلت لأحمي نفسي".

"ممّ أردت حماية نفسك؟"

"من أبـي".

هدأت كلّ الأحاديث في القاعة، غير أنّ الصمت الذي خيّم إثر ذلك كان أسوأ من همهماتهم. توقّعت من نايلز أن يتابع الضغط عليه، لكنّه لم يفعل، بل قال: "شكراً على صدقك".

كرّر أعضاء النـزاهة الجملة بصوت منخفض. تردّدت كلماته "شكراً على صدقك" بنبرات متفاوتة، وبدأ غضبـي يتلاشى. بدت تلك الكلمات التي تهامسوا بها ترحّب بتوبياس، وتحتضن أحلك أسراره، ثمّ تلقي بها.

ربّما لم يكن ما يحرّكهم هو القسوة، بل رغبة في الفهم. إلاّ أنّ هذه الفكرة لم تجعلني أقلّ خوفاً من مصل الحقيقة.

سأل نايلز: "وهل أنت مخلص لجماعتك الحالية، توبياس؟"

"أنا مخلص لكلّ من لا يدعم الهجوم على نكران الذات".

قال نايلز: "بالمناسبة، أظنّ أنّه يجدر بنا التركيز على ما جرى في ذلك اليوم. ما الذي تذكره عن وقوعك تحت تأثير المحاكاة".

أجاب توبياس: "لم أتأثّر بالمحاكاة في البداية، فهي لم تُحدث أيّ مفعول معي".

ضحك نايلز قليلاً. "ماذا تعني بقولك أنّها *لم تُحدث* أيّ مفعول؟"

أجاب توبياس: "من الصفات المعرّفة للجامحين هي أنّ عقولهم تقاوم المحاكاة. وبما أنّني جامح، فهي لم تعمل عليّ".

علت الهمهمات، ووكزتني كريستينا بمرفقها.

همست في أذني: "أنت أيضاً؟ ألهذا السبب كنت واعية؟"

نظرت إليها. لقد أمضيت الأشهر الأخيرة خائفة من كلمة "جامحة"، ومرعوبة من اكتشاف أحد لحقيقتي، لكنّني لن أتمكّن من إخفاء هذا الأمر بعد الآن. لذلك، هززت رأسي بالإيجاب.

جحظت عيناها كما لو أنّهما أصيبتا بورم مفاجئ. لم أعرف ماهيّة التعبير الذي ظهر على وجهها، أهي الصدمة، أم الخوف؟

الرهبة؟

سألتها: "هل تعرفين ما يعني ذلك؟"

أجابت هامسة بإعجاب: "سمعت عنه في صغري".

إنّها الرهبة من دون شكّ.

قالت: "كما لو أنّها قصّة خيالية. *يوجد أشخاص يتمتّعون بقوى خاصّة بيننا!* هذا ما كان يقال".

قلت: "في الواقع، هذا ليس خيالاً، كما أنّه ليس بهذه الأهمّية. الأمر يشبه محاكاة مشهد الخوف، فقد كنتِ واعية وأنت فيه، وقادرة على التحكّم به. لكن بالنسبة إليّ، الحال كذلك في كلّ جلسات المحاكاة".

قالت وهي تضع يدها على مرفقي: "لكن تريس، هذا *مستحيل*".

في وسط الغرفة، رفع نايلز يديه محاولاً إسكات الحاضرين، لكنّ الأصوات استمرّت، بعضها مشوب بالعداء، وبعضها بالخوف، والبعض

الآخر بالرهبة، على غرار كريستينا. أخيراً، وقف نايلز وصاح: "إن لم تصمتوا، سأطلب منكم مغادرة القاعة".

عندئذٍ هدأ الجميع، وجلس نايلز.

قال: "والآن، عندما قلت إنّك قادر على مقاومة المحاكاة، ماذا كنت تعني؟"

"هذا يعني عادة أنّنا نكون واعين لما يجري خلال المحاكاة". بدا مرتاحاً أكثر مع مصل الحقيقة وهو يجيب عن أسئلة واقعية عوضاً عن الأسئلة الشخصية. لم يكن يبدو في تلك اللحظة أنّه تحت تأثير مصل الحقيقة، مع أنّ جلسته المتراخية وعينيه الشاردتين تشيران إلى عكس ذلك. "إلاّ أنّ محاكاة الهجوم كانت مختلفة، فقد استُخدم فيها نوع من المصل يحتوي على ناقلات بعيدة المدى. ومن الواضح أنّ تلك الناقلات لا تعمل على الجامحين إطلاقاً، لأنّني استيقظت بكامل وعيي في ذلك الصباح".

"قلت إنّك لم تكن تحت تأثير المحاكاة *في البداية*. هل لك أن تشرح ما عنيته بذلك؟"

"ما عنيته هو أنّ أمري اكتُشف، وتمّ إحضاري إلى جانين، فحقنتني بنوع من مصل المحاكاة المخصّص للجامحين. ومع أنّني كنت واعياً خلال *تلك* المحاكاة، إلاّ أنّ هذا الأمر لم يساعدني كثيراً".

قال نايلز بجدّية: "أظهر التسجيل الذي رأيناه لمقرّ الشجاعة أنّك كنت *تشغّل* المحاكاة. كيف تفسّر ذلك بالضبط؟"

"عندما تكون خاضعاً لتأثير المحاكاة، ترى بعينيك ما يدور حولك، وتعالج العالَم الفعلي، لكنّ دماغك لا يفهم تلك المعلومات. غير أنّه عند مستوى معيّن، يستمرّ دماغك بإدراك ما تراه، والمكان الذي أنت فيه. وكانت طبيعة هذه المحاكاة الجديدة هي أنّها تسجّل ردود فعلي

العاطفية على المحفّزات الخارجية". أغلق توبياس عينيه لبضع ثوان، قبل أن يتابع: "وتتجاوب من خلال تعديل شكل تلك المحفّزات. فكانت المحاكاة تحوّل أعدائي إلى أصدقاء، وأصدقائي إلى أعداء. فظننت أنّني كنت أوقف المحاكاة. لكن في الواقع، كنت أتلقّى تعليمات حول كيفية مواصلة تشغيلها".

هزّت كريستينا رأسها موافقة وهي تسمع كلامه. وشعرت أنّني أكثر هدوءاً وأنا أرى معظم الحاضرين يفعلون الشيء نفسه. فأدركت أنّ هذه هي فائدة مصل الحقيقة. فشهادة توبياس لا يمكن إنكارها بهذه الطريقة.

قال نايلز: "لقد رأينا تسجيلاً لما حدث معك لاحقاً في غرفة المراقبة. غير أنّنا وجدناه مثيراً للإرباك. فهلاّ رويت لنا ما جرى من فضلك".

"دخلت فتاة إلى الغرفة، فظننت أنّها جندية من الشجعان تحاول منعي من تدمير المحاكاة. قاومتها، و...". عبس توبياس، وهو يصارع أفكاره. "... ثمّ توقّفَت عن قتالي، فشعرت بالإرباك. وحتّى لو كنت واعياً في تلك اللحظة، لأربكت أيضاً. لماذا تستسلم؟ لماذا لم تقتلني وحسب؟"

بحث عنّي بعينيه، إلى أن وجدني بين حشد الحاضرين. أحسست أنّ قلبـي ينبض في حنجرتي، ينبض في خدّيّ.

قال بصوت خافت: "ما زلت لا أفهم كيف عرفَت أنّ هذه الطريقة ستنجح".

لا بل ينبض في أناملي.

"أعتقد أنّ انفعالاتي المتضاربة أربكت المحاكاة، ثمّ سمعتُ صوتها، فمكّنني بشكل ما من مقاومة المحاكاة".

أحسست بحرارة الدموع في عينيّ. لطالما حاولت عدم التفكير في تلك اللحظة، عندما ظننت أنّني خسرته، وأنّني سأموت قريباً، وكان كلّ

ما أردته عند ذاك هو الإحساس بنبض قلبه. حاولت عدم التفكير بذلك الآن، ورففت عينيّ لإبعاد الدموع.

قال: "عرفتُها أخيراً. فعدنا إلى غرفة التحكّم، وأوقفتُ المحاكاة".

"ما اسم تلك الفتاة؟"

أجاب: "تريس، أعني، بياتريس برايور".

"هل كنت تعرفها قبل حدوث ذلك؟"

"أجل".

"كيف تعرّفت عليها؟"

"كنت مدرّبها، والآن نحن حبيبان".

"لديّ سؤال أخير. في جماعة النـزاهة، قبل أن نقبل شخصاً في جماعتنا، يجب أن يكشف نفسه بالكامل. ونظراً للظروف التي نحن فيها، سنطلب منك طلباً مماثلاً. توبياس إيتون: ما هو أكثر ما تندم عليه؟"

نظرت إليه، من حذائه، إلى أصابعه الطويلة، إلى حاجبيه المستقيمَين.

"أنا نادم..." أمال توبياس رأسه، وتنهّد. "أنا نادم على خياري".

"أيّ خيار؟"

"الشجاعة. فقد ولدت لأكون من نكران الذات. كنت أخطّط لترك الشجاعة، والانضمام إلى المنبوذين. لكن عندما التقيت *بها*، و... شعرت أنّني قد أتمكّن من الاستفادة أكثر من قراري".

بها.

شعرت للحظة أنّني أنظر إلى شخص آخر، تقمّص جلدة توبياس، ولم تكن حياته بالبساطة التي ظننتها. لقد أراد ترك الشجاعة، لكنّه بقي بسببـي. لم يخبرني بذلك أبداً.

قال: "إنّ اختيار الشجاعة للهرب من أبـي كان عملاً جباناً، وأنا نادم على ذلك. هذا يعني أنّني لا أستحقّ جماعتي، وسأندم دائماً على ذلك".

توقّعت سماع صيحات الاستنكار من الشجعان، وأن يقوموا ربّما برميه بكرسي، وضربه. فهم قادرون على أكثر من ذلك بكثير. غير أنّهم لم يفعلوا، بل وقفوا في صمت مطبق، وجوههم جامدة كالصخر، يحدّقون إلى الشابّ الذي لم يخنهم، إلاّ أنّه لم يشعر أبداً بالانتماء إليهم.

للحظة، خيّم الصمت علينا جميعاً. لم أعرف من بدأ يهمس أوّلاً، فقد بدا أنّ الأصوات أتت من العدم، إلاّ أنّ أحدهم همس قائلاً: "شكراً على صدقك"، وردّد بقيّة الحاضرين تلك العبارة.

همس الجميع: "شكراً على صدقك".

غير أنّني لم أشاركهم.

كنت السبب الوحيد الذي أبقاه في الجماعة التي أراد تركها، غير أنّني لا أستحقّ ذلك.

ربّما كان يستحقّ أن يعرف.

* * *

وقف نايلز في وسط الغرفة حاملاً إبرة بيده، لمعت تحت الأضواء التي تعلوها. كان كلّ من حولي، من جماعتَي الشجاعة والنـزاهة، ينتظرون لأتقدّم وأسكب أمامهم حياتي بأكملها.

خطرت لي الفكرة مجدّداً، *ربّما كان باستطاعتي مقاومة المصل* . لكن لا أدري ما إذا كان يتعيّن عليّ المحاولة. فقد يكون من الأفضل للناس الذين أحبّهم أن أخرج نظيفة.

مشيت بتصلّب إلى وسط الغرفة في أثناء ابتعاد توبياس. عندما مررنا ببعضنا، أمسك بيدي وشدّ على أصابعي. ثمّ ذهب، ولم يبقَ سواي أنا

ونايلز، والإبرة. مسحت عنقي بالمطهّر، لكن عندما مدّ يده بالإبرة، ابتعدت.

مددت يدي قائلة: "أفضّل أن أفعل ذلك بنفسي". فأنا لن أدع أحداً بعد اليوم يحقنني بشيء، بعدما سمحت لإيريك بحقني بمصل محاكاة الهجوم بعد الاختبار الأخير. صحيح أنّني لن أتمكّن من تغيير محتوى الإبرة إن حقنتها بنفسي، لكن بهذه الطريقة على الأقلّ أكون أنا أداة دماري.

سألني وهو يرفع حاجبه الكثيف: "هل تعرفين كيف؟"

"أجل".

أعطاني نايلز الإبرة. فوضعتها فوق العرق في رقبتي، ثمّ أدخلتها، وضغطت عليها. بالكاد شعرت بقرصتها، بسبب ارتفاع معدّل الأدرينالين في جسدي.

أحضر أحدهم سلّة مهملات، فرميت الإبرة فيها. شعرت بتأثير المصل فوراً بعد ذلك. فقد أحسست أنّ دمي أصبح ثقيلاً كالرصاص وهو يجري في عروقي، وأوشكت على السقوط وأنا أقترب من الكرسي، بحيث اضطرّ نايلز إلى إمساك ذراعي لمساعدتي.

بعد ثوان، هدأ دماغي تماماً. *ما الذي كنت أفكّر فيه* ؟ لم يعد يبدو ذلك مهمّاً. لم يعد ثمّة أهمّية لأيّ شيء باستثناء الكرسي الذي أجلس عليه، والرجل الجالس أمامي.

سألني: "ما اسمك؟"

ما إن طرح السؤال، حتّى خرج الجواب من فمي: "بياتريس برايور".

"لكنّك معروفة باسم تريس".

"أجل".

"ما هو اسم أبويك، تريس؟"

"أندرو وناتالي برايور".

"أنت أيضاً انتقلت من جماعتك، أليس كذلك؟"

"أجل"، لكنّ فكرة جديدة همست من أعماق عقلي. *أيضاً*؟ تشير هذه الكلمة إلى شخص آخر، وفي هذه الحالة، هذا الشخص الآخر هو توبياس. عبست وحاولت أن أتخيّل توبياس، لكنّني وجدت صعوبة في استرجاع صورته. غير أنّ الأمر لم يكن صعباً إلى حدّ عدم تمكّني من ذلك. فقد رأيته، ثمّ ومضت صورته في ذهني وهو جالس في مكاني.

"هل انتقلت من نكران الذات إلى الشجاعة؟"

"أجل"، قلتها مجدّداً، لكن هذه المرّة بدت نبرتي متوتّرة. ولم أعرف السبب بالضبط.

"لماذا انتقلت؟"

كان هذا السؤال أكثر تعقيداً، غير أنّني أعرف الإجابة. كانت الجملة التالية على طرف لساني: *لست مناسبة بما فيه الكفاية لنكران الذات*، لكنّ جملة أخرى حلّت مكانها: *أردت أن أكون حرّة*. كلاهما صحيح، وقد أردت قول الاثنتين. فشددت على ذراع الكرسي وأنا أحاول أن أتذكّر المكان الذي أنا فيه، وما أفعله هنا.

رأيت أناساً حولي، غير أنّني لم أفهم سبب وجودهم. ضغطت على عقلي، كما أفعل عندما أوشك أن أتذكّر الإجابة على سؤال في الامتحان، لكنّني أعجز عن تذكّره. كنت أغلق عينيّ، وأتخيّل الصفحة في الكتاب التي تحتوي على الإجابة. ناضلت لبضع ثوان، لكنّني لم أستطع أن أتذكّر.

قلت: "لست مناسبة بما فيه الكفاية لنكران الذات وأردت أن أكون حرّة. لذلك اخترت الشجاعة".

"لماذا كنت غير مناسبة؟"

"لأنّني كنت أنانية".

"كنت أنانية؟ ألم تعودي كذلك الآن؟"

"بالطبع أنا كذلك. اعتادت أمّي على القول إنّ الأنانية موجودة لدى كلّ إنسان، غير أنّني أصبحت أقلّ أنانية في جماعة الشجاعة. فقد اكتشفت أنّه ثمّة أشخاص أنا مستعدّة للقتال من أجلهم، وحتّى الموت من أجلهم".

فاجأني الجواب، لكن لماذا؟ شددت على شفتيّ للحظة. لأنّ هذا صحيح. إن قلته هنا، فلا بدّ أن يكون صحيحاً.

أعطتني تلك الفكرة الحلقة المفقودة في السلسة التي ظننت أنّني كنت أحاول إيجادها. فأنا أخضع لاختبار كشف الكذب، وبالتالي كلّ ما أقوله حقيقي. شعرت بقطرة عرق تسيل على مؤخّر عنقي.

اختبار لكشف الكذب، ومصل الحقيقة، عليّ أن أذكّر نفسي بذلك، فمن السهل جدّاً أن يضيع الإنسان في الصدق.

"تريس، هلاّ أخبرتنا من فضلك بما جرى يوم الهجوم؟"

"استيقظت، ووجدت الجميع تحت تأثير المحاكاة. فجاريتهم، إلى أن وجدت توبياس".

"وماذا حدث بعدما افترقتما أنت وتوبياس؟"

"حاولت جانين قتلي، لكنّ أمّي أنقذتني. كانت تنتمي إلى جماعة الشجاعة في الماضي، لذلك كانت تعرف كيفيّة استخدام المسدّس".

أحسست أنّ جسدي أثقل الآن، لكنّه لم يعد بارداً؟ كما شعرت بشيء يعتصر صدري، وكان أسوأ من الحزن، وأسوأ من الندم.

أعرف ماذا سأقول لاحقاً. ماتت أمّي، ثمّ قتلتُ ويل. أطلقت عليه النار، وقتلته.

قلت: "حاولت تشتيت انتباه جنود الشجاعة، فتمكّنت من الفرار، لكنّهم قتلوها".

لحق بــي بعضهم، وقتلتهم . لكن ثمّة شجعان بين الحاضرين، ثمّة شجعان، وقد قتلت بعضهم، لا يمكنني أن أتحدّث عن ذلك هنا.

قلت: "واصلت الهرب، ثمّ..." *ثمّ لحق بــي ويل، وقتلته* . كلاّ، كلاّ. تصبب العرق على جبيني.

قلت بصوت متوتّر: "ثمّ وجدت أخي وأبــي، ووضعنا خطّة لتدمير المحاكاة".

أحسست أنّ طرف ذراع الكرسي يُغرز في كفّي. لقد أخفيت جزءاً من الحقيقة، ولا شكّ أنّ هذا يُعتبر خداعاً.

لقد قاومت المصل، وفي تلك اللحظة القصيرة، انتصرت.

عليّ أن أشعر بنشوة الانتصار، لكنّ ما فعلته أخذ يسحقني مجدّداً.

"تسلّلنا إلى مجمّع الشجاعة، وذهبنا أنا وأبــي إلى غرفة التحكّم. قاتل جنودَ الشجاعة، وكلّفه ذلك حياته. أمّا أنا، فوصلت إلى غرفة التحكّم، ووجدت توبياس هناك".

"قال توبياس إنّك تشاجرت معه، ثمّ توقّفت. لماذا؟"

أجبت: "لأنّني أدركت أنّ على أحدنا أن يقتل الآخر، ولم أشأ قتله".

"هل استسلمت؟"

أجبت بحدّة وأنا أهزّ رأسي: "كلاّ! كلاّ، ليس تماماً. تذكّرت أمراً فعلته في مشهد الخوف في فترة التلقين لدى جماعة الشجاعة... ففي أحد مشاهد المحاكاة، طلبت منّي امرأة أن أقتل أسرتي، فتركتها تقتلني عوضاً عن ذلك. ونجح الأمر حينذاك. فظننت..." كان رأسي قد بدأ يؤلمني، وبدأت أفقد السيطرة، فتحوّلت أفكاري إلى كلمات على فور. "كنت مذعورة، لكن خطر لي أنّ هذا السلوك قد يفيد، وأنّه يشتمل على شيء من القوّة. كما أنّني لم أستطع قتله، لذلك اضطررت للمحاولة".

رففت عينيّ لإبعاد الدموع.

"إذاً، لم تكوني أبداً تحت تأثير المحاكاة؟"

"كلاّ". مسحت عينيّ بأسفل يديّ، لأمنع الدموع من السقوط على خدّيّ حيث سيراها الجميع.

"كلاّ، كلاّ، فأنا جامحة".

قال نايلز: "فقط للإيضاح، هل تقولين إنّك أوشكت على التعرّض للقتل على أيدي المعرفة... ثمّ ناضلت للوصول إلى مجمّع الشجاعة... ودمّرت المحاكاة؟"

"أجل".

قال: "أعلن أمام الجميع أنّك استحقّيت لقب شُجاعة".

علت الصيحات من الجهة اليسرى من القاعة، ورأيت قبضاتهم ترتفع في الهواء. إنّها جماعتي، تهتف لي.

لكنّهم مخطئون، فأنا لست شُجاعة، لست شُجاعة، فقد أطلقت النار على ويل، ولا أقدر على الاعتراف بذلك، لا أقدر حتّى على الاعتراف...

قال نايلز: "بياتريس برايور، ما هو أكثر ما تندمين عليه؟"

أكثر ما أندم عليه؟ أنا لست نادمة على اختيار الشجاعة، أو ترك نكران الذات. حتّى إنّني لست نادمة على قتل الحرّاس خارج غرفة المراقبة، لأنّني كنت مضطرّة للدخول.

"أنا نادمة..."

تحوّلت عينيّ عن وجه نايلز، وجال نظري في الغرفة إلى أن حطّ على توبياس. كانت تعابيره جامدة، وفمه متوتّراً، ونظرته شاردة. كتف يديه على صدره، وشدّ على ذراعيه إلى أن ابيضّت عقده. وقفت كريستينا بجانبه. فاعتصر صدري لرؤيتها، وعجزت عن التنفّس.

عليّ إخبارهم، عليّ قول الحقيقة.

"ويل". بدت الكلمة كأنّها شهقة خارجة من أعماقي. لا عودة إلى الوراء.

قلت: "لقد قتلت ويل، بينما كان تحت تأثير المحاكاة. أطلقت عليه النار. كان ينوي قتلي، لكنّني قتلته. كان صديقي".

ويل، بتلك الثنية بين حاجبيه، وعينيه الخضراوين كالعشب، وقدرته على حفظ بيان الشجاعة عن ظهر قلب. شعرت بألم في معدتي إلى حدّ أنّني أوشكت على الأنين. كانت ذكراه مؤلمة.

ثمّة شيء آخر أيضاً، شيء أسوأ لم أدركه من قبل. فقد كنت مستعدّة للموت عوضاً عن قتل توبياس، لكنّ الفكرة لم تخطر لي حين تواجهت مع ويل، بل قرّرت قتله خلال جزء من الثانية.

أحسست أنّني عارية. فأنا لم أدرك أنّني كنت أرتدي أسراري مثل درع إلى أن كشفتها، ورآني الجميع على حقيقتي.

قالوا: "شكراً على صدقك".

لكنّ توبياس وكريستينا لزما الصمت.

الفصل الثالث عشر

نهضت عن الكرسي. لم أكن أشعر بالدوار كما كنت قبل قليل، ما يعني أنّ مفعول المصل بدأ بالزوال. بدأ الحاضرون ينهضون من أماكنهم، بينما رحت أبحث عن باب. أنا عادة لا أهرب من مواجهة الأمور، لكنّني أودّ أن أهرب الآن.

بدأ الجميع يغادرون القاعة، باستثناء كريستينا. وقفَت حيث تركتها، بيديها المضمومتين. التقت نظراتنا، لكنّها لم تكن تنظر إليّ. اغرورقت عيناها بالدموع، من دون أن تبكي.

قلت: "كريستينا"، لكنّ الكلمات الوحيدة التي فكّرت فيها - *أنا آسفة* - بدت أقرب إلى إهانة منها إلى اعتذار. فنحن نتأسّف عندما نصطدم بشخص ما، أو عندما نقاطع أحدهم. أمّا أنا، فكنت أكثر من آسفة.

قلت: "لقد كان يحمل مسدّساً، وكان على وشك قتلي. كان تحت تأثير المحاكاة".

قالت: "أنت قتلته". بدت كلماتها أكبر من الكلمات العادية، كما لو أنّها تمدّدت في فمها قبل أن تلفظها. نظرت إليّ كأنّها لا تعرفني لبضع ثوان، ثمّ استدارت بعيداً.

أتت فتاة أصغر سنّاً، بلون بشرة كريستينا وبطولها، وأمسكت بيدها. كانت شقيقة كريستينا الصغرى، فقد رأيتها في يوم الزيارة، منذ ألف عام. جعلني مصل الحقيقة أراهما كأنّهما تسبحان أمامي، أو ربّما كان السبب هو الدموع التي تجمّعت في مآقيّ.

قال يوريا، الذي خرج من بين الحشد وهو يلمس كتفي: "هل أنت بخير؟" لم أكن قد رأيته منذ ما قبل هجوم المحاكاة، لكنّني لم أجد القوّة لأسلّم عليه.

"أجل".

شدّ على كتفي قائلاً: "لقد فعلتِ ما كان عليك فعله، أليس كذلك؟ لكي تنقذينا قبل أن نتحوّل إلى عبيد لدى جماعة المعرفة. سوف ترى هذه الحقيقة في النهاية، عندما يزول حزنها".

لم أجد القوّة حتّى لأهزّ رأسي. ابتسم لي يوريا، وابتعد. ثمّ مرّ من أمامي بعض الشجعان، وتمتموا بكلمات بدت مثل الشكر، أو المجاملة، أو الطمأنة. أمّا البعض الآخر، فرمقني بنظرات مرتابة.

مرّت الأجساد المتّشحة بالسواد معاً من أمامي. أحسست أنّني فارغة تماماً، بعدما أخرجتُ كلّ ما في داخلي.

وقف توبياس بالقرب منّي، فبدأت أستعدّ لردّ فعله.

قال وهو يعطيني سكّيني: "لقد استعدتُ أسلحتنا".

وضعت السكّين في جيبـي الخلفي من دون أن أنظر إلى عينيه.

"يمكننا التحدّث عن ذلك غداً". قال ذلك بنبرة هادئة، والهدوء خطير مع توبياس.

"حسناً".

وضع ذراعه حول كتفيّ، فأحطت خصره بذراعي.

تشبّثت به بقوّة ونحن نتوجّه معاً إلى المصعد.

á á á

عثر لنا على فراشين في مكان ما في آخر الممرّ. فاستلقينا، لا تفصل سوى إنشات عدّة بيننا، لكنّنا لم نتحدّث.

عندما تأكّدت أنّه استغرق في النوم، تسلّلت من تحت الغطاء وعبرت الرواق، متجاوزة عدداً من الشجعان النائمين. بعد ذلك، وجدت الباب المؤدّي إلى السلالم.

تسلّقتها درجة تلو الأخرى، وبدأت عضلاتي تؤلمني، ورئتاي تجاهدان للحصول على الهواء، فشعرت بأولى لحظات الارتياح منذ أيّام.

قد أكون ماهرة في الجري على الأرض المسطّحة، لكنّ صعود السلالم هو مسألة أخرى. أخذت أدلّك التشنّج الذي أصاب أوتار ركبتي، وأنا أصعد الطابق الثاني عشر، وحاولت استنشاق بعض الهواء. فأحسست بألم شديد في ساقيّ وفي صدري. ليس من الحكمة في الواقع، استخدام الألم لتخفيف الألم.

عندما وصلت إلى الطابق الثامن عشر، أحسست أنّ ساقيّ أصبحتا سائلتين. دخلت إلى الغرفة التي تمّ استجوابـي فيها. كانت خالية الآن، لكنّ المدرّج ما زال هناك، وكذلك الكرسي الذي جلست عليه. توهّج القمر خلف طبقة من الغيوم.

وضعت يديّ على ظهر الكرسي. كان كرسياً عادياً من الخشب، يُصدر بعض الصرير. غريب أن يُستخدم شيء بسيط كهذا في قراري بتدمير إحدى أهمّ علاقاتي، وإلحاق الضرر بأخرى.

من السيّئ بما فيه الكفاية أنّني قتلت ويل، من دون التفكير بسرعة لإيجاد حلّ آخر. لكن عليّ الآن أن أعيش مع حكم الآخرين عليّ، بالإضافة إلى حكمي على نفسي، وحقيقة أنّ لا شيء، ولا حتّى إنّا، سيعود كالسابق مجدّداً.

تتغنّى جماعة النـزاهة بالحقيقة، لكنّها لا تخبرك أبداً كم يكلّف البوح بها.

آلم طرف الكرسي كفيّ، فقد كنت أشدّ عليه أكثر ممّا ظننت. حدّقت إليه لبعض الوقت، ثمّ رفعته رأساً على عقب، على كتفي السليم. فتّشت الغرفة بحثاً عن سلّم يمكنني ارتقاؤه. لكنّني لم أرَ سوى المدرّج، الذي يرتفع عالياً فوق الأرض.

ذهبت إلى أعلى مقعد فيه، ورفعت الكرسي فوق رأسي. غير أنّه بالكاد لامس حافة إحدى الفتحات المخصّصة للنوافذ. قفزت، ودفعت الكرسي إلى الأمام، فانـزلق على الحافة. آلمني كتفي، إذ لا يجدر بـي استخدام ذراعي، لكنّ أموراً أخرى كانت تشغلني في تلك اللحظة.

قفزت، وأمسكت بالحافة، ثمّ دفعت نفسي إلى الأعلى، بذراعيّ المرتعشتين. رفعت ساقيّ، وسحبت بقيّة جسدي فوق الحافة. عندما أصبحت في الأعلى، تمدّدت هناك للحظة، وأنا أشهق وأزفر.

وقفت على الحافة، تحت قنطرة كانت نافذة في الماضي، وحدّقت إلى المدينة. التفّ النهر القاحل حول المبنى واختفى. وامتدّ الجسر، بطلائه الأحمر البالي، فوق الوحول. بدت المباني من خلفه، وكانت كلّها خالية. من الصعب التصديق أنّ المدينة كانت مليئة بالناس.

للحظة، تركت نفسي أستعيد ذكرى الاستجواب. فرأيت وجه توبياس الخالي من التعابير، والغضب الذي اعتمل في داخله لاحقاً، وكبتَه حفاظاً على سلامتي العقلية. رأيت نظرة كريستينا الخالية، وسمعت الهمسات القائلة "شكراً على صدقك". من السهل قول ذلك ما دام ما فعلته لا يؤثّر عليهم بشيء.

حملت الكرسي، ورميته من فوق الحافة. خرجت منّي صرخة خافتة، ثمّ بدأت تعلو، للتحوّل إلى صرخة، إلى أن أصبحت واقفة على حافة نافذة مركز عديمي الرحمة، أصرخ، بينما يشقّ الكرسي طريقه إلى الأرض. صرخت إلى أن آلمني حلقي. ثمّ ارتطم الكرسي بالأرض، وتحطّم إلى أجزاء، مثل هيكل عظمي هشّ. جلست على الحافة، واتّكأت على إطار النافذة، ثمّ أغلقت عينيّ.

فجأة فكّرت بآل. تساءلت كم وقف آل على الحافة قبل أن يلقي بنفسه من فوقها، في سرداب الشجاعة.

لا بدّ أنّه وقف هناك مطوّلاً، وفكّر بقائمة الأشياء الفظيعة التي ارتكبها، ومنها أنّه أوشك على قتلي، ومن ثمّ بقائمة الأعمال الحسنة، والبطولية، والشجاعة، ثمّ قرّر أنّه سئم. ليس من العيش فقط، بل من الوجود. لقد سئم من كونه آل.

فتحت عينيّ، وحدّقت إلى أجزاء الكرسي التي كنت أراها بالكاد وهي متناثرة على الرصيف في الأسفل. شعرت للمرّة الأولى أنّني أفهم آل. فقد تعبت من كوني تريس. ارتكبت أموراً سيّئة وليس بمقدوري محوها، بل أصبحَت جزءاً ممّا أنا عليه. لا بل في معظم الوقت، تبدو أنّها الشيء الوحيد الذي أنا عليه.

ملت إلى الأمام، في الجوّ، وأنا ممسكة بطرف النافذة بإحدى يديّ. بضعة إنشات أخرى، ويشدّني وزن جسدي إلى الأرض. لن أتمكّن من إيقافه.

غير أنّني لا أستطيع فعل ذلك. فقد خسر والداي حياتهما من شدّة حبّهما لي. وخسارة حياتي من دون سبب وجيه ستشكّل طريقة فظيعة لشكرهما على تلك التضحية، مهما يكن ما فعلته.

كان أبـي ليقول: "دعي الإحساس بالذنب يعلّمك كيفيّة التصرّف في المرّة المقبلة".

وكانت أمّي لتقول: "مهما يكن، فأنا أحبّك".

تمنّى جزء منّي لو كان باستطاعتي أن أمحوهما من عقلي، لكي لا أحزن عليهما أبداً. لكنّ الجزء الباقي منّي خائف ممّا سأكون عليه من دونهما.

كانت عيناي مغرورقتين بالدموع وأنا أنـزل مجدّداً إلى غرفة الاستجواب.

á á á

عدت إلى فراشي في ساعة مبكرة من ذلك الصباح، فرأيت أنّ توبياس استيقظ أساساً. استدار وتوجّه إلى المصعد، فتبعته، لأنّني أعرف أنّ هذا ما يريده. وقفنا في المصعد، جنباً إلى جنب، وسمعت طنيناً في أذنيّ.

هبط المصعد إلى الطابق الثاني، بينما رحت أرتجف. بدأت الرعشة تغزو يديّ، ثمّ وصلت إلى ذراعيّ وصدري، إلى أن أصبح جسدي بأكمله يرتعد بخفّة، ولم أعرف كيف أوقفه. وقفنا بين المصاعد، فوق رسم آخر لرمز النـزاهة، ذاك الرمز المرسوم أيضاً على وسط عموده الفقري.

لم ينظر إليّ لوقت طويل. وقف كاتفاً ذراعيه، وخافضاً رأسه، إلى أن عجزت عن الاحتمال، وأحسست أنّني على وشك الصراخ. عليّ قول شيء، لكنّني لم أعرف ماذا أقول. لا يمكنني الاعتذار، لأنّني قلت الحقيقة وحسب، ولا أستطيع تغييرها إلى كذبة. لا يمكنني إعطاء أعذار.

قال: "لم تخبريني، لماذا؟"

"لأنّني..." هززت رأسي، "لم أعرف كيف".

عبس قائلاً: "هذا *سهل* جدّاً، تريس-"

"آه طبعاً، إنّه في غاية السهولة. كلّ ما عليّ فعله هو أن أنهض وأقول: *على فكرة، لقد قتلت ويل، وإحساس الذنب يمزّقني، ماذا لدينا على الإفطار* ؟ صحيح؟ *صحيح*؟" فجأة، أصبح الوضع يفوق احتمالي. امتلأت عيناي بالدموع، وصرخت: "لماذا لا تحاول قتل أحد أعزّ أصدقائك ثمّ تتعامل مع العواقب؟"

غطّيت وجهي بيديّ. فأنا لا أريد أن يراني وأنا أنتحب مجدّداً. لمس كتفي.

قال بلطف هذه المرّة: "تريس، أنا آسف. لم يكن يجدر بـي الادّعاء أنّني أفهم. كلّ ما عنيته..." ناضل مع أفكاره لحظة، ثمّ أضاف: "أتمنّى لو وثقت بـي بما فيه الكفاية لإخباري أموراً كهذه".

أردت أن أقول له، *أنا أثق بك* . لكنّ هذا ليس صحيحاً، فأنا لم أثق أنّه سيحبّني على الرغم من الأمور الفظيعة التي فعلتها. أنا لا أثق أنّ أحداً سيفعل ذلك، لكنّ هذه ليست مشكلته، بل مشكلتي.

تابع يقول: "أعني، عليّ أن أعرف أنّك أوشكت على الغرق في خزّان مياه من *كاليب*. ألا يبدو لك هذا غريباً؟"

قال ذلك عندما كنت على وشك الاعتذار. فمسحت خدّيّ بقوّة، بأناملي، وحدّقت إليه.

قلت بصوت حاولت أن يبدو خفيفاً: "ثمّة أمور أخرى تبدو أكثر غرابة، مثل الاكتشاف أنّ والدة صديقي ما زالت حية لدى رؤيتها شخصيّاً، أو سماع مخطّطاته للانضمام إلى المنبوذين بالصدفة، من دون أن يخبرني شيئاً عن ذلك. يبدو لي هذا غريباً بعض الشيء".

رفع يده عن كتفي.

قلت: "لا تدّعِ أنّ هذه مشكلتي وحدي. إن كنت لا أثق بك، أنت أيضاً لا تثق بـي".

"ظننت أنّنا سنصل إلى هذه المسائل لاحقاً. هل يتعيّن عليّ إخبارك كلّ شيء فوراً؟"

أحسست بغضب عارم بحيث عجزت عن الكلام لبضع ثوان، وتوهّج خدّاي احمراراً.

قلت بصوت لاذع: "ربّاه، فور! ليس عليك إخباري كلّ شيء على الفور، أمّا أنا، فبلى. ألا ترى مدى سخافة ذلك؟"

قال مشيراً إليّ: "أوّلاً، لا تستخدمي ذاك الاسم كسلاح ضدّي. ثانياً، أنا لم أكن أخطّط للتحالف مع المنبوذين، بل فكّرت بذلك وحسب. ولو اتّخذت قراراً، لأخبرتك. ثالثاً، لاختلف الأمر لو كانت لديك النيّة فعلاً لإخباري عن ويل، لكن من الواضح أنّك لا تنوين ذلك".

قلت: "لقد أخبرتك عن ويل فعلاً! لم يكن مصل الحقيقة هو الذي دفعني إلى الاعتراف، بل أنا التي اخترت. اعترفت لأنّني أردت ذلك".

"ما الذي تتحدّثين عنه؟"

"كنت واعية، على الرغم من المصل. كان بإمكاني الكذب، وإخفاء الحقيقة عنك. لكنّني لم أفعل، لأنّني وجدت أنّك تستحقّ معرفة الحقيقة".

أجاب عابساً: "يا لها من طريقة لإخباري! أمام أكثر من مائة شخص! كم هذا حميم!"

رفعت حاجبيّ متسائلة: "آه، لا يكفي أن أخبرك، بل يجب أن آخذ الأجواء بعين الاعتبار أيضاً؟ في المرّة المقبلة، هل عليّ إعداد بعض الشاي، والتأكّد من أنّ الإضاءة مناسبة أيضاً؟"

أطلق توبياس صوتاً غاضباً واستدار عنّي، ثمّ مشى بضع خطوات. عندما التفت إليّ، كان خدّاه ملطّخَين ببقع حمراء، مع أنّه لم يسبق لي أن رأيت لون وجهه يتغيّر.

قال بهدوء: "كم أنت صعبة المراس أحياناً، تريس". ثمّ نظر بعيداً.

أردت إخباره أنّني أعرف ذلك، لكن ما كنت لأتجاوز الأسبوع الماضي من دونه. غير أنّني اكتفيت بالتحديق إليه، وقلبي ينبض في أذنيّ.

لا أستطيع إخباره أنّني بحاجة إليه. بكلّ بساطة لا يمكنني أن أحتاج إليه، أو بالأحرى، لا يمكننا أن نحتاج إلى بعضنا لأنّنا لا نعلم كم سيطول بقاء كلّ منّا في هذه الحرب.

أجبته، وقد تلاشى غضبـي: "أنا آسفة، كان يجدر بـي أن أكون صادقة معك".

أجاب عابساً: "أهذا كلّ شيء؟ أهذا كلّ ما لديك لقوله؟"

"وماذا تريدني أن أقول؟"

هزّ رأسه مجيباً: "لا شيء، تريس. لا شيء".

راقبته وهو يبتعد. وأحسست كما لو أنّ هوّة فُتحت بداخلي، وأخذت تتّسع بسرعة مهدّدة بتمزيقي.

الفصل الرابع عشر

"حسناً، ماذا تفعلين هنا بالله عليك؟"

كنت جالسة على فراش في أحد الأروقة. فقد أتيت إلى هنا لفعل شيء ما، لكنّني أضعت حبل أفكاري عندما وصلت، لذا اكتفيت بالجلوس. نظرت إلى الأعلى، فرأيت لين، التي التقيت بها للمرّة الأولى عندما داست على قدمي في مصعد مبنى هانكوك. كانت تقف أمامي رافعة حاجبيها باستغراب. أصبح شعرها أطول من ذي قبل، ومع أنّه ما زال قصيراً، إلاّ أنّ فروة رأسها لم تعد ظاهرة.

"أنا جالسة، لماذا؟"

تنهّدت مجيبة: "أنت سخيفة، هذا ما أنت عليه. تمالكي نفسك، أنت من الشجعان، وقد حان الوقت لتتصرّفي على هذا الأساس. إنّك تسيئين إلى سمعتنا بين أبناء النـزاهة".

"وكيف ذلك؟"

"بالتصرّف كما لو أنّك لا تعرفيننا".

"أنا أسدي خدمة إلى كريستينا".

ضحكت لين ساخرة: "كريستينا. إنّها حزينة على حبّها الضائع، لكنّ الناس يموتون. هذا ما يحدث في الحروب، وستفهم ذلك في نهاية المطاف".

"أجل، الناس يموتون، لكنّهم لا يُقتلون دائماً على يد أعزّ أصدقائهم".

تنهّدت لين بنفاد صبر: "على كلّ حال، تعالي".

لم أجد سبباً للرفض. فنهضت وتبعتها عبر عدد من الأروقة. كانت تمشي بخطى سريعة، بحيث صعب عليّ مواكبتها.

سألتني: "أين صديقك المخيف؟"

التوت شفتاي كمن تذوّق شيئاً حامضاً. "هو ليس مخيفاً".

"بالتأكيد لا".

"لا أعرف أين هو".

هزّت كتفيها بلا مبالاة. "حسناً، يمكنك أن تحجزي له سريراً هو أيضاً. إنّنا نحاول أن ننسى أولئك الشجعان الخونة الأنذال، وأن نستجمع أفكارنا من جديد".

ضحكتُ قائلة: "الشجعان الخونة الأنذال".

فتحَت باباً، فدخلنا قاعة كبيرة ذكّرتني بردهة المبنى. بالطبع، كانت الأرض مكسوّة بالرخام الأسود، مع رمز أبيض كبير في الوسط، لكنّ معظم المساحة مغطّاة بأسرّة من طابقين. وكان الشجعان، من رجال ونساء وأطفال، يملأون المكان، من دون أيّ أثر لأعضاء النـزاهة.

قادتني لين إلى الجهة اليسرى من القاعة، بين صفّين من الأسرّة. نظرت إلى الصبيّ الجالس على أحد الأسرّة السفلية، والذي كان يصغرنا ببضع سنوات، ويحاول ربط شريط حذائه.

قالت: "هكتور، عليك إيجاد سرير آخر".

أجاب من دون أن يرفع نظره: "ماذا؟ مستحيل. لن أنتقل *مجدّداً* لمجرّد أنّك ترغبين في تمضية الليل في الثرثرة مع إحدى صديقاتك السخيفات".

أجابت لين بحدّة، بينما أوشكت على الضحك: "إنّها ليست صديقتي. هكتور، هذه تريس. تريس، هذا أخي الأصغر هيكتور".

عندما سمع اسمي، رفع رأسه إلى الأعلى، وحدّق إليّ فاغر الفاه.

قلت: "تشرّفت بمعرفتك".

قال: "أنت *جامحة*. قالت لي أمّي أن أتجنّبك لأنّك قد تكونين خطيرة".

"أجل، إنّها جامحة كبيرة ومخيفة، ويمكنها أن تفجّر رأسك بقوّة دماغها". قالت له لين ذلك وهي تكزه بسبّابتها بين عينيه. "لا تقل لي إنّك *تصدّق* فعلاً تلك الأشياء الطفولية التي تروى عن الجامحين".

احمرّ وجهه، بينما قام بأخذ بعض أشيائه بسرعة من كومة أمتعة بالقرب من السرير. شعرت بالضيق لأنّني أجبرته على الانتقال، لكنّه استقرّ على سرير على بعد بضعة أسرّة، ولم يضطر إلى الابتعاد كثيراً.

قلت: "كان يمكنني أن أفعل ذلك، أعني أن أنام هناك".

ابتسمت لين مجيبة: "أجل، أعرف. لكنّه يستحقّ ذلك، فقد قال عن زيك إنّه خائن في وجه يوريا. ومع أنّ هذا صحيح، لكن لا ضرورة إلى التصرّف بفظاظة مع أخيه. أعتقد أنّ وجوده بين أعضاء النـزاهة جعله يشعر أنّه يستطيع البوح بكل ما يتبادر إلى ذهنه. مهلاً، مار!"

التفتت مارلين من قرب أحد السرّة، وابتسمت لي ابتسامة عريضة. قالت: "مرحباً، تريس! أهلاً بك. ما الأمر، لين؟"

"هل يمكنك أن تطلبـي من بعض الفتيات الأصغر سنّاً التخلّي عن بضع قطع من الملابس؟ لسنا بحاجة إلى قمصان فقط، بل إلى سروال جينـز، وملابس داخلية، وربّما حذاء إضافي".

قالت مارلين: "بكلّ تأكيد".

وضعت السكّين بالقرب من السرير السفلي.

سألتها: "ما هي الأشياء الطفولية التي كنت تتحدّثين عنها؟"

"كنت أعني *الجامحين*. هل يعقل أن يملكوا قوى خاصّة؟ ما هذا الهراء؟" هزّت كتفيها مجيبة: "أعرف أنّك تصدّقين ذلك، لكن أنا لا".

"كيف تفسّرين إذاً بقائي بكامل وعيي خلال جلسات المحاكاة، أو مقاومتي لإحداها مقاومة تامّة؟"

"أعتقد أنّ القادة اختاروا أشخاصاً بشكل عشوائي وغيّروا المحاكاة معهم".

"ولماذا يفعلون ذلك؟"

لوّحت بيدها أمام وجهي مجيبة: "لإلهائهم. فأنت مشغولة جدّاً بالتفكير بمسألة الجموح، مثل والدتي، بحيث نسيت التفكير بما يفعله القادة. إنّه مجرّد نوع آخر من السيطرة على العقل".

حوّلت نظرها عن عينيّ، وركلت الأرض الرخامية بطرف حذائها. تساءلت ما إذا كانت تذكر المرّة الأخيرة التي كان فيها عقلها تحت السيطرة، خلال الهجوم.

في الوقع، ركّزت بشدّة على ما حدث لجماعة نكران الذات بحيث نسيت تقريباً ما مرّ به الشجعان. فقد استيقظ المئات منهم ليكتشفوا أنّهم أصبحوا يحملون علامة الإجرام السوداء، على الرغم من أنّهم لم يختاروا ذلك.

قرّرت عدم خوض جدال معها. فإن أرادت أن تعتقد بوجود مؤامرة حكومية، لا أظنّ أنّني أستطيع تغيير قناعتها. عليها أن تجرّب بنفسها.

قالت مارلين وهي تقف أمام سريرنا: "جئت حاملة الملابس. كانت تحمل بين يديها كومة من الملابس السوداء التي أعطتني إيّاها بفخر. "حتّى إنّني أقنعت أختك بالتخلّي عن أحد أثوابها، لين. فأعطتني ثلاثة".

سألتُ لين: "ألديك أخت؟"

"أجل، إنّها في الثامنة عشرة. كانت تتدرّب على يد فور".

"ما اسمها؟"

"شونا". ثمّ نظرت إلى مارلين مضيفة: "قلت لها إنّ الأثواب لن تلزمنا في هذه الفترة، لكنّها لم تصغِ إليّ كعادتها".

تذكّرت شونا. فقد كانت من الأشخاص الذين التقطوني عندما انـزلقت على السلك.

قالت مارلين وهي تربّت على ذقنها: "أعتقد أنّه من الأسهل القتال ونحن نرتدي ثوباً، فهو يمنح سيقاننا حرّية أكبر في الحركة. ومن يأبه إن لمح الناس ملابسك الداخلية، ما دمت ستبرحينهم ضرباً؟"

صمتت لين، كما لو أنّها تقرّ بصحّة الفكرة، مع أنّها ترفض الاعتراف بذلك.

قال يوريا وهو يمرّ من فوق أحد الأسرّة: "ما الذي تقُلنه عن الملابس الداخلية؟ أيّاً يكن الموضوع، أنا معكم".

لكمته مارلين على ذراعه.

قال يوريا: "سيذهب بعضنا هذه الليلة إلى مبنى هانكوك. عليكنّ المجيء، سنغادر عند الساعة العاشرة".

سألته مارلين: "هل تنوون الانـزلاق؟"

"كلاّ، بل المراقبة. سمعنا أنّ جماعة المعرفة يبقون مصابيحهم مضاءة طوال الليل، وهذا يسهّل علينا استراق النظر عبر نوافذهم، لرؤية ما يفعلون".

قلت: "سأرافقكم".

قالت لين: "أنا أيضاً".

قالت مارلين، وهي تبتسم ليوريا: "ماذا؟ آه، وأنا أيضاً. سأذهب لإحضار الطعام، هل ترافقني؟"

"بالتأكيد".

لوّحت مارلين وهي ذاهبة. كانت معتادة على السير وهي تثب قليلاً. أمّا الآن، فأصبحت خطواتها أكثر سلاسة، وأناقة ربّما، غير أنها تفتقد

إلى الفرح الطفولي الذي كان يقترن بها. تساءلتُ ماذا فعلَت عندما كانت تحت تأثير المحاكاة.

لوت لين شفتيها.

سألتها: "ماذا؟"

أجابت بحدّة وهي تهزّ رأسها: "لا شيء. أصبحا يتسكّعان وحدهما كثيراً في الآونة الأخيرة".

"يبدو أنّه يحتاج إلى جميع الأصدقاء الذين يمكنه الحصول عليهم، بسبب ما حدث مع زيك".

"أجل، يا له من كابوس. كان معنا، وفجأة أصبح..." تنهّدَت. "لا تعرفين أبداً ما إذا كان المرء شجاعاً أم لا حتّى يخوض تجربة حقيقية، مهما أمضيتِ من الوقت في تدريبه".

ركّزت نظرها على عينيّ. لم يسبق لي أن لاحظت مدى غرابة لونهما البنّي الذهبـي. والآن، بعدما نما شعرها، ولم يعد رأسها الأصلع هو أوّل ما أراه، لاحظت أنفها الناعم، وشفتيها الممتلئتين. كانت ملفتة للنظر من دون أن تبذل أيّ جهد. شعرت أنّني أحسدها للحظة، ثمّ خطر لي أنّها تكره جمالها، ولهذا السبب حلقَت شعرها.

قالت: "أنت شجاعة. لستِ بحاجة لسماع ذلك، لكن أريدك أن تعلمي أنّني أعرف ذلك".

كانت تمدحني، لكنّني شعرت كما لو أنّها ضربتني بشيء ما.

أضافت: "لا تفسدي ذلك".

á á á

بعد بضع ساعات، بعدما تناولت الغداء وأخذت قيلولة، جلست على طرف الفراش لأغيّر ضمادة كتفي. خلعت قميصي القطني، وتركت قميصي الداخلي، فقد كان المكان مليئاً بالشجعان المجتمعين بين الأسرّة،

يضحكون على نكات بعضهم البعض. كنت قد انتهيت للتوّ من وضع المزيد من المرهم، عندما سمعت ضحكة حادّة. فجأة، دخل يوريا إلى القاعة، وراح يمشي بين الأسرّة حاملاً مارلين على كتفيه. لوّحت لي وهما يمرّان، وقد صبغت الإثارة وجهها باللون الأحمر.

ضحكت لين ساخرة، وكانت جالسة على السرير المجاور. "لا أفهم كيف يستطيع أن يمرحا مع كلّ ما يجري".

سألتها وأنا أضغط الضمادة على جرحي: "وهل يُفترض به أن يتجوّل عابساً طوال الوقت؟ ربّما يمكنك أن تتعلّمي منه شيئاً".

أجابت: "أنت من يقول ذلك؟ علينا أن نبدأ بمناداتك بياتريس برايور، ملكة التراجيديا".

وقفت ولكمتها على ذراعها لكمة أقوى ممّا لو كنت أمزح وأخفّ ممّا لو كنت جادّة. "اصمتي".

لم تنظر إليّ، بل دفعتني على السرير قائلة: "أنا لا آخذ الأوامر من المتزمّتات".

لاحظتُ شبح ابتسامة على شفتيها، فقمعت ابتسامتي أنا أيضاً.

سألتني: "هل أنت جاهزة للانطلاق؟"

"إلى أين؟" كان صوت توبياس الذي مرّ بين سريري وسريره، ليقف معنا في الممرّ الفاصل بين الأسرّة. شعرت بجفاف في حلقي، فأنا لم أتحدّث معه طوال النهار، ولست واثقة ماذا أتوقّع. هل سيعود الوضع بيننا كما كان؟

قالت لين: "نحن ذاهبون إلى سطح مبنى هانكوك للتجسّس على جماعة المعرفة، هل تريد المجيء؟"

رمقني توبياس مجيباً: "كلاّ، لديّ بعض المشاغل هنا. لكن كوني حذرة".

هززت رأسي موافقة. أعرف لماذا لا يريد المجيء، فتوبياس يحاول تجنّب المرتفعات عند الإمكان. لمس ذراعي، وأخّرني للحظة. أحسست بالتوتّر قليلاً، قبل أن يتركني.

تمتم قائلاً: "أراك لاحقاً، لا ترتكبوا أيّ حماقات".

أجبته عابسة: "شكراً على ثقتك".

"لم أكن أعني ذلك. ما قصدته هو ألاّ تدعي أحداً يرتكب الحماقات، فهم سيصغون إليك".

مال إلى الأمام كأنّه سيقبّلني، ثمّ بدا أنّه بدّل رأيه، وعضّ على شفته. كانت حركة صغيرة، لكنّها بدت مثل الرفض. فتجنّبت نظراته، ولحقت بلين.

مشينا أنا وإيّاها باتّجاه المصعد. كان بعض الشجعان قد بدأوا يرسمون مربّعات ملوّنة على الجدران. فمقرّ النـزاهة أشبه بالمتاهة بالنسبة إليهم، وهم بحاجة إلى أن يتعلّموا التنقّل فيه. كنت أعرف كيفيّة الوصول إلى الأماكن الأساسية: عنبر النوم، الكافتيريا، الردهة، قاعة الاستجواب.

سألتها: "لماذا ترك الجميع مقرّ الشجاعة؟ فالخونة ليسوا هناك، أليس كذلك؟"

"صحيح، إنّهم في مقرّ المعرفة. غير أنّنا غادرنا المكان لأنّه يحتوي على أكبر عدد من كاميرات المراقبة في المدينة. وقد عرفنا أنّ جماعة المعرفة قد تتمكّن من الوصول إلى كافة التسجيلات، وسنحتاج إلى وقت طويل للعثور على كلّ الكاميرات، لذلك فضّلنا الرحيل".

"خطوة ذكية".

"لا بأس بنا أحياناً".

ضغطت لين على زرّ الطابق الأوّل. حدّقتُ إلى انعكاسنا على الأبواب. كانت أطول منّي ببضع إنشات فقط. ومع أنّ قميصها وسروالها كانا فضفاضين، إلاّ أنّه من الواضح أنّها تتمتّع بكلّ مظاهر الأنوثة.

سألتني عابسة: "ماذا؟"

"لماذا حلقت رأسك؟"

"بسبب التلقين. فأنا أحبّ جماعة الشجاعة، لكنّ شبابها لا يرون تهديداً في فتياتها خلال فترة التلقين. فسئمت من ذلك وفكّرت أنّه إن لم يكن مظهري يشبه الفتيات، لن ينظروا إليّ بهذه الطريقة".

"أظنّ أنّه كان بإمكانك استخدام سوء تقديرهم لمصلحتك".

"حقّاً، وماذا أفعل؟ أتظاهر بالإغماء كلّما حدث أمر مخيف؟" نظرت إلى الأعلى بسأم، مضيفة: "هل تعتقدين أنّني بلا كرامة أم ماذا؟"

قلت: "أعتقد أنّ من الأخطاء التي يرتكبها الشجعان هي رفضهم لاستخدام الدهاء. في الواقع، ليس عليك دائماً أن تكشفي للناس مدى قوّتك".

"ربّما يجدر بك ارتداء الأزرق من الآن فصاعداً، إن كنتِ ستتصرّفين مثل أبناء المعرفة. كما أنّك تفعلين الشيء نفسه، باستثناء حلق الرأس".

خرجتُ من المصعد قبل أن أتفوّه بشيء أندم عليه. لين تغفر بسرعة، لكنّها تشتعل بسرعة أيضاً، مثل معظم الشجعان. ومثلي أنا أيضاً، باستثناء أنّني لا أغفر بسهولة.

كالعادة، كان بضعة شجعان يحملون بنادق كبيرة يروحون ويجيئون أمام المدخل، للحراسة. أمامهم، وقفت مجموعة صغيرة من الشجعان الشباب، بمن فيهم يوريا، ومارلين، وشقيقة لين، شونا، ولورين، التي درّبت المبتدئين المنتمين أصلاً إلى الشجاعة، بينما قام فور بتدريب

المبتدئين المنتقلين من الفصائل الأخرى. كانت أذنها تلمع عندما تحرّك رأسها، فقد زيّنتها بالأقراط من الأعلى إلى الأسفل.

توقّفت لين فجأة، فدستُ على عقب قدمها، وسمعتها تشتم.

قالت شونا، وهي تبتسم في وجه أختها: "كم أنت ساحرة". لم يكن يجمع بينهما شبه كبير، باستثناء لون شعرهما البنّي، لكنّ شعر شونا يصل حتّى ذقنها، مثلي.

أجابت لين: "أجل، هذا هدفي، أن أكون ساحرة".

أحاطت شونا كتفي لين بذراعها. من الغريب رؤية لين مع شقيقة لها، في الواقع من الغريب رؤيتها مرتبطة بأحد على الإطلاق. نظرت إليّ شونا، فاختفت ابتسامتها، وبدت حذرة.

"مرحباً". لم أجد شيئاً آخر أقوله.

"أهلاً".

"آه ربّاه، هل تحدّثت أمّي معك أيضاً؟" وضعت لين يدها على وجهها. "شونا-"

قالت شونا: "لين، ألا يمكنك أن تصمتي أبداً؟" كان نظرها لا يزال عليّ. بدا عليها التوتّر، كما لو كنتُ سأهاجمها في أيّ لحظة، بقواي العقلية الخاصّة.

هبّ يوريا لإنقاذي قائلاً: "آه! تريس، هل تعرفين لورين؟"

أجابت لورين قبلي: "أجل". كان صوتها حادّاً وواضحاً، كأنّها توبّخه، لكن هذه طريقتها الطبيعية في الحديث على ما يبدو. "لقد دخلت مشهد الخوف الخاصّ بـي وهي تتمرّن في فترة التلقين. لذلك فهي تعرفني أكثر ممّا يجب، على الأرجح".

قال يوريا: "حقّاً؟ ظننت أنّ المنتقلين يدخلون مشهد الخوف الخاصّ بفور".

قالت وهي تضحك ساخرة: "كأنّه يسمح لأحد بذلك".
شعرت بدفء يسري بداخلي ويليّن قلبي. لقد سمح لي بدخوله.
رأيت وميضاً أزرق فوق كتف لورين، فنظرتُ حولها لرؤية المصدر.
فجأة، انطلق الرصاص.
انهارت الأبواب الزجاجية وتحطّمت إلى أجزاء. وقف جنود الشجاعة الذين يحملون أشرطة زرقاء على أذرعهم على الرصيف في الخارج، حاملين بنادق لم يسبق أن رأيتها، بنادق ذات أشعّة زرقاء رفيعة تنبعث من الفوّهة.
صاح أحدهم: "خونة!"
شهر الشجعان أسلحتهم في لحظة واحدة تقريباً. وبما أنّني لم أكن أملك سلاحاً، اختبأت خلف جدار الشجعان المخلصين المصطفّين أمامي، ودست بحذائي على قطع الزجاج المحطّم، ثمّ سحبت السكّين من جيبي الخلفي.
سقط كلّ من حولي على الأرض. أعضاء جماعتي، وأعزّ أصدقائي، كلّهم تساقطوا، إمّا قتلى أو محتضرين، بينما صمّ صوت الرصاص أذنيّ.
فجأة، جمدت في مكاني. فقد رأيت الوميض الأزرق مثبّتاً على صدري. ألقيت بنفسي جانباً للابتعاد عن مرمى الرصاص، لكنّني لم أكن سريعة بما فيه الكفاية.
انطلق الرصاص، وسقطت أرضاً.

الفصل الخامس عشر

بدأ الألم يتلاشى، فمرّرت يدي تحت السترة لأتحسّس الجرح.

لم أكن أنـزف. غير أنّ قوّة الطلقة أوقعتني أرضاً، ويبدو أنّني ارتطمت بشيء ما. تحسّست كتفي، وشعرت بوجود كتلة صلبة حيث كانت البشرة ليّنة.

سمعت طقطقة على الأرض بالقرب من وجهي، ثمّ تدحرجت أسطوانة معدنية بحجم يدي وتوقّفت أمام رأسي. قبل أن أتمكّن من تحريكها، انبعث دخان أبيض من طرفيها. أخذت أقحّ، وألقيتها بعيداً عنّي، إلى بقعة أعمق في الردهة. لم تكن في الواقع الأسطوانة الوحيدة، بل انتشرت أسطوانات مشابهة في كلّ مكان، وملأت القاعة بالدخان الذي لا يحرق ولا يلسع، بل يحجب الرؤية لبضع ثوان، قبل أن يتبخّر تماماً.

ما الهدف من كلّ هذا؟

كنت ممدّدة على الأرض، يحيط بـي الجنود الشجعان بأعينهم المغمضة. نظرت عابسة إلى يوريا، من رأسه إلى أخمص قدميه. لا يبدو أنّه ينـزف، ولم أرَ أيّ جرح بالقرب من أعضائه الحيوية، ما يعني أنّه ليس ميتاً. لماذا سقط مغشياً عليه إذاً؟ نظرت من فوق كتفي الأيسر إلى المكان الذي سقطت فيه لين، واستلقت بوضعية غريبة، شبه مكوّرة على نفسها. كانت غائبة عن الوعي هي الأخرى.

دخل الشجعان الخونة إلى الردهة، شاهرين أسلحتهم. فقرّرت أن أتّبع السياسة التي أتّبعها دائماً عندما أكون غير واثقة ممّا يجري. تصرّفت مثل الجميع. تركت رأسي يسقط، وأغمضت عينيّ. أخذ قلبـي ينبض مع اقتراب خطوات الجنود وهم يدوسون على الأرض الرخامية. فجأة، داس أحدهم على يدي، فعضضت على لساني لأمنع نفسي من الصراخ.

قال أحدهم: "لا أفهم لماذا لا يمكننا قتلهم جميعاً برصاصة في رؤوسهم. إن لم يكن ثمّة جيش، سننتصر".

أجاب صوت بارد: "بوب، لا نستطيع قتل *الجميع* ببساطة".

أحسست بقشعريرة تسري في جسدي، فقد عرفت الصوت على الفور. إنّه صوت إريك، قائد جماعة الشجاعة.

تابع إريك: "نحتاج إلى الناس لإيجاد ظروف مؤاتية للازدهار. على كلّ حال، لا يجدر بك طرح الأسئلة". ثمّ رفع صوته قائلاً: "ليستقلّ نصفكم المصاعد، ويصعد النصف الآخر على السلّم، توزّعوا يميناً ويساراً! انطلقوا!"

كان ثمّة مسدّس على بعد عدّة أقدام إلى يساري. إن فتحت عينيّ، يمكنني أخذه وإطلاق النار عليه قبل أن يدرك ما يجري، لكنّني لا أضمن أن أتمكّن من لمسه من دون أن أشعر بالذعر مجدّداً.

انتظرت إلى أن سمعت آخر خطوة تختفي خلف باب المصعد أو على السلّم، قبل أن أفتح عينيّ. بدا كلّ من في الردهة غائبين عن الوعي. مهما يكن ما أطلقوه علينا، لا بدّ أنّه يسبّب المحاكاة وإلاّ لما كنت الوحيدة الواعية. مع ذلك، فإنّ ما يجري غير مفهوم، ولا يخضع لقواعد المحاكاة التي أعرفها، غير أنّني لا أملك الوقت للتفكير.

حملت سكّيني ونهضت، محاولة تجاهل ألم كتفي. اندفعت إلى إمرأة ميتة كانت مع الشجعان الخونة، ممدّدة بالقرب من الباب. كانت متوسّطة السنّ، بدأ الشيب يغزو شعرها الأسود. حاولت ألاّ أنظر إلى الجرح الذي أحدثته الرصاصة في رأسها، إلاّ أنّ الضوء الخافت أظهر شيئاً يشبه العظم، فشعرت بالغثيان.

فكّري. لا آبه من تكون، ولا ما هو اسمها، أو سنّها. كلّ ما يهمّني هو الشريط الأزرق المحيط بذراعها. عليّ التركيز على ذلك. حاولت شدّه

بإصبعي، لكنّه لم يرتخِ. يبدو أنّه معلّق بسترتها السوداء، وعليّ بالتالي أن أجرّدها منها هي أيضاً.

خلعت سترتي، ووضعتها على وجهها لكي لا أنظر إليها. بعد ذلك، فتحتُ سترتها ونـزعتها أوّلاً من ذراعها اليسرى، ومن ثمّ اليمنى، وشددت على أسناني بينما كنت أسحبها من تحت جسدها الثقيل.

قال أحدهم: "تريس!" التفتّ حاملة السترة بيد، والسكّين باليد الأخرى. أبعدت السكّين، وأنا أفكّر أنّ الشجعان الغزاة لا يحملون هذا النوع من الأسلحة، ولا أريد أن أكشف أمري.

كان يوريا هو من يقف خلفي.

"أنت جامح؟" لكن لا وقت للصدمة.

أجاب: "أجل".

قلت له: "أحضر سترة لنفسك".

انحنى فوق أحد الخونة الآخرين، وكان شابّاً، حتّى إنّه لم يكن في سنّ تسمح له بعد بأن يصبح عضواً في الشجاعة. آلمني مشهد وجهه الشاحب. لا ينبغي أن يموت شابّ بهذا العمر، لا بل لا ينبغي له أن يكون هنا في الأساس.

ارتديت سترة المرأة وأنا أغلي غضباً، بينما ارتدى يوريا سترته، وقد تقلّص وجهه.

قال بصوت هادئ: "إنّهما الوحيدان الميتان، ألا يبدو لك هذا غريباً؟"

"لا بدّ أنّهما عرفا أنّنا سنطلق عليهم النار، لكنّهما أتيا على أيّ حال. لا وقت للأسئلة، علينا أن نلحق بهم".

قال: "نلحق بهم؟ لماذا؟ علينا الخروج من هنا".

سألته عابسة: "تريد أن تهرب قبل أن تعرف ماذا يجري؟ قبل أن يعرف الشجعان في الأعلى ما الذي جرى؟"

"وماذا إن تعرّفوا علينا؟"

رفعت كتفيّ مجيبة: "فلنأمل ألاّ يفعلوا".

أسرعت إلى السلّم، فتبعني. ما إن صعدت على الدرجة الأولى، حتّى بدأت أتساءل ما الذي أنوي فعله. من المحتمل أن يكون ثمّة مزيد من الجامحين في هذا المبنى، لكن هل سيعرفون بذلك؟ وهل سيعرفون أين يختبئون؟ وماذا أتوقّع أن أكسب من إغراق نفسي في جيش من الشجعان الخونة؟

في أعماقي، كنت أعرف الإجابة: أنا أتهوّر. قد لا أكسب شيئاً على الأرجح، لا بل قد أموت.

وما يثير اضطرابي أكثر من ذلك، هو أنّني لا أكترث فعلاً.

قلت بصوت منخفض: "سيتوجّهون إلى الأعلى، لذلك عليك... أن تذهب إلى الطابق الثالث. اطلب منهم... إخلاء المبنى، بهدوء".

"وإلى أين ستذهبين *أنت*؟"

"إلى الطابق الثاني". دفعت باب الطابق الثاني بكتفي. أعرف ما سأفعله هنا: سأبحث عن الجامحين.

á á á

بينما كنت أسير في الرواق، أمرّ من فوق أشخاص مغمى عليهم يرتدون الأسود والأبيض، فكّرت بمقطع من الأغنية التي كان يغنّيها أبناء النـزاهة عندما يظنّون أنّ أحداً لا يصغي إليهم:

الشجعان هم الأكثر وحشية بين الخمسة
يمزّقون بعضهم إرباً...

كم تنطبق هذه الأغنية على واقعنا اليوم، وأنا أشاهد الشجعان الخونة ينوّمون أبناء جماعتهم على نحو لا يختلف كثيراً عن مصل المحاكاة الذي أجبرهم على قتل أعضاء نكران الذات منذ أقلّ من شهر.

نحن الجماعة الوحيدة التي يمكنها الانقسام على هذا النحو. فجماعة الوئام لا تسمح بحدوث صدع فيها، وفي جماعة نكران الذات لا وجود للأنانية، أمّا النـزاهة، فيتجادلون إلى أن يجدوا حلاًّ مشتركاً، وحتّى المعرفة، لا ترتكب أمراً غير منطقي إلى هذا الحدّ. إنّنا بالفعل أكثر الجماعات وحشية.

مررت فوق ذراع ممدودة، وامرأة مستلقية بفمها المفتوح، ورحت أدندن بداية المقطع التالي من الأغنية بصوت منخفض.

المعرفة هي أبرد الجماعات الخمسة

فالعِلم مكلف...

تساءلت متى أدركَت جانين أنّ جماعتَي المعرفة والشجاعة يؤلّفان مزيجاً قاتلاً. يبدو أنّ القسوة والمنطق البارد قادرَين على تحقيق أيّ شيء تقريباً، بما في ذلك تنويم جماعة ونصف.

تفحّصت الوجوه والأجساد وأنا أسير، بحثاً عن أنفاس غير منتظمة، أو جفون مرتعشة، أو أيّ إشارة توحي أنّ الممدّدين على الأرض يتظاهرون بالإغماء. حتّى الآن، كانت كلّ الأنفاس منتظمة، وكلّ الأجفان ساكنة. ربّما لا يوجد جامحون بين أعضاء النـزاهة.

"إريك!" صاح أحدهم بهذا الاسم في الردهة، فحبست أنفاسي وهو يتوجّه نحوي مباشرة. حاولت أن أبقى ساكنة. فلو تحرّكت، سينظر إليّ، وسيعرفني، أعلم ذلك. نظرت إلى الأسفل، وشددت على أعصابـي إلى أن بدأت أرتجف. *لا تنظر إليّ، لا تنظر إليّ...*

تجاوزني إريك، وتابع طريقه عبر الرواق إلى يساري. عليّ أن أتابع البحث بأسرع ما يمكن، لكنّ فضولي دفعني إلى الأمام، نحو الصوت الذي نادى إريك. فقد بدت الصرخة ملحّة.

عندما نظرت، رأيت جندياً من الشجعان واقفاً أمام امرأة راكعة. كانت ترتدي قميصاً أبيض وتنّورة سوداء، وتضع يديها خلف رأسها. بدت ابتسامة إريك ماكرة حتّى عن هذه المسافة.

قال: "جامحة، أحسنت. أحضرها إلى المصاعد. سنقرّر من سنقتل ومن سنعيد لاحقاً".

أمسك الجندي بشعر المرأة المعقود إلى الخلف، وتوجّه نحو المصاعد، وهو يجرّها خلفه. راحت تصرخ، ثمّ تعثّرت وكادت تسقط. حاولت أن أزدرد ريقي، لكنّني شعرت كأنّ كرة من القطن عالقة في حلقي.

تابع إريك طريقه، بعيداً عنّي، بينما حاولت ألاّ أحدّق إلى المرأة وهي تمرّ من أمامي، وشعرها في قبضة الجندي. أصبحت أعرف الآن كيف يعمل الرعب: تركته يتملّكني لبضع ثوان، ثمّ أجبرت نفسي على التحرّك.

واحد... اثنان... ثلاثة...

رحت أتقدّم مع هدف جديد. فمراقبة كلّ شخص لمعرفة ما إذا كان واعياً أم لا تستغرق الوقت. لذلك، عندما مررت بالقرب من الشخص التالي الممدّد على الأرض، دست بقوّة على إصبعه الصغير. لكن لا جواب. انتقلت إلى الشخص التالي، ودست على إصبعه بقوّة بطرف حذائي، من دون جواب أيضاً.

سمعت أحدهم يصيح من رواق بعيد: "وجدت واحداً!" فشعرت بالذعر مجدّداً. رحت أتنقّل بين الضحايا بسرعة، من رجال ونساء

وأطفال، ومراهقين وعجزة، أدوس على أصابعهم، أو بطونهم، أو كواحلهم، بحثاً عن إشارات الألم. بالكاد كنت أرى وجوههم بعد برهة، لكن مع ذلك، لم أجد جواباً. كنت ألعب الغميضة مع الجامحين، لكنّني لم أكن الشخص الوحيد.

أخيراً، دست على إصبع فتاة من النـزاهة، ورأيت وجهها يتقلّص. كان ردّ الفعل طفيفاً، ومحاولتها لإخفاء الألم مثيرة للإعجاب، لكنّها كافية للفت انتباهي.

نظرت من فوق كتفي لأرى ما إذا كان ثمّة أحد بالقرب منّي، لكنّهم تركوا جميعاً هذا الرواق المركزي. بحثت عن أقرب سلّم، فوجدته على بعد عشرة أقدام فقط، في آخر رواق جانبـي إلى يميني. عندئذٍ، ركعت بالقرب من رأس الفتاة.

قلت بصوت خافت قدر الإمكان: "لا تخافي أيّتها الفتاة، أنا لست منهم".

فتحت عينيها قليلاً.

قلت: "ثمّة سلّم على بعد ثلاث ياردات تقريباً. سأخبرك إن لم أجد أحداً، وعندها عليك أن تركضي، مفهوم؟"

هزّت برأسها موافقة.

وقفت، ورحت أدور ببطء. كان ثمّة خائنة إلى يساري تنظر بعيداً، وتكز أحد الشجعان الممدّدين على الأرض بقدمها. خلفي، وقف خائنان يضحكان على شيء ما. وأمامي، أتى أحدهم باتّجاهي، ثمّ رفع رأسه وبدأ يبتعد في الرواق مجدّداً.

قلت: "الآن".

نهضت الفتاة، وأسرعت باتجاه الباب نحو السلّم. راقبتها إلى أن أُغلق الباب خلفها، ثمّ رأيت انعكاس صورتي على أحد النوافذ. غير أنّني

لم أكن أقف بمفردي بين النائمين، كما ظننت، بل كان إريك واقفاً خلفي تماماً.

á á á

نظرت إلى انعكاس صورته، وبادلني النظر. إن تحرّكت بسرعة كافية، قد لا يملك الحضور الذهني الكافي للقبض عليّ. لكنّني أعلم، حتّى وأنا أفكّر بذلك، أنّني لن أتمكّن من الإفلات منه، ولا من قتله، لأنّني لا أملك سلاحاً.

استدرت، وأنا ارفع مرفقي، ثمّ وجّهت به ضربة إلى وجه إريك. أصبت طرف ذقنه، لكنّ الضربة لم تكن قوية بما فيه الكفاية لإحداث ضرر يُذكر. أمسك ذراعي اليسرى بيد، وضغط فوّهة مسدّس على جبيني باليد الأخرى، وهو يبتسم في وجهي.

قال: "لا أفهم كيف يبلغ بك الغباء المجيء إلى هنا من دون مسدّس".

قلت: "أنا ذكية بما فيه الكفاية لفعل ذلك". ثمّ دست على قدمه، التي كنت قد أطلقت عليها النار منذ أقلّ من شهر. صرخ، وتشنّج وجهه، ثمّ ضربني بعقب البندقية على فكّي. شدّدت على أسناني لأمنع نفسي من الصراخ، وسالت الدماء على عنقي من الشقّ الذي أحدثه.

خلال كلّ ذلك، لم يُرخِ قبضته على ذراعي إطلاقاً. لكن بما أنّه لم يقتلني حتّى الآن، فهذا يعني أنّه لم يُسمح له بذلك بعد.

قال: "فوجئت لمعرفة أنّك ما زلت على قيد الحياة، بما أنّني أنا من طلب من جانين بناء ذلك الخزّان من أجلك".

رحت أفكّر بما يمكنني فعله لإيلامه بما فيه الكفاية لتحريري. عندما قرّرت توجيه ركلة قوية بين ساقيه، وقف خلفي وأمسكني من ذراعيّ،

ثمّ ضغط بقوّة بحيث عجزت تقريباً عن تحريك قدميّ. غرز أظافره في جلدي، فشددت على أسناني، ألماً واشمئزازاً على السواء بسبب احتكاك ظهري بصدره.

قال: "كانت تفكّر بدراسة ردّ فعل الجامحين على نسخة حقيقية من المحاكاة، ورأت أنّ تجربة كهذه ستكون مثيرة". ثمّ دفعني إلى الأمام لأمشي. أحسست بأنفاسه على شعري. "فوافقتُ. كما ترين، البراعة، وهي أكثر من الصفات التي نقدّرها لدى المعرفة، تحتاج إلى الإبداع".

حرّك يديه، فاحتكّت بقع الجلد الميت ببشرتي. حرّكت جسدي قليلاً إلى اليسار وأنا أمشي، محاولة وضع قدمي بين قدميه وهو يمشي. ثمّ لاحظتُ بمتعة أنّه يعرج.

"في بعض الأحيان، يكون الإبداع بلا جدوى، وغير منطقي... ما لم يكن لهدف أسمى. في هذه الحالة، لا يكون سوى تراكم معرفة".

توقّفت عن المشي للحظات كافية لكي أرفع عقب قدمي وأركله بقوّة بين ساقيه. فتصاعدت صرخة عالية من حلقه، إلاّ أنّه كبحها قبل أن تولد فعلاً، وتخدّرت يداه للحظة واحدة. في تلك اللحظة، استدرت بقوّة بحيث تمكّنت من تحرير نفسي. لم أعرف إلى أين أهرب، لكن عليّ أن أركض، عليّ أن-.

أمسك بمرفقي، وشدّني إلى الخلف، ثمّ ضغط بإصبعه على الجرح في كتفي، وشدّ عليه إلى أن بدأ السواد يغزو أطراف حقلي البصري، فصرخت بأعلى صوتي.

قال: "*أظنّ* أنّني أتذكّر، من التسجيل الذي شاهدته لك وأنت في الخزّان، أنّك تعرّضت لإطلاق نار في هذا الكتف، يبدو أنّني محقّ".

ارتخت ركبتاي، بينما أمسكني من قميصي من دون اكتراث تقريباً، وجرّني إلى المصعد. أخذ القماش يضغط على حلقي، ويخنقني، وتعثّرت خلفه، في حين استبدّ الألم بجسدي.

عندما وصلنا إلى المصعد، أجبرني على الركوع بجانب المرأة التي رأيتها سابقاً، المنتمية إلى النـزاهة. فقد جلست هي وأربعة آخرين بين صفّي المصاعد، تحت تهديد السلاح.

قال إريك: "أريد مسدّساً عليها طوال الوقت، ليس موجّهاً إليها وحسب، بل *عليها*".

ضغط أحد الشجعان فوهة مسدّس على مؤخّر عنقي. أحسست بالدائرة الباردة على جلدي. وعندما نظرت إلى إريك، رأيت وجهه أحمر، وعينيه دامعتين.

سألته، رافعة حاجبيّ باستغراب: "ما الأمر، إريك؟ هل تخاف من فتاة صغيرة؟"

قال وهو يمرّر يديه في شعره: "أنا لست غبياً. لقد خُدعت بتمثيلية الفتاة الصغيرة مرّة، لكنّها لن تتكرّر. أنت أفضل كلب هجوم لديهم". ثمّ انحنى نحوي أكثر، مضيفاً: "لهذا السبب، سنقضي عليك سريعاً".

فُتح باب أحد المصاعد، وخرج منه جندي يدفع يوريا نحو صفّ الجامحين القصير، وكانت شفتاه ملوّثتين بالدماء. نظر يوريا إليّ، لكنّني لم أستطع فهم تعابيره بما فيه الكفاية لأعرف ما إذا كان قد نجح أم لا. ما دام هنا، فقد فشل على الأرجح. سيجدون الآن جميع الجامحين في المبنى، وسيموت معظمنا.

عليّ أن أشعر بالخوف ربّما. لكن عوضاً عن ذلك، رغبت في الضحك بشكل هستيري، لأنّني تذكّرت أمراً:

ربّما كنت لا أحمل سلاحاً، لكنّني أملك سكّيناً في جيبـي الخلفي.

الفصل السادس عشر

مرّرت يدي إلى الخلف، سنتمتراً تلو الآخر، لكي لا يلاحظني الجندي الذي يصوّب مسدّسه عليّ. فُتح باب المصعد مجدّداً، وخرج منه مزيد من الجامحين مع مزيد من الخونة. أخذت المرأة الجالسة إلى يميني بالبكاء. والتصق شعرها بشفتيها المبلّلتين إمّا باللعاب أو بالدموع، لا أدري.

وصلت يدي إلى زاوية جيبـي الخلفي. أبقيتها ثابتة، بينما ارتجفت أصابعي من شدّة التوتّر. عليّ انتظار اللحظة المناسبة، عندما يكون إريك قريباً.

ركّزت على آلية التنفّس، وتخيّلت الهواء يملأ كلّ جزء من أجزاء رئتيّ وأنا أتنشّقه، ثمّ تذكّرت وأنا أزفر كيف أنّ كلّ قطرة من دمائي، المحمّلة وغير المحمّلة بالأوكسجين، تدخل وتخرج من القلب نفسه.

من الأسهل التفكير بالحقائق البيولوجية منه بصفّ الجامحين الجالسين بين المصاعد. جلس إلى يساري صبيّ من النـزاهة لا يتجاوز الحادية عشرة من عمره. كان أكثر شجاعة من المرأة الجالسة إلى يميني، إذ راح يحدّق إلى الجندي الواقف أمامه من دون أن يرفّ له جفن.

شهيق، زفير. عبَر الدم أطرافي؛ القلب هو عضلة قوية، إنّها أقوى عضلة في جسم الإنسان. وصل المزيد من الشجعان، حاملين أخباراً عن نجاح تمشيطهم لطوابق معيّنة من مركز عديمي الرحمة. كان ثمّة مئات من الأشخاص الممدّدين على الأرض مغمياً عليهم بعد أن أصيبوا بشيء غير الرصاص، ولا فكرة لديّ عن السبب.

غير أنّني أفكّر بالقلب، ليس بقلبـي أنا، بل بقلب إريك، وكم سيبدو صدره خالياً عندما يتوقّف عن النبض. مع أنّني أكرهه إلى حدّ كبير، إلاّ أنّني لا أريد قتله، على الأقلّ ليس بسكّين، وعلى مسافة قريبة بحيث

أراه وهو يرحل عن هذه الحياة. لكن لم يعد لديّ سوى فرصة واحدة لفعل شيء مفيد، وإن كنت أريد أن أوجّه إلى المعرفة ضربة موجعة، عليّ حرمانهم من أحد قادتهم.

لاحظت أنّ أحداً لم يحضر فتاة النـزاهة التي أنقذتها، ما يعني أنّها أفلتت على الأرجح. هذا جيّد.

جمع إريك يديه خلف ظهره، وبدأ يمشي ذهاباً وإياباً أمام صفّ الجامحين.

قال: "تنصّ الأوامر التي لديّ على إحضار اثنين منكم فقط إلى مقرّ المعرفة لإجراء الاختبارات عليهم، وإعدام البقية. ثمّة عدّة طرق لتحديد مَن هم الأقلّ نفعاً لنا من بينكم".

أبطأ من سرعته عندما اقترب منّي. شددت أصابعي وأنا أستعدّ للإمساك بقبضة السكّين، لكنّه لم يقترب بما فيه الكفاية. تابع سيره ووقف أمام الصبيّ الجالس إلى يساري.

قال: "ينتهي نموّ الدماغ في سنّ الخامسة والعشرين، ما يعني أنّ جموحك لم يكتمل بعد".

ثمّ رفع سلاحه وأطلق النار.

صدرت عنّي صرخة مكتومة بينما استلقى الصبيّ على الأرض بلا حياة، وأغمضتُ عينيّ. شعرت أنّ كلّ عضلة في جسدي تتوجّه نحوه، لكنّني منعت نفسي. *انتظري، انتظري، انتظري*. لا يمكنني التفكير بالصبيّ. *انتظري*. أجبرت نفسي على فتح عينيّ، ورففت أجفاني لإبعاد الدموع.

لم تحقّق صرختي سوى شيئاً واحداً: وقف إريك أمامي الآن، مبتسماً. لقد لفتت انتباهه.

قال: "أنت أيضاً شابّة، ولم يكتمل نموّك إطلاقاً".

اقترب خطوة، وزحفت أصابعي أكثر نحو قبضة السكّين.

"يحصل معظم الجامحين على نتيجتين في اختبار الجدارة. ولا يحصل بعضهم سوى على واحدة. لكنّ أحداً لم يسبق أن حصل على ثلاث نتائج، وليس هذا بسبب الجدارة، بل لأنّه بكلّ بساطة، لكي تحصلي على تلك النتيجة، عليك أن ترفضي اختيار شيء". قال ذلك وهو يقترب أكثر. أملت رأسي لأنظر إليه، إلى كلّ الأقراط المعدنية التي تلمع في وجهه، وإلى عينيه الفارغتين.

"يعتقد رؤسائي أنّك حصلت على نتيجتين، تريس، ولا يظنّون أنّك بهذا التعقيد، بل مجرّد مزيج من نكران الذات والشجاعة، وغير أنانية إلى حدّ الغباء. أم أنّك شُجاعة إلى حدّ الغباء؟"

قبضت على السكّين وشددت، بينما مال نحوي أكثر.

"لكن بيني وبينك... أعتقد أنّك قد تكونين حصلت على ثلاث، لأنّك من الأشخاص العنيدين الذين يرفضون القيام بخيار بسيط لمجرّد أنّه طُلب منهم ذلك. هل لك أن توضحي لي؟"

اندفعت إلى الأمام، وأخرجت يدي من جيبي، ثمّ أغمضت عينيّ ودفعت نصل السكّين نحوه. لا أريد رؤية دمائه.

شعرت بالسكّين تُغرز، ثمّ سحبتها مجدّداً. راح جسدي كله يرتعد مع نبض قلبي، بينما أصبح عنقي لزجاً بفعل العرق. فتحتُ عينيّ بينما كان إريك يتهاوى على الأرض، ثمّ عمّت الفوضى.

لم يكن الشجعان الخونة يحملون أسلحة قاتلة، بل مجرّد تلك التي أصابونا بها بتلك المادّة المجهولة. لذلك، بدأوا في تلك اللحظة باستلال أسلحتهم الحقيقية بإرباك. في أثناء ذلك، رمى يوريا بنفسه على أحدهم، ولكمه بقوّة على فكّه. فسقط الجندي أرضاً مغمياً عليه. عندئذٍ، استولى يوريا على سلاح الجندي، وبدأ يطلق النار على الشجعان الأقرب إلينا.

بحثت عن سلاح إريك، فقد كنت مذعورة إلى حدّ أنّني بالكاد استطعت الرؤية. وعندما نظرت حولي، كنت واثقة أنّ عدد الشجعان في القاعة قد تضاعف. ملأ صوت الرصاص أذنيّ، فانبطحت أرضاً، بينما أخذ الجميع يهربون. مرّت أصابعي على فوهة المسدّس، فارتجفت. كانت يداي ضعيفتين جدّاً وعاجزتين عن الإمساك به.

أحسست بذراع ثقيلة تحيط بكتفيّ، وتدفعني إلى الجدار. آلمني كتفي الأيمن، ثمّ رأيت وشماً لرمز الشجاعة على عنق ذلك الشخص. التفت توبياس، ثمّ انحنى بالقرب منّي لحمايتي من النيران، وأطلق الرصاص.

قال: "أخبريني إن أتى أحدهم خلفي!"

كان ثمّة مزيد من الشجعان في القاعة، شجعان من دون أربطة زرقاء، شجعان مخلصون. إنّهم جماعتي، لقد أتت جماعتي لإنقاذنا. كيف استفاقوا؟

ابتعد الشجعان الخونة بسرعة من أمام المصاعد. لم يكونوا مستعدّين لهجوم، ليس من كلّ الجهات. بعضهم قاوم، لكنّ معظمهم فرّوا نحو السلالم. أطلق توبياس النار تكراراً، إلى أن أفرغ سلاحه، وبدأ يخرج صوت طقطقة عوضاً عن الرصاص. أصبحت رؤيتي ضبابية بسبب الدموع، وكانت يداي عاجزتين عن استخدام السلاح. صرخت من بين أسناني بإحباط. لم أعد قادرة على التحمّل، أنا بلا فائدة.

على الأرض، كان إريك يئنّ ألماً. لا يزال على قيد الحياة، حاليّاً على الأقلّ.

توقّف الرصاص تدريجيّاً. كانت يدي مبتلّة، وعندما ألقيت عليها نظرة خاطفة، عرفت أنّها مضرّجة بدماء إريك. مسحتها على سروالي، وحاولت كبح دموعي. لكنّ الطنين ملأ أذنيّ.

قال توبياس: "تريس، يمكنك ترك السكّين الآن".

الفصل السابع عشر

روى لي توبياس ما جرى على النحو التالي:

عندما وصل أعضاء المعرفة إلى السلّم، امتنعت إحداهم عن الصعود إلى الطابق الثاني، وتوجّهت عوضاً عن ذلك إلى أعلى طابق في المبنى. هناك، عمدت إلى إخلاء مجموعة من الشجعان الأوفياء، بمن فيهم توبياس، عبر مخرج حريق لم يقم الشجعان الخونة بإغلاقه. فاجتمع أولئك الشجعان الأوفياء في الردهة، وانقسموا إلى أربع مجموعات اقتحمت السلالم في وقت واحد، وطوّقت الخونة، الذين تجمّعوا عند المصاعد.

لم يكن الخونة مستعدّين لهذا القدر من المقاومة. فقد ظنّوا أنّ الجميع في حالة إغماء باستثناء الجامحين، لذلك هربوا.

كانت تلك المرأة المنتمية إلى المعرفة هي كارا، شقيقة ويل الكبرى.

á á á

تنهّدت، ثمّ تركت الستارة تنـزلق عن ذراعيّ، وتفحّصت كتفي. كان ثمّة قرص معدني بحجم ظفر إصبعي الصغير مضغوطاً على جلدي. أحاطت بذلك القرص بقعة من الخطوط الزرقاء، كما لو أنّ أحدهم حقن صبغاً أزرق في العروق الدقيقة تحت سطح جلدي. عبست وأنا أحاول نـزع القرص المعدني عن ذراعي، غير أنّني شعرت بألم حاد.

شددت على أسناني، ثمّ أدخلت طرف السكّين تحت القرص ودفعته إلى الأعلى. كتمت صرختي عندما فاجأني الألم، وأظلم كلّ شيء للحظة. لكنّني تابعت الضغط، بكلّ قوّتي، إلى أن ارتفع القرص بما فيه الكفاية لأمسكه بأصابعي. كان ثمّة إبرة مثبّتة في أسفل القرص.

شهقت وأنا أمسك القرص بأصابعي، وأسحبه مرّة أخيرة. هذه المرّة، خرجت الإبرة. كانت بطول إصبعي الصغير، وملوّثة بالدماء. تجاهلت الدماء التي راحت تسيل على ذراعي، وحملت القرص والإبرة أمام الضوء فوق المغسلة.

بالنظر إلى الصباغ الأزرق في ذراعي والإبرة، لا بدّ أنّهم حقنونا بشيء ما. لكن ما هو يا ترى؟ أهو سمّ، أم مادّة متفجّرة؟

هززت رأسي لصرف تلك الفكرة. لو أرادوا قتلنا، لأطلقوا علينا النار بكلّ بساطة ونحن غائبين عن الوعي. أيّاً تكن هذه المادّة، فهي ليست قاتلة.

طرق أحدهم على الباب. لم أفهم السبب، فأنا في النهاية في حمّام عامّ.

سمعت صوت يوريا المكتوم وهو يسأل: "تريس، هل أنت هناك؟"

أجبته: "أجل".

بدا يوريا أفضل حالاً ممّا كان عليه منذ ساعة. فقد غسل الدماء عن فمه، واستعاد وجهه بعض اللون. لاحظت فجأة مدى وسامته، فقد كانت كلّ ملامحه متناسقة، ونظرات عينيه الداكنتين مليئة بالحياة، تلمع في وجهه البنّي البرونـزي. لا بدّ أنّه كان دائماً بهذه الوسامة. فوحدهم الشباب الذين يتمتّعون بالوسامة منذ الصغر يملكون تلك الابتسامة المليئة بالغرور.

لم يكن توبياس كذلك، فهو خجول عندما يبتسم، كأنّه يتفاجأ لأنّك نظرتَ إليه في الأساس.

شعرت بألم في حلقي. فوضعت الإبرة والقرص على طرف المغسلة.

نقل يوريا نظره بين الإبرة التي أحملها وخطّ الدم الذي يسيل من كتفي إلى رسغي.

قال: "هذا فظيع".

"لم أنتبه". تركت الإبرة، ثمّ أخذت منديلاً ورقياً، ومسحت به الدماء عن ذراعي. "كيف حال الآخرين؟"

"مارلين تمزح، كالعادة". اتّسعت ابتسامة يوريا، وظهرت غمّازة على خدّه. "ولين تتذمّر. مهلاً، هل نـزعت هذا الشيء من ذراعك بنفسك؟" أشار إلى الإبرة مضيفاً: "ربّاه، تريس. ألا تملكين أعصاب ألم أم ماذا؟"

"أظنّ أنّني بحاجة إلى ضمادة".

"تظنّين؟" هزّ رأسه مضيفاً: "عليك إيجاد بعض الثلج لوجهك، أيضاً. كلّهم يستفيقون الآن، والمكان أشبه بمستشفى مجانين".

لمست فكّي، وشعرت بالألم في مكان الضربة التي تلقّيتها بسلاح إريك. عليّ دهنه بالمرهم لكي لا يتغيّر لونه.

"هل مات إريك؟" لم أكن أعرف أيّ جواب أرغب في سماعه، نعم أم لا.

"كلاّ. قرّر عدد من أبناء النـزاهة معالجته". عبس يوريا مضيفاً: "تحت ذريعة إحسان معاملة الأسرى. ويقوم كانغ باستجوابه بشكل سرّي حاليّاً. لم يشأ إدخالنا إلى هناك، لكي لا نشوّش عليه".

ضحكت ساخرة.

"أجل، على كلّ حال لا أحد يفهم شيئاً". استند إلى طرف المغسلة المجاورة وتابع قائلاً: "لماذا دخلوا إلى هنا، وأطلقوا علينا تلك الأشياء، ثمّ أغمي علينا؟ لماذا لم يقتلونا وحسب؟"

"لا أدري. التفسير الوحيد الذي أجده هو أنّ هذا ساعدهم على معرفة الجامحين بيننا. لكن لا يمكن أن يكون هذا هو السبب الوحيد".

"لا أفهم لماذا يلحقون بنا. أعني، أفهم أنّنا سبّبنا لهم المتاعب عندما كانوا يحاولون تأليف جيش يتحكّمون بعقله، أمّا الآن فهذا يبدو بلا جدوى".

عبست وأنا أضغط منديلاً نظيفاً على كتفي، لإيقاف النـزيف. إنّه على حقّ. فجانين أصبحت تملك جيشاً، لماذا تودّ قتل الجامحين الآن؟

قلت ببطء: "جانين لا تريد قتل الجميع، بل تعرف أنّ هذا لن يكون منطقياً. فالمجتمع لا يمكن أن يستمرّ من دون وجود كلّ الجماعات، لأنّ كلّ جماعة تدرّب أعضاءها على وظائف معيّنة. ما تسعى إليه هو *السيطرة*".

نظرت إلى صورتي في المرآة. كان فكّي متورّماً، وآثار الأظافر ما زالت على ذراعيّ. كم هذا مقرف.

قلت: "لا بدّ أنّها تخطّط لمحاكاة أخرى، مثل تلك السابقة. لكنّها تريد هذه المرّة التأكّد أنّ الجميع إمّا تحت تأثيرها أو في عداد الأموات".

"لكنّ المحاكاة لا تدوم سوى لمدّة معينة. ولا فائدة منها ما لم تكن تحاول تحقيق شيء معيّن".

تنهّدت قائلة: "صحيح. لا أعرف، ولا أفهم". حملت الإبرة مضيفة: "كما أنّني لا أعرف ما هذا. إن كان مثل الحقن المسبّبة للمحاكاة، فإنّه يُستخدم لهدف واحد. لماذا إذاً حقنتنا بهذه الأشياء لمجرّد إفقادنا الوعي؟ لا معنى لما يجري".

"لا أعرف، تريس. لكنّنا نملك حالياً مبنى ضخماً يعجّ بالناس المذعورين، وعلينا التعامل مع الوضع. فلنذهب لإحضار ضمادة من أجلك". صمت قليلاً ثمّ أضاف: "هلاّ أسديتني خدمة؟"

"وما هي؟"

"لا تخبري أحداً أنّني جامح". عضّ على شفته متابعاً: "أصبحت شونا صديقتي، ولا أريدها أن تخاف منّي فجأة".

ابتسمت مجيبة: "بكلّ تأكيد. سأحتفظ بهذا السرّ لنفسي".

á á á

بقيت مستيقظة طوال الليل أنـزع الإبر من أذرع المصابين. بعد بضع ساعات، توقّفت عن التعاطي معهم بلطف، وصرت أسحبها بقوّة.

اكتشفت أنّ الصبيّ الذي قتله إريك كان يدعى بوبـي، وأنّ حالة إريك مستقرّة، وأنّه من بين مئات الناس الموجودين في المبنى، ثمانين فقط نجوا من هجوم الحقن، سبعون منهم ينتمون إلى الشجاعة، وإحداهم هي كريستينا. أمضيت الليل وأنا أفكّر بالإبر، والمصل، والمحاكاة، محاولة أن أسكُن عقول أعدائي.

في الصباح، فرغَت الإبر، فذهبت إلى الكافتيريا وأنا أفرك عينيّ. أعلن جاك كانغ أنّه سيعقد لنا اجتماعاً عند الظهيرة، ما يعني أنّه بمقدوري أخذ قيلولة طويلة بعد تناول الطعام.

لكن عندما دخلت إلى الكافتيريا، رأيت كاليب.

اندفع نحوي واحتضنني بين ذراعيه، فتنفّست الصعداء. ظننت أنّني وصلت إلى مرحلة لم أعد أحتاج فيها إلى أخي، لكنّني لا أعتقد أنّ لهذه المرحلة وجود بالفعل. استرخيت للحظة بين ذراعيه، والتقى نظري بنظر توبياس من فوق كتف كاليب بشكل خاطف.

سألني كاليب وهو يبتعد: "هل أنت بخير؟ وجهك..."

"ليس مهمّاً، مجرّد تورّم".

"سمعت أنّهم قبضوا على مجموعة من الجامحين، وبدأوا يطلقون عليهم النار. الحمد لله أنّهم لم يجدوك".

"في الواقع، وجدوني، لكنّهم لم يقتلوا سوى واحداً". ضغطت على أنفي لتنفيس بعض الضغط من رأسي. "لكنّني بخير. متى وصلت؟"

"منذ عشر دقائق. أتيت مع ماركوس. بصفته قائدنا السياسي الشرعي الوحيد، شعر أنّ من واجبه أن يكون هنا. فنحن لم نسمع عن الهجوم إلاّ منذ ساعة. ذلك أنّ أحد المنبوذين رأى الشجعان وهم يقتحمون المبنى، واستغرق الخبر بعض الوقت إلى أن انتشر بين المنبوذين".

سألته: "أما زال ماركوس *على قيد الحياة* ؟" في الواقع، لم نره يموت ونحن نهرب من مجمّع الوئام، لكنّني افترضت أنّه قُتل، ولست واثقة من شعوري في هذه اللحظة. أهي الخيبة لأنّني أكرهه بسبب معاملته لتوبياس؟ أم الارتياح لأنّ آخر زعماء نكران الذات ما زال حياً؟ هل من الممكن أن أشعر بالاثنين معاً؟

قال كاليب: "لقد هربا هو وبيتر، وعادا إلى المدينة سيراً على الأقدام".

لم يسرّني أبداً خبر نجاة بيتر. "أين بيتر إذاً؟"

"وأين تتوقّعين أن يكون؟"

أجبته وأنا أهزّ رأسي: "عند جماعة المعرفة. يا له من-"

لم أجد كلمة قوية بما فيه الكفاية لوصفه. يبدو أنّني بحاجة إلى توسيع قاموسي.

التوت قسمات كاليب للحظة، ثمّ هزّ رأسه موافقاً، ولمس كتفي وقال: "هل أنت جائعة؟ هل أحضر لك شيئاً؟"

"أجل، من فضلك. سأعود بعد قليل، أودّ التحدّث مع توبياس".

"حسناً". شدّ كاليب على ذراعي، وانصرف ليقف في صفّ الكافتيريا الطويل. وقفنا أنا وتوبياس على بعد ياردات من بعضنا لبضع ثوان.

اقترب منّي ببطء.

سألني: "هل أنت بخير؟"

"قد أنفجر إن اضطررت للإجابة عن هذا السؤال مرّة أخرى. بما أنّني لم أتلقَّ رصاصة في رأسي، فأنا بخير".

قال عابساً: "فكّك متورّم جدّاً، وقد طعنتِ إريك للتوّ، أليس مسموحاً لي أن أسألك عن حالك؟"

تنهّدت وأنا أفكّر أنّه عليّ إخباره عن ماركوس، لكنّني لا أرغب في زفّ الخبر له هنا، بوجود كلّ هؤلاء الناس. "نعم، أنا بخير".

حرّك ذراعه كما لو كان يفكّر بلمسي، لكنّه عدَل عن ذلك. ثمّ أعاد التفكير في الأمر، وأحاطني بذراعه، وشدّني نحوه.

فكّرت فجأة أنّه ربّما كان يجدر بـي أن أترك شخصاً آخر يخوض كلّ المخاطر، وأبدأ بالتصرّف بأنانية بحيث يمكنني البقاء بالقرب من توبياس من دون إيذائه. كلّ ما أريده هو أن أدفن وجهي في عنقه، وأنسى كلّ شيء آخر.

همس قائلاً: "أنا آسف لأنّني استغرقت كلّ هذا الوقت للوصول إليك".

تنهّدت، ولمست ظهره بأناملي فقط. يمكنني الوقوف هنا حتّى يغمى عليّ من التعب، لكن لا ينبغي ذلك، لا أستطيع. فابتعدت عنه وقلت: "أودّ التحدّث معك، هل يمكننا الذهاب إلى مكان هادئ؟"

هزّ رأسه موافقاً، وغادرنا الكافتيريا. صاح أحد الشجعان عندما مررنا به: "آه، انظروا! هذا *توبياس إيتون*!"

كنت قد نسيت تقريباً أمر الاستجواب، واسمه الذي كُشف أمام جميع الشجعان.

صاح آخر: "رأيت أباك هنا منذ قليل، إيتون! هل ستذهب للاختباء؟"

تصلّب جسد توبياس، كما لو أنّ أحدهم يجرّ مسدّساً على صدره، ولا يسخر منه وحسب.

"هل ستختبئ، أيّها الجبان؟"

ضحك عدد من الأشخاص حولنا. فأمسكت بذراع توبياس، وقدته نحو المصاعد قبل أن يقع شجار. فقد بدا أنّه على وشك أن يضرب أحدهم، لا بل وأسوأ.

قلت: "كنت أنوي إخبارك، فقد أتى إلى هنا مع كاليب، بعد أن هرب هو وبيتر من مقرّ الوئام-"

"وماذا كنت تنتظرين؟" لم تكن نبرته قاسية، غير أنّ صوته بدا منفصلاً عنه، كما لو أنّه يطفو بيننا.

"هذا ليس من الأخبار التي يزفّها المرء في كافتيريا".

"أنت على حقّ".

انتظرنا بصمت وصول المصعد، ووقف توبياس يعضّ على شفته ويحدّق في الفراغ. ظلّ على هذه الحال طوال الطريق حتّى وصلنا إلى الطابق الثامن عشر، الذي كان خالياً. هناك، لفّني الصمت مثل حضن كاليب، وهدّأني. جلست على أحد المقاعد على أطراف قاعة الاستجواب، بينما جرّ توبياس كرسي نايلز وجلس عليه أمامي.

سألني وهو ينظر عابساً إلى الكرسي: "ألم يكن ثمّة اثنان من هذا؟"

أجبته: "أجل، أنا... رميته من النافذة".

قال وهو يجلس: "غريب. إذاً ما الذي أردت التحدّث عنه؟ أم أنّ الأمر يتعلّق بماركوس؟"

أجبت بحذر: "كلاّ، الموضوع لا يخصّه. هل أنت... بخير؟"

أجاب وهو يحدّق إلى يديه: "بما أنّني لم أتلقَّ رصاصة في رأسي، فأنا بخير. أودّ التحدّث عن شيء آخر".

"أردت أن أكلّمك عن المحاكاة، لكن ثمّة أمر آخر أوّلاً. ظنّت أمّك أنّ جانين ستلاحق المنبوذين الآن. لكن من الواضح أنّها كانت مخطئة، ولست واثقة من السبب. فجماعة النـزاهة ليست مستعدّة للقتال-"

"حسناً، فكّري. فكّري بالأمر، كما يفعل أعضاء المعرفة".

نظرت إليه.

قال: "ماذا؟ إن كنت عاجزة عن ذلك، فلا أمل لدينا".

"حسناً... لا بدّ أنّ السبب هو أنّ جماعتَي الشجاعة والنـزاهة تشكّلان الهدفين الأكثر منطقية. لأنّ... المنبوذين منتشرون في أماكن عدّة، أمّا نحن فمجموعون في مكان واحد".

"هذا صحيح. كذلك، عندما هاجمت جانين نكران الذات، حصلَت على كافة بيانات تلك الجماعة. قالت لي والدتي إنّ نكران الذات قاموا بتوثيق الجامحين الموجودين بين المنبوذين، ما يعني أنّه بعد وقوع الهجوم، لا بدّ أن تكون جانين قد اكتشفت أنّ نسبة الجامحين بين المنبوذين هي أعلى من نسبتهم بين أعضاء النـزاهة. وهذا يجعل منهم هدفاً غير منطقي".

"حسناً. أخبرني إذاً عن المصل مجدّداً. هو يتألّف من عدّة أجزاء، صحيح؟"

أجابني وهو يهزّ رأسه موافقاً: "يتألّف من شقَّين، الناقل والسائل الذي يسبّب المحاكاة. يحمل الناقل المعلومات إلى الدماغ من جهاز الكمبيوتر والعكس بالعكس، بينما يقوم السائل بتعديل الدماغ لوضعه في حالة محاكاة".

"ولا يعمل الناقل إلاّ لمحاكاة واحدة، صحيح؟ ما الذي يحدث بعد ذلك؟"

أجاب: "يذوب. على حدّ علمي، لم تتمكّن جماعة المعرفة بعد من تطوير ناقل يدوم لأكثر من محاكاة واحدة، مع أنّ محاكاة الهجوم دامت أكثر من أيّ محاكاة رأيتها من قبل".

علقت في ذهني عبارة "على حدّ علمي". فقد أمضت جانين معظم حياتها في تطوير أنواع المصل. وإن كانت لا تزال تلاحق الجامحين، فهذا يعني على الأرجح أنّ هوسها بابتكار أشكال أكثر تطوّراً من التكنولوجيا لم يتوقّف.

سألني: "ما الأمر، تريس؟"

قلت وأنا أشير إلى الضمادة التي تغطّي كتفي: "هل رأيت هذا؟"

قال: "ليس عن كثب. كنّا أنا ويوريا ننقل جرحى جماعة المعرفة إلى الطابق الرابع طوال الصباح".

نـزعت طرف الضمادة، بحيث ظهر الجرح الذي خلّفته الإبرة. لم يعد الجرح ينـزف، حمداً لله، لكنّ بقعة الصباغ الزرقاء لم تتلاشَ بعد. بعد ذلك، دسست يدي في جيبـي، وأخرجت الإبرة التي كانت مغروزة في ذراعي.

قلت: "عندما هاجمونا، لم يحاولوا قتلنا، بل أصابونا بهذه الإبر".

لمس بيده الجلد المصبوغ حول الجرح. لم ألاحظ من قبل لأنّ التغيير كان يحدث أمامي، لكنّه بدا مختلفاً عمّا كان عليه في فتره التلقين. فقد ترك لحيته تنمو قليلاً، وأصبح شعره أطول ممّا كان، وأكثر كثافة بحيث بدا بنّياً، وليس أسود.

أخذ منّي الإبرة، وطرق على القرص المعدني في طرفها. "إنّه مجوّف على الأرجح، ولا بدّ أنّه كان يحتوي على ذلك الشيء الأزرق الموجود في ذراعك الآن. ما الذي جرى معك بعدما تعرّضتِ للطلقة؟"

"رموا تلك الإسطوانات التي أطلقت الغاز في القاعة، وأغمي على الجميع، ما عداي أنا ويوريا وبقيّة الجامحين".

لم يبد توبياس متفاجئاً. أمّا أنا فنظرت إليه متسائلة: "هل كنت تعلم أنّ يوريا جامح؟"

هزّ كتفيه بلا اكتراث. "بالطبع، فأنا من أشرف على جلسات المحاكاة التي خضع لها".

"ولم تخبرني أبداً؟"

"هذه معلومات خاصّة، معلومات خطيرة".

أحسست بالغضب. فكم من الأشياء سيخفي عنّي بعد؟ غير أنّني حاولت أن أكظم غيظي. بالطبع، لا يمكنه إخباري أنّ يوريا جامح. فهو يحترم خصوصية يوريا وحسب، هذا منطقي.

تنحنحت قائلة: "لقد أنقذتَ حياتنا، فقد كان إريك يحاول اصطيادنا".

"أعتقد أنّنا لم نعد ندري من أنقذ حياة من"، ونظر إليّ مطوّلاً لبضع ثوان.

كسرت الصمت قائلة: "على أيّ حال، بعدما اكتشفنا أنّ الجميع نيام، صعد يوريا إلى الأعلى لتحذير الموجودين هناك، بينما ذهبت إلى الطابق الثاني لمعرفة ما يجري. كان إريك قد جمع كلّ الجامحين بالقرب من المصاعد، وبدأ يفكّر من سيصطحب معه. قال إنّه سُمح له بأخذ اثنين، ولا أدري السبب".

"غريب".

"هل لديك أيّ فكرة عمّا حدث؟"

"أعتقد أنّ الإبرة حقنتكم بناقل، وأنّ الغاز يؤدّي دور السائل الذي يعدّل الدماغ، لكن على شكل رذاذ. مع ذلك، لماذا..." ظهرت تجعيدة بين حاجبيه. "آه، لقد قامت بتنويم الجميع لتكتشف من هم الجامحون".

"هل تعتقد أنّ هذا هو السبب الوحيد لحقننا بالمواد الناقلة؟"

هزّ رأسه نافياً، واستقرّ نظره على عينيّ. كانت زرقة عينيه داكنة ومألوفة إلى حدّ أنّني شعرت أنّها ستبتلعني. وتمنّيت ذلك للحظة، لكي أهرب من هذا المكان ومن كلّ ما يجري.

قال: "أظنّ أنّك عرفت الإجابة، لكنّك تريدين أن أنفيها، ولن أفعل".

قلت: "لقد طوّروا ناقلاً طويل الأمد".

هزّ رأسه موافقاً.

أضفت: "هذا يعني أنّنا أصبحنا الآن قابلين للخضوع للمحاكاة مرّات عديدة، ربّما بقدر ما تريد جانين".

هزّ رأسه موافقاً مرّة أخرى.

ارتعشت أنفاسي وهي تخرج من فمي. "لقد تأزّم الوضع كثيراً، توبياس".

á á á

عندما خرجنا من قاعة الاستجواب، وقف في الرواق، واتّكأ على الجدار.

قال: "إذاً، هاجمتِ إريك. هل كان ذلك خلال الهجوم، أم عند المصاعد؟"

"عند المصاعد".

"ثمّة أمر لا أفهمه. كنتِ في الأسفل، وقادرة على الهرب. لكنّك قرّرتِ الغوص بين حشد من الشجعان المسلّحين بمفردك. وأنا واثق أنّك كنت عزلاء".

ضغطتُ على شفتيّ.

"أهذا صحيح؟"

عبست مجيبة: "لماذا تظنّ أنّني كنت عزلاء؟"

"لم تتمكّني من لمس مسدّس منذ الهجوم. أنا أفهم السبب، بعد حادثة ويل، لكن-"

"ليس للأمر علاقة بذلك".

رفع حاجبيه متسائلاً: "حقّاً؟"

"لقد فعلتُ ما يتوجّب عليّ".

"صحيح، لكن ينبغي أن ينتهي هذا الآن". ابتعد عن الجدار ليقف أمامي. كانت أروقة مقرّ النـزاهة واسعة بما فيه الكفاية لاحتواء المسافة التي أودّ إبقاءها بيننا. "كان عليك البقاء مع جماعة الوئام، بعيدة عن كلّ هذا".

"كلاّ، لم يكن يجدر بـي ذلك. تظنّ أنّك تعرف ما هو الأفضل لي، لكنّك لا تملك في الواقع أيّ فكرة. كنت سأجنّ عند الوئام. هنا، أشعر أخيراً أنّني... طبيعية".

"وهذا غريب، نظراً لأنّك تتصرّفين مثل مريض نفسي. ليس من الشجاعة في شيء أن تختاري الوضع الذي كنت فيه أمس. هذا يتجاوز الغباء، إنّه انتحار. أليس لديك أيّ اعتبار لحياتك؟"

أجبته: "بالطبع لديّ! لكنّني كنت أحاول فعل شيء مفيد!"

حدّق إليّ لبضع ثوان.

قال بصوت منخفض: "أنت أكثر من شُجاعة. لكن إن كنت تريدين أن تكوني مثلهم، تُلقين بنفسك في ظروف سخيفة من دون سبب، وتنتقمين من أعدائك من دون أيّ اعتبار للأخلاقيات، أنت حرّة. ظننت أنّك أفضل من ذلك، لكنّني أخطأت ربّما!"

شددت على يديّ، وتوتّر فكّي.

قلت: "لا يجدر بك إهانة الشجعان. لقد استقبلوك عندما لم يكن لديك مكان تذهب إليه، كما ائتمنوك على وظيفة هامّة، ومنحوك كلّ أصدقائك".

اتّكأت على الجدار، ونظرت إلى الأرض. كلّ أرضيات مركز عديمي الرحمة هي باللونين الأسود والأبيض، وهذا الطابق مكسوّ ببلاط يشبه رقعة الشطرنج. إن لم أركّز نظري، أرى تماماً ما لا تعتقد به جماعة النـزاهة: الرمادي. ربّما كنّا أنا وتوبياس لا نعتقد به نحن أيضاً، ليس حقّاً.

أحسست أنّ وزني يفوق بكثير ما يمكنني احتماله، وأنّني سأسقط من خلال الأرض.

"تريس".

واصلت التحديق إلى الأسفل.

"*تريس*".

أخيراً نظرت إليه.

"كلّ ما في الأمر أنّني لا أريد أن أخسرك".

طال وقوفنا لبضع دقائق. لم أقل ما أفكّر فيه، أي أنّه قد يكون على حقّ. فثمّة جزء منّي يريد أن يضيع، ويجاهد للانضمام إلى أمّي وأبـي وويل، لكي لا أتألّم عليهم بعد الآن. ثمّة جزء منّي يريد أن يرى ما ينتظرنا لاحقاً.

á á á

قالت لين: "أنت شقيقها إذاً؟ أعتقد أنّنا بتنا نعرف من ورث الجينات الجيّدة".

ضحكتُ عندما رأيت تعبير وجه كاليب، بفمه الملتوي والدهشة التي تعلو عينيه.

قلت وأنا أكزه بمرفقي: "متى ستعود؟"

أخذت قضمة من الشطيرة التي أحضرها لي كاليب من الكافتيريا. أحسست بالتوتّر من وجوده هنا، يخلط البقايا الحزينة من حياتي الأسرية مع البقايا الحزينة من حياتي في جماعة الشجاعة. ماذا سيكون رأيه بأصدقائي، وجماعتي؟ وماذا سيكون رأي جماعتي به.

قال: "قريباً. فأنا لا أريد أن أشغل بال أحد".

رفعت أحد حاجبيّ قائلة: "لم أكن أعرف أنّ سوزان غيّرت اسمها".

ضحك بتكلّف.

يجب أن تكون مضايقة الإخوة أمراً مألوفاً، لكنّها ليست كذلك بالنسبة إلينا. فجماعة نكران الذات لا تشجّع على أيّ شيء يسبّب الإزعاج للآخرين، بما في ذلك مضايقتهم بالمزاح.

يمكنني أن أشعر بمدى حذرنا مع بعضنا، ونحن نكتشف طريقة مختلفة للتعامل، على ضوء جماعاتنا الجديدة ووفاة أبوينا. فكلّ مرّة أنظر فيها إليه، أدرك أنّه أصبح أسرتي الوحيدة، وأشعر بيأس بالغ لإبقائه بقربـي، ولتضييق الهوة التي تفصل بيننا.

تساءلت لين، وهي تغرز شوكتها بقرن لوبياء: "هل سوزان هي منشقّة أخرى عن جماعة المعرفة؟" كان يوريا وتوبياس لا يزالان ينتظران

في الصفّ، خلف عشرين عضواً تقريباً من جماعة النـزاهة الذين كانوا أكثر انشغالاً بالشجار منه بإحضار طعامهم.

أجبتها: "كلاّ، بل هي صديقة الطفولة. إنّها تنتمي إلى نكران الذات".

فسألَت كاليب: "وهل أنت على علاقة بها؟ ألا تجد هذه الخطوة غبية نوعاً ما؟ أعني، عندما ينتهي كلّ هذا، ستكونان في جماعتين مختلفتين، تعيشان في أماكن مختلفة تماماً..."

قالت مارلين، وهي تلمس كتفها: "لين، هلاّ لزمت الصمت؟"

لفت انتباهي شيء أزرق في الغرفة. كانت كارا قد دخلت للتوّ. فوضعتُ الشطيرة من يدي، وقد اختفت شهيتي، ونظرت إليها مطأطئة الرأس. توجّهَت إلى أبعد زاوية في الكافتيريا، وجلَست مع عدد من اللاجئين المنتمين إلى المعرفة. كان معظمهم قد استبدلوا ملابسهم الزرقاء بملابس أخرى بيضاء وسوداء، لكنّهم ما زالوا يضعون نظّاراتهم. حاولتُ التركيز على كاليب عوضاً عنها، لكنّ أنظار كاليب كانت على أعضاء المعرفة أيضاً.

قال: "لم أعد أستطيع العودة إلى جماعة المعرفة، شأني شأنهم. عندما ينتهي كلّ هذا، سأكون بلا جماعة".

للمرّة الأولى، لاحظت مدى حزنه وهو يتحدّث عن المعرفة. فأنا لم أدرك من قبل مدى صعوبة قراره بالرحيل عنهم.

قلت له مشيرة برأسي إلى لاجئي المعرفة: "بإمكانك الذهاب والجلوس معهم".

هزّ كتفيه مجيباً: "أنا لا أعرفهم، فأنا لم أمكث هناك لأكثر من شهر، أتذكرين؟"

وضع يوريا صينيته على الطاولة، عابساً. "سمعت شخصاً يتحدّث عن استجواب إريك وأنا واقف في الصفّ. على ما يبدو، فهو لا يعرف شيئاً عن مخطّط جانين".

وضعت لين شوكتها على الطاولة بعنف: "ماذا؟ وهل هذا ممكن؟"

رفع يوريا كتفيه، وجلس.

قال كاليب: "هذا لا يدهشني".

نظر إليه الجميع.

أجاب وقد احمرّ وجهه: "ماذا؟ من الغباء كشف خطّتك بأكملها لشخص واحد. والأذكى هو ائتمان أجزاء صغيرة منها لكلّ شخص يعمل معك. بهذه الطريقة، إن خانك أحدهم، لا تكون الخسارة كبيرة جدّاً".

قال يوريا: "آه".

تناولت لين شوكتها، وعادت تأكل مجدّداً.

قالت مارلين وهي تنظر إلى صفّ الانتظار: "سمعت أنّ جماعة النـزاهة صنعوا الأيس كريم، من باب التعويض، كأنّهم يقولون: صحيح أنّنا تعرّضنا للهجوم، لكن ما زلنا نملك تحلية".

قالت لين بجفاف: "أشعر بالتحسّن منذ الآن".

قالت مارلين بحزن: "على الأرجح، لن تكون لذيذة بقدر الكعك الذي تعدّه جماعة الشجاعة". تنهّدَت، وسقطت خصلة من الشعر البنّي فوق عينيها.

قلت لكاليب: "كان لدينا كعك لذيذ".

قال: "ونحن كان لدينا مشروبات غازية".

سألته مارلين، وهي تهزّ حاجبيها: "آه، لكن هل كان لديكم حافة تشرف على نهر تحت الأرض؟ أو غرفة تواجهون فيها كلّ كوابيسكم دفعة واحدة؟"

أجاب كاليب: "كلاّ، ولأكون صادقاً، أنا مرتاح هكذا".

مازحته مارلين قائلة: "*جبان*".

سألها كاليب بحماس: "كلّ كوابيسكم؟ وكيف يتمّ ذلك؟ أعني، هل الكمبيوتر هو الذي يُنتج تلك الكوابيس، أم العقل؟"

خفضت لين رأسها بين يديها قائلة: "ربّاه، ها قد عدنا من جديد".

انطلقت مارلين تصف جلسات المحاكاة، فتركتُ نفسي أسترخي تحت تأثير صوتها وصوت كاليب، وأنا أنهي طعامي. بعد ذلك، وعلى الرغم من قعقعة الأشواك وضجيج مئات الأحاديث من حولي، أرحتُ رأسي على الطاولة، واستغرقت في النوم.

الفصل الثامن عشر

"هدوء، من فضلكم!"

رفع جاك كانغ يديه، فصمت الجميع. هذا ما يسمّى موهبة.

وقفت بين حشد الشجعان الذين أتوا في وقت متأخّر، بعد أن شُغلت كلّ المقاعد. لفت نظري وميض، إنّه البرق. لم يكن هذا الوقت هو الأنسب للاجتماع في قاعة بلا نوافذ، إلاّ أنّها أكبر قاعة لديهم.

قال جاك: "أعرف أنّ أحداث الأمس أربكتكم وصدمتكم. وقد سمعت كثيراً من الروايات من وجهات نظر مختلفة، وكوّنت فكرة عمّا هو واضح، وما يتطلّب مزيداً من التحقيق".

أبعدت شعري المرطّب خلف أذنيّ. كنت قد استيقظت قبل عشر دقائق من الوقت المحدّد للاجتماع، وتوجّهت فوراً لأخذ حمّام. ومع أنّني ما زلت مرهقة، إلاّ أنّني أكثر تنبّهاً.

قال جاك: "ما يبدو بالنسبة إليّ أنّه يحتاج إلى مزيد من التحقيق هو الجامحون".

بدا متعباً، فقد أحاطت الهالات السوداء بعينيه، وبدا شعره القصير مشعّثاً، كما لو أنّه كان يشدّه طوال الليل. وعلى الرغم من حرارة الغرفة، إلاّ أنّه ارتدى قميصاً طويل الأكمام، ما يعني أنّه كان مشتّت الفكر عندما ارتدى ملابسه هذا الصباح.

"أطلبُ من الجامحين التقدّم لكي نسمع منكم".

استرقت نظرة إلى يوريا. يبدو هذا الأمر خطيراً. فالجموح هو مسألة يفترض بنا إخفاؤها، ذلك أنّ كشفها يُفترض أن يعني الموت. لكن لم يعد من المنطقي إخفاء حقيقتي الآن، بعدما أصبحوا يعرفونها.

كان توبياس أوّل من تقدّم. شقّ طريقه بين الناس في البداية وهو يمشي بشكل جانبـي، وعندما تراجعوا ليفسحوا له الطريق، سار بشكل مستقيم، وتقدّم نحو جاك كانغ رافعاً كتفيه.

تقدّمت أنا أيضاً، وأنا أتمتم "عذراً" للناس الواقفين أمامي. فتراجعوا كما لو كنت على وشك أن أنفث السمّ في وجوههم. أتى عدد آخر، يرتدون الملابس السوداء والبيضاء الخاصّة بجماعة النـزاهة، لكنّهم لم يكونوا كثراً. كانت بينهم الفتاة التي ساعدتها.

على الرغم من الشهرة التي نالها توبياس الآن بين الشجعان، وعلى الرغم من لقبـي الجديد، *الفتاة التي طعنت إريك* ، لم نكن نحن محطّ اهتمام الجميع، بل ماركوس.

قال جاك عندما وصل ماركوس إلى وسط القاعة، ووقف عند أعلى الصفّ الأدنى من المدرّج: "أنت، ماركوس؟"

قال ماركوس: "أجل. أنا أفهم أنّكم قلقون، جميعاً. فأنتم لم تسمعوا عن الجامحين قبل أسبوع، والآن اكتشفتم أنّهم يتمتّعون بمناعة تجاه شيء أنتم عرضة له، وهذا أمر مخيف. لكنّني أؤكّد لكم أنّه لا داعي للخوف، ما دام الأمر يتعلّق بنا".

بينما كان يتحدّث، أمال رأسه، ورفع حاجبيه تعاطفاً، ففهمت فوراً لماذا يحبّه بعض الناس. فهو يجعلك تشعر أنّك إن وضعت كلّ شيء بين يديه، سيتولّى العناية به.

قال جاك: "من الواضح بالنسبة إليّ أنّنا تعرّضنا للهجوم لكي تعثر جماعة النـزاهة على الجامحين. هل تعرف السبب؟"

قال ماركوس: "كلاّ، لا أعرف. ربّما كان هدفهم هو إيجادنا وحسب. إذ تبدو هذه المعلومات مفيدة إن كانت لديهم النيّة باستخدام المحاكاة مجدّداً".

"لم تكن هذه نيّتهم". خرجت الكلمات من بين شفتيّ قبل أن أقرّر الكلام. بدا صوتي عالياً وضعيفاً مقارنة بصوت ماركوس أو جاك، لكنّ الأوان فات. "ما أرادوه هو قتلنا. فقد كانوا يقتلوننا قبل أن يحدث أيّ من هذا".

قطّب جاك جبينه، بينما تناهت إليّ مئات الأصوات الصغيرة الصادرة عن تساقط قطرات المطر على الأرض. أظلمت الغرفة، كما لو كان ذلك بسبب ما قلته للتوّ.

قال جاك: "هذا يبدو أشبه بنظرية المؤامرة. لماذا تسعى جماعة المعرفة إلى قتلكم؟"

قالت أمّي إنّ الناس يخشون الجامحين لأنّه لا يمكن السيطرة عليهم. قد يكون هذا صحيحاً، لكنّ الخوف من عدم السيطرة لا يشكّل سبباً ملموساً وكافياً بالنسبة إلى جاك كانغ. تسارع نبضي وأنا أدرك أنّني عاجزة عن الإجابة عن هذا السؤال.

"أنا..." غير أنّ توبياس قاطعني.

"من الواضح أنّنا لا نعرف. لكن تم تسجيل حوالى عشر حالات وفاة غامضة بين الشجعان خلال السنوات الستّ الماضية، وثمّة علاقة بين أولئك الأشخاص وعدم انتظام نتائج اختبارات الجدارة أو نتائج جلسات المحاكاة خلال فترة التلقين".

لمع البرق، وأضاء الغرفة. هزّ جاك رأسه مستغرباً. "مع أنّ هذا الأمر مثير للاهتمام، إلاّ أنّ وجود علاقة لا يشكّل دليلاً كافياً".

قلت بصوت حادّ: "لقد قام أحد قادة الشجاعة بإطلاق النار على طفل من النزاهة في *الرأس*. هل سجّلتم *هذه* الحادثة؟ ألا تبدو *جديرة بالتحقيق*؟"

أجاب: "لقد فعلت في الواقع. فإطلاق النار على طفل بدم بارد هو جريمة فظيعة لا يمكن أن تمرّ من دون عقاب. لحسن الحظّ، الجاني موقوف عندنا، وسنقوم بمحاكمته. لكن، يجب أن نأخذ بالاعتبار أنّ جنود الشجاعة لم يقدّموا أيّ دليل على رغبتهم في إيذاء غالبيّتنا، وإلاّ لقاموا بذلك بينما كنّا غائبين عن الوعي".

سمعتُ لغطاً غاضباً من حولي.

تابع يقول: "ويشير هذا الغزو السلمي إلى إمكانيّة التفاوض على معاهدة سلام مع جماعة المعرفة وبقيّة الشجعان. لذلك، سأرتّب اجتماعاً مع جانين ماثيوس لمناقشة هذا الاحتمال في أقرب وقت ممكن".

قلت: "لكنّ هذا الغزو لم يكن *سلمياً*". استطعت رؤية طرف فم توبياس من المكان الذي أقف فيه، وكان يبتسم. فأخذت نفساً عميقاً واستأنفت قائلة: "لا يمكن اعتبار نواياهم شريفة لمجرّد أنّهم لم يقتلوكم جميعاً. لماذا أتوا إلى هنا برأيك؟ لمجرّد اقتحام أروقتكم، وإفقادكم الوعي، ومن ثمّ الرحيل؟"

قال جاك: "أفترض أنّهم أتوا إلى هنا لملاحقة أشخاص مثلك. ومع أنّني قلق على سلامتكم، إلاّ أنّني لا أعتقد أنّه يمكننا مهاجمتهم لمجرّد أنّهم أرادوا قتل جزء من شعبنا".

قلت: "قتلكم ليس أسوأ ما قد يفعلوه بكم، بل السيطرة عليكم هي ما يجب أن تخشوه".

التوت شفتا جاك بشيء من التسلية. *التسلية*. "آه، وكيف سيفعلون ذلك؟"

قال توبياس: "لقد حقنوكم بإبر تحتوي على مواد ناقلة تُستخدم في المحاكاة. والمحاكاة تتحكّم بكم. هذا ما سيفعلونه".

قال جاك: "نحن نعرف كيف تعمل المحاكاة. فالناقل ليس مادّة تُزرع بشكل دائم. ولو أرادوا التحكّم بنا، لفعلوا على الفور".

قلت: "لكن-"

قاطعني قائلاً بصوت هادئ: "أنا أعلم أنّك تعرّضت لإجهاد كبير، تريس، وأنّك أسديتِ خدمة عظيمة لجماعتك، ولجماعة نكران الذات. لكن أظنّ أنّ تجربتك المؤلمة أثّرت على قدرتك على التفكير بموضوعية. ولا يمكنني أن أشنّ هجوماً بالاستناد إلى توقّعات فتاة صغيرة".

وقفت جامدة كالتمثال، وعاجزة عن التصديق أنّه يمكن أن يكون بهذا الغباء. توهّج وجهي احمراراً. لقد دعاني *بالفتاة الصغيرة* . فتاة صغيرة مجهدة إلى حدّ الإصابة بجنون العظمة. لم أكن كذلك، لكن هذا ما يظنّه أعضاء النـزاهة بـي الآن.

قال توبياس: "لا يمكنك اتّخاذ القرارات عنّا، كانغ".

تعالت أصوات الشجعان المستائين، وصاح أحدهم: "أنت لست قائد جماعتنا!"

انتظر جاك إلى أن هدأ الضجيج، ثمّ قال: "هذا صحيح. إن أردتم لكم ملء الحرّية باقتحام مجمّع المعرفة بمفردكم. لكنّكم ستفعلون ذلك من دون دعمنا، وأودّ تذكيركم أنّ عددكم أقلّ بكثير، كما أنّكم لستم مجهّزين".

كان على حقّ. ليس بإمكاننا مهاجمة الشجعان الخونة وجماعة المعرفة من دون دعم النـزاهة. ولو حاولنا، سينتج عن ذلك حمّام من الدم. إنّ جاك كانغ يتمتّع بكلّ السلطة، وكلّنا أصبحنا نعرف ذلك.

قال بنبرة متعجرفة: "هذا ما ظننته. حسناً، سأتّصل بجانين ماثيوس، وأرى ما إذا كنّا نستطيع التفاوض على السلام. هل ثمّة اعتراض؟"

قلت في نفسي، *لا يمكننا أن نهاجمهم من دون النـزاهة، ما لم نحصل على مساعدة المنبوذين.*

الفصل التاسع عشر

عصر ذلك اليوم، قمت بمساعدة مجموعة من النـزاهة والشجاعة على تنظيف الردهة من حطام الزجاج. ركّزت على المكنسة، وأبقيت نظري مثبّتاً على الغبار الذي كان يتجمّع بين شظايا الزجاج. كانت عضلاتي تتذكّر الحركة قبل بقيّة جسدي، لكن عندما نظرت إلى الأسفل، رأيت بلاطاً أبيض من دون الرخام الأسود، وأسفل جدار رمادي فاتح. رأيت خصل الشعر الأشقر الذي قصّته أمّي، والمرآة المدسوسة بأمان خلف لوح الجدار.

أحسست بالضعف، واتّكأت على مقبض المكنسة طلباً لشيء من الدعم.

لمست يد كتفي، فأجفلت وابتعدت. لكنّها كانت فتاة صغيرة من النـزاهة، نظرت إليّ بقلق.

قالت بصوت عالٍ وعادي: "هل أنت بخير؟"

أجبتها بحدّة زائدة: "أنا بخير". ثمّ استدركتُ قائلة: "أنا متعبة وحسب، شكراً لك".

قالت: "أظنّ أنّك تكذبين".

لاحظت وجود ضمادة بدت من تحت كمّها، تغطّي على الأرجح موضع الإبرة. فكرة أن تكون تلك الفتاة الصغيرة تحت تأثير المحاكاة سبّبت لي الغثيان، ولم أستطع حتّى النظر إليها، فاستدرت عنها.

عندئذٍ رأيتهما. تقدّم في الخارج أحد الشجعان الخونة وهو يسند امرأة تنـزف من ساقها. رأيت خصل الشعر الرمادي في رأس المرأة، وطرف أنف الرجل المعقوف، والشريط الأزرق الذي يميّز الشجعان الخونة مربوطاً تحت كتفيهما، فعرفتهما على الفور. إنّهما توري وزيك.

مشت توري بصعوبة، وهي تجرّ إحدى ساقيها خلفها. وكان الجزء الأكبر من فخذها مكسوّاً بالضمادات الداكنة.

توقّف أعضاء النـزاهة عن كنس الزجاج، وحدّقوا إليهما. كما اندفع حرّاس الشجاعة الواقفين بالقرب من المصاعد نحو المدخل، وشهروا أسلحتهم. أفسح حاملو المكانس لهم الطريق، غير أنّني وقفت في مكاني، وأحسست بحرارة تجتاح جسدي وأنا أرى زيك وتوري يقتربان.

تساءل أحدهم: "هل هما مسلّحان يا ترى؟"

وصلت توري وزيك إلى المدخل، فرفع إحدى يديه عندما رأى صفّ الشجعان المسلّحين. أمّا يده الأخرى فأبقاها حول خصر توري.

قال زيك: "إنّها تحتاج إلى الرعاية الطبّية حالاً".

سأله أحد الشجعان من وراء سلاحه: "لماذا نعتني بخائن؟" وكان ذا شعر أشقر ناعم، شفته مزيّنة بقرطين معدنيين، وبدت بقعة من الصباغ الأزرق على ساعده.

صدر أنين ألم عن توري، فمررتُ بين اثنين من الشجعان، متوجّهة نحوها. وضعت يدها اللزجة بسبب الدماء في يدي. وأنـزلها زيك على الأرض وهو يئنّ.

بدت في حالة ضياع وهي تقول: "تريس".

صاح رجل أشقر من الشجعان: "ابتعدي أيّتها الفتاة".

قلت: "كلاّ، بل اخفض بندقيتك".

تمتم أحد الشجعان المسلّحين لامرأة بجانبه: "قلت لك إنّ الجامحين مجانين".

قال زيك عابساً: "إن شئت، خذها إلى الأعلى وقيّدها إلى سرير لمنعها من إطلاق النار، لكن لا تدعها تنـزف حتّى الموت في ردهة مقرّ النـزاهة".

أخيراً، تقدّم بعض الشجعان وحملوا توري.

سأل أحدهم: "إلى أين... نأخذها؟"

قال زيك: "ابحثوا عن هيلينا، إنّها ممرّضة في جماعة الشجاعة".

وافق الرجال وحملوها إلى المصعد، بينما نظرت إلى زيك. سألته: "ماذا جرى؟"

"اكتشف الشجعان الخونة أنّنا كنّا نجمع معلومات عنهم. حاولت توري الفرار، لكنّهم أطلقوا النار عليها، فساعدتها حتّى وصلنا إلى هنا".

قال الرجل الأشقر المنتمي إلى الشجاعة: "يا لها من قصّة مشوّقة. هل تودّ أن ترويها مرّة أخرى تحت تأثير مصل الحقيقة؟"

رفع زيك كتفيه بلا اكتراث، وأجاب: "أنا موافق". ثمّ مدّ يديه أمامه بطريقة درامية، مضيفاً: "قم باقتيادي، إن كنت راغباً في ذلك إلى هذا الحدّ".

بعد ذلك، رأيت نظره يتحوّل إلى شيء ما خلفي، ثمّ بدأ يسير. التفتّ، فرأيت يوريا آتياً من أمام المصاعد، وكان يبتسم.

قال يوريا: "سمعت شائعة عن أنّك خائن قذر".

قال زيك: "أجل، مهما يكن".

اصطدما ببعضهما في عناق بدا لي مؤلماً، وأخذا يصفعان ظهر بعضهما البعض ويضحكان بمرح.

á á á

قالت لين، وهي تهزّ رأسها: "لا أصدّق أنّك لم تخبرنا". جلسَت إلى الطاولة أمامي، ثمّ كتفت ذراعيها ورفعت إحدى ساقيها.

قال زيك: "آه، لا تبدأي. لم يكن يُفترض بـي حتّى إخبار شونا ويوريا. فلو أخبر الجاسوس الجميع بحقيقته، تفشل مهمّته".

كنّا جالسين في غرفة في مقرّ النـزاهة يسمّونها قاعة الاستقبال، وكان الشجعان يسخرون من هذا الاسم كلّما أمكنهم ذلك. إنّها قاعة كبيرة ومفتوحة، غطّت جدرانها ستائر بيضاء وسوداء، واحتلّت وسطَها دائرة من المنصّات. أحاطت بالمنصّات طاولات مستديرة كبيرة. أخبرتني لين أنّهم يستضيفون فيها شهرياً حوارات للتسلية، كما يقيمون الشعائر الدينية هنا مرّة في الأسبوع. لكن حتّى في حال عدم وجود مناسبات، تبقى القاعة مليئة عادة.

تمّ استجواب زيك منذ ساعة لمدّة قصيرة في الطابق الثامن عشر. لم يكن الحدث كئيباً بقدر استجوابـي أنا وتوبياس، ربّما لأنّ زيك لم يكن متورّطاً بتسجيل فيديو مريب، ولأنّه مضحك، حتّى تحت تأثير مصل الحقيقة. ربّما لهذا السبب خصوصاً. على أيّ حال، أتينا إلى قاعة الاستقبال للاحتفال بعدم كون يوريا خائناً.

قالت لين: "أجل، لكنّنا كنّا نكيل لك الشتائم منذ هجوم المحاكاة، والآن أشعر أنّني مغفّلة بسبب ذلك".

أحاط زيك كتفَي شونا بذراعه وقال: "أنت مغفّلة بالفعل، لين، وهذا جزء من سحرك".

رمته لين بكوب بلاستيكي، غير أنّه أبعده عنه، فانسكب الماء على الطاولة، وأصابه الرذاذ في عينه.

تابع زيك وهو يفرك عينه: "كما كنت أقول، كنت أعمل على إخراج المنشقّين من جماعة المعرفة بأمان. لهذا السبب، ثمّة مجموعة كبيرة منهم هنا، وعدد صغير في مقرّ الوئام. لكن بالنسبة إلى توري... لم يكن لديّ فكرة عمّا كانت تفعله. فقد ظلّت تتسلّل لساعات متواصلة، وكلّما وقع نظري عليها، تبدو لي على وشك الانفجار. لا عجب أن كشفت أمرنا في النهاية".

سألته لين: "كيف حصلتَ على الوظيفة؟ فأنت لست مميّزاً إلى هذا الحدّ".

"يرجع السبب أكثر إلى المكان الذي كنت فيه بعد هجوم المحاكاة. فقد وجدت نفسي بين مجموعة من الشجعان الخونة، فقرّرت مجاراتهم. لكنّني لم أكن واثقاً من توري".

قلت: "لقد انتقلَت من جماعة المعرفة".

لم أخبرهم، لأنّني لست واثقة أنّ توري ترغب في أن يعرف الجميع، هو أنّها بدت على وشك الانفجار في مقرّ المعرفة لأنّهم قتلوا أخاها الذي كان جامحاً.

فقد أخبرتني مرّة أنّها تنتظر الفرصة للانتقام.

قال زيك: "آه، وكيف عرفتِ ذلك؟"

قلت وأنا أستند إلى ظهر مقعدي: "في الواقع، كلّ المنتقلين من فصائل أخرى يملكون نادياً سرّياً. نحن نجتمع يوم الخميس الثالث من كلّ شهر".

ضحك زيك ساخراً.

سأل يوريا، وهو ينظر إلى ساعته: "أين فور؟ هل نبدأ من دونه؟"

أجاب زيك: "لا يمكننا ذلك، فهو يحضر المعلومات"

هزّ يوريا رأسه موافقاً، كما لو كان هذا الكلام يعني شيئاً. ثمّ توقّف وسأل: "وما هي المعلومات؟"

قال زيك: "المعلومات عن اجتماع كانغ الصغير بجانين بهدف صنع السلام، بكلّ تأكيد".

رأيت كريستينا جالسة على إحدى الطاولات مع شقيقتها، تقرءان شيئاً.

توتّر جسدي بأكمله، عندما دخلت كارا، شقيقة ويل الكبرى، وتوجّهَت إلى طاولة كريستينا. فخفضتُ رأسي.

تساءل يوريا وهو ينظر إلى الخلف: "ماذا؟" فأردت أن ألكمه في تلك اللحظة.

أجبته وأنا أنحني إلى الأمام وأكتف ذراعيّ فوق الطاولة: "كفّ عن ذلك! ألا يمكنك أن تكون متكتّماً بعض الشيء؟ شقيقة ويل هناك".

قال زيك: "أجل، لقد تحدّثت معها للخروج من المعرفة مرّة، عندما كنت هناك. قالت إنّها رأت امرأة من نكران الذات تُقتل بينما كانت في مهمّة لجانين، ولم تعد قادرة على احتمال ذلك".

سألته لين: "هل أنت واثق أنّها ليست جاسوسة لصالح المعرفة؟"

قالت مارلين، وهي تربّت على الضمادة التي تغطّي جرح ذراعها الذي أحدثه الشجعان الخونة: "لين، لقد أنقذَت كارا نصف أعضاء جماعتنا من هذا الشيء. في الواقع، نصف نصف جماعتنا".

قالت لين: "في بعض الأوساط، يسمّونه رُبعاً".

قال زيك: "من يأبه على كلّ حال إن كانت خائنة أم لا؟ فنحن لا نخطّط لشيء يمكنها إخبارهم به، ولو كنّا نفعل، لن نخبرها بالطبع".

قالت لين: "ثمّة كثير من المعلومات التي يمكنها جمعها. كعدد الشجعان الموجودين هنا، أو عدد الأشخاص غير القابلين للتأثّر بالمحاكاة".

قال زيك: "أنت لم تريها عندما كانت تخبرني لماذا تركَت الجماعة. أنا أصدّقها".

نهضت كارا وكريستينا، وهمّتا بالخروج من القاعة.

قلت: "سأعود حالاً، أنا ذاهبة إلى الحمّام".

انتظرت حتّى خرجت كارا وكريستينا من الباب، ثمّ ذهبت مسرعة في ذلك الاتجاه. فتحتُ أحد الأبواب ببطء، لكي لا أصدر أيّ ضجّة، ثمّ أغلقته خلفي بحذر. وجدتُ نفسي في رواق معتم عابق برائحة شبيهة برائحة النفايات، فعرفت أنّه لا بدّ أن يكون المكان الذي تلقي فيه جماعة النـزاهة نفاياتها.

سمعت صوتين أنثويَين عند الزاوية، فتسلّلت إلى آخر الرواق لأصغي بشكل أفضل.

قالت إحداهنّ وهي تنتحب، وكانت كريستينا: "... لم أعد قادرة على احتمال وجودي هنا. لا يمكنني أن أتوقّف عن تخيّل المشهد... وما فعلَته... لا أفهم كيف أقدمَت على ذلك!"

جعلتني شهقات كريستينا أشعر أنّني على وشك الانهيار.

أخذَت كارا وقتها لتجيب.

قالت: "أنا أفهم".

سألتها كريستينا من بين دموعها: "ماذا؟"

قالت كارا: "عليك أن تفهمي أنّنا تدرّبنا لرؤية الأمور بمنطقية قدر الإمكان. لذا لا تعتقدي أنّني قاسية القلب. لكنّ تلك الفتاة كانت على الأرجح مذعورة، وعاجزة بالتأكيد عن تقييم الوضع بذكاء في تلك اللحظة. هذا لو كانت قادرة على ذلك أساساً".

حملقتُ مذهولة، يا *لها* من - واستعرضتُ بذهني لائحة قصيرة من الشتائم، قبل أن تتابع.

"كما أنّ المحاكاة جعلتها عاجزة عن التعاطي معه. لذلك عندما هدّد حياتها، تصرّفت كما درّبها الشجعان: إطلاق النار بهدف القتل".

أجابتها كريستينا بمرارة: "ما الذي تعنينه إذاً؟ هل علينا أن نسامحها بكلّ بساطة، لأنّ هذا منطقي؟"

قالت كارا: "بالطبع لا". تهدّج صوتها قليلاً، ثمّ كرّرت الجملة لنفسها، بهدوء هذه المرّة: "*بالطبع* لا".

تنحنحت مضيفة: "كلّ ما في الأمر أنّك مضطرة للتواجد بالقرب منها، وأردت تسهيل الأمر عليك. ليس عليك مسامحتها. في الواقع، لستُ واثقة لماذا صادقتِها في الأساس، فهي تبدو لي دائماً غريبة الأطوار بعض الشيء".

توتّرت وأنا أنتظر أن توافقها كريستينا، لكنّها لم تفعل، الأمر الذي أثار دهشتي، وأراحني.

تابعت كارا قائلة: "على كلّ حال، ليس عليك مسامحتها، بل يجب أن تتفهّمي أنّ ما فعلته لم يكن بدافع المكر، بل الذعر. بهذه الطريقة، يمكنك أن تنظري إليها من دون أن ترغبـي في لكمها على أنفها الطويل على نحو غير عادي".

ارتفعت يدي آلياً إلى أنفي. ضحكت كريستينا قليلاً، كما لو أنّ أحدهم وكزها على بطنها. أمّا أنا، فتراجعت عبر الباب عائدة إلى قاعة الاستقبال.

حتّى لو كانت كارا فظّة، وتعليقها عن أنفي ماكراً، إلاّ أنّني ممتنّة لها على ما قالته.

á á á

خرج توبياس من أحد الأبواب المخبّأة خلف ستارة بيضاء. أبعد القماش من طريقه بعصبية، قبل أن يتوجّه نحو طاولتنا، ويجلس بالقرب منّي في قاعة الاستقبال.

قال: "سيجتمع كانغ مع أحد ممثّلي جانين ماثيوس عند السابعة صباحاً".

سأله زيك: "ممثّل؟ ألن تذهب بنفسها؟"

أجابه يوريا ساخراً: "بلى، وستظهر على الملأ، لتقوم مجموعة من الناس الغاضبين باستهدافها بأسلحتهم؟ أودّ أن أراها وهي تحاول. حقّاً، أودّ ذلك".

سألَت لين: "وهل سيصطحب كانغ العبقري معه مرافقاً من الشجعان على الأقلّ؟"

أجابها توبياس: "أجل، وقد تطوّع بعض من الأعضاء الأكبر سنّاً. قال باد إنّه سيبقي أذنيه مفتوحتين ويخبرنا بما جرى".

عبستُ متسائلة من أين عرف كلّ هذه المعلومات. ولماذا، بعدما تجنّب لعامين أن يصبح قائداً لجماعة الشجاعة بأيّ ثمن، صار فجأة يتصرّف على هذا الأساس؟

قال زيك، وهو يطوي ذراعيه على الطاولة: "أظنّ إذاً أنّ السؤال الحقيقي هو، إن كنتَ من جماعة المعرفة، ماذا ستقول في هذا الاجتماع؟"

نظر الجميع إليّ كأنّهم ينتظرون الجواب.

قلت: "ماذا؟"

أجاب زيك: "أنت جامحة".

"وكذلك توبياس".

"بالفعل، لكنّه لم يكن مؤهّلاً للانضمام إلى المعرفة".

"وكيف تعرف أنّني مؤهّلة؟"

رفع كتفيه مجيباً: "يبدو عليك ذلك. ألا يبدو عليها ذلك؟"

هزّ يوريا ولين رأسيهما موافقَين. ارتعش فم توبياس، وكأنّه أراد أن يبتسم، لكن إن كان هذا قصده، فقد كبح ابتسامته. شعرتُ كما لو أنّ حجراً سقط في معدتي.

قلت: "جميعكم تملكون أدمغة، على حدّ علمي. يمكنكم التفكير مثل أبناء المعرفة، أنتم أيضاً".

قالت مارلين: "لكنّنا لا نملك أدمغة جامحة!" ثمّ لمست بأناملها رأسي، وضغطت قليلاً. "هيّا، مارسي سحرك".

قالت لين: "لا وجود للسحر لدى الجامحين، مارلين".

قالت شونا: "ولو كان له وجود، لا يجب أن نستعين به". كانت تلك هي المرّة الأولى التي تتكلّم فيها شونا منذ أن جلسنا. حتّى إنّها لم تنظر إليّ وهي تقول ذلك، بل نظرت عابسة إلى شقيقتها الصغرى.

قال زيك: "شونا-"

فقاطعته قائلة: "لا تبدأ!" وركّزت نظراتها العابسة عليه وهي تضيف: "ألا تظنّ أنّ الشخص المؤهّل لعدّة فصائل قد يعاني من مشكلة في ولائه؟ إن كانت مؤهّلة للانضمام إلى المعرفة، كيف نثق أنّها لا تتعاون معهم؟"

قال توبياس بصوت منخفض: "لا تكوني سخيفة".

صفقت يدها على الطاولة قائلة: "أنا لست سخيفة. أنا أعلم أنّني أنتمي إلى الشجاعة لأنّ كلّ ما فعلته في اختبار الجدارة أكّد ذلك. لهذا السبب، أنا مخلصة لجماعتي، لأنّني لا أستطيع الانتماء إلى مكان آخر. أمّا هي، وأنت"، هزّت رأسها متابعة: "لا أدري لمن تدينون بالولاء، ولن أدّعي أنّ كلّ شيء على ما يرام".

نهضت واقفة، وعندما مدّ زيك يده لإيقافها، أبعدتها، وتوجّهت إلى أحد الأبواب. راقبتها إلى أن أُغلق الباب خلفها، وسكنت الستارة السوداء المعلّقة فوقه.

شعرتُ أنّني على وشك الانفجار، ورغبت في الصراخ، لكنّ شونا لم تكن أمامي لأصرخ في وجهها.

قلت وقد احمرّ وجهي من شدّة الانفعال: "هذا ليس *سحراً*. كلّ ما عليكم هو أن تسألوا أنفسكم ما هو الجواب الأكثر منطقية في وضع معيّن".

حدّق إليّ الجميع بوجوه خالية من التعابير.

قلت: "أنا جادّة. لو كنت في هذا الوضع، أحدّق إلى مجموعة من الحرّاس الشجعان المحيطين بجاك كانغ، لن ألجأ على الأرجح إلى العنف، أليس كذلك؟"

قال زيك: "في الواقع، قد تفعلين إن كنت تملكين حرّاساً شجعاناً أنت نفسك. عندئذٍ، كلّ ما يحتاجه الأمر هو طلقة واحدة-بوم! - ليسقط قتيلاً، وترتاح منه جماعة المعرفة".

قلت: "لن يرسلوا ولداً تمّ اختياره بشكل عشوائي من بين أعضاء المعرفة للتفاوض مع جاك كانغ، بل شخصاً هامّاً. وسيكون من الغباء إطلاق النار على جاك كانغ والمخاطرة بخسارة الشخص الذي تمّ إرساله كممثّل لجانين".

قال زيك: "هل ترين؟ لهذا السبب نحن نحتاج إليك لتحليل الوضع. لو كنت أنا هناك، لقتلته. فالأمر يستحقّ المخاطرة".

ضغطت على أنفي، بسبب الصداع الذي بدأت أعاني منه أساساً. "حسناً".

حاولت وضع نفسي في مكان جانين ماثيوس. أنا أعرف أنّها لن تتفاوض مع جاك كانغ. فما الذي سيدفعها إلى ذلك، ما دام لا يملك شيئاً يقدّمه إليها. سوف تستغلّ هذا الوضع لمصلحتها.

قلت: "أعتقد أنّ جانين ماثيوس ستتلاعب به، وأنّه سيفعل أيّ شيء لحماية جماعته، حتّى لو كان هذا يعني التضحية بالجامحين". صمتُّ

للحظة، وأنا أتذكّر كيف أظهر لنا نفوذ جماعته في الاجتماع. "أو التضحية بالشجعان. لذلك نحن *نحتاج* إلى *معرفة* ما سيقال في ذلك الاجتماع".

تبادل يوريا وزيك النظرات، في حين ابتسمت لين، لكنّها لم تكن ابتسامتها المعتادة. فهي لم تصل إلى عينيها، اللتين بدا لونهما أقرب إلى الذهب من أيّ وقت مضى، بذلك البرود الذي يسكن فيهما.

قالت: "سنعرف".

الفصل العشرون

تحقّقت من ساعتي. كانت الساعة السابعة مساءً. ما زال أمامنا اثنتي عشرة ساعة لنستمع إلى ما ستقوله جانين لجاك كانغ. كنت قد تحقّقت من الوقت عشر مرّات على الأقلّ خلال الساعة الماضية، كأنّه سيمرّ بسرعة أكبر. وكنت متحرّقة لفعل شيء ما، *أيّ شيء*، عدا الجلوس في الكافتيريا مع لين، وتوبياس، ولورين، أنقر الطعام من طبق عشائي، وأسترق النظر إلى كريستينا، الجالسة مع أسرتها المنتمية إلى النـزاهة على إحدى الطاولات الأخرى.

قالت لورين: "أتساءل ما إذا كنّا سنستعيد أيّامنا الماضية بعد انتهاء كلّ هذا". كانت هي وتوبياس تتحدّثان عن طرق تدريب مبتدئي الشجاعة منذ خمس دقائق على الأقلّ. على الأرجح، هذا هو القاسم الوحيد المشترك بينهما.

قالت لين وهي تضع البطاطس المسحوقة على قطعة خبز: "هذا إن بقيت جماعة بعد انتهاء كلّ هذا".

قلت لها: "لا تقولي لي إنّك ستأكلين شطيرة بطاطس مسحوقة".

"وماذا في ذلك؟"

مرّت مجموعة من الشجعان بين طاولتنا والطاولة المجاورة. كانوا كلّهم أكبر سنّاً من توبياس، لكن ليس بكثير. لوّنت إحدى الفتيات شعرها بخمسة ألوان، وغطّت ذراعيها بالأوشام بحيث عجزت عن رؤية بقعة واحدة من بشرتها. مال صبيّ نحو توبياس، الذي كان ظهره إليه، وهمس في أذنه وهو يمرّ: "جبان".

ثمّ قام عدد آخر منهم بفعل الشيء نفسه، هامسين بكلمة "جبان" في أذن توبياس وهم يمرّون. فجمد حاملاً السكّين على قطعة خبز، وهو على وشك أن يدهنها ببعض الزبدة، وحدّق إلى الطاولة.

انتظرتُ بأعصاب مشدودة أن ينفجر في وجوههم.

قالت لورين: "يا لهم من حمقى، وكذلك هم أعضاء النـزاهة لإجباركما على إخبار قصّة حياتكما للجميع..."

لم يُجب توبياس. غير أنّه وضع السكّين وقطعة الخبز من يده، وتراجع إلى الخلف، ثمّ تركّزت نظراته على شيء ما في الغرفة.

قال بصوت بارد: "يجب أن يتوقّف كلّ هذا"، وتوجّه إلى المكان الذي ينظر إليه قبل أن أفهم مقصده. لن تكون العواقب حميدة.

مرّ بين الطاولات والناس، كما لو كان جسماً سائلاً، فلحقتُ به متعثّرة، وأنا أتمتم معتذرة للناس الذين أدفعهم جانباً.

أخيراً رأيت الشخص الذي يتوجّه نحوه توبياس. كان ماركوس، الجالس مع عدد من أعضاء النـزاهة الأكبر سنّاً.

وصل إليه وأمسكه من مؤخّر عنقه، ثمّ رفعه عن مقعده. فتح ماركوس فمه ليتكلّم، لكنّها كانت غلطة، لأنّ توبياس لكمه بقوّة على أسنانه. صاح أحدهم، لكن لم يُهرع أيّ شخص لنجدة ماركوس. فنحن في قاعة مليئة بالشجعان، في النهاية.

دفع توبياس ماركوس إلى وسط القاعة، حيث توجد مساحة بين الطاولات تحتوي على رمز النـزاهة. تعثّر ماركوس فوق إحدى كفّتي الميزان، واضعاً يديه على وجهه، لذلك لم أستطع رؤية الضرر الذي تسبّب به توبياس.

دفع توبياس ماركوس على الأرض، وضغط على حنجرته بعقب حذائه. فضرب ماركوس توبياس على ساقه، بينما سالت الدماء من شفتيه. لكن حتّى لو كان في أوج قوّته، لن يكون بقوّة ابنه. في تلك اللحظة، فكّ توبياس حزامه، وسحبه من سرواله.

رفع قدمه عن عنق ماركوس ورفع الحزام، ثمّ أرجعه إلى الخلف قائلاً: "هذا لمصلحتك".

تذكّرت أنّ هذا ما كان ماركوس يقوله دائماً لتوبياس كلّما ظهر في مشهد الخوف الخاصّ به.

ثمّ طار الحزام في الهواء، وحطّ على ذراع ماركوس. أصبح وجه ماركوس قرمزياً، وغطّى رأسه وهو يتلقّى الضربة التالية، التي أصابت ظهره هذه المرّة. تعالت الضحكات من حولي، آتية من طاولات الشجعان، غير أنّني لم أضحك، إذ لا يمكنني أن أضحك على مشهد كهذا.

أخيراً، عدت إلى وعيي، فاندفعت وأمسكت بكتف توبياس.

قلت: "كفى! توبياس، توقّف *حالاً*!"

توقّعت أن أرى نظرة شرسة في عينيه، لكن عندما نظر إليّ، لم أرَ ذلك. لم يكن وجهه أحمر اللون من شدّة الغضب، كما أنّ أنفاسه كانت ثابتة. هذا يعني أنّه لم يُقدم على هذا العمل من شدّة الانفعال.

لقد كانت خطوة محسوبة.

أنـزل الحزام، ومدّ يده إلى جيبه، ثمّ أخرج منها سلسلة فضّية تدلّى منها خاتم. كان ماركوس ممدّداً على جانبه، يشهق. أفلت توبياس الخاتم على الأرض بالقرب من وجه أبيه. كان مصنوعاً من معدن باهت، وعرفت فوراً أنّه خاتم زواج يستخدمه أعضاء نكران الذات.

قال توبياس: "أمّي ترسل لك سلامها".

ابتعد توبياس، واحتجت إلى بضع ثوانٍ لألتقط أنفاسي. عندما فعلت، تركت ماركوس يتلوّى على الأرض، وركضت خلفه. لم ألحق به إلى أن وصلت إلى الردهة.

سألته: "ماذا فعلت؟"

طلب توبياس المصعد من دون أن ينظر إليّ.

قال: "كان هذا ضرورياً".

"ضرورياً لماذا؟"

التفت إليّ عابساً. "ماذا، هل تشعرين بالأسف *عليه* الآن؟ هل تعرفين كم مرّة فعل ذلك بـي؟ من أين تعلّمت الخطوات إذاً؟"

شعرت أنّني هشّة، كما لو كنت سأنكسر. بدا فعلاً أنّه مدرّب، كأنّه راجَع الخطوات في ذهنه، وكرّر الكلمات أمام المرآة. لقد حفظ المشهد عن ظهر قلب، إلاّ أنّه أدّى هذه المرّة الدور الآخر.

قلت بهدوء: "كلاّ، كلاّ، أنا لا أشعر بالأسف عليه، إطلاقاً".

"*ماذا* إذاً، تريس؟" كان صوته قاسياً، ربّما كان هو من سيكسرني. "أنت لم تكترثي لما أقوله أو أفعله منذ أسبوع، فما الذي استجدّ الآن؟"

شعرت بالخوف منه تقريباً. فأنا لا أعرف ماذا أقول أو أفعل عندما يكون في هذه الحالة، يغلي تحت سطح ما فعلَه، تماماً مثل الجزء القاسي منّي. كلانا يعيش حرباً في داخله. في بعض الأحيان، تبقينا هذه الحرب على قيد الحياة، وفي أحيان أخرى تهدّد بتدميرنا.

قلت: "لا شيء".

صدرت رنّة عن المصعد عند وصوله. دخلَ، وضغط على زرّ الإغلاق، فصُدّ الباب بيننا. حدّقت إلى الجدار المعدني، وحاولت التفكير بما جرى خلال الدقائق العشر الماضية.

لقد قال: "يجب أن يتوقّف هذا". ويقصد بـ "هذا" السخرية التي نتجت عن الاستجواب، الذي اعترف فيه أنّه انضمّ إلى الشجاعة للهرب من أبيه. ثمّ قام بضرب ماركوس علناً، أمام كلّ الشجعان.

لماذا؟ لينقذ ماء وجهه؟ غير ممكن. فعمله كان متعمّداً جدّاً.

á á á

في طريق العودة إلى الكافتيريا، رأيت رجلاً من النـزاهة يصطحب ماركوس إلى الحمّام. كان يمشي ببطء، لكن بوضعية غير منحنية، ما يعني أنّ توبياس لم يتسبّب له بأذى خطير. راقبت الباب وهو يغلق خلفه.

لم أكن قد نسيت ما سمعته في مجمّع الوئام، عن المعلومات التي خاطر أبـي بحياته من أجلها. ذكّرت نفسي، *بل يُفترض أنّه فعل*. قد لا يكون من الحكمة أن أثق بماركوس، كما أنّني تعهّدت لنفسي ألاّ أسأله عن ذلك مجدّداً.

تلكّأتُ أمام باب الحمّام، إلى أن خرج مرافق ماركوس، ثمّ دخلت قبل أن يُغلق الباب تماماً. كان ماركوس جالساً على الأرض بالقرب من المغسلة، يضغط المحارم الورقية على فمه، ولم يبدُ مسروراً برؤيتي.

سألني: "ماذا، هل أتيت للشماتة؟ أغربـي عن وجهي".

"كلاّ".

لماذا أتيت، بالضبط؟

نظر إليّ ينتظر الجواب. "إذاً؟"

"أردت فقط تذكيرك. مهما يكن ما تريده من جانين، لن تتمكّن من الحصول عليه بمفردك، ولا بمساعدة نكران الذات وحسب".

"ظننت أنّنا انتهينا من هذه المسألة". كان صوته مكتوماً بالمحارم الورقية. "فكرة أن تقدّمي *أنت* المساعدة-"

قاطعته بحدّة: "لا أعرف لماذا تتوهّم أنّني بلا فائدة، لكنّ هذا صحيح. أنا لست مهتمّة بسماع شيء عن ذلك. كلّ ما أريد قوله هو أنّك عندما تتخلّى عن أوهامك، وتبدأ بالإحساس باليأس لأنّك عاجز عن القيام بذلك بمفردك، تعرف إلى من تلجأ".

غادرت الحمّام بينما كان الرجل المنتمي إلى النـزاهة عائداً وبيده كيس من الثلج.

الفصل الحادي والعشرون

وقفت أمام المغاسل في حمّام السيّدات في طابق احتلّه الشجعان حديثاً، حاملة مسدّساً على كفّي. كانت لين قد وضعته هناك قبل بضع دقائق، وبدت مربكة لأنّني لم أُحطه بأصابعي وأضعه في مكان ما، في قِراب، أو تحت حزام سروالي. تركته هكذا على يدي، وذهبت إلى الحمّام قبل أن تبدأ عوارض الذعر بالظهور.

لا تكوني غبية. لا يمكنني القيام بما أريده من دون مسدّس، سيكون هذا ضرباً من الجنون. لذلك، عليّ أن أحلّ هذه المشكلة خلال الدقائق الخمس التالية.

لففتُ خنصري أوّلاً على القبضة، ومن ثمّ الإصبع الثاني، ومن بعده الأصابع الأخرى. كان الوزن مألوفاً. وضعت سبابتي على الزناد، ثمّ زفرت.

بدأت أرفعه، وثبّت يدي اليمنى بيدي اليسرى. حملت المسدّس بعيداً عن جسدي، بذراعين مستقيمتين، تماماً كما علّمني فور، عندما كان هذا اسمه الوحيد. استخدمت مسدّساً كهذا للدفاع عن أبـي وأخي من الشجعان الواقعين تحت تأثير المحاكاة. كما استخدمته لمنع إريك من إطلاق النار على رأس توبياس. بالتالي، هو ليس شرّاً متأصّلاً، بل مجرّد أداة.

لمحت حركة في المرآة، وقبل أن أتمكّن من منع نفسي، حدّقت إلى انعكاس صورتي. فكّرت، *هكذا بدوت له. هكذا بدوت عندما قتلته*.

صدر عنّي أنين حيوان جريح، وتركت المسدّس يسقط من يديّ، ثمّ لففت ذراعيّ على بطني. أردت أن أبكي لأنّني أعرف أنّني سأشعر بتحسّن، لكن لا أستطيع إجبار الدموع على الخروج. فاكتفيت بالركوع في الحمّام، أحدّق إلى البلاط الأبيض. لا يمكنني ذلك. لا يمكنني أخذ المسدّس معي.

في الواقع لا يجب أن أذهب، غير أنّني سأفعل مع ذلك.

"تريس؟" طرق أحدهم على الباب. وقفت، وأرخيت ذراعيّ، بينما انفتح الباب بضعة إنشات.

دخل توبياس قائلاً: "قال لي زيك ويوريا إنّك ذاهبة للتنصّت على جاك".

"آه".

"هل هذا صحيح؟"

"لماذا أخبرك ما دمت تخفي عنّي مخطّطاتك".

عبس قائلاً: "ما الذي تتحدّثين عنه؟"

اقتربت منه خطوة. "أنا أتحدّث عن قيامك بضرب ماركوس ضرباً مبرحاً أمام كلّ الشجعان من دون سبب وجيه. لكن ثمّة سبب، أليس كذلك؟ لأنّه لم يبدُ أنّك فقدت السيطرة على نفسك، أو أنّه فعل شيئاً لاستفزازك، لذا لا بدّ من وجود سبب!"

"أردت أن أثبت للشجعان أنّني لست جباناً. هذا كلّ ما في الأمر".

"لماذا ترغب في..."

لماذا يرغب توبياس في إثبات نفسه لجماعة الشجاعة؟ فقط إن أراد أن يكسب تقديرهم. فقط إن أراد أن يصبح قائد الجماعة. تذكّرت صوت إيفلين وهي تتحدّث في الظلام في مخبأ المنبوذين: "ما أقترحه هو أن تصبح مهمّاً".

إنّه يريد أن يتحالف الشجعان مع المنبوذين، والطريقة الوحيدة لذلك هي أن يعقد بنفسه هذا الحلف.

أمّا سبب إخفائه هذه الخطّة عنّي، فهو لغز آخر تماماً. قبل أن أسأله، قال: "إذاً، هل أنت ذاهبة للتنصّت أم لا؟"

"بماذا يهمّك ذلك؟"

"أنت ترمين نفسك في الخطر من دون سبب مجدّداً. تماماً مثلما غامرتِ لقتال جماعة المعرفة مسلّحة فقط... بسكّين جَيب لحماية نفسك".

"ثمّة سبب، وسبب وجيه. نحن لن نعرف ماذا يجري ما لم نتنصّت، وعلينا أن نعرف ماذا يجري".

كتف ذراعيه. لم يكن ضخماً مثل بعض شباب الشجاعة. وبعض الفتيات قد يركّزن على أذنيه البارزتين، أو طرف أنفه المعقوف، لكن بالنسبة إليّ...

كبحت جماع أفكاري. لقد أتى ليوبّخني، كما أنّه يخفي أسراراً عنّي. مهما يكن، لا يمكنني التفكير بمدى جاذبيته. فهذا يصعّب عليّ المهمّة التي تنتظرني، وهي تتمثّل الآن في الذهاب للتنصّت على ما سيقوله جاك كانغ للمعرفة.

قلت: "لم تعد تقصّ شعرك مثل شباب نكران الذات. أهذا يعني أنّك تريد أن تبدو أكثر شبهاً بالشجعان؟"

"لا تغيّري الموضوع. ثمّة أربعة أشخاص سيذهبون للتنصّت أساساً، لست مضطرة للتواجد هناك".

ارتفعت نبرة صوتي وأنا أسأله: "لماذا تصرّ على بقائي هنا؟ أنا لست من الناس الذين يجلسون في الخلف ويتركون الآخرين يجازفون بحياتهم!"

"لأنّك فتاة لا تقدّر حياتها على ما يبدو... ولا يمكنها أن تمسك مسدّساً وتستخدمه..." مال نحوي مضيفاً: "في هذه الحالة، عليك التراجع وترك الآخرين يجازفون".

تردّد صوته الهادئ من حولي مثل نبض ثانٍ. فسمعت عبارة "لا لا تقدّر حياتها على ما يبدو" مراراً وتكراراً.

"وماذا ستفعل؟ هل ستحبسني في الحمّام؟ فهذه الطريقة الوحيدة لمنعي من الذهاب".

لمس جبينه، وترك يده تنـزلق على جانب وجهه. لم يسبق لي أن رأيت وجهه يتهدّل على هذا النحو من قبل.

قال: "أنا لا أريد منعك، بل أريدك أن تمنعي نفسك. لكن إن كنت ستتهوّرين، لا يمكنك منعي من المجيء معك".

á á á

كان الظلام لا يزال مخيّماً، إلى حدّ ما، عندما وصلنا إلى الجسر المؤلّف من طابقين، مع أعمدة حجرية عند كلّ زاوية. نـزلنا الدرج المحاذي لأحد الأعمدة، وتسلّلنا بصمت وصولاً إلى مستوى النهر. لمعت برك كبيرة من الماء الراكد عندما سقط عليها ضوء النهار. كانت الشمس تشرق، وعلينا بالتالي أن نصل إلى مواقعنا.

تمركز يوريا وزيك في المباني المنتشرة على جانبـي الجسر، لكي يحصلا على إطلالة أفضل، ويتمكّنا من تغطيتنا عن بعد. من موقعهما، يستطيعان التسديد على نحو أفضل من لين أو شونا، التي أتت بناء على طلب لين، على الرغم من ثورتها في قاعة الاستقبال.

ذهبت لين أوّلاً، وتقدّمت ضاغطة ظهرها على الجدار، وهي تسير ببطء على طول الحافة السفلية لدعائم الجسر. تبعتُها، وتقدّم خلفنا كلّ من شونا وتوبياس. كان الجسر مدعوماً بأربعة هياكل معدنية مقوّسة تثبّته على الجدار الحجري، وبمتاهة من العوارض الخشبية الضيّقة تحت الطابق السفلي. انحنت لين تحت أحد الهياكل المعدنية وتسلّقتها بسرعة، مبقية العوارض الضيّقة تحتها وهي تشقّ طريقها إلى وسط الجسر.

تركت شونا تتقدّمني لأنّني لست ماهرة في التسلّق مثلها. ارتعشت يدي اليسرى وأنا أحاول أن أتوازن على قمّة الهيكل المعدني، وأحسست بيد توبياس الباردة على خصري، تثبّتني.

انحنيت لأتمكّن من المرور في الفراغ بين أسفل الجسر والعوارض الممتدّة تحتي. ولم أتمكّن من الذهاب بعيداً قبل أن أضطر إلى التوقّف، مع قدميّ على إحدى العوارض، وذراعي اليسرى على أخرى. سيكون عليّ البقاء بهذه الوضعية لمدّة طويلة.

انـزلق توبياس على إحدى العوارض، ووضع ساقه تحتي. كانت ساقه طويلة بما فيه الكفاية لتمتدّ تحتي، وصولاً إلى العارضة الثانية. تنهّدت، وابتسمت له شاكرة. كانت المرّة الأولى التي ننظر فيها إلى بعضنا منذ أن غادرنا مركز عديمي الرحمة.

ردّ إليّ ابتسامة كئيبة.

انتظرنا بصمت. كنت أتنفّس من فمي، وأحاول السيطرة على ارتعاش ذراعيّ وساقيّ. بدت شونا ولين أنّهما تتواصلان من دون كلام. فقد كانتا ترسمان على وجهيهما تعابير لا أفهمها، ثمّ تهزّان رأسيهما وتبتسمان عندما تتوصّلان إلى اتّفاق. لم يسبق لي أن فكّرت كيف ستكون حياتي لو كانت لديّ أخت. هل كانت علاقتنا أنا وكاليب لتكون أوثق لو كان فتاة؟

خيّم الهدوء التامّ على المدينة في الصباح بحيث تردّد صدى الخطوات وهي تقترب من الجسر. أتى الصوت من خلفي، ما يعني أنّ من وصل هو جاك ومرافقه من جماعة الشجاعة، وليس وفد المعرفة. كان الشجعان يعرفون بوجودنا هنا، مع أنّ جاك كانغ نفسه لا يعرف. لكن لو حدّق إلى الأسفل لأكثر من بضع ثوان، لتمكّن من رؤيتنا من

خلال الشبكة المعدنية الممتدّة تحت أقدامه. حاولت التنفّس بهدوء قدر الإمكان.

تحقّق توبياس من ساعته، ثمّ رفع ذراعه لكي يريني الوقت. كانت الساعة السابعة تماماً.

نظرت إلى الأعلى، وحدّقت من خلال الشبكة الفولاذية الممتدّة فوقي. مرّت أقدام فوق رأسي، ثمّ سمعت الصوت.

قال: "مرحباً، جاك".

إنّه ماكس، الذي عيّن إريك قائداً للشجاعة بناءً على طلب جانين، والذي طبّق سياسات القسوة والعنف في تدريبات الشجاعة. لم يسبق لي أبداً أن تحدّثت معه مباشرة، لكنّ صوته جعلني أرتجف.

قال جاك: "ماكس، أين جانين؟ ظننت أنّها ستتحلّى على الأقلّ بشيء من اللياقة لتأتي بنفسها".

أجاب: "أنا وجانين نقسّم المسؤوليات بيننا بحسب قدراتنا. هذا يعني أنّني أتّخذ كافّة القرارات العسكرية. وأظنّ أنّ هذا يتضمّن ما نفعله اليوم".

عبست مفكّرة. لم يسبق لي أن سمعت ماكس يتحدّث بهذا القدر، غير أنّ شيئاً في الكلمات التي استخدمها، وفي إيقاعها، بدا... غريباً.

قال جاك: "حسناً، لقد أتيت إلى هنا-"

قاطعه ماكس قائلاً: "عليّ أن أبلغك أنّنا لن نتفاوض هنا. فمن أجل التفاوض، يجب أن تكون متساوياً مع الطرف الآخر، وأنت لست كذلك، جاك".

"ماذا تعني؟"

"أعني أنّكم الجماعة الوحيدة التي يمكن الاستغناء عنها. فالنـزاهة لا توفّر لنا الحماية، أو البقاء، أو الابتكارات التكنولوجية. بالتالي، نحن

بغنى عنكم. كما أنّكم لم تبذلوا جهداً كبيراً لتكسبوا رضى ضيوفكم الشجعان. وهذا يضعكم في موقع ضعيف جدّاً، وبلا أيّ فائدة. لذلك، أوصيك بتنفيذ ما أقوله حرفياً".

قال جاك من بين أسنانه المشدودة: "أيّها النذل، كيف تجرؤ-"

قال ماكس: "لا تثر أعصابــي".

عضضت على شفتي. عليّ أن أثق بحدسي، وهو ينبئني الآن بوجود خطب ما. فما من رجل يحترم نفسه في جماعة الشجاعة يتفوّه بعبارة "لا تثر أعصابــي"، أو يتصرّف بهذا الهدوء في وجه الإهانة. إنّه يتحدّث كما لو كان شخصاً آخر، كما لو كان جانين.

سرت قشعريرة في عنقي. هذا منطقي تماماً. فجانين لن تثق بأحد، لا سيّما بشجاع متهوّر، ليتحدّث عنها. لذا فإنّ الحلّ الأفضل هو إعطاء ماكس سمّاعة. والإشارة المرسلة عبر سمّاعة لا يمكن أن تمتدّ لأكثر من ميل واحد.

التقى نظري بنظر توبياس، فحرّكت يدي ببطء لأشير إلى أذني، ثمّ أشرت إلى الأعلى، محاولة بقدر الإمكان أن ألفت انتباهه إلى حيث يقف ماكس.

عبس توبياس للحظة، ثمّ هزّ رأسه، لكنّني لست واثقة ما إذا كان قد فهمني.

قال ماكس: "لديّ ثلاثة مطالب. أوّلاً، أن تعيد قائد الشجاعة الذي تحتجزه حاليّاً سالماً معافى. ثانياً، أن تسمح بقيام جنودنا بتفتيش مجمّعكم لإيجاد الجامحين. ثالثاً، أن تعطينا أسماء الأشخاص الذين لم يتمّ حقنهم بمصل المحاكاة".

سأله جاك بمرارة: "لماذا؟ عمّ تبحثون؟ ولماذا تحتاجون إلى تلك الأسماء؟ ماذا تنوون أن تفعلوا بهم؟"

"الهدف من البحث هو إيجاد الجامحين وإخراجهم من المبنى. أمّا بالنسبة إلى الأسماء، فهذا ليس من شأنك".

"ليس من شأني!" سمعت خطوات فوقي، فنظرت إلى الأعلى. استطعت رؤية قبّة قميص ماكس ملفوفة حول قبضة جاك.

قال ماكس: "أفلتني، وإلاّ أمرت حرّاسي بإطلاق النار".

عبست وأنا أفكّر أنّه إن كانت جانين تتحدّث بلسان ماكس، يجب أن تكون قادرة على رؤيته لتعرف أنّ جاك يمسك به. فانحنيت إلى الأمام لأنظر إلى الأبنية الواقعة على جانبَي الجسر. إلى اليسار، ينعطف النهر، ويقع مبنى زجاجي منخفض على ضفّته. لا بدّ أن تكون هناك.

بدأت أصعد نحو الخلف، باتجاه الهيكل المعدني الذي يدعم الجسر، ونحو السلّم الذي سيقودني إلى واكر درايف. لحق بـي توبياس على الفور، ورأيت شونا تربّت على كتف لين. غير أنّ لين كانت تفعل شيئاً آخر.

انشغلت كثيراً بالتفكير بجانين، ولم ألاحظ أنّ لين أخرج مسدّسها وبدأت تتسلّق العوارض باتّجاه طرف الجسر. فتحت شونا فمها، وحملقت مذهولة وهي تشاهد لين تؤرجح نفسها إلى الأمام، وتمسك بطرف الجسر، ثمّ تدفع ذراعها فوقه. فجأة، ضغطت بإصبعها على الزناد.

شهق ماكس، ورفع يده إلى صدره، ثمّ سقط إلى الخلف. عندما أبعد يده، كانت مضرّجة بالدماء.

لم أكلّف نفسي عناء التسلّق أكثر من ذلك، بل هبطتُ في الوحل، وتبعني كلّ من توبياس، ولين، وشونا. غرقت ساقاي في المستنقع، والتصقت الوحول بقدميّ. انـزلق حذائي، لكنّني واصلت التقدّم حتّى بلغت الإسمنت. أُطلق الرصاص علينا، وغاصت الرصاصات في الوحل بقربـي. فرميت نفسي على الجدار الممتدّ تحت الجسر، لأتجنّب الإصابة.

وقف توبياس خلفي، ليحميني بجسده، بحيث شعرت بذقنه فوق رأسي.

يمكنني أن أهرب عائدة إلى مقرّ النـزاهة، وإلى الأمان المؤقّت، أو أن أجد جانين في أضعف حالاتها على الأرجح.

لم يكن الخيار مطروحاً حتّى.

قلت: "هيّا!" أسرعت أرتقي السلالم، والآخرون في أعقابـي. على الطابق السفلي من الجسر، راح أصدقاؤنا الشجعان يطلقون النار على أعضاء الجماعة الخونة. كان جاك بأمان، انحنى ليحتمي من الرصاص، حاملاً على ظهره بندقية من بنادق الشجعان. رحت أسرع على الجسر، من دون أن أنظر إلى الخلف. كنت أسمع خطوات توبياس، فقد كان الوحيد الذي استطاع اللحاق بـي.

كان المبنى الزجاجي في مرمى نظري. غير أنّني بدأت أسمع مزيداً من الخطوات والطلقات النارية. فأخذت أركض في خطّ متعرّج، لأصعّب على الشجعان الخونة إصابتي.

أصبحت تفصلني ياردات عن المبنى الزجاجي. فصررت على أسناني، وأجبرت نفسي على الإسراع. شعرت بخدر في ساقَيّ، ولم أعد أحسّ بالأرض من تحتي. لكن قبل أن أبلغ الأبواب، رأيت حركة في الزقاق إلى يميني. فانعطفت، وتبعتها.

كان ثمّة ثلاثة أشخاص يركضون في الزقاق. أحدهما أشقر، والثاني طويل، والثالث هو بيتر.

تعثّرت، وكدت أسقط.

صرخت: "بيتر!" شهر مسدّسه، وخلفي، فعل توبياس المثل، فوقفنا ساكنين لا تفصل بيننا سوى ياردات قليلة. خلفه، اختفت عند المنعطف المرأة الشقراء، وكانت جانين على الأرجح، والرجل الطويل الذي كان أحد

الخونة. ومع أنّني لا أملك سلاحاً، ولا خطّة، إلاّ أنّني أردت اللحاق بهما، وكنت لأفعل ربّما لو لم يضع توبياس يده على كتفي ويمنعني من المضي قدماً.

قلت لبيتر: "أيّها الخائن. عرفت ذلك، عرفت ذلك".

مزّقت صرخة الهواء. كانت صرخة ألم صادرة عن فتاة.

قال بيتر وهو يبتسم بمكر: "يبدو أنّ أصدقاءك في محنة". تابع قائلاً من دون أن يبعد السلاح من يده: "لك الخيار إمّا بتركنا نذهب ومساعدتهم، أو الموت وأنت تحاولين اللحاق بنا".

كدت أصرخ. فكلانا يعلم ماذا سأفعل.

قلت: "أتمنّى أن تموت".

تراجعت نحو توبياس، الذي انسحب معي، إلى أن وصلنا إلى آخر الزقاق، ثمّ التفتنا وبدأنا نركض.

الفصل الثاني والعشرون

تمدّدت شونا على الأرض، على بطنها، والدم ينـزف من خلال قميصها. أمّا لين، فركعت بقربها، تحدّق إليها مذهولة.

تمتمت قائلة: "إنّه خطأي، لم يكن يجدر بـي أن أطلق عليه النار. لم يكن يجدر بـي..."

حدّقت إلى بقعة الدماء. كانت مصابة برصاصة في الظهر. لكن لم أعرف ما إذا كانت تتنفّس أم لا. وضع توبياس إصبعين على جانب عنقها، ثمّ هزّ رأسه إلى الأسفل.

قال: "علينا الخروج من هنا. لين، انظري إليّ. سأحملها، وهذا سيؤلمها كثيراً، لكنّه خيارنا الوحيد".

هزّت لين رأسها موافقة. انحنى توبياس بالقرب من شونا، ووضع يديه تحت ذراعيها. رفعها، فصدر عنها أنين ألم. اندفعت لمساعدته على رفع جسدها الساكن على كتفه. أحسست بتقلّص في حنجرتي، فقححت لأخفّف من الضغط.

وقف توبياس بصعوبة، وتوجّهنا معاً نحو مقرّ النـزاهة، بحيث مشت لين في المقدّمة، حاملة مسدّسها، ومشيت أنا في الخلف. كنت أمشي بشكل عكسي لأراقب ما يجري خلفنا، لكنّني لم أرَ أحداً. أظنّ أنّ الشجعان الخونة انسحبوا، لكنّ الاحتياط واجب.

صاح أحدهم: "مهلاً!" كان يوريا، الذي أتى نحونا مهرولاً. "بقي زيك لمساعدتهم على إحضار جاك... يا إلهي". وقف جامداً. "يا إلهي، شونا؟"

قال توبياس بحدّة: "لا تبدأ. اسبقنا إلى مبنى النـزاهة وأحضر طبيباً".

غير أنّ يوريا بقي جامداً.

"يوريا! انطلق *فوراً*!" تردّدت أصداء الصرخة مع عدم وجود شيء في الشارع ليخفّف من حدّتها. فاستدار يوريا أخيراً، وأسرع نحو المبنى.

كان المبنى يقع على مسافة نصف ميل فقط إلى الوراء، لكن مع همهمات توبياس، وتنفّس لين المضطرب، ومعرفتنا أنّ شونا تنـزف حتّى الموت، بدا الطريق بلا نهاية. رأيت عضلات ظهر توبياس وهي تتمدّد وتتقلّص مع كلّ نفس من أنفاسه المتعبة، لكنّني لم أسمع خطواتنا، بل سمعت نبض قلبـي فقط. أخيراً وصلنا إلى الباب، فأحسست أنّني على وشك التقيّؤ، أو الإغماء، أو الصراخ بملء صوتي.

استقبلنا يوريا عند المدخل، مع رجل من المعرفة، وكارا. وضعوا ملاءة على الأرض لتمديد شونا عليها. فخفضها توبياس، وانصرف الطبيب إلى العمل فوراً، فبدأ يقصّ القميص ليكشف ظهر شونا. استدرت، غير راغبة في رؤية الجرح الذي خلّفته الرصاصة.

وقف توبياس أمامي، وبدا وجهه محمرّاً من كثرة الجهد. أردته أن يضمّني بين ذراعيه مجدّداً، مثلما فعل بعد الهجوم الأخير. غير أنّه لم يفعل، وكنت أعرفه جيّداً لأقوم أنا بالمبادرة.

قال: "لن أدّعي أنّني أعرف ما الذي يحدث لك. لكن إن جازفتِ عبثاً بحياتك مرّة أخرى-"

"أنا لا أجازف عبثاً بحياتي. أنا أحاول تقديم *تضحيات*، كما كان ليفعل والداي، كما-"

"أنت *لستِ* والديك. أنت ابنة ستّة عشر عاماً-"

شددت على أسناني. "كيف تجرؤ-"

"-لا تفهم أنّ قيمة التضحية تكمن في *ضرورتها*، وليس في الاستهتار بحياتها! إن أقدمتِ على ذلك مجدّداً، سينتهي كلّ شيء بيننا".

لم أتوقّع منه قول شيء كهذا.

"هل هذا إنذار؟" حاولت إبقاء صوتي منخفضاً كي لا يسمع الآخرون.
هزّ رأسه نافياً. "كلاّ، بل حقيقة". تحوّلت شفتاه إلى خطّ مستقيم. "إن جازفتِ بحياتك من دون سبب مرّة أخرى، لن تكوني سوى متهوّرة منافقة، ولن أساعدك على ذلك". كانت نبرته مليئة بالمرارة. "أنا أحبّ تريس الجامحة، التي تتّخذ القرارات بصرف النظر عن ولائها للجماعة، ومن دون أن تكون صورة عن غيرها. أمّا تريس التي تبذل ما في وسعها لتدمير نفسها... فلا أستطيع أن أحبّها".
أردت أن أصرخ. ليس بسبب غضبـي، بل لأنّني خفت أن يكون على حقّ. ارتجفت يداي، فأمسكت بطرف قميصي لتثبيتهما.
لامس جبينه بجبيني وأغمض عينيه، ثمّ قال: "أعتقد أنّك ما زلت موجودة، عودي إليّ".
عانقني، ولم أستطع منعه من شدّة الصدمة.
بعد ذلك، عاد إلى جانب شونا، بينما وقفت فوق كفّة الميزان الخاسرة في بهو مبنى النـزاهة.

á á á

"مضى زمن على لقائنا الأخير".
جلست على السرير أمام توري، التي كانت جالسة، وقدمها مرفوعة على كومة من الوسائد.
قلت: "أنت محقّة، كيف تشعرين؟"
تراقصت ابتسامة على شفتيها وهي تجيب: "كما لو أنّني مصابة. سمعت أنّك اعتدت على هذا الشعور".
"نعم، لطيف أليس كذلك؟" لم أستطع التفكير سوى بالرصاصة التي استقرّت في ظهر شونا. على الأقلّ، أنا وتوري سنتعافى من جراحنا.

سألتني: "هل اكتشفتم شيئاً هامّاً في اجتماع جاك؟"

"بعض الأمور. هل تعرفين كيف يمكننا أن ندعو الشجعان إلى اجتماع؟"

"أظنّ أنّني أستطيع ذلك. فمن حسنات العمل كفنّانة أوشام في الشجاعة هي التعرّف على الجميع تقريباً".

"أنت على حقّ. كما أنّك تتمتّعين بسمعة طيّبة لكونك جاسوسة سابقة".

التوى فم توري. "لقد نسيت تقريباً".

"هل اكتشفتِ *أنت* شيئاً مهمّاً، أعني كجاسوسة؟"

"كانت مهمّتي تتركّز أساساً حول جانين ماثيوس". نظرت إلى يديها مضيفة: "كيف تمضي أيّامها، والأهمّ، *أين تمضيها*".

"أليس في المكتب؟"

لم تجبني توري في البداية.

رمقتني قائلة: "أظنّ أنّني أستطيع أن أثق بك أيّتها الجامحة. إنّها تملك مختبراً خاصّاً في الطابق العلوي، وتحميه بتدابير أمنية لا مثيل لها. كنت أحاول الصعود إلى هناك عندما اكتشفوا حقيقتي".

"أفهم أنّك لم تحاولي دخول المختبر للتجسّس". حوّلَت نظرها بعيداً.

"ظننت أنّه سيكون من... *الأنسب* ألاّ تعيش جانين ماثيوس أكثر من ذلك".

رأيت نظرة عطش في عينيها، وكانت النظرة نفسها التي طغت على وجهها عندما أخبرتني عن شقيقها في الغرفة الخلفية لمحلّ الأوشام. قبل هجوم المحاكاة، ربّما ظننته تعطّشاً للعدالة، أو حتّى الانتقام، إلاّ أنّني عرفت الآن أنّه تعطّش للدم. ومع أنّه يخيفني، إلاّ أنّني أفهمها.

وهذا ما يجب أن يخيفني أكثر على الأرجح.

قالت توري: "سأعمل على الدعوة إلى هذا الاجتماع".

á á á

اجتمع الشجعان في الفراغ الفاصل بين صفوف الأسرّة والباب، الذي تمّ إغلاقه بملاءة ملفوفة بإحكام، وهو أفضل قفل استطاع الشجعان تدبيره. لا شكّ لديّ أن جاك كانغ سيوافق على مطالب جانين، ما يعني أنّنا لم نعد في مأمن هنا بعد الآن.

سألت توري: "ما هي الشروط؟" كانت جالسة على كرسي بين بضعة أسرّة، وساقها المصابة ممدودة أمامها. طرحَت السؤال على توبياس، لكنّه لم يعرها أيّ انتباه على ما يبدو. فقد استند إلى أحد الأسرّة، كاتفاً ذراعيه، يحدّق إلى الأرض.

تنحنحتُ مجيبة: "كانت ثلاثة. عودة إريك إلى جماعة المعرفة، وإعطاء أسماء كلّ الأشخاص الذين لم يُحقنوا آخر مرّة، وتسليم الجامحين إلى جماعة المعرفة".

نظرتُ إلى مارلين، فابتسمت لي بشيء من الحزن. كانت قلقة على شونا على الأرجح، التي ما زالت مع طبيب جماعة المعرفة. وكان معها لين، وهيكتور، ووالديهم، وزيك.

قالت توري: "إن كان جاك يعقد صفقات مع المعرفة، لا يمكننا البقاء هنا. إلى أين نذهب إذاً؟"

تراءت لي الدماء على قميص شونا، وشعرت بالاشتياق إلى بساتين الوئام، وصوت حفيف الأوراق، وملمس لحاء الشجر تحت يديّ. لم أتخيّل أبداً أنّني سأتوق للعودة إلى ذلك المكان، ولم أعتقد أنّه يسكن في داخلي.

أغمضت عينيّ للحظة وجيزة، وعندما فتحتهما عدت إلى الواقع، وبقيت جماعة الوئام حلماً.

قال توبياس: "إلى مقرّنا"، ورفع رأسه أخيراً. أصبح الجميع آذاناً صاغية. "علينا أن نستعيد ما هو لنا. يمكننا أن نحطّم كاميرات المراقبة في مقرّ الشجاعة لكي لا تتجسّس علينا جماعة المعرفة، لكن علينا العودة إلى مقرّنا".

وافق أحدهم بصيحة فرح، وانضمّ إليه شخص آخر. هكذا تُتّخذ القرارات في جماعة الشجاعة، بهزّ الرؤوس والهتاف. في تلك اللحظات، لا نبدو أفراداً، بل جزءاً من عقل واحد.

قال باد، الذي كان يعمل مع توري في محلّ الأوشام، ويقف الآن واضعاً يديه على ظهر كرسيّها: "لكن قبل ذلك، علينا أن نقرّر ماذا نفعل بإريك. هل نتركه هنا مع بقيّة أعضاء المعرفة، أم نعدمه".

قالت لورين، وهي تداعب القرط المعلّق في شفتها بإصبعها: "إريك هو من الشجعان، هذا يعني أنّنا نحن من يقرّر ماذا نفعل به، وليس جماعة النـزاهة".

هذه المرّة، خرجت صيحة من فمي من تلقاء نفسها، وانضمّت إلى صيحات الموافقة الصادرة عن الآخرين.

قالت توري: "بحسب قانون الشجاعة، وحدهم قادة الجماعة ينفّذون حكم الإعدام. وكلّ قادتنا الخمس السابقين أصبحوا خونة. لذلك، أظنّ أنّ الوقت قد حان لاختيار قادة جدد. ينصّ القانون على انتخاب أكثر من قائد، وأن يكون العدد مفرداً. إن كان لديكم اقتراحات، عليكم أن تنطقوا بها الآن، وسنصوّت عليها عند الحاجة".

صاح أحدهم: "أنتِ!"

قالت توري: "حسناً، ومن أيضاً؟"

كوّرت مارلين يديها حول فمها، وهتفت: "تريس!"

أخذ قلبـي ينبض بعنف. غير أنّني فوجئت أنّ أحداً لم يتمتم معارضاً أو يضحك. عوضاً عن ذلك، هزّ بضعة أشخاص رؤوسهم موافقين، تماماً كما فعلوا عندما ذُكر اسم توري. مرّ نظري على الحاضرين، إلى أن وجدت كريستينا. كانت واقفة كاتفة ذراعيها، ولا يبدو عليها أيّ ردّ فعل حيال تسميتي.

تساءلتُ كيف أبدو لهم. لا بدّ أنّهم يرون شخصاً لا أراه، شخصاً يتمتّع بالقدرة والقوّة. لا أستطيع أن أكون هذا الشخص، أو ربّما كنت أستطيع.

وافقت توري بهزّة من رأسها، ونظرت إلى الحاضرين بانتظار تسمية شخص آخر.

قال أحدهم: "هاريسون". لم أكن أعرف من يكون هاريسون إلى أن ربّت أحدهم على كتف رجل متوسّط السنّ ربط شعره الأشقر على شكل ذيل حصان، فابتسم. عندئذٍ عرفته، إنّه الرجل الذي ناداني "فتاة" عندما عاد زيك وتوري من مقرّ المعرفة.

هدأ الشجعان للحظة.

قالت توري: "وأنا أسمّي فور".

باستثناء بعض الهمهمات الغاضبة في الخلف، لم يعارض أحد. لم يعد أحد يصفه بالجبان بعدما ضرب ماركوس في الكافتيريا. أتساءل ماذا سيكون ردّ فعلهم إن عرفوا كم كانت تلك الخطوة محسوبة.

الآن، أصبح بإمكانه الحصول على ما يريد بالضبط، ما لم أقف في طريقه.

قالت توري: "نحن بحاجة إلى ثلاثة زعماء فقط، لذلك علينا أن نصوّت".

ما كانوا ليفكّروا بـي أبداً لو أنّني لم أوقف محاكاة الهجوم. وربّما ما كانوا ليفكّروا بـي لو أنّني لم أطعن إريك في ذلك اليوم، أو ألقِ بنفسي تحت ذلك الجسر. كلّما كنت أكثر تهوّراً، ازدادت شعبيّتي بين الشجعان.

نظر إليّ توبياس. لا يمكن أن أتمتّع بالشعبيّة بين الشجعان، لأنّ توبياس محقّ. فأنا لست شُجاعة، أنا جامحة. أنا ما أختار أن أكون، ولا يمكنني أن أختار *هذا*. عليّ أن أبقى مستقلّة عنهم.

قلت: "كلاّ". ثمّ تنحنحت وقلت بصوت أعلى: "كلاّ، ليس عليكم أن تصوّتوا. أنا أرفض ترشيحي".

رفعت توري حاجبيها متسائلة: "هل أنت واثقة من ذلك، تريس؟"

أجبت: "أجل، لا أريد هذا المنصب. أنا واثقة".

عندئذٍ، من دون جدال ومن دون أيّ مراسم، تمّ انتخاب توبياس زعيماً لجماعة الشجاعة، وأنا لا.

الفصل الثالث والعشرون

لم تمضِ عشر ثوان على انتخاب زعمائنا الجدد، حتّى ارتفع رنين طويل، تبعته رنّتان قصيرتان. اقتربت من الصوت، موجّهة أذني اليمنى نحو الجدار، إلى أن وجدت مكبّراً للصوت يتدلّى من السقف. وكان ثمّة واحد آخر في الجهة المقابلة من الغرفة.

فجأة، صدح صوت جاك كانغ من حولنا.

"أرجو الانتباه من كلّ الموجودين في مقرّ النـزاهة. اجتمعت قبل بضع ساعات مع ممثّل جانين ماثيوس. فذكّرني أنّنا، نحن جماعة النـزاهة، في موقف ضعيف، وأنّنا نعتمد على المعرفة للبقاء، كما قال لي إنّه عليّ تنفيذ بعض المطالب، إن أردتُ أن تبقى جماعتي حرّة".

حدّقت إلى مكبّر الصوت مذهولة. في الواقع، لا يجب أن أفاجأ من صراحة قائد النـزاهة، لكنّني لم أكن أتوقّع إعلاناً عامّاً.

تابع قائلاً: "لتنفيذ هذه المطالب، أسأل كلّ واحد منكم التوجّه إلى قاعة الاستقبال للإبلاغ ما إذا كان قد تلقّى حقنة أم لا. أمرَت جماعة المعرفة أيضاً بتسليمها كافّة الجامحين، وأنا لا أعرف الغرض من ذلك".

بدا فاتراً، ومهزوماً. فكّرت، *إنّه مهزوم في الواقع، لأنّه كان أضعف من أن يقاوِم.*

إنّ الشيء الوحيد الذي يميّز الشجعان عن أبناء النـزاهة هو أنّهم يتقنون فنّ المقاومة، حتّى عندما تبدو المقاومة غير مجدية.

أشعر في بعض الأحيان أنّني أجمع الدروس التي أتعلّمها من كلّ جماعة، وأخزّنها في عقلي مثل دليل للعيش في هذا العالم. فثمّة دائماً شيء نتعلّمه، وشيء من المهمّ فهمه.

انتهى إعلان جاك كانغ بالرنّات الثلاثة نفسها التي بدأ بها. فاندفع الشجعان على الفور، يجمعون أمتعتهم في حقائب. بينما قام عدد من

الشجعان الشباب بنـزع الملاءة عن الباب، وهم يصيحون بشيء عن إريك. دفعني أحدهم على الجدار، فوقفت أشاهد الهرج والمرج يتعاظم.

من جهة أخرى، فإنّ ما يميّز جماعة النـزاهة عن الشجاعة هو أنّهم يتقنون فنّ ضبط النفس.

á á á

وقف الشجعان في نصف دائرة حول كرسي الاستجواب الذي يجلس عليه إريك. بدا أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. فقد تراخى في الكرسي، وتصبّب العرق من جبينه الشاحب. حدّق إلى توبياس برأسه المحني إلى الأسفل، بحيث اختلطت رموش عينيه بحاجبيه. حاولت تركيز نظري عليه، لكنّ ابتسامته، والطريقة التي تتمدّد فيها الثقوب عندما يبتسم، جعلت شكله مريعاً جدّاً.

سألته توري: "هل تريد أن أعدّد لك جرائمك، أم تفضّل ذكرها بنفسك؟"

تساقط المطر على جانب المبنى، وسال على الجدران. وقفنا في غرفة الاستجواب، في الطابق الأخير من مبنى عديمي الرحمة. بدت عاصفة ما بعد الظهيرة أعنف هنا. فكلّما رعدت السماء وبرقت، أحسست بالقشعريرة تسري في جسدي، كأنّ الكهرباء تتراقص على بشرتي.

أحبّ رائحة الطرقات الرطبة. صحيح أنّها خفيفة هنا، لكن ما إن تنتهي هذه المهمّة، سيهبط الشجعان السلالم، ويغادرون المبنى، وستكون الطرقات الرطبة هي الشيء الوحيد الذي سأشتمّ رائحته.

كنّا نحمل حقائبنا، وكانت حقيبتي عبارة عن كيس مصنوع من ملاءة وحبل، تحتوي على ملابسي، وعلى حذاء احتياطي. ارتديت السترة التي سرقتها من أحد الخونة، فقد أردت أن يراها إريك إن نظر إليّ.

جال نظر إريك على الحاضرين، ثمّ وقع عليّ. شبك أصابعه، ووضعهم بحذر على بطنه. "أريد أن تقوم هـي بتعدادها. فبما أنّها هي من طعنني، من الواضح أنّها تعرفها".

لا أعرف ما هي اللعبة التي يلعبها، أو الهدف من إزعاجي، لا سيّما الآن، قبل إعدامه. بدا متعجرفاً، لكنّني لاحظت أنّ أصابعه ترتجف عندما يحرّكها. حتّى إريك لا بدّ أن يكون خائفاً من الموت.

قال توبياس: "دعها خارج الموضوع".

سأله إريك ساخراً: "لماذا؟ لأنّك حبيبها؟ مهلاً، نسيت. المتزمّتات لا يفعلن شيئاً كهذا، بل يكتفين بربط أحذية بعضهم البعض، وقصّ شعر بعضهم البعض".

لم يتغيّر تعبير توبياس، وأظنّ أنّني فهمت السبب. فإريك لا يأبه بـي، لكنّه يعرف أين يضرب توبياس، وكيف. وأقوى ضربة يمكن أن يوجّهها إلى توبياس هي من خلالي.

هذا ما أردت تجنّبه بكلّ الوسائل، أن يؤثّر صعودي وهبوطي على صعود وهبوط توبياس. لهذا السبب، لا يمكنني أن أتركه يتدخّل للدفاع عنّي الآن.

كرّر إريك مطلبه: "أريدها أن تقوم بتعدادها".

قلت بصوت ثابت قدر الامكان:

"لقد تآمرتَ مع جماعة المعرفة. أنت مسؤول عن موت مئات من أعضاء نكران الذات". وبينما أنا أتابع، لم أستطع الحفاظ على هدوء نبرتي، بل بدأت أبصق الكلمات في وجهه كما لو كانت سمّاً. "لقد خنتَ جماعة الشجاعة، وأطلقتَ النار على طفل. أنت لعبة سخيفة بين يديّ جانين ماثيوس".

تلاشت ابتسامته.

سأل: "وهل أستحقّ الموت؟"

فتح توبياس فمه ليقاطعه، لكنّني سبقته مجيبة.

"أجل".

"عظيم". كانت عيناه الداكنتان فارغتين، مثل حفرتين، أو مثل سماء بلا نجوم. "لكن هل يحقّ لك أنت أن تقرّري ذلك، بياتريس برايور؟ مثلما قرّرتِ مصير ذلك الشابّ، ما كان اسمه؟ ويل؟"

لم أجب. سمعت صوت والدي وهو يسألني: "كيف تظنّين أنّ لديك الحقّ بإطلاق النار على الناس؟" بينما كنّا نحاول الوصول إلى غرفة المراقبة في مقرّ الشجاعة. قال لي إنّه ثمّة طريقة صحيحة لفعل الأشياء، وعليّ إيجادها. فأحسست بشيء في حلقي، مثل كرة شمع كبيرة، وصعب عليّ التنفّس.

قال توبياس: "لقد ارتكبتَ كلّ الجرائم التي تستدعي الإعدام لدى جماعة الشجاعة. *لدينا* الحقّ بإعدامك، بموجب قوانين جماعتنا".

انحنى أمام ثلاثة بنادق موضوعة على الأرض بالقرب من قدميّ إريك. فأفرغ منها الرصاصات واحدة تلو الأخرى. جلجلت الرصاصات تقريباً وهي تسقط على الأرض، ثمّ تتدحرج، لتستقرّ عند قدميّ توبياس. ثمّ تناول المسدّس الأوسط، ووضع رصاصة في الفتحة الأولى.

بعد ذلك حرّك الأسلحة الثلاثة على الأرض تكراراً، إلى أن عجزت عن متابعة المسدّس الأوسط، ولم أعد أعرف أيّهما يحتوي على الرصاصة. حمل الأسلحة، وأعطى واحداً لتوري، والآخر لهاريسون.

حاولت التفكير بهجوم المحاكاة، وبما حلّ بنكران الذات. تخيّلت كلّ الأبرياء الممدّدين بلا حياة في الشوارع بملابسهم الرمادية. حتّى إنه لم يتبقَّ ما يكفي من أعضاء تلك الجماعة لدفن الجثث، التي ما زال

معظمها هناك على الأرجح. ما كان من الممكن لهذا أن يحدث لولا إريك.

فكّرت بصبيّ النـزاهة، الذي قتله بلا أيّ تردّد، وكيف سقط جامداً على الأرض بجانبـي.

قد لا نكون نحن من يجب أن نقرّر ما إذا كان ينبغي قتل إريك أم تركه يعيش. وربّما كان هو من قرّر ذلك عندما ارتكب كلّ هذه الفظاعات.

مع ذلك، ما زلت أجد صعوبة في التنفّس.

نظرت إليه بلا خبث، أو كراهية، أو خوف. لمعت الأقراط التي تزيّن وجهه، وسقطت خصلة شعر قذرة على عينيه.

قال: "مهلاً، لديّ طلب".

قالت توري: "نحن لا نمنح مطالب للمجرمين". كانت تقف على ساق واحدة، وذلك منذ بضع دقائق. بدت متعبة، وراغبة على الأرجح في الانتهاء من هذا الأمر لتجلس مجدّداً. بالنسبة إليها، لا يُعتبر هذا الإعدام سوى مصدر إزعاج.

قال: "أنا قائد الشجعان، وكلّ ما أريده هو أن يقوم فور بإطلاق تلك الرصاصة".

سأله توبياس: "*لماذا؟*"

أجاب إريك: "لكي تعيش مع شعور الذنب، لمعرفتك أنّك قمت باستغلالي، ثمّ أطلقتَ عليّ النار".

أظنّ أنّني فهمت. إنّه يحبّ رؤية الناس منكسرين، لطالما أراد ذلك، منذ أن ثبّت كاميرا في غرفة إعدامي حين أوشكت على الغرق، لا بل قبل ذلك بوقت طويل على الأرجح. وهو يظنّ أنّه إن قام توبياس بقتله، سيراه منكسراً قبل أن يموت.

يا له من مريض.

قال توبياس: "لن أشعر بالذنب بتاتاً".

ابتسم إريك مجدّداً: "إذاً لا مشكلة لديك".

تناول توبياس إحدى الرصاصات.

قال إريك بهدوء: "لطالما تساءلت، هل والدك هو الذي يظهر في كلّ مشاهد الخوف التي مررت بها؟"

وضع توبياس الرصاصة في فتحة فارغة من دون أن ينظر إليه.

"ألم يعجبك السؤال؟ هل تخشى أن يغيّر الشجعان رأيهم بك؟ وأن يدركوا أنّه على الرغم من أنّك لا تملك سوى أربعة مخاوف، لا تزال جباناً؟"

تصلّب في مقعده، ووضع يديه على ذراعي الكرسي.

رفع توبياس مسدّسه.

قال: "إريك، كن شجاعاً".

ثمّ ضغط على الزناد، وأغمضت عينيّ.

الفصل الرابع والعشرون

لون الدم غريب. فهو أدكن ممّا نتصوّر.

حدّقت إلى يد مارلين الملتفّة حول ذراعي. كانت أظافرها قصيرة ومتعرّجة، ما يعني أنّها تقضمها. دفعتني إلى الأمام، ولا بدّ أنّني كنت أمشي، لأنّني شعرت أنّني أتحرّك، لكن في عقلي، ما زلت واقفة أمام إريك وما زال هو على قيد الحياة.

مات مثل ويل تماماً. وتهاوى مثله تماماً.

تخيّلت أنّ إحساس الاختناق سيفارقني ما إن يموت، لكنّه لم يفعل. فكنت آخذ أنفاساً عميقة لأحصل على كفايتي من الهواء. ومن حسن الحظّ أنّ أحداً لم يسمعني بسبب الضوضاء من حولي. توجّهنا نحو الباب، وعلى رأسنا هاريسون، الذي حمل توري على ظهره كما لو كانت طفلة. فضحكَت، وأحاطت عنقه بذراعيها.

وضع توبياس يده على ظهري. عرفت ذلك لأنّني رأيته آتياً من خلفي ورأيته يفعل ذلك، وليس لأنّني شعرت بها. فأنا لا أشعر بشيء على الإطلاق.

فُتح الباب من الخارج، وكدنا أن ندهس جاك كانغ ومجموعة أعضاء النـزاهة التي تبعته إلى هنا.

سألَنا: "ماذا فعلتم؟ قيل لي للتوّ إنّ إريك ليس في زنـزانته".

قالت توري: "لقد قمنا بمحاكمته وإعدامه. عليك أن تشكرنا على ذلك".

"لماذا..." احمرّ وجه جاك. الدم هو أدكن لوناً من الاحمرار، مع أنّ أحدهما يتألّف من الآخر. "ولماذا أشكركم؟"

"لأنّك أردتَ إعدامه أنت أيضاً، أليس كذلك؟ لأنّه قتل أحد أطفالكم". أمالت توري رأسها ونظرت إليه ببراءة. "لقد تولّينا هذه المهمّة عنك. والآن، نستميحك عذراً، نحن راحلون".

سألها مذهولاً: "ما-*راحلون*؟"

إن رحلنا، سيكون عاجزاً عن تلبية مطلبين من مطالب ماكس الثلاثة، وقد أرعبته تلك الفكرة وبدّلت ملامح وجهه.

قال: "لا يمكنني أن أسمح لكم بذلك".

قال توبياس: "لا *تسمح* لنا بأيّ شيء. إن لم تتنحَّ جانباً، سنكون مجبرين على المرور من فوقك وليس من أمامك".

عبس جاك قائلاً: "ألم تأتوا إلى هنا بحثاً عن حلفاء؟ إن خرجتم، سنتحالف مع المعرفة، أعدكم بذلك، ولن نقف بجانبكم أبداً بعد الآن، أنتم-"

قالت توري: "نحن لسنا بحاجة إليكم، نحن شجعان".

أخذ الجميع يهتفون، بحيث مزّقت صرخاتهم الضباب المحيط بذهني. تقدّم الحشد بأكمله إلى الأمام، فابتعد أعضاء النـزاهة الواقفون في الممرّ بينما تدفّقنا مثل السيل، مثل نهر من الشجعان فاض لملء الفراغ.

أفلتت مارلين ذراعي. فهبطتُ السلالم مسرعة، في أعقاب الشجعان، متجاهلة وكزات المرافق والصيحات المتعالية من حولي. أحسست أنّني عدت مبتدئة، أنـزل سلالم مبنى المحور بعد حفل اختيار الجماعة. آلمتني ساقاي، لكن لابأس بذلك.

وصلنا إلى البهو. كانت بانتظارنا مجموعة من أبناء النـزاهة والمعرفة، بمن فيهم المرأة الجامحة الشقراء التي تمّ جرّها إلى المصعد من

شعرها، والفتاة التي ساعدتُها على الهرب، وكارا. وقفوا يشاهدون الشجعان وهم يمرّون من أمامهم، تعلو وجوههم نظرات العجز.

رأتني كارا، فأمسكت بذراعي وشدّتني إلى الخلف. "إلى أين أنتم ذاهبون؟"

"إلى مقرّ الشجاعة". حاولتُ أن أحرّر ذراعي، لكنّها لم تفلتني. لم أنظر إلى وجهها، فأنا لا أستطيع النظر إليها الآن.

قلت لها: "اذهبـي إلى جماعة الوئام، فقد وعدوا باستقبال من يرغب في اللجوء إليهم. لن تكوني بأمان هنا".

حرّرَت ذراعي، ودفعتني تقريباً وهي تفعل ذلك.

في الخارج، أحسست أنّ الأرض زلقة تحت حذائي، بينما راح كيس ملابسي يرتطم بظهري وأنا أبطئ من سرعتي وأهرول مع الشجعان. تساقط رذاذ المطر على ظهري ورأسي، وغاست قدماي في برك المياه، وابتلّ سروالي.

اشتممت رائحة الأرض الرطبة، وتظاهرت أنّ هذا كلّ ما يوجد حولي.

á á á

وقفت عند الدرابزين المشرف على الهاوية. ارتطمت المياه بالجدار الممتدّ تحتي، لكنّ الرذاذ لم يصل إلى حذائي.

على بعد مائة ياردة، وقف باد يمرّر بنادق الطلاء للشجعان، هو وشخص آخر. قريباً، ستتمّ تغطية زوايا مقرّ الشجاعة بالطلاء الملوّن لحجب عدسات كاميرات المراقبة.

قال زيك، وهو ينضمّ إليّ عند الدرابزين: "مرحباً، تريس". كانت عيناه حمراوين ومتورّمتين، لكنّ ابتسامة صغيرة ارتسمت على فمه.

"أهلاً، لقد نجحتَ في الوصول".

"أجل. انتظرنا إلى أن استقرّت حالة شونا، ثمّ جئنا بها إلى هنا". فرك إحدى عينيه بإبهامه. "لم أكن أرغب في تحريكها، لكنّها... لم تعد آمنة عند جماعة النـزاهة، كما تعلمين".

"كيف حالها؟"

"لا أدري. ستعيش، لكنّ الممرّضة تعتقد أنّ نصفها السفلي قد يصاب بالشلل. هذا الأمر لن يزعجني، لكن..." رفع أحد كتفيه متابعاً: "كيف ستنتمي إلى جماعة الشجاعة إن كانت عاجزة السير؟"

حدّقت إلى أرجاء القبو، وكان بعض الأطفال يلاحقون بعضهم البعض، وهم يرشّون الطلاء على الجدران. توقّف أحدهم، وأطلق على الجدار كرة طلاء أصفر.

فكّرت بما قاله لي توبياس، يوم أمضينا الليل مع المنبوذين، عن كبار السنّ من الشجعان الذين يغادرون الجماعة لأنّهم أصبحوا عاجزين جسدياً عن البقاء فيها. فكّرت أيضاً بأغنية جماعة النـزاهة التي تعتبرنا الجماعة الأكثر قسوة.

قلت: "بل يمكنها ذلك".

"تريس، لن تكون قادرة حتّى على التنقّل".

نظرت إليه قائلة: "بالتأكيد ستكون قادرة على ذلك. يمكنها الحصول على كرسي متحرّك، بينما يقوم شخص ما بدفعها في أروقة القبو، وثمّة مصعد في المبنى فوقنا". وأشرت إلى الأعلى. "ليست بحاجة إلى القدرة على السير لتنـزلق على السلك، أو لتطلق النار".

قال بغصّة: "لن ترغب في أن أدفعها، ولن تسمح لي بحملها".

"عليها أن تتجاوز هذا الأمر إذاً. هل ستسمح لها بالخروج من الجماعة لسبب سخيف مثل الشلل؟"

صمت زيك لبضع ثوان، ثمّ نظر إليّ مفكّراً كأنّه يقيس وزني وطولي.

بعد ذلك، استدار، ثمّ انحنى وأحاطني بذراعيه. مضى وقت طويل منذ أن احتضنني شخص ما، بحيث تصلّبت تماماً. غير أنّني استرخيت، وتركت تلك الحركة تبعث الدفء في جسدي المبتلّ.

قال مبتعداً: "أنا ذاهب لمساعدتهم، هل ترغبين في مرافقتي؟"

وافقت، ولحقت به عبر القبو. أعطى باد كلاًّ منّا بندقية، وقمت بتلقيمها. كان وزنها، وشكلها، والمادّة التي صنعت منها مختلفة تماماً عن المسدّس الذي لا أجد صعوبة في حمله.

قال باد: "لقد انتهينا تقريباً من طلاء القبو والطابق السفلي، وبقي المبنى الزجاجي".

"المبنى الزجاجي؟"

أشار باد إلى المبنى الزجاجي فوقنا. فخنقتني الغصّة عندما نظرت إلى الأعلى. آخر مرّة وقفت فيها في هذه البقعة وحدّقت إلى هذا السقف، كنت آتية في مهمّة لتدمير المحاكاة، وكنت مع أبـي.

راح زيك يصعد الممرّ المؤدّي إلى الأعلى، فأجبرت نفسي على اللحاق به، خطوة تلو الأخرى. كنت أمشي بصعوبة لأنّني أتنفّس بصعوبة، لكنّني تدبّرت أمري في النهاية. وعندما وصلت إلى السلّم، زال الضغط عن صدري تقريباً. ما إن وصلنا إلى المبنى الزجاجي، حتّى رفع زيك بندقيته، ووجّهها إلى إحدى الكاميرات قرب السقف. عندما ضغط على الزناد، انطلق الرذاذ الأخضر وحطّ على إحدى النوافذ، لكنّه لم يصب الكاميرا.

ضحكت ساخرة فقال: "حقّاً؟ لنرى ما إذا كنت ستصيبينها هذه المرّة".

"حسناً". رفعت بندقيتي على كتفي الأيسر عوضاً عن الأيمن. بدت البندقية غير مألوفة في يدي اليسرى، لكنّني كنت عاجزة عن حملها بيدي اليمنى. وجّهت الفوّهة إلى الكاميرا، ثمّ أغمضت إحدى عينيّ لأحدّق إلى العدسة. همس صوت في رأسي. *اشهقي وصوّبـي، ثمّ ازفري وأطلقي النار*. استغرقت بضع ثوان لأدرك أنّه صوت توبياس، لأنّه هو من علّمني الرماية. ضغطت على الزناد، وأصاب الطلاء الكاميرا، مغطّياً العدسة باللون الأزرق. "ما رأيك، وباليد اليسرى أيضاً".

تمتم زيك في سرّه كلاماً لا يبدو لطيفاً.

صاح صوت مرح: "مرحباً!" أطلّت مارلين من فوق الأرض الزجاجية. كان الطلاء قد لوّث جبينها ورسم لها حاجباً بنفسجياً. علت وجهها ابتسامة ماكرة وهو تصوّب على زيك، وتستهدف ساقه، ومن ثمّ عليّ. أصاب الطلاء ذراعي، وكان لاذعاً.

ضحكت مارلين، وانخفضت تحت الزجاج. نظرنا أنا وزيك إلى بعضنا، ثمّ لحقنا بها. ضحكت وهي تنـزل الأدراج، وتتسلّل بين حشد من الأطفال. أطلقت عليها، فأصبت الجدار. أمّا مارلين، فأصابت صبيّاً واقفاً بالقرب من الدرابزين. كان هيكتور، شقيق لين الأصغر. صُدم في البداية، ثمّ أطلق عليها النار بدوره، وأصاب شخصاً يقف بجوارها.

ملأت أصوات المفرقعات الهواء، بينما راح كلّ من في القبو يطلق كرات الطلاء على الآخر، صغاراً وكباراً، ونسوا أمر الكاميرات مؤقّتاً. نـزلت مسرعة على الدرج، وتعالى من حولي الضحك والصياح. تجمّعنا معاً لتشكيل فرق، ثمّ انقلبنا على بعضنا.

عند انتهاء المعركة، كانت ملابسي السوداء قد اختفت تحت بقع الألوان. فقرّرت الاحتفاظ بالقميص كتذكار للسبب الذي دفعني إلى

اختيار جماعة الشجاعة في الأساس: ليس لأنّهم كاملون، بل لأنّهم نابضون بالحياة، لأنّهم أحرار.

الفصل الخامس والعشرون

أغار أحدهم على مطابخ جماعة الشجاعة، وقام بتسخين الطعام المعلّب المحفوظ هناك، لنحصل على عشاء دافئ لتلك الليلة. جلست على الطاولة نفسها التي اعتدت الجلوس عليها مع كريستينا، وآل، وويل. منذ لحظة جلوسي، شعرت بكتلة في حلقي. كيف حدث أن خسرنا نصف عددنا؟

شعرت أنّني مسؤولة عن ذلك. فتسامحي كان لينقذ آل، لكنّني حجبته عنه. وكان لوعيي أن ينقذ ويل، لكنّني لم أستطع حشده.

قبل أن أستغرق أكثر في إحساسي بالذنب، وضع يوريا صينية طعامه بالقرب منّي، وكانت محمّلة بيخنة اللحم وكيك الشوكولاتة. حدّقت إلى كومة الكيك.

سألته وأنا أنظر إلى طبقي الذي كان أقلّ ازدحاماً من طبق يوريا: "هل كان يوجد كيك؟"

"أجل، ثمّة من أحضره للتوّ. فقد عثر على علبتين من الخليط الجاهز، فقام بخبزهما. يمكنك أخذ بضع قضمات من حصّتي".

"بضع قضمات؟ وهل تنوي أكل هذا الجبل بمفردك؟"

بدا مربكاً وهو يجيب: "أجل، لماذا؟"

"لا تهتمّ".

جلست كريستينا إلى الطاولة، أبعد ما يكون عنّي. وضع زيك صينيته بجانبها، ثمّ انضمّت إلينا لين، وهيكتور، ومارلين. لمحت حركة تحت الطاولة، ثمّ رأيت يد مارلين تمسك بيد يوريا فوق ركبته. وتشابكت أصابعهما. كانا يحاولان أن يبدوا عاديين، لكنّهما ظلاّ يسترقان النظرات إلى بعضهما البعض.

إلى جانب مارلين، بدت لين كما لو أنّها تذوّقت شيئاً حامضاً. وراحت تقحم الطعام في فمها.

سألها يوريا: "ماذا يجري؟ ستتقيّأين طعامك إن واصلت الأكل بهذه السرعة".

أجابته لين عابسة: "سأتقيّأ على أيّ حال إن واصلتما تبادل النظرات طوال الوقت".

احمرّت أذنا يوريا. "عمّ تتحدّثين؟"

"أنا لست حمقاء، ولا أحد أحمق هنا. لذا، لماذا لا تحبّان بعضكما علناً".

بدا يوريا مصعوقاً. أمّا مارلين، فرمقت لين، ثمّ انحنى وعانقت يوريا.

لاحظتُ أنّ حبّات البازيلاء التي كانت في طريقها إلى فمي سقطت عن الشوكة.

حملت لين صينيتها وغادرت الطاولة.

سأل زيك: "ما الذي يجري؟"

قال هيكتور: "لا تسألني، فهي دائمة الغضب من شيء ما، بحيث توقّفتُ عن محاولة تتبّع الأسباب".

كان يوريا ومارلين ما زالا ينظران إلى بعضهما ويبتسمان.

أجبرت نفسي على النظر إلى طبقي. من الغريب جدّاً أن ترى شخصين تعرّفتَ عليهما على نحو منفصل يجتمعان معاً، مع أنّني رأيت هذا يحدث من قبل. سمعت صريراً صادراً عن شوكة كريستينا وهي تخدش الطبق.

هتف زيك وقد بدا عليه الارتياح: "فور! تعال، ثمّة مكان لك".

وضع توبياس يده على كتفي السليم، ولاحظتُ شقوقاً على عُقد أصابعه، التي كانت ملوّثة بدماء حديثة. قال: "آسف، لا يمكنني البقاء".

انحنى نحوي، وقال: "هل يمكنك المجيء قليلاً؟"

نهضت، ولوّحت مودّعة لمن كان يعيرني انتباهاً، أي زيك وحسب، لأنّ كريستينا وهيكتور ما زالا يحدّقان إلى طعامهما، ويوريا ومارلين يتكلّمان بصوت منخفض. خرجنا أنا وتوبياس من الكافتيريا.

"إلى أين نحن ذاهبان؟"

أجاب: "إلى القطار. لديّ اجتماع، وأريد منك المساعدة على قراءة الوضع".

صعدنا أحد الممرّات الممتدّة على جدران القبو، وصولاً إلى السلالم المؤدّية إلى المبنى الزجاجي.

"لماذا تريد منّي-"

"لأنّك أفضل منّي بذلك".

لم أستطع أن أجيبه. صعدنا الأدراج وعبرنا الأرضية الزجاجية. في طريقنا إلى الخارج، مررنا من خلال الغرفة المظلمة التي واجهت فيها مشهد الخوف الخاصّ بـي. واضح من الإبرة الملقاة على الأرض أنّ أحدهم كان هنا مؤخّراً.

سألته: "هل دخلتَ اليوم مشهد الخوف؟"

"ما الذي جعلك تقولين ذلك؟" تركّزت نظراته الداكنة على عينيّ، وهو يدفع الباب الأمامي، ليغلّفني هواء الصيف. كانت الرياح هادئة.

"أصابعك مجروحة، وثمّة من كان يستخدم تلك الغرفة".

"هذا ما عنيتُه بالضبط. ملاحظتك أقوى بكثير من ملاحظة معظمنا". نظر إلى ساعته متابعاً: "قالوا لي أن أستقلّ قطار الساعة 8: 05. هيّا بنا".

شعرتُ ببصيص أمل. قد لن نتجادل هذه المرّة، وربّما تتحسّن علاقتنا أخيراً.

مشينا على السكّة. آخر مرّة قمنا بذلك، أراد أن يريني أنّ مصابيح المعرفة تبقى مضاءة في الليل، وأن يخبرني أنّهم يخطّطون للهجوم على نكران الذات. والآن، أشعر أنّنا ذاهبون للاجتماع مع المنبوذين.

قلت: "ملاحظتي قوية بما فيه الكفاية لأدرك أنّك تتهرّب من السؤال".

تنهّد مجيباً: "أجل، لقد دخلت مشهد الخوف. أردت أن أرى ما إذا كان قد تغيّر".

"وقد تغيّر، أليس كذلك؟"

أبعد خصلة شعر عن وجهه، وتجنّب نظراتي. لم أكن أعلم أنّ شعره كثيف إلى هذا الحدّ، ومن الصعب معرفة ذلك عندما يكون قصيراً مثل شعر نكران الذات. أمّا الآن، فقد أصبح بطول إنشين، وصار يتدلّى فوق جبينه. أصبح الآن يبدو أقلّ تهديداً، وأقرب إلى الشخص الذي صرت أعرفه.

قال: "أجل، لكنّ العدد ما زال نفسه".

انطلقت صفّارة القطار إلى يساري، لكنّ المصباح المثبّت على المقطورة الأولى لم يكن مضاءً. عوضاً عن ذلك، انـزلق على سكّته كما لو كان شيئاً خفياً.

صاح: "المقطورة الخامسة في الخلف!"

أخذنا نركض معاً. وجدت المقطورة الخامسة، وأمسكت بقبضة الباب بيدي اليسرى، ثمّ سحبت بأقصى قوّتي. حاولت أن أؤرجح ساقيّ إلى الداخل، لكنّني لم أنجح تماماً. بل تدلّت ساقاي بالقرب من العجلات، فصرخت، واحتكّت ركبتي بالأرض وأنا أدفع بنفسي إلى الداخل.

دخل توبياس بعدي وركع بجانبـي، بينما أمسكت بركبتي وشددت على أسناني متألّمة.

قال: "دعيني أرى". رفع سروالي إلى الأعلى، فوق ركبتي. تركت أصابعه خطوطاً باردة على بشرتي، غير مرئية بالعين، وفكّرت أنّ أسرارنا خلّفت مسافة بيننا.

كانت ركبتي حمراء من أثر الدم. قال: "الجرح سطحي، سيشفى بسرعة".

أومأت برأسي موافقة، إذ كان الألم قد بدأ يزول. تمدّدت على ظهري، وحدّقت إلى السقف.

سألته: "إذاً، هل ما زال موجوداً في مشهد الخوف؟"

بدا كما لو أنّ أحدّهم أشعل عود كبريت خلف عينيه. "أجل، لكن ليس بالطريقة نفسها".

قال لي مرّة إنّ مشهد خوفه لم يتغيّر منذ أن دخله للمرّة الأولى خلال فترة التلقين. هذا يعني أنّ أقلّ تغيير يعدّ حدثاً هامّاً.

عبس وهو ينظر إلى يديه متابعاً: "لكنّك كنت فيه. وعوضاً عن اضطراري لقتل تلك المرأة، كما يحدث عادة، شاهدتك وأنت تموتين، ولم يكن بيدي حيلة لأمنع ذلك".

كانت يداه ترتجفان. حاولت التفكير بالتخفيف عنه، كأن أقول: لن أموت، لكنّني لست واثقة من ذلك. فنحن نعيش في عالم محفوف بالمخاطر، وأنا لست متعلّقة بالحياة إلى حدّ يدفعني إلى فعل أيّ شيء للبقاء. لا يمكنني طمأنته.

نظر إلى ساعته. "سيصلون في أيّ لحظة".

نهضت، ورأيت إيفلين وإدوارد واقفَين بالقرب من السكّة. ركضا قبل أن يفوتهما القطار، وقفزا إلى الداخل، بسهولة مثل توبياس تقريباً. لا بدّ أنّهما كانا يتمرّنان.

ابتسم لي إدوارد. ظهر اليوم على رقعة عينه حرف "X" أزرق كبير مطرّز عليها.

قالت إيفلين: "مرحباً". لم تنظر سوى إلى توبياس، كما لو أنّني لست موجودة حتّى.

قال توبياس: "يا له من مكان جميل للقاء". كان الظلام قد خيّم الآن، ولم أرَ سوى ظلال المباني تحت سماء كحلية، فضلاً عن بضع مصابيح تتوهّج بالقرب من البحيرة وتنتمي على الأرجح إلى مقرّ المعرفة.

انعطف القطار باتّجاه غير معهود، إلى اليسار بعيداً عن أضواء المعرفة، نحو الجزء المهجور من المدينة. عرفتُ أنّ سرعته تتباطأ نظراً إلى انخفاض الضوضاء الصادرة عنه.

قالت إيفلين: "بدا لي المكان هنا أكثر أماناً. إذاً، ما سبب الاجتماع".

"أودّ أن أبحث معكم موضوع إقامة حلف".

كرّر إدوارد: "حلف، ومن منحك السلطة لفعل ذلك؟"

قلت: "إنّه أحد زعماء الشجاعة، ولديه السلطة".

رفع إدوارد حاجبيه وبدا عليه الإعجاب. تحوّلت نظرات إيفلين أخيراً نحوي، لكن لمجرّد ثانية واحدة، قبل أن تمنح توبياس ابتسامتها مجدّداً.

قالت: "هذا مثير للاهتمام. وهل هي أيضاً من القادة؟"

قال: "كلاّ، لقد حضرت لمساعدتي على اتّخاذ قرار بشأن منحكم ثقتي أم لا".

زمّت إيفلين شفتيها. شعرت برغبة في رفع رأسي بشموخ وقول: "ها!" لكنّني اكتفيت بابتسامة صغيرة.

قالت إيفلين: "سنوافق بالتأكيد على إقامة حلف... لكن بشروط. نريد مكاناً مضموناً، ومساوياً، في أيّ حكومة تتشكّل بعد دمار جماعة

المعرفة، والسيطرة الكاملة على بيانات المعرفة بعد الهجوم. من البديهي-"

قاطعتُها قائلة: "ماذا ستفعلون ببيانات المعرفة؟"

"سندمّرها بالطبع. فالطريقة الوحيدة لحرمان المعرفة من السلطة هي بحرمانها من علومها".

للوهلة الأولى، أردت أن أقول لها إنّ هذا غباء. غير أنّ شيئاً ما منعني. فلولا تكنولوجيا المحاكاة، والبيانات التي تملكها المعرفة عن الجماعات الأخرى، ولولا تركيزها على التقدّم التكنولوجي، لما وقع الهجوم على نكران الذات، ولما خسرتُ أهلي.

حتّى لو تمكّنا من قتل جانين، هل يمكننا الوثوق أنّ المعرفة لن تشنّ هجوماً آخر وتسيطر علينا مجدّداً؟ لا أظنّ ذلك.

سألها توبياس: "وما الذي سنحصل عليه بالمقابل، تحت هذه الشروط؟"

"قوّتنا البشرية التي أنتم بأمسّ الحاجة إليها للسيطرة على مقرّ المعرفة، فضلاً عن حصّة مساوية لنا في الحكم".

قال توبياس بصوت منخفض: "أنا واثق أنّ توري ستطالب هي أيضاً بحقّ تخليص العالم من جانين ماثيوس".

رفعتُ حاجبيّ استغراباً. لم أكن أعرف أنّ كره توري لجانين معروف بين الجميع. ربّما هو ليس كذلك، وربّما كان توبياس يعرف عنها أموراً يجهلها الآخرون بعدما أصبحا من الزعماء.

أجابت إيفلين: "أنا واثقة أنّنا نستطيع ترتيب ذلك. لا يهمّني من يقتلها، كلّ ما أريده هو رؤيتها ميتة".

نظر إليّ توبياس. أتمنّى لو أستطيع إخباره لماذا أشعر بهذا الصراع... ولماذا أنا، من بين كلّ الناس، لديّ تحفّظات حيال تدمير جماعة

المعرفة عن بكرة أبيها، كما يقولون. لكنّني لا أدري كيف أقول ذلك حتّى لو كنّا نملك الوقت. التفتَ إلى إيفلين.

قال: "اتّفقنا إذاً".

مدّ يده، وتصافحا.

قالت: "علينا الاجتماع بعد أسبوع في أرض محايدة. معظم أعضاء نكران الذات وافقوا بكلّ لطف على السماح لنا بالمكوث في قطاعهم من المدينة للتخطيط بينما يزيلون الخراب الذي خلّفه الهجوم".

قال: "معظمهم".

اختفى أثر الابتسام عن وجه إيفلين. "أخشى أنّ أباك ما زال يتحكّم بولاء كثير منهم، وقد أوصاهم بتجنّبنا عندما أتى في زيارة قبل بضعة أيّام". ابتسمت بمرارة مضيفة: "وقد وافقوا، تماماً كما فعلوا عندما أقنعهم بنفيي".

قال توبياس: "نفيك؟ ظننت أنّك *رحلتِ*".

"كلاّ. فنكران الذات تميل إلى الغفران والمصالحة، كما تتوقّع. لكنّ أباك يمارس تأثيراً كبيراً عليهم، ولطالما فعل. فقرّرت الرحيل عوضاً عن مواجهة ذلّ النفي العلني".

بدا توبياس مذهولاً.

قال إدوارد، الذي كان يميل نحو الخارج عند باب المقطورة منذ بضع ثوان: "لقد حان الوقت!"

قالت إيفلين: "أراك بعد أسبوع".

مع انخفاض القطار إلى مستوى الشارع، قفز منه إدوارد. وبعد بضع ثوان، لحقت به إيفلين. بقينا أنا وتوبياس في القطار، نصغي إلى هسيسه على السكّة، من دون أن نتكلّم.

قلت له: "لماذا أحضرتني ما دمت ستتحالف معهم على أيّ حال؟"

"لكنّك لم تمنعيني".

عبست مجيبة: "وماذا كان يفترض بـي أن أفعل، ألوّح بيديّ في الهواء؟ هذا الاتّفاق لم يعجبني".

"إنّنا مجبرون".

"لا أظنّ ذلك، لا بدّ من وجود طريقة أخرى".

كتف ذراعيه متسائلاً: "وما هي؟ أنت لا تحبّينها وحسب. لم تعجبك منذ أوّل لقاء لكما".

"من الطبيعي ألاّ أحبّها! لقد هجرتك!"

"بل *نفوها*. وإن قرّرت أن أسامحها، يجدر بك أن تحاولي أنت أيضاً! فأنا من تُرك وحيداً، وليس أنت".

"الأمر يتعدّى ذلك. فأنا لا أثق بها، بل أظنّ أنّها تحاول استغلالك".

"حسناً، ليس أنت من يقرّر".

أجبته وأنا أطوي ذراعيّ مثله: "لماذا أحضرتني إذاً؟ آه، صحيح، لكي أقرأ لك الوضع. حسناً، لقد قرأتُه، وإن كان قراري لا يعجبك، هذا لا يعني-"

"نسيت أنّ تحيّزك يؤثّر على صحّة حكمك. لو تذكّرت ذلك، ربّما لما أحضرتك".

"تحيّزي؟ وماذا عن تحيّزك؟ ماذا عن اعتقادك أنّ كلّ من يكره أباك بقدر ما تكرهه هو حليف لك؟"

"لا علاقة له بذلك!"

"بلى! إنّه يعرف أموراً، توبياس، وعلينا اكتشافها".

"هل سنعود إلى هذا مجدّداً؟ ظننت أنّنا حللنا هذه المسألة. إنّه كاذب، تريس".

رفعت حاجبيّ. "حقّاً؟ وكذلك أمّك. هل تظنّ أنّ نكران الذات يقدمون فعلاً على نفي أحدهم؟ أنا لا أظنّ ذلك".

"لا تتحدّثي عن أمّي بهذه الطريقة".

رأيت ضوءاً يقترب. كان صادراً عن المبنى الزجاجي.

"حسناً". اقتربت من باب المقطورة. "لن أفعل".

قفزت من القطار، وركضت بضع خطوات لأستعيد توازني. قفز توبياس من بعدي، لكنّني لم أمنحه فرصة اللحاق بـي، بل توجّهت مباشرة إلى المبنى، ونـزلت السلّم عائدة إلى القبو، لأجد مكاناً أنام فيه.

الفصل السادس والعشرون

شعرت بشيء يهزّني ويوقظني.

"تريس! انهضي!"

سمعت صرخة. لم أسأل، بل أنـزلت قدميّ عن السرير وتركت اليد التي أيقظتني تشدّني نحو الباب. كنت حافية، والأرض غير مستوية، بحيث خدشت أصابع قدميّ وعقبيّ. نظرت أمامي لأعرف من الذي يجرّني. كانت كريستينا تشدّ ذراعي اليسرى، وتوشك اقتلاعها.

سألتها: "ماذا حدث؟ ماذا يجري؟"

"اصمتي واركضي!"

ركضنا إلى القبو، وتبعنا هدير النهر عبر الممرّات. آخر مرّة سحبتني فيها كريستينا من السرير كانت لرؤية جثّة آل وهي تُرفع من النهر. توتّر فكّي وأنا أحاول عدم التفكير بذلك. لا يمكن أن يكون هذا الأمر قد حدث مجدّداً. مستحيل.

شهقتُ ونحن نركض فوق الأرض الزجاجية، محاولة مجاراتها. ضغطت كريستينا على زرّ أحد المصاعد، وانـزلقت إلى الداخل قبل أن يُفتح الباب تماماً، وجرّتني خلفها، ثمّ ضغطت بعنف على زرّ إغلاق الباب، وعلى زرّ الطابق الأعلى.

قالت: "محاكاة. ثمّة محاكاة. لكنّها لم تؤثّر على الجميع، بل مجرّد... مجرّد عدد قليل".

وضعت يديها على ركبتيها وراحت تأخذ أنفاساً عميقة.

قالت: "قال أحدهم شيئاً عن الجامحين".

سألتها: "ماذا قال؟ أهو تحت تأثير المحاكاة؟"

هزّت رأسها إلى الأسفل. "كانت مارلين، مع أنّها بدت شخصاً آخر. كان صوتها... رتيباً جدّاً".

فُتح الباب، وتبعتها عبر الممرّ إلى باب كُتب عليه *باب السطح*.
سألتها: "كريستينا، لماذا نحن ذاهبون إلى السطح؟"
لم تجبني. كانت رائحة السلّم المؤدّي إلى السطح شبيهة برائحة الطلاء القديم. اكتست الجدران الإسمنتية بخربشات سوداء لأعضاء الجماعة. كان بينها رمز الشجاعة، فضلاً عن الأحرف الأولى التي كُتبت مع علامة زائد: ر.ج + ن.ت، ب.ر + ف.ه. ربّما أصبح أولئك العشّاق عجائز الآن، وربّما انفصلوا. وضعت يدي على صدري لأتحسّس نبضي. كان سريعاً جدّاً، حتّى إنّني تعجّبت من قدرتي على التنفّس.
كان هواء الليل بارداً بحيث سرت قشعريرة في ذراعيّ. بعد أن اعتادت عيناي على الظلام، رأيت ثلاثة أشخاص يقفون على الحافّة، في مواجهتي. إحداهم هي مارلين، والثاني هيكتور، والثالث شخصاً لا أعرفه. كانت فتاة صغيرة من الشجاعة، بالكاد تجاوزت الثامنة من عمرها، تتخلّل شعرها خصلة خضراء.
وقفوا ساكنين على الحافة، مع أنّ الرياح كانت تهبّ بعنف على شعرهم، وجبهاتهم، وفي أعينهم وأفواههم. تطايرت ملابسهم في الهواء، لكنّهم ظلّوا بلا حراك.
قالت كريستينا: "انـزلوا عن الحافّة فوراً، ولا ترتكبوا الحماقات. هيّا، حالاً..."
قلت لها بهدوء وأنا أقترب منهم: "لا يمكنهم سماعك أو رؤيتك".
"علينا أن نقفز عليهم في وقت واحد. أنا أتولّى هيكتور، وأنت-"
"قد نتسبّب بسقوطهم عن السطح إن فعلنا ذلك. قفي بجانب الفتاة، احتياطاً".
كانت صغيرة جدّاً على ذلك، غير أنّني لم أجرؤ على المجاهرة بأفكاري، لأنّ هذا يعني أنّ مارلين كبيرة بما فيه الكفاية".

حدّقت إلى مارلين، التي كانت عيناها خاليتين من التعابير، مثل أحجار ملوّنة، مثل كرتين من الزجاج. شعرت أنّ تلك الأحجار تسقط عبر حلقي وتستقرّ في معدتي، وتشدّني إلى الأرض. لا يمكن إنـزالها عن تلك الحافة.

أخيراً فتحت فمها وتكلّمت.

قالت: "لديّ رسالة للجامحين". بدا صوتها رتيباً. فالمحاكاة تستخدم أوتارها الصوتية، لكنّها تجرّدها من تقلّبات العاطفة البشرية.

انتقل نظري من مارلين إلى هيكتور. هيكتور الذي خاف منّي بسبب ما قالته أمّه عنّي. ما زالت لين على الأرجح عند سرير شونا، تأمّل أن تستعيد شقيقتها قدرتها على السير عندما تستيقظ مجدّداً. لا يمكن أن تخسر هيكتور الآن.

اقتربت لأتلقّى الرسالة.

قالت المحاكاة عبر شفتيّ مارلين: "هذه ليست مفاوضات، بل إنذار. حتّى يقوم أحدكم بتسليم نفسه إلى مقرّ المعرفة، سيتكرّر هذا كلّ يومين".

هذا.

تراجعت مارلين إلى الخلف، فرميت نفسي إلى الأمام، لكن ليس عليها. ليس على مارلين، التي سمحت مرّة ليوريا بإطلاق النار على قطعة مافين موضوعة على رأسها في تحدٍّ بينهما، والتي أحضرت لي ملابس لارتدائها، وحيّتني دوماً بابتسامة. كلاّ، ليس على مارلين.

بينما تراجعت مارلين والفتاة الأخرى إلى الخلف للسقوط عن السطح، رميت نفسي على هيكتور.

أمسكت بما استطاعت يداي إيجاده. ذراع، قبضة من قميصه. خدَش السطح ركبتيّ، بينما أخذ ثقله يجرّني إلى الأمام. لم أكن قوية بما فيه الكفاية لرفعه، فهمست: "النجدة" لأنّني لم أستطع رفع صوتي أكثر.

كانت كريستينا قد أصبحت بالقرب منّي. فساعدتني على رفع جسد هيكتور المتراخي إلى السطح مجدّداً. سقطت ذراعاه على الأرض. وعلى بعد خطوات، استلقت الفتاة الصغيرة على ظهرها على السطح.

فجأة، انتهت المحاكاة. فتح هيكتور عينيه، اللتين لم تعودا فارغتين.

قال: "أوه، ماذا يجري؟"

بدأت الفتاة الصغيرة تبكي، فتوجّهت كريستينا إليها وراحت تتمتم بكلمات مطمئنة.

وقفت، وأخذ جسدي يرتجف بأكمله. اقتربت من حافة السطح، وحدّقت إلى الأرض. لم تكن إضاءة الشارع قوية، لكنّني رأيت جسد مارلين الباهت ممدّداً على الرصيف.

تنفَّسي - لكن من يكترث؟

أشحت بوجهي، وسمعت قلبي وهو ينبض في أذنيّ.

رأيت فم كريستينا يتحرّك، غير أنّني تجاهلتها، وتوجّهت إلى الباب، ثمّ نـزلت السلّم، وعبرت الممرّ، وصولاً إلى المصعد.

أُغلق الباب، وبينما كنت أهبط، تماماً مثل مارلين بعدما قرّرتُ عدم إنقاذها، رحت أصرخ وأشدّ ملابسي بيديّ. بعد بضع ثوانٍ، أصبح حلقي خشناً، ورأيت خدوشاً على يديّ في الأماكن غير المغطّاة بالقميص، لكنّني واصلت الصراخ.

توقّف المصعد مطلقاً رنّة، وفُتح الباب. فسوّيت قميصي، وشعري، وخرجت.

لديّ رسالة للجامحين.

أنا جامحة.

هذه ليست مفاوضات.

لا، ليست كذلك.

بل إنذار.

فهمت.

حتّى يقوم أحدكم بتسليم نفسه إلى مقرّ المعرفة...

أنا سأفعل.

... سيتكرّر هذا كلّ يومين.

لن يتكرّر أبداً.

الفصل السابع والعشرون

مشيت بين الحشد المجتمع قرب النهر. كان الضجيج عالياً في القبو، وليس ناتجاً فقط عن خرير المياه. أردت إيجاد بعض الهدوء، فهربت إلى الرواق المؤدّي إلى عنابر النوم. لم أشأ أن أسمع الخطاب الذي ستلقيه توري عن مارلين، أو الاحتفال مع الشجعان بحياتها وشجاعتها.

هذا الصباح، أبلغتنا لورين أنّه فاتنا طلاء بعض الكاميرات في عنبر المبتدئين الذي كانت تنام فيه كريستينا، وزيك، ولورين، ومارلين، وهيكتور، وكي، الفتاة ذات الشعر الأخضر. هكذا عرفت جانين على من تؤثّر المحاكاة. ولا شكّ لديّ أنها اختارت صغار السنّ لأنّها تعرف أنّ وفاتهم ستؤثّر فينا أكثر.

توقّفتُ في رواق غير مألوف، وضغطتُ جبيني على الجدار، الذي بدا خشناً وبارداً على بشرتي. كنت أسمع الشجعان وهم يهتفون خلفي، تكتم أصواتهم طبقات الصخر.

سمعت أحدهم يقترب، فالتفتّ نحوه. وقفت كريستينا على بعد خطوات، مرتدية ملابس الليلة الفائتة.

قالت: "مرحباً".

"لست في مزاج للإحساس بمزيد من الذنب في هذه اللحظة. لذا، ارحلي رجاءً".

"أودّ أوّلاً قول شيء واحد".

كانت عيناها متورّمتين، وبدا صوتها بطيئاً بعض الشيء، إمّا بسبب الإجهاد، أو بعض الشراب، أو كليهما. غير أنّ نظرتها كانت مباشرة بما فيه الكفاية ليبدو أنها تعرف ما تقول. فابتعدتُ عن الجدار.

"لم يسبق لي أن رأيت أحداً تحت تأثير المحاكاة، أقصد من الخارج. لكن البارحة..." هزّت رأسها متابعة: "أنت على حقّ. لا يمكنهم أن يسمعوا أو يروا، تماماً مثل ويل..."

خنقتها الغصّة عندما ذكرت اسمه. فصمتت، وأخذت نفساً، ثمّ ازدردت ريقها. رفّت جفنيها بضع مرّات، ثمّ نظرت إليّ مجدّداً.

"أخبرتِني أنّك كنت مضطرّة إلى ذلك، وإلاّ لقتلك، ولم أصدّق. غير أنّي أصدّقك الآن، و... سأحاول مسامحتك. هذا... ما أردت قوله".

شعرت إلى حدّ ما بالارتياح. فهي تصدّقني، وستحاول مسامحتي، مع أنّ هذا الأمر لن يكون سهلاً.

غير أنّ الجزء الأكبر منّي شعر بالغضب. فما الذي كانت تظنّه من قبل؟ أنّني *أردت* قتل ويل، أحد أعزّ أصدقائي. كان يجب أن تثق بـي منذ البداية وأن تدرك أنّني ما كنت لأقدم على هذا العمل لو أتيح لي خيار آخر في ذلك الوقت.

"كم أنا محظوظة لأنّك حصلت أخيراً على *دليل* على عدم كوني قاتلة بدم بارد، دليل غير كلامي. أعني، أيّ سبب يدفعك لتثقي بـي؟" أجبرت نفسي على الضحك، محاولة أن أبدو غير مهتمّة. همّت بالكلام، لكنّني واصلتُ الحديث، ولم أستطع منع نفسي. "من الأفضل لك أن تسارعي إلى محاولة مسامحتي، لأنّ الوقت ضيّق-"

تهدّج صوتي، ولم أستطع أن أضبط أعصابـي أكثر. فبدأت أشهق، واستندت إلى الجدار طلباً للدعم، ثمّ شعرت أنّني أنـزلق بعدما خانتني ساقاي.

أعمتني دموعي، لكنّني شعرت بها وهي تحيطني بذراعيها وتشدّ بقوّة آلمتني. كانت تفوح منها رائحة جوز الهند، وبدت قوية، تماماً مثلما كانت خلال التدريب، عندما تدلّت بجسدها فوق النهر متشبّثة برؤوس

أصابعها. في ذلك الوقت، وهو ليس ببعيد، جعلتني أشعر أنّني ضعيفة. لكنّ قوّتها تشعرني الآن أنّني أستطيع أن أكون أقوى.

ركعنا معاً على الأرض، وعانقتها بقوّة مماثلة.

قالت: "سبق وفعلت. هذا ما عنيته، أنّني سبق وسامحت".

á á á

صمت كلّ الشجعان عندما دخلت إلى الكافتيريا تلك الليلة، ولا ألومهم على ذلك. فبصفتي جامحة، لديّ القدرة على ترك جانين تقتل أحدهم. معظمهم يريد على الأرجح أن أضحّي بنفسي، ويخشون ألاّ أفعل.

لو كنّا في جماعة نكران الذات، لن يكون ثمّة جامح واحد جالس هنا في هذه اللحظة.

لبرهة، لم أعرف إلى أين أذهب. أخيراً، لوّح لي زيك من طاولته، وبدا كئيباً، فتوجّهت نحوه. لكن قبل أن أصل، اقتربت منّي لين.

كانت مختلفة عن تلك التي عرفتها دوماً. لم أجد نظرة شرسة في عينيها، بل كانت شاحبة، تعضّ على شفتها لمنع نفسها من البكاء. نظرت يميناً، ثمّ يساراً، متجنّبة وجهي. همهمت، ثمّ قالت أخيراً: "حقّاً... أنا أفتقد مارلين. فقد عرفتها منذ مدّة طويلة، و..." هزّت رأسها. "ما أودّ قوله، هو أنّني لا أظنّ أنّ ما سأقوله يقلّل من قيمة مارلين عندي"، قالت ذلك كما لو أنّها توبّخني، ثمّ تابعت: "لكن... شكراً لك على إنقاذ هيكتور".

نقلت لين ثقلها من قدم إلى أخرى، وجال نظرها حول الغرفة. بعد ذلك، عانقتني بذراع واحدة، وشدّت بيدها على قميصي. ومع أنّ كتفي آلمني جدّاً، غير أنّني لم أقل شيئاً.

أفلتتني أخيراً، ثمّ عادت إلى طاولتها كأنّ شيئاً لم يكن. حدّقتُ إليها لبضع ثوان وهي تبتعد، ثمّ جلست.

جلس زيك ويوريا جنباً إلى جنب على طاولة خالية. كان وجه يوريا متراخياً، كمن استيقظ للتوّ. وضع أمامه زجاجة شراب، وراح يرتشف منها كلّ بضع ثوان.

التزمت جانب الحذر وأنا بقربه. فقد أنقذت هيك، ما يعني أنّني فشلت في إنقاذ مارلين. لكنّ يوريا لم ينظر إليّ. سحبت كرسياً موضوعاً أمامه وجلست على طرفه.

سألت: "أين شونا، أما زالت في المستشفى؟"

قال زيك، مشيراً إلى الطاولة التي عادت إليها لين: "كلاّ، إنّها هناك". رأيتها جالسة على كرسي متحرّك. بدت شاحبة، لا بل شفّافة تقريباً. "لم يكن يجدر بشونا النهوض من السرير، لكنّ لين كانت في حالة يرثى لها، فقرّرَت البقاء بصحبتها".

قال يوريا بتكاسل: "لكن إن كنتِ تتساءلين لماذا تجلسان هناك... اعلمي أنّ شونا اكتشفت أنّني جامح، وقطعت علاقتها بـي".

"آه".

قال زيك متنهّداً: "لقد تصرّفت بغرابة معي أنا أيضاً. *كيف تعلم أنّ أخاك لا يعمل ضدّنا؟ وهل كنت تراقبه؟* أنا مستعدّ لدفع ثروة لكي أضرب من سمّم عقلها".

قال يوريا: "لستَ مضطرّاً لدفع شيء. أمّها جالسة هناك، اذهب واضربها".

تبعتُ نظراته، إلى أن رأيت امرأة متوسّطة السنّ، تتخلّل شعرها خصل زرقاء، وتحيط الأقراط بكامل أذنها. كانت جميلة، تماماً مثل لين.

دخل توبياس الغرفة بعد برهة، تتبعه توري وهاريسون. كنت أتجنّبه طوال الوقت، ولم أتحدّث معه منذ الشجار الذي وقع بيننا قبل حادثة مارلين...

قال توبياس بصوت منخفض وأجش، عندما أصبح قريباً بما فيه الكفاية لأسمعه: "مرحباً، تريس". حملني صوته إلى أماكن هادئة.

"أهلاً". كان صوتي متوتّراً بعض الشيء، كأنّه لا ينتمي إليّ.

جلس بقربـي، ووضع ذراعه على ظهر مقعدي، ثمّ مال نحوي. لم أبادله النظر، فأنا أرفض مبادلته النظر.

بادلته النظر.

كانت عيناه قاتمتان، يطغى عليهما لون كحلي غريب قادر بشكل من الأشكال على عزل بقيّة الموجودين، وعلى مواساتي، وتذكيري أنّنا بعيدان عن بعضنا أكثر ممّا أريد.

سألته: "ألن تسألني ما إذا كنتُ بخير؟"

هزّ رأسه نافياً وقال: "كلاّ، فأنا واثق أنّك لستِ بخير. سأسألك ألاّ تتّخذي أيّ قرارات قبل أن نناقشها معاً".

فكّرت، *لقد فات الأوان، والقرار اتُّخذ.*

قال يوريا: "أنت تعني، قبل أن نناقشها معاً، لأنّنا كلّنا معنيّون. لا أظنّ أنّه يجدر بأحد تسليم نفسه".

قلت: "لا أحد؟"

أجاب يوريا عابساً: "لا! أظنّ أنّه يجدر بنا أن نردّ الهجوم".

قلت بحدّة: "أجل، لنقم باستفزاز المرأة القادرة على إجبار نصف الموجودين في هذا المجمّع على الانتحار. يا لها من فكرة عظيمة".

كان جوابـي لاذعاً جدّاً. أفرغ يوريا محتويات الزجاجة في فمه، ثمّ وضعها بقوّة على الطاولة بحيث خشيت أن تتحطّم.

قال مزمجراً: "لا تتحدّثي عن الموضوع بهذا الشكل".

"أنا آسفة، لكنّك تعرف أنّني على حقّ. أفضل طريقة لنضمن عدم موت نصف جماعتنا هي التضحية بحياة واحدة".

لم أعرف ماذا كنت أتوقّع. ربّما أن يتطوّع يوريا، الذي يعرف جيّداً ماذا سيحدث إن لم يذهب أحدنا. غير أنّه نظر إلى الأسفل، كارهاً.

قال توبياس: "قرّرنا أنا، وتوري، وهاريسون زيادة التدابير الأمنية. نحن نأمل، إن قمنا بتوعية الجميع حيال هذه الهجمات، أن نتمكّن من إيقافها. إن لم ينجح الأمر، سنفكّر بحلّ آخر. انتهى النقاش. لكن لا أحد سيُقدم على أيّ شيء بعد. اتّفقنا؟"

نظر إليّ وهو يطرح هذا السؤال ورفع حاجبيه.

لم أنظر إلى عينيه وأنا أجيب: "اتّفقنا".

á á á

حاولت بعد العشاء العودة إلى العنبر الذي كنت أنام فيه، لكنّني لم أستطع الدخول من الباب. عوضاً عن ذلك، جلت في الممرّات وأنا أمرّر أصابعي على الجدران الحجرية، وأصغي إلى صدى خطواتي.

من دون أن أقصد، مررت بنافورة المياه التي هاجمني عندها بيتر، ودرو، وآل. عرفتُ آل من عطره، وما زلت أذكر رائحة عشب الليمون. لم أعد أقرنها بصديقي الآن، بل بالعجز الذي شعرت به وهم يجرّونني إلى الهاوية.

رحت أمشي بسرعة أكبر، وفتحت عينيّ على وسعهما لإبعاد صورة الهجوم عن ذهني. عليّ الابتعاد من هنا، عن الأماكن التي هاجمني فيها صديقي، وطعن فيها بيتر إدوارد، وبدأ جيش من أصدقائي زحفه على قطاع نكران الذات ليتبعه كلّ هذا الجنون.

ذهبت مباشرة إلى آخر مكان شعرت فيه بالأمان: شقّة توبياس الصغيرة. في اللحظة التي وصلت فيها إلى الباب، شعرت أنّني أكثر هدوءاً.

لم يكن الباب مقفلاً تماماً، فدفعته بقدمي. مع أنّه لم يكن هناك، إلاّ أنّني لم أرحل. جلست على سريره، وجمعت الغطاء المضرّب بين ذراعيّ، ثمّ دفنت وجهي في القماش، وأخذت أنفاساً عميقة. غير أنّ الرائحة التي كان عابقاً بها تبدّدت، فقد مضى وقت طويل منذ آخر مرّة نام عليه.

فُتح الباب، ودخل توبياس. فارتخت ذراعاي، وسقط الغطاء على حضني. كيف سأشرح له وجودي هنا؟ إذ يُفترض أنّني غاضبة منه.

لم يعبس، لكنّ فمه كان مشدوداً جدّاً بحيث عرفت أنّه غاضب منّي.

قال: "لا تكوني مغفّلة".

"مغفّلة؟"

"كنت تكذبين. قلت إنّك لن تذهبي إلى جماعة المعرفة، لكنّك كذبت. وذهابك إليهم سيجعل منك مغفّلة. فلا تفعلي".

وضعت الغطاء، ونهضت.

قلت له: "لا تحاول أن تجعل الأمر يبدو بهذه البساطة، فهو ليس كذلك. أنت تعرف مثلي تماماً أنّ هذا هو الشيء الصحيح".

"هل اخترت *هذه* اللحظة لتتصرّفي مثل ناكري الذات؟" ملأ صوته الغرفة، وتصاعد الخوف في صدري. بدا غضبه مفاجئاً جدّاً، وغريباً جدّاً. "أمضيتِ كلّ هذا الوقت وأنت تصرّين على أنّك أنانية جدّاً للعيش معهم، والآن، عندما بدأت *حياتك* تتّخذ مساراً جديداً، تريدين أن تصبحي بطلة؟ ما خطبك؟"

"بل ما خطبك *أنت*؟ ثمّة فتاة ماتت. لقد ألقت بنفسها عن سطح المبنى! ويمكنني منع ذلك من الحدوث مجدّداً!"

"لكنّك مهمّة جدّاً لكي... تموتي ببساطة". أخذ يهزّ رأسه. لم ينظر إليّ، غير أنّ نظره كان يتجاوز وجهي، إلى الجدار خلفي، أو السقف فوقي، إلى كلّ شيء ما عداي. وكنت مذهولة جدّاً ليثير ذلك غضبي.

قلت له: "أنا لست مهمّة. بإمكان الجميع أن يتدبّروا أمرهم تماماً من دوني".

"ومن يأبه لأمر الجميع؟ ماذا عنّي *أنا*؟"

وضع يديه على وجهه، حاجباً عينيه. كانت أصابعه ترتعش.

ثمّ عبَر الغرفة في خطوتين كبيرتين وعانقني. أحسست أنّ الأشهر الماضية امّحت تماماً، وعُدتُ الفتاة التي جلست على الصخور بالقرب من النهر، بحيث بلّل رذاذ الماء كاحليها، وعانقته للمرّة الأولى. عدتُ أنا الفتاة التي أمسكت بيده في أحد أروقة المجمّع لأنّها أرادت ذلك وحسب.

تراجعت، واضعة يدي على صدره لإبعاده. المشكلة هي أنّني أنا أيضاً الفتاة التي قتلت ويل وكذبت بشأنه، واختارت بين هيكتور ومارلين، هذا فضلاً عن آلاف الأشياء الأخرى. ولا يمكنني محوها.

"ستكون بخير". لم أنظر إليه، بل حدّقت إلى قميصه من بين أصابعي، وإلى الحبر الأسود الملتفّ حول عنقه. لكنّني لم أنظر إلى وجهه. "ليس في البداية، لكنّك ستتجاوز ذلك، وستقوم بما هو متوجّب عليك".

قال: "كذب"، وعانقني مجدّداً.

هذا لا يجوز. لا يجوز أن أنسى من أصبحت، وأسمح له باحتضاني وأنا أعرف ما أوشك على فعله...

تراجع، ونظر إلى عينيّ، خافضاً جفنيه إلى الأسفل. همس قائلاً: "عديني أنّك لن تذهبي، افعلي هذا الشيء الوحيد كرمى لي".

هل يمكنني ذلك؟ هل يمكنني البقاء هنا، وإصلاح علاقتي به، وترك شخص آخر يموت عوضاً عنّي؟ نظرت إليه، وظننت للحظة أنّني أستطيع. ثمّ رأيت ويل، والثنية التي تفصل بين حاجبيه. رأيت عينيه الخاليتين من التعبير بسبب المحاكاة، وجسده المتراخي.

افعلي هذا الشيء الوحيد كرمى لي . كانت عيناه الداكنتان تتوسّلان إليّ.

لكن إن لم أذهب إلى المعرفة، من سيفعل؟ توبياس؟ هذا من الأمور التي قد يفعلها.

شعرت بالألم وأنا أكذب إليه. "حسناً".

قال عابساً: "عديني".

أصبح الألم مبرحاً، وانتشر في كلّ مكان، واختلط كلّ شيء ببعضه، إحساس الذنب، والرعب، والشوق. "أعدك".

الفصل الثامن والعشرون

عندما بدأ يستغرق في النوم، انتظرت حتّى أصبحت أنفاسه مستقرّة، ومنعت نفسي من النوم بفكرة الجثث التي تتساقط على الرصيف.

لن أدع توبياس يسلّم نفسه إلى جماعة المعرفة عندما يحدث هذا مجدّداً، عندما يموت شخص آخر. لن أفعل.

نهضت، وارتديت أحد قمصانه لأحمل معي رائحته. ثمّ انتعلت حذائي، ولم آخذ أيّ سلاح أو تذكار.

وقفت عند الباب ونظرت إليه، وهو مغطّى باللحاف، فبدا مسالماً وقويّاً.

قلت بهدوء: "أحبّك"، وتركت الباب يُغلق خلفي.

لقد حان الوقت لوضع الأمور في نصابها.

ذهبت إلى العنبر الذي كان ينام فيه المبتدئون المنتمون أصلاً إلى الشجاعة. بدت الغرفة مثل تلك التي كنت أنام فيها حين كنت مبتدئة، إذ كانت طويلة، وضيّقة، اصطفّت الأسرّة على جانبيها، وعُلّق لوح على أحد الجدران. لاحظت بفضل مصباح أزرق أنّ أحداً لم يكلّف نفسه عناء محو المراتب التي كُتبت عليه. كان اسم يوريا لا يزال في الطليعة.

استلقت كريستينا على السرير السفلي تحت لين. لم أشأ إخافتها، لكن ما من طريقة أخرى لإيقاظها، لذلك وضعت يدي على فمها. استيقظت مجفلة، ونظرت حولها جاحظة العينين إلى أن رأتني. وضعت إصبعي على فمي وأشرت إليها لكي تتبعني.

ذهبتُ إلى آخر الممرّ، وانعطفت عند إحدى الزوايا. كان الرواق مضاءً بمصباح مطليّ معلّق فوق أحد المخارج. مشت كريستينا حافية، وراحت تكوّر أصابع قدميها إلى الأسفل لحمايتها من البرد.

تساءلَت: "ماذا يجري؟ هل أنت ذاهبة إلى مكان ما؟"

"أجل، أنا..." عليّ أن أكذب، وإلاّ ستحاول إيقافي. "أنا ذاهبة لرؤية أخي. فهو مع جماعة نكران الذات، أتذكرين؟"

ضاقت عيناها.

قلت: "أنا آسفة على إيقاظك، لكن أحتاج إلى مساعدتك؟ الأمر مهمّ حقّاً".

"حسناً. تريس، أنت تتصرّفين بغرابة. هل أنت واثقة أنّك لست-"

"كلاّ. أصغي إليّ. إنّ توقيت هجوم المحاكاة لم يكن عشوائياً. ويرجع سببه إلى أنّ جماعة نكران الذات كانت على وشك القيام بأمر ما، لا أدري ماهيّته، لكنّه على علاقة بمعلومات هامّة، استولت عليها جانين..."

عبست قائلة: "ماذا؟ ألا تعرفين ماذا كانوا يريدون أن يفعلوا؟ هل تعرفين ما هي هذه المعلومات؟"

لا بدّ أنّني أبدو مجنونة. "كلاّ. في الواقع، لم أستطع معرفة الكثير عن هذا الأمر لأنّ ماركوس إيتون هو الشخص الوحيد الذي يعرف كلّ شيء، ويأبى إخباري. لكنّ هذه المعلومات هي سبب الهجوم. إنّها هي *السبب*. وعليّ معرفتها".

لم أجد شيئاً آخر أقوله، غير أنّ كريستينا بدأت تهزّ رأسها موافقة.

قالت بمرارة: "إنّه السبب الذي جعل جانين تجبرنا على قتل أناس أبرياء. أنت محقّة، علينا معرفته".

كنت قد نسيت تقريباً أنها من الأشخاص الذين وقعوا تحت تأثير المحاكاة. كم شخصاً من نكران الذات قتلَت يا ترى وهي في تلك الحالة؟ وما كان شعورها عندما استيقظت من ذلك الحلم لتجد نفسها قاتلة؟ لم أسألها، ولن أفعل أبداً.

"أريد مساعدتك، وبسرعة، أحتاج إلى شخص يقنع ماركوس بالتعاون، وأظنّ أنّك قادرة على ذلك".

أمالت رأسها وحدّقت إليّ لبضع ثوان.

"تريس، لا ترتكبـي الحماقات".

ابتسمت بتكلّف. "لماذا لا يكفّ الناس عن قول ذلك لي؟"

أمسكت بذراعي قائلة: "أنا لا أمزح".

"قلت لك، أنا ذاهبة لزيارة كاليب. سأعود خلال بضعة أيّام، ويمكننا وضع خطّة حينذاك. ظننت وحسب أنّه من الأفضل أن يعرف شخص آخر بذلك قبل أن أذهب، تحسّباً فقط. اتّفقنا؟"

أمسكت ذراعي لبضع ثوانٍ، ثمّ أفلتتها قائلة: "اتّفقنا".

توجّهتُ بعد ذلك إلى الباب. تماسكتُ إلى أن خرجتُ، ثمّ فاضت عيناي بالدموع.

آخر حديث بيننا كان حافلاً بالأكاذيب.

á á á

ما إن خرجت، حتّى غطّيت رأسي بقبّعة قميص توبياس. عندما وصلت إلى آخر الشارع، نظرت إلى الأعلى والأسفل، بحثاً عن أثر للحياة، لكنّني لم أجد شيئاً.

وخز الهواء البارد رئتيّ وهو يدخل ويخرج في سحابة من البخار. سيحلّ الشتاء قريباً. هل ستكون جماعتا المعرفة والشجاعة على حالهما في ذلك الوقت يا ترى، تنتظران أن تقوم إحداهما بطمس الأخرى؟ في تلك اللحظة، شعرت بالسعادة لأنّني لن أضطرّ لرؤية ذلك.

قبل أن أختار الشجاعة، لم تخطر لي أبداً أفكار كهذه. كنت متأكّدة أنّني سأعيش طويلاً، وسأحيا حياة سعيدة. أمّا الآن، فما من شيء مؤكّد، باستثناء المكان الذي سأذهب إليه. وأنا ذاهبة لأنّني اخترت ذلك.

مشيت في ظلّ الأبنية، آملة ألاّ يلفت وقع خطواتي انتباه أحد. لم تكن مصابيح المدينة مضاءة في هذه المنطقة، غير أنّ نور القمر كان ساطعاً بحيث استطعت السير من دون مشاكل.

مشيت تحت السكك العالية، التي كانت ترتجّ بفعل حركة قطار قادم. عليّ الإسراع إن أردت الوصول إلى هناك قبل أن يلاحظ أحد رحيلي. تجنّبت صدعاً كبيراً في الشارع، وقفزت فوق عمود إنارة متهاوٍ على الأرض.

لم أفكّر في المسافة التي سأمشيها قبل أن أنطلق. لكن سرعان ما بدأ الدفء يسري في جسدي بفعل مجهود السير والنظر إلى الخلف وتفادي المخاطر في الطريق. فخفّفت من سرعتي.

وصلت إلى جزء أعرفه من المدينة. كانت الشوارع في حالة أفضل هنا، نظيفة، مع عدد قليل من الحفر. رأيت من بعيد وهج أضواء المعرفة، ومصابيحهم التي تنتهك قوانين الحفاظ على الطاقة لدينا. لا أعرف ماذا سأفعل عندما أصل إلى هناك. هل أطلب رؤية جانين، أم أكتفي بالوقوف هناك حتّى يلاحظني أحدهم؟

مرّت أناملي على نافذة مبنى بجانبـي. هذا يعني أنّني أوشكت على الوصول. بدأت الرعشة تسري في جسدي مع اقترابـي، وتصعّب عليّ السير. كان التنفّس صعباً هو الآخر. توقّفت محاولة تهدئة نفسي، وتركت الهواء يدخل ويخرج بصعوبة عبر رئتيّ. ماذا سيفعلون بـي عندما أصل؟ ما هي الخطط المحضّرة لي قبل أن أصبح غير مجدية، ويقتلونني؟ فأنا لا

أشكّ أنّهم سيقتلونني في نهاية المطاف. ركّزت على التقدّم إلى الأمام، وتحريك ساقيّ مع أنّهما لم تعودا قادرتين على حمل وزني.

أخيراً، أصبحت أمام مقرّ المعرفة.

في الداخل، جلس أناس بقمصان زرقاء حول الطاولات، يطبعون على أجهزة الكمبيوتر، أو منكبّين على الكتب، أو يمرّرون الأوراق بين بعضهم البعض. كان بينهم أشخاص شرفاء لا يعرفون ما فعلَته جماعتهم، لكن حتّى لو انهار هذا المبنى بأكمله عليهم أمام عينيّ، قد لا أكترث لهم.

هذه آخر لحظة أستطيع فيها التراجع عن قراري. لفح الهواء البارد وجهي ويديّ وأنا أتردّد. ما زال بإمكاني أن الوذ لالفرار، وارجع إلى أمان مجمّع الشجاعة، لأصلّي وأتمنّى ألاّ يموت شخص آخر بسبب أنانيتي.

لكن لا يمكنني الرحيل، وإلاّ فإنّ شعور الذنب، وعبء ضياع حياة ويل، وحياة أبويّ، والآن حياة مارلين سيطحن عظامي، وسيجعل من المستحيل عليّ الاستمرار بالحياة.

مشيت ببطء نحو المبنى وفتحت الباب.

هذه هي الطريقة الوحيدة لكي لا أختنق.

á á á

مضت برهة بعدما وطأتُ الأرضية الخشبية، ووقفت أمام لوحة جانين ماثيوس العملاقة المعلّقة على الجدار المقابل، لم يلاحظني فيها أحد، ولا حتّى الحارسَين المنتميين إلى الشجاعة اللذين يتجوّلان بالقرب من المدخل. توجّهت إلى مكتب الاستقبال، الذي جلس إليه رجل متوسّط السنّ، احتلّت بقعة من الصلع قمّة رأسه، وكان يرتّب كومة من الأوراق. وضعت يديّ على المكتب.

قلت: "المعذرة".

قال من دون أن يرفع نظره عن أوراقه: "لحظة من فضلك".

"كلاّ".

عندئذ نظر إليّ، عبر نظّارته المنحرفة، وعبس كما لو كان على وشك تأديبـي. أيّاً تكن الكلمات التي أراد استخدامها، فقد بدا أنّها علقت في حلقه. حدّق إليّ فاغر الفاه، وانتقل نظره من وجهي، إلى القميص الأسود الذي أرتديه.

أمام الرعب الذي استبدّ بـي، بدا تعبيره مسلّياً. فابتسمت قليلاً، وخبّأت يديّ المرتجفتين.

قلت: "أظنّ أنّ جانين ماثيوس ترغب في رؤيتي. لذلك، أكون ممتنّة لو اتصلتَ بها".

أشار للشجعان الخونة الواقفين عند الباب، لكنّه لم يكن مضطرّاً لذلك. فقد أدرك الحرّاس أخيراً ما يجري. بدأ جنود آخرون من الشجاعة يقتربون من أجزاء أخرى من القاعة، إلى أن أحاطوا بـي جميعاً، لكنّهم لم يلمسوني أو يتكلّموا معي. حدّقت إلى وجوههم، محاولة أن أبدو هادئة قدر الإمكان.

بينما تناول موظّف الاستقبال السمّاعة، سألني أحدهم أخيراً: "جامحة؟"

إن ضممت يديّ، يمكنني أن أمنعهما من الارتعاش. أجبته بهزّة من رأسي.

تحوّل نظري إلى الشابّ المنتمي إلى الشجاعة الذي خرج من المصعد من الجهة اليسرى من الغرفة، وارتخت عضلات وجهي. كان بيتر آتياً نحونا.

تسارعت في ذهني آلاف ردود الفعل المحتملة، التي تراوحت من الاندفاع لخنق بيتر، إلى البكاء، إلى المزاح. لم أستطع اختيار أحدها، لذلك

وقفت جامدة أراقبه. لا بدّ أنّ جانين عرفت أنّني آتية، ولا بدّ أنّها اختارت بيتر عمداً لإحضاري.

قال بيتر: "وصلتنا تعليمات لاصطحابك إلى الطابق العلوي".

أردت الردّ عليه بحدّة، أو بلا اكتراث، لكنّ الصوت الوحيد الذي صدر عنّي هو صوت موافقة، خرج بصعوبة من حلقي المتوتّر. فتوجّه بيتر نحو المصاعد، وتبعته.

عبرنا سلسلة من الممرّات الأنيقة. ومع أنّنا صعدنا عدداً من الأدراج، إلاّ أنّني ظللت أشعر أنّني أغوص في الأرض.

توقّعت منهم أخذي إلى جانين، لكنّهم لم يفعلوا. توقّفوا في ممرّ قصير مع سلسلة من الأبواب المعدنية من كلّ جانب. طبع بيتر رمزاً لفتح أحد الأبواب، ثمّ أحاط به الشجعان الخونة، متلاصقين ببعضهم البعض، بحيث شكّلوا نفقاً ضيّقاً لأمرّ عبره في طريقي إلى الغرفة.

كانت الغرفة صغيرة، بطول ستّة أقدام وعرض ستّة أقدام ربّما. وكانت الأرض، والجدران، والسقف مصنوعة كلّها من الألواح المضيئة نفسها، المطفأة الآن، التي توهّجت في غرفة اختبار الجدارة. وفي كلّ زاوية، ثُبّتت كاميرا سوداء صغيرة.

أخيراً، تركتُ الذعر يجتاحني.

نظرت من زاوية إلى أخرى إلى الكاميرات، وقاومت الصرخة التي بدأت تتراكم في جوفي، وتتصاعد إلى صدري، وحلقي، الصرخة التي ملأت كلّ جزء منّي. مجدّداً، شعرت بالذنب والحزن يستبدّان بـي، ويتنازعان على الهيمنة، لكنّ الذعر كان أقوى من كليهما. أخذت نفساً، لكنّني لم أزفره. قال لي أبـي مرّة إنّه علاج للفواق. فسألته ما إذا كنت سأموت إن حبست نفَسي.

أجابني: "كلاّ، فردود فعل الجسد الطبيعية تتغلّب عليك، وتجبرك على التنفّس".

هذا مؤسف، حقّاً. لكانت طريقة جيّدة للفرار. جعلتني تلك الفكرة أرغب في الضحك، ومن ثمّ في الصراخ.

تكوّرت على نفسي وضغطت وجهي على ركبتيّ. عليّ أن أضع خطّة. إن وضعت خطّة، لن أشعر بهذا الخوف.

لكنّني لا أملك خطّة. لا مفرّ من أحشاء مقرّ المعرفة، ولا مفرّ من جانين، ولا مفرّ ممّا فعلت.

الفصل التاسع والعشرون

لقد نسيت ساعتي.

بعد دقائق أو ساعات، عندما انحسر إحساسي بالذعر، هذا أكثر ما ندمت عليه. لم آسف على مجيئي إلى هنا، فقد بدا هذا الخيار بديهياً، بل أسفت على رسغي الخالي، الذي جعل من المستحيل أن أعرف كم مضى من الوقت على جلوسي في هذه الغرفة. شعرت بألم في ظهري، وهذا مؤشّر، لكنّه ليس واضحاً بما فيه الكفاية.

نهضت بعد قليل، ورحت أمشي في الغرفة، وأمدّد ذراعيّ فوق رأسي. امتنعت عن فعل شيء بوجود الكاميرات، لكنّهم لن يتمكّنوا من معرفة شيء عنّي وهم يشاهدونني ألمس أصابع قدميّ.

أرسلت تلك الفكرة رعشة في يديّ، لكنّني لم أستطع إبعادها عن ذهني. عوضاً عن ذلك، قلت في نفسي إنّني شُجاعة والخوف ليس غريباً عنّي. سأموت في هذا المكان، وربّما قريباً. فتلك حقائق وليست تخمينات.

لكن ثمّة طرق أخرى للتفكير في الأمر. قريباً، سأشرّف أبي وأمّي بموتي مثلما فعلا. وإن كان ما يؤمنان به عن الموت حقيقة، سرعان ما سأنضمّ إليهما في الحياة التالية.

رحت أهزّ يديّ المرتجفتين وأنا أمشي. أريد أن أعرف كم الساعة. لقد وصلت بعد منتصف الليل بقليل. ولا بدّ أنّنا في ساعة مبكرة من الصباح، ربّما الرابعة أو الخامسة. وربّما لم يمضِ كلّ هذا الوقت، بل بدا طويلاً لأنّني لم أكن أفعل شيئاً.

فُتح الباب، لأجد نفسي أخيراً وجهاً لوجه أمام عدوّتي وحرّاسها الشجعان.

قالت جانين: "مرحباً بياتريس". كانت ترتدي ملابس المعرفة الزرقاء، ونظّارة المعرفة، ونظرة التفوّق الخاصّة بهم التي علّمني أبـي أن أكرهها. "عرفتُ أنّك أنت من سيأتي".

غير أنّني لم أشعر بالكراهية عندما نظرت إليها. لم أشعر بأيّ شيء على الإطلاق، مع أنّني أعرف أنّها مسؤولة عن وفاة عدد لا يحصى من الناس، بمن فيهم مارلين. كان الموت موجوداً في رأسي على شكل سلسلة من المعادلات التي لا معنى لها، وقد وقفت جامدة، وعاجزة عن حلّها.

قلت: "أهلاً جانين". فقد كان هذا هو الشيء الوحيد الذي خطر في بالي.

انتقل نظري من عينيّ جانين الرماديتين إلى حرّاسها الشجعان. كان بيتر واقفاً عند كتفها الأيمن، بينما وقفت امرأة ظهرت خطوط على جانبَي فمها إلى يسارها. أمّا خلفها، فرأيت رجلاً أصلع. عبستُ مفكّرة.

كيف وجد بيتر نفسه في هذا المركز المرموق، كحارس ماثيوس الشخصي؟ أين المنطق في ذلك؟

قلت: "أودّ أن أعرف كم الساعة".

أجابت: "حقّاً، هذا مثير للاهتمام".

كان عليّ أن أدرك أنّها لن تخبرني. فكلّ معلومة تتلقّاها تدرجها في استراتجيتها، ولن تخبرني كم الساعة ما لم تقرّر أنّ إعطاء هذه المعلومة هو أكثر فائدة من حجمها.

قالت: "أنا واثقة أنّ رفاقي الشجعان خاب أملهم لأنّك لم تحاولي بعد اقتلاع عينيّ".

"سيكون هذا غباءً".

"صحيح، لكنّه يتماشي مع ميلك إلى التصرّف أوّلاً والتفكير ثانياً".

زممت شفتيّ قائلة: "أنا في السادسة عشرة، إنّني أتغيّر".

"كم هذا منعش. ما رأيك في القيام بجولة قصيرة؟"

تراجعَت إلى الخلف، وأشارت إلى الباب. آخر ما كنت أريده هو الخروج من هذه الغرفة إلى وجهة غير مؤكّدة، غير أنّني لم أتردّد. خرجتُ، ومشت أمامي المرأة المنتمية إلى الشجاعة، بمظهرها القاسي، ثمّ تبعني بيتر بعد ذلك بقليل.

كان الرواق طويلاً وباهتاً. انعطفنا عند نهايته، وسلكنا ممرّاً آخر مشابهاً له تماماً.

تبع ذلك ممرّان آخران. وشعرت أنّني مشوّشة جدّاً بحيث لم أعد أعرف إطلاقاً كيفيّة العودة. فجأة تغيّر محيطي، وخرجنا من النفق الأبيض إلى غرفة كبيرة، وقف فيها رجال ونساء من المعرفة يرتدون سترات زرقاء طويلة خلف طاولات، بعضهم يحملون الأدوات، والبعض الآخر يمزجون سوائل متعدّدة الألوان، بينما يحدّق آخرون إلى شاشات الكمبيوتر. لو أردت التخمين، لقلت إنّهم يمزجون مصل محاكاة، لكنّني تردّدت بحصر عمل المعرفة بالمحاكاة وحسب.

توقّف معظمهم عن عمله ونظروا إلينا ونحن نتقدّم إلى وسط الغرفة، أو بالأحرى نظروا *إليّ*. بعضهم راح يهمس، لكنّ أغلبهم ظلّ صامتاً. كان المكان هادئاً جدّاً.

تبعتُ المرأة الخائنة المنتمية إلى الشجاعة عبر أحد الأبواب، وتوقّفت فجأة بحيث ارتطم بيتر بي.

كانت هذه الغرفة بحجم الغرفة السابقة، لكنّها تحتوي على شيء واحد: طاولة معدنية كبيرة مع آلة بالقرب منها. عرفت أنّ الآلة هي شاشة تُستخدم لرصد نبض القلب، ورأيت كاميرا معلّقة فوقها. ارتعدت من دون أن أقصد، لأنّني عرفت ما هذا.

قالت جانين: "يسرّني جدّاً أنّك *أنت* تحديداً من أتى إلى هنا". ثمّ مشت من أمامي واستندت إلى الطاولة، وتكوّرت أصابعها حول حافتها.

"أنا مسرورة بالطبع بسبب نتائج اختبار الجدارة الذي خضعتِ له". كان شعرها الأشقر المشدود إلى الخلف يعكس الضوء، ويلفت انتباهي.

"حتّى بين الجامحين، أنت غريبة إلى حدّ ما، لأنّ الاختبار أهّلك لثلاث جماعات: نكران الذات، والشجاعة، والمعرفة".

"كيف..." خانني صوتي، غير أنّني أجبرت نفسي على المتابعة. "كيف عرفتِ ذلك؟"

قالت: كلّ شيء في وقته. فقد عرفت من نتائجك أنّك واحدة من أقوى الجامحين، وهذه ليست مجاملة، بل أحاول أن أشرح لك هدفي. إن أردتُ تطوير محاكاة لا تقاومها أدمغة الجامحين، عليّ دراسة أقوى دماغ بينهم لتغطية كلّ نقاط الضعف في هذه التكنولوجيا. هل فهمتِ؟"

لم أجبها، بل واصلت التحديق إلى الشاشة المجاورة للطاولة.

"بالتالي، سنقوم أنا وزملائي العلماء بإجراء دراسات عليك لأطول مدّة ممكنة". ابتسمت قليلاً، وتابعت: "وبعد انتهاء دراستي، سيتمّ إعدامك".

كنت أعرف ذلك. أعرف. لماذا إذاً شعرت بالضعف في ركبتيّ، ولماذا اعتصرت معدتي، لماذا؟

مرّرت أصابعها على الطاولة تحتها: "وسيتمّ الإعدام هنا، على هذه الطاولة. لذلك ظننت أنّه من المثير للاهتمام أن أريك إيّاها".

تريد أن تدرس ردّ فعلي. كنت أتنفّس بالكاد. لطالما اعتقدت أنّ القسوة تحتاج إلى الخبث، لكنّ هذا ليس صحيحاً. فالخبث ليس هو ما يحرّك جانين، بل ترجع قسوتها إلى عدم اكتراثها بما تفعله ما دام يُبهرها. من الممكن أن أكون أحجية، أو آلة مكسورة تريد إصلاحها. ستفتح

جمجمتي لترى كيف يعمل دماغي من الداخل. سأموت هنا، وسيكون هذا هو أفضل ما سيحدث لي في هذا المكان.

قلت: "كنت أعرف أنّ هذا ما سيحدث عندما آتي إلى هنا. هذه مجرّد طاولة، وأودّ العودة إلى غرفتي الآن".

á á á

أنا لا أفهم حقّاً كيف مرّ الوقت، على الأقلّ ليس كما اعتدت عليه عندما كان متاحاً لي. لذلك، عندما فُتح الباب مجدّداً، ودخل بيتر إلى زنـزانتي، لم أعرف كم مضى من الوقت بل أدركت فقط أنّني منهكة.

قال: "هيّا بنا، أيّتها المتزمّتة".

"أنا لم أعد من نكران الذات". مددت ذراعيّ فوق رأسي بحيث احتكّتا بالجدار. "والآن، بعدما أصبحتَ خادم جماعة المعرفة، لم يعد بإمكانك مناداتي *متزمّتة*، هذا غير دقيق".

"قلت، هيّا بنا".

نظرت إليه مصطنعة الدهشة. "ماذا، ألن أسمع تعليقات ساخرة؟ ألن تقول لي إنّني غبية لمجيئي إلى هنا وإنّني متخلّفة فضلاً عن كوني جامحة؟"

قال: "أليس هذا غنيّاً عن الذكر؟ إمّا أن تنهضي أو أن أصطحبك جرّاً. الخيار لك".

شعرت أنّني أكثر هدوءاً. فبيتر دائم الخبث معي، لقد اعتدت على ذلك.

وقفت وخرجت من الغرفة. لاحظت وأنا أمشي أنّ ذراع بيتر التي أطلقت عليها النار لم تعد في رباط.

"هل عالجوا لك جرح الرصاصة؟"

"أجل، وعليك الآن إيجاد نقطة ضعف أخرى. فمن سوء حظّك أنّهم أعادوني كما كنت". أمسك بذراعي السليمة وحثّ خطاه، وهو يدفعني بقربه. "لقد تأخّرنا".

على الرغم من طول الممرّ وفراغه، إلاّ أنّ خطواتنا لم تُصدر صدى كبيراً. فأحسست كما لو أنّ أحدهم وضع يديه على أذنيّ. حاولت أن أتذكّر الممرات التي نسلكها، لكنّني توقّفت عن العدّ بعد برهة. وصلنا إلى نهاية أحدها، وانعطفنا يساراً، لندخل غرفة معتمة ذكّرتني بحوض السمك. كان أحد الجدران مصنوعاً من الزجاج العاكس، لكنّني واثقة أنّه شفّاف من الجهة الأخرى.

وُضعت آلة كبيرة على الطرف الآخر، وامتدّ لوح بحجم إنسان منها. عرفته من كتاب تاريخ الفصائل، والقسم الخاصّ بجماعة المعرفة والطبّ. إنّها آلة رنين مغنطيسي، ستلتقط صوراً لدماغي.

فجأة، اشتعل شيء في داخلي. مضى وقت طويل منذ أن شعرت به بحيث لم أعرفه في البداية. إنّه الفضول.

كلّمني صوت جانين من خلال نظام اتصال داخلي.

"تمدّدي، بياتريس".

نظرتُ إلى اللوح الذي سيدخلني في الآلة.

"لا".

تنهّدت قائلة: "إن لم تفعلي ذلك بنفسك، لدينا طرق لإجبارك".

كان بيتر يقف خلفي. وحتّى لو كانت ذراعه مصابة، يبقى أقوى منّي. تخيّلت يديه عليّ وهو يدفعني نحو اللوح، ويجبرني على الاستلقاء، ويشدّ الأربطة المتدلّية منه حول جسدي بقوّة.

قلت: "فلنعقد اتفاقاً. إن تعاونت معكم، تسمحون لي برؤية الصور".

"ستتعاونين سواء شئت أم أبيت".

رفعت إصبعي قائلة: "هذا غير صحيح".

نظرت إلى المرآة. ليس من الصعب الادّعاء أنّني أتكلّم مع جانين عندما أكلّم انعكاسي على الجدار. فشعري أشقر مثل شعرها، وكلانا شاحبتا اللون وجدّيتا المظهر. سبّبت لي الفكرة اضطراباً كبيراً بحيث فقدت تسلسل أفكاري لبضع ثوانٍ، ووقفت رافعة إصبعي في الهواء بصمت.

أنا شاحبة البشرة، وشقراء الشعر، وباردة. أنا فضولية حيال صور دماغي. أنا مثل جانين، وبإمكاني إمّا أن أحتقر هذا الواقع، وأهاجمه، وأقضي عليه... أو أن أستغلّه.

قلت مجدّداً: "هذا غير صحيح. فمهما قيّدتموني، لن تتمكّنوا من إبقائي ساكنة كما ينبغي لأخذ صور واضحة". تنحنحت مضيفة: "أريد رؤية الصور. وما دمتم ستقتلونني على أيّ حال، لن يهمّ ما أعرفه عن دماغي قبل ذلك".

قالت: "لماذا تريدين رؤيتها إلى هذا الحدّ؟"

"أنت، من بين كلّ الناس، تفهمين السبب. فأنا في النهاية مؤهّلة لأكون من المعرفة بقدر ما أنا مؤهّلة للانتماء إلى الشجاعة ونكران الذات".

"حسناً، يمكنك الاطّلاع عليها. والآن تمدّدي".

ذهبت واستلقيت على اللوح المعدني الذي بدا بارداً كالجليد. انـزلق بـي اللوح إلى الوراء، وأصبحت داخل الآلة. حدّقت إلى السقف الأبيض الذي يعلوني. عندما كنت صغيرة، كنت أظنّ أنّ هذا ما ستكون عليه الجنة، نور أبيض وحسب. والآن، صرت أعرف أنّ هذا ليس صحيحاً، لأنّ الضوء الأبيض مخيف.

سمعت طرقاً، فأغمضت عينيّ وأنا أتذكّر أحد الحواجز في مشهد الخوف، أي الأيدي التي راحت تطرق على نافذتي، والرجال العميان الذين حاولوا اختطافي. فاعتبرت الطرق نبضاً، أو ضرباً على طبلة. اعتبرته النهر الذي يلاطم جدران الهاوية في مجمّع الشجاعة، أو أقداماً تضرب الأرض في احتفال انتهاء التلقين، أو أقداماً تهبط السلالم بعد حفل اختيار الجماعة.

لم أعرف كم مضى من الزمن عندما توقّف الطرق وانـزلق اللوح مجدّداً إلى الخارج. فجلست، وفركت عنقي بأصابعي.

فُتح الباب، وظهر بيتر في الممرّ. أشار إليّ قائلاً: "تعالي، يمكنك رؤية الصور الآن".

قفزت عن اللوح وذهبت إليه. وبينما نحن نسير في الممرّ، أخذ يهزّ رأسه وهو ينظر إليّ.

"ماذا؟"

"لا أدري كيف تنجحين دائماً في الحصول على ما تريدين".

"صحيح، لأنّني أردت أن أُسجن في زنـزانة عند جماعة المعرفة، وأردت أن أُعدم".

بدوت غير مكترثة لما أنا فيه، كما لو أنّ الإعدام هو أمر أواجهه بانتظام. غير أنّ لفظ الكلمة بعث رجفة في أوصالي. فتظاهرت أنّني أشعر بالبرد، وأحطت ذراعيّ بيديّ.

قال: "ألم تفعلي؟ أعني أنّك أتيت إلى هنا بملء إرادتك، وهذا لا ينسجم مع غريزة البقاء".

ضغط على عدد من الأرقام على لوح مفاتيح خارج الباب التالي، ففُتح. دخلت الغرفة من الجهة الأخرى من المرآب. كانت مليئة بالشاشات وغارقة بالضوء، الذي انعكس على زجاج نظّارات أعضاء

المعرفة. أُغلق باب آخر في الغرفة. ثمّ رأيت كرسياً خالياً خلف إحدى الشاشات، وكان لا يزال يدور. لقد خرج أحدهم للتوّ.

وقف بيتر خلفي مباشرة، بحيث كان جاهزاً للإمساك بـي إن قرّرت الاعتداء على أحد. غير أنّني لن أفعل. فكم يمكنني الهرب إن أقدمت على ذلك؟ عبر ممرّ أو اثنين على الأكثر، قبل أن أضيع. لا أستطيع الخروج من هنا حتّى لو لم يكن ثمّة حرّاس لمنعي من ذلك.

قالت جانين، مشيرة إلى الشاشة الكبيرة التي تحتلّ الجدار الأيسر: "ضعها هناك". فقام أحد علماء المعرفة بالضغط على شاشة حاسوبه لتظهر صورة على الجدار الأيسر. كانت صورة مغناطيسية لدماغي.

لم أفهم تماماً الصورة التي أنظر إليها. فأنا أعرف شكل الدماغ، وشكل كلّ جزء منه عموماً، لكنّني لا أدري بماذا يختلف شكل دماغي عن بقيّة الأدمغة. طرقت جانين بإصبعها على ذقنها، وحدّقت إلى الصورة مطوّلاً.

قالت أخيراً: "فليُخبر أحدكم الآنسة برايور بوظيفة قشرة الفصّ الجبهي".

قالت إحدى العالمات: "إنّها المنطقة الواقعة خلف الجبين". لم تكن تبدو أكبر منّي بكثير، وكانت تضع نظّارة كبيرة مستديرة جعلت عينيها تبدوان أكبر حجماً. "وهي مسؤولة عن تنظيم الأفكار والأعمال للوصول إلى الهدف".

قالت جانين: "هذا صحيح. والآن ليُخبرني أحدكم عن ملاحظاته بشأن قشرة الفصّ الجبهي لدى الآنسة برايور".

قال عالم آخر، وكان رجلاً خفيف الشعر: "إنّها كبيرة".

قالت جانين كما لو كانت توبّخه: "أعطنا التفاصيل".

أدركت أنّني في صفّ، لأنّ كلّ غرفة تضمّ أكثر من عضو واحد من أعضاء المعرفة هي صفّ دراسي. وتُعتبر جانين بينهم أهمّ أساتذتهم. حملقوا إليها بنهم، وأفواه فاغرة، آملين الفوز باستحسانها.

قال الرجل مصحّحاً: "إنّها أكبر بكثير من المعدّل".

قالت جانين وهي تميل رأسها: "هذا أفضل. في الواقع، إنّها أكبر قشرة فصّ جبهي رأيتها في حياتي. بالمقابل، فإنّ القشرة الأمامية المدارية صغيرة بشكل ملحوظ. إلام يشير ذلك؟"

قال أحدهم: "إنّ القشرة الأمامية المدارية هي مركز المكافأة في الدماغ. فالأشخاص الذين يعتمدون سلوكاً يسعى إلى المكافأة يملكون قشرة أمامية مدارية كبيرة. هذا يعني أنّ الآنسة برايور نادراً ما تتبنّى سلوكاً يسعى إلى المكافأة".

"ليس هذا وحسب". ابتسمت جانين قليلاً. كان الضوء الأزرق المنبعث من الشاشات يزيد خدّيها وجبينها إشراقاً، لكنّه يلقي ظلالاً حول عينيها. "هذا لا يشير فقط إلى سلوكها، بل إلى رغباتها أيضاً. فالمكافأة لا تحفّزها، مع ذلك، فهي ماهرة جدّاً في توجيه أفكارها وأعمالها نحو أهدافها. وهذا يفسّر ميلها إلى السلوك المؤذي وغير الأناني في آن، وربّما قدرتها على مقاومة المحاكاة. كيف يغيّر ذلك مقاربتنا لمصل المحاكاة الجديد؟"

قالت العالمة ذات النظّارة المستديرة: "يجب أن يُحبط جزءاً من نشاط قشرة الفصّ الجبهي، لكن ليس كلّه".

قالت جانين: "بالضبط". أخيراً نظرت إليّ، وعيناها تشعّان سعادة. "إذاً، هذا ما سنفعله. هل أتممتُ التزامي، آنسة برايور؟"

جفّ حلقي تماماً.

ما الذي سيحدث إن أحبطوا نشاط قشرة الفصّ الجبهي في دماغي، وعطّلوا قدرتي على اتّخاذ القرارات؟ ماذا إن نجح هذا المصل، وأصبحتُ خاضعة لتأثير المحاكاة، شأني شأن الجميع؟ ماذا إن نسيت الواقع تماماً؟

لم أكن أعرف أن شخصيتي بأكملها، لا بل كياني بأكمله، يمكن أن يُطرحا كناتج ثانوي لتكويني الجسدي. ماذا لو كنت فعلاً مجرّد شخص يملك قشرة فصّ جبهي كبيرة... وحسب؟

قلت: "أجل".

á á á

عدنا أنا وبيتر بصمت إلى غرفتي. انعطفنا يساراً، فرأيت عدداً من الأشخاص واقفين في الطرف الآخر من الرواق. كان أطول ممرّ سنعبره، لكنّ تلك المسافة تقلّصت عندما رأيته.

أمسك بذراعيه جنديان من الشجعان الخونة، ووجّه أحدهما مسدّساً إلى الجهة الخلفية من رأسه.

وقف توبياس، والدم يسيل على جانب وجهه، ويلوّن قميصه الأبيض باللون الأحمر. توبياس، الجامح مثلي، يقف عند باب هذا الأتون الذي سأحترق فيه.

"توبياس"، لفظت اسمه وأنا أشهق.

دفعه الجندي الذي يحمل المسدّس باتّجاهي. حاول بيتر دفعي إلى الأمام هو الآخر، لكنّ قدميّ لم تتحرّكا. لقد أتيت إلى هنا لكي لا يموت شخص آخر. أتيت لحماية أكبر عدد ممكن من الناس. وكنت أهتمّ بسلامة توبياس أكثر من أيّ أحد. فما فائدة وجودي هنا إن أتى هو أيضاً؟

تمتمت: "ماذ فعلتَ؟" أصبح على بعد خطوات منّي، لكنّه لم يكن قريباً بما فيه الكفاية لسماعي. عندما مرّ بـي، مدّ يده، وأمسك بذراعي

وشدّ عليها. شدّ قليلاً، ثمّ أفلتني. كانت عيناه حمراوين كالدم، ووجهه شاحباً.

"ماذا فعلتَ؟" هذه المرّة، مزّق السؤال حلقي.

اندفعت نحوه، وأنا أقاوم قبضة بيتر.

صرخت: "ماذا فعلتَ؟"

نظر توبياس إلى الخلف قائلاً لي: "إن أردتِ الموت، سأموت أنا أيضاً. لقد طلبت منك عدم المجيء. لكنّك اتّخذت قرارك، وهذه هي النتائج".

اختفى عند الزاوية وكان آخر ما رأيته منه ومن الجنديين اللذين يقتادانه هو بريق فوهة المسدّس، والدم الذي يسيل من خلف أذنه من جرح لم أره من قبل.

أحسست أنّ الحياة فارقتني عندما اختفى. توقّفت عن المقاومة، وتركت يديّ بيتر تدفعانني نحو زنـزانتي. تهاويت على الأرض ما إن دخلت، وانتظرت أن أسمع الباب وهو يُغلق معلناً رحيل بيتر، إلاّ أنّه لم يفعل.

قال: "لماذا أتى إلى هنا؟"

نظرت إليه مجيبة: "لأنّه أحمق".

"حسناً، هذا صحيح".

أسندت رأسي إلى الجدار.

قال بيتر ساخراً: "هل يظنّ أنّ باستطاعته إنقاذك؟ يبدو هذا من شيم المتزمّتين".

"لا أظنّ ذلك". لو أنّ توبياس أراد إنقاذي، لفكّر جيّداً بالأمر، ولأحضر معه أشخاصاً آخرين. لما كان سيأتي إلى مقرّ المعرفة بمفرده.

تزاحمت الدموع إلى عينيّ، ولم أحاول مقاومتها. بل حدّقت من خلالها، وراقبت محيطي وهو يبهت. منذ بضعة أيّام، ما كنت لأبكي أمام بيتر، غير أنّني لم أعد أكترث. فهو الآن أصغر همومي.

قلت: "أظنّ أنّه أتى ليموت معي". غطّيت فمي بيديّ لأخنق شهقة. إن واصلت التنفّس، يمكنني إيقاف البكاء. لم أكن أحتاج أو أريد أن يموت معي، بل أردته أن يبقى بأمان. يا *له من أحمق،* لكنّه لم يكن كذلك في قلبـي.

قال: "هذا سخيف، وغير منطقي. فهو في الثامنة عشرة، وسيجد فتاة أخرى بعد موتك. هذه حماقة منه إن كان يجهل ذلك".

سالت الدموع على وجهي، حارّة في البداية، ومن ثمّ باردة. أغمضت عينيّ. "إن كان هذا ما تظنّه..." ابتلعت شهقة أخرى. "... فأنت الأحمق".

"حقّاً؟ لا يهمّ".

صدر صرير عن حذائه وهو يستدير، ويهمّ بالخروج.

"مهلاً!" نظرت إليه من خلال دموعي. "ماذا سيفعلون به؟ ما يفعلونه بـي؟"

"لا أدري".

"هل يمكنك أن تعرف؟" مسحت خدّيّ بيديّ، غاضبة. "هل يمكنك على الأقلّ أن تعرف ما إذا كان بخير؟"

أجاب: "ولماذا أفعل ذلك؟ لماذا أفعل أيّ شيء من أجلك؟"

بعد برهة سمعت الباب وهو يُغلق خلفه.

الفصل الثلاثون

قرأت مرّة أنّ البكاء يتجاوز فهم العلماء. فوظيفة الدموع تقتصر على ترطيب العين، وما من سبب يدفع غدد الدموع إلى فرط الإفراز عند الانفعال.

أظنّ أنّنا نبكي لتحرير أجزائنا الحيوانية من دون أن نخسر إنسانيتنا. فأنا أشعر أنّ في داخلي وحشاً يزمجر ويناضل للخروج إلى الحرّية، وإلى توبياس، وفوق كلّ شيء، إلى الحياة. ومهما حاولت، لا أفلح في قتله.

عوضاً عن ذلك، بكيت بحرقة.

á á á

يسار، يمين، يمين. يسار، يمين يسار. يمين، يمين. هذا هو ترتيب انعطافاتنا من نقطة الانطلاق، أي زنـزانتي، إلى وجهتنا.

دخلنا غرفة جديد، تحتوي على كرسي مائل قليلاً، مثل كرسي طبيب الأسنان. رأيت في إحدى الزوايا شاشة ومكتباً جلست أمامه جانين.

سألتها: "أين هو؟"

انتظرتُ ساعات لأطرح هذا السؤال. فقد استغرقت في النوم، وحلمت أنّني ألاحق توبياس في مقرّ الشجاعة. ومهما أسرعت، يبقى بعيداً عنّي، أراه وهو يختفي عند المنعطفات، ولا ألمح سوى طرف كمّه أو عقب حذائه.

نظرت إليّ جانين باستغراب، لكنّها لم تكن مستغربة، بل تتهرّب منّي.

قلت: "توبياس". ارتجفت يداي، لكن ليس خوفاً، بل غضباً هذه المرّة. "أين هو؟ ماذا تفعلون به؟"

قالت جانين: "لا أرى سبباً لإعطائك هذه المعلومات. وبما أنّك مجرّدة من النفوذ، لا أظنّ أنّك قادرة على إعطائي سبباً، إلاّ إن كنتِ ترغبين في تغيير بنود اتّفاقنا".

أردت أن أصرخ في وجهها أنّني بالطبع، *بالطبع* أفضّل أن أعرف مصير توبياس أكثر ممّا أودّ أن أعرف عن أسباب جموحي، لكنّني لم أفعل. لا يجب أن أتّخذ قرارات متسرّعة. فهي ستفعل بتوبياس ما تريد، سواء عرفت أم لم أعرف. ومن الأهمّ أن أفهم تماماً ما يجري معي.

أخذت نفساً من أنفي، وأخرجته من أنفي أيضاً. ثمّ هززت يديّ، وجلست على الكرسي.

قالت: "هذا مثير للاهتمام".

سألتها: "أليس من المفترض أنّك تحكمين جماعة وتخطّطين لحرب؟ ماذا تفعلين هنا، تجرين اختبارات على فتاة لم تتجاوز ستّة عشر عاماً؟"

قالت وهي تستند إلى ظهر كرسيها: "أنت تصفين نفسك بطرق مختلفة، بحسب ما يناسبك. تصرّين حيناً أنّك لستِ فتاة صغيرة، وتؤكّدين العكس حيناً آخر. ما يثير فضولي هو كيف تنظرين حقّاً إلى نفسك؟ على أنّك كبيرة، أم صغيرة؟ أم كليهما؟ أم لا هذه ولا تلك؟"

أجبتها بصوت عملي وخالٍ من الانفعال، مثل صوتها: "لا أرى سبباً لإعطائك هذه المعلومات".

سمعت ضحكة خفيفة، ورأيت بيتر يغطّي فمه. رمقته جانين شزراً، فتحوّلت ضحكته بلا جهد إلى قحّة.

قالت: "السخرية هي عمل طفولي، بياتريس، ولا تليق بك".

فأعدت من ورائها وأنا أقلّد صوتها قدر الإمكان: "*السخرية هي عمل طفولي، بياتريس، ولا تليق بك*".

رمقت جانين بيتر قائلة: "المصل". تقدّم وراح يعبث بمحتويات صندوق أسود موضوع على المكتب، ثمّ يُخرج حقنة مزوّدة أساساً بإبرة.

بدأ بيتر يقترب منّي، فمددت يدي قائلة: "اسمح لي".

نظر إلى جانين ليأخذ الإذن، فقالت: "لا بأس". أعطاني الإبرة، فغرزتها في جانب عنقي، وضغطتُ عليها. ضغطت جانين بإصبعها على أحد الأزرار، وأظلمت الغرفة.

á á á

وقفت أمّي بين المقاعد، ومدّت ذراعها إلى الأعلى لتمسك بالعارضة المعدنية. لم تكن تنظر إلى الناس الجالسين حولي، بل إلى المدينة التي نمرّ بها مع تقدّم الحافلة. ظهرت تجاعيد على جبينها وحول فمها عندما عبست.

سألتها: "ما الأمر؟"

أشارت إلى نوافذ الباص قائلة: "ينتظرنا عمل كثير، ولم يتبقَّ منّا إلاّ القليل".

كان ما تشير إليه واضحاً. فقد انتشر الركام في الخارج على مدّ نظري. مررنا من أمام مبنى تحوّل إلى أنقاض، وراح حطام الزجاج يلمع في الأزقّة. فتساءلت ما الذي سبّب كلّ هذا الدمار.

قلت: "إلى أين نحن ذاهبتان؟"

ابتسمت لي، ورأيت تجاعيد مختلفة عند زوايا عينيها. "نحن ذاهبتان إلى مقرّ المعرفة".

عبست مفكّرة. فقد أمضيت معظم حياتي أتجنّب مقرّ المعرفة. حتّى إنّ والدي كان يقول إنّه يأبى أن يتنفّس هواءهم. "ماذا سنفعل هناك؟"

"سيساعدوننا".

لماذا أشعر بانقباض في معدتي عندما أفكّر بأبـي؟ تخيّلت وجهه، الذي أرهقته حياة من الخيبات إزاء العالم المحيط به، وشعره القصير على طراز أعضاء نكران الذات، وأحسست بالألم نفسه الذي ينتابني عندما أشعر بالجوع، ألم أجوف.

قلت: "هل حدث شيء لأبـي؟"

هزّت رأسها نافية. "لماذا تسألين؟"

"لا أدري".

لا أشعر بهذا الألم عندما أنظر إلى أمّي. غير أنّني أحسّ أنّ كلّ ثانية نمضيها واقفتين على هذه المسافة القصيرة من بعضنا يجب أن أحفرها في عقلي إلى أن تتكيّف كلّ ذاكرتي مع شكلها. لكن إن لم تكن دائمة، فماذا تكون؟

توقّفت الحافلة، وفُتحت الأبواب. بدأت أمّي تنـزل، فلحقت بها. كانت أطول منّي، بحيث استقرّ نظري بين كتفيها، عند أعلى عمودها الفقري. بدت ضعيفة، لكنّها لم تكن كذلك.

دست على الرصيف، وخشخش حطام الزجاج تحت قدميّ. كان أزرق اللون، وبالنظر إلى الفتحات التي تملأ المبنى إلى يميني، كان زجاج نوافذ.

"ماذا جرى؟"

أجابت أمّي: "وقعت حرب. وهذا ما بذلنا جهدنا لتجنّبه".

"وكيف ستساعدنا جماعة المعرفة؟"

أجابت بلطف: "أخشى أنّ حقد أبيك على المعرفة أتى على حسابك. لقد ارتكبوا الأخطاء، طبعاً، لكن شأنهم شأن الجميع، هم مزيج من الخير والشرّ. فماذا كنّا لنفعل لولا أطبّائنا، وعلمائنا، وأساتذتنا؟"

مرّرت يدها على شعري.

"لا تنسي ذلك، بياتريس".

وعدتها قائلة: "لن أفعل".

واصلنا السير، لكنّ شيئاً ما قالته أزعجني. أهو ما قالته عن أبـي؟ كلاّ، فأبـي يتذمّر دائماً من المعرفة. أهو شيء عنهم؟ قفزت فوق لوح كبير من الزجاج. كلاّ، غير ممكن. كانت محقّة حيال جماعة المعرفة، فكلّ أساتذتي كانوا ينتمون إليها، وكذلك الطبيب الذي جبّر ذراع أمّي عندما كسرتها قبل بضع سنوات.

إنّه الجزء الأخير، "لا تنسي ذلك"، كما لو أنّ الفرصة لن تتاح لها لتذكيري لاحقاً.

أحسست بشيء يتغيّر في ذهني، كما لو أنّ مكاناً ما كان مغلقاً وفُتح للتوّ.

ناديتها: "أمّي؟"

نظرت إليّ، وسقطت خصلة شقراء من عقدة شعرها ولامست خدّها.

"أنا أحبّك".

أشرت إلى نافذة إلى يساري، فتحطّمَت، وتساقط حطام الزجاج فوقنا مثل المطر.

لا أريد أن أستيقظ في غرفة في مقرّ المعرفة، لذلك لم أفتح عينيّ فوراً، ولا حتّى عندما تلاشت المحاكاة. حاولت الاحتفاظ بصورة أمّي وشعرها الملتصق بخدّها لأطول مدّة ممكنة. لكن عندما أصبح احمرار أجفاني هو كلّ ما أراه، فتحتُ عينيّ.

قلت لجانين: "توقّعت منك أداءً أفضل".

أجابت: "هذه مجرّد بداية".

الفصل الحادي والثلاثون

لم أحلم في تلك الليلة بتوبياس، ولا بويل، بل بأمّي. وقفنا في بساتين جماعة الوئام، وتدلّى التفّاح الناضج من فوقنا. رسم ظلّ الأوراق أشكالاً داكنة على وجهها، وكانت ترتدي الأسود، مع أنّني لم أرها يوماً بهذا اللون عندما كانت على قيد الحياة. أخذت تعلّمني كيف أجدل شعري، وتوضح لي طريقة ذلك على خصلة من شعرها، وتضحك كلّما تعثّرت أصابعي.

استيقظت وأنا أتساءل كيف لم ألاحظ وأنا أجلس أمامها كلّ يوم على مائدة الإفطار أنّها كانت تضجّ بطاقة الشجاعة. هل لأنّها أخفتها جيّداً؟ أم لأنّني لم أنتبه؟

دفنت وجهي في الفراش الرقيق الذي أنام عليه. لن أعرفها أبداً، لكن على الأقلّ، لن تعرف هي الأخرى ما فعلتُه بويل. ففي هذه المرحلة، لا أظنّ أنّني سأحتمل ذلك.

كنت لا أزال أنفض غبار النعاس عن عينيّ وأنا أتبع بيتر في الممرّ، بعد ثوانٍ أو دقائق، لا أدري.

"بيتر". آلمني حلقي، لا بدّ وأنّني كنت أصرخ وأنا نائمة. "كم الساعة؟"

كان يضع ساعة، لكنّها مخفيّة، ولم أستطع رؤيتها. حتّى إنّه لم يكلّف نفسه عناء النظر إليها.

سألته: "لماذا تقوم أنت دائماً بمرافقتي؟ ألا يُفترض بك القيام بعمل شرّير ما، مثل ركل الجراء، أو التجسّس على الفتيات في غرفهنّ، أو شيء من هذا القبيل؟"

"كما تعرفين، أنا أعرف ما فعلته بويل. لذلك لا تدّعي أنّك أفضل منّي، لأنّنا متشابهان تماماً".

كان الشيء الوحيد الذي يميّز الأروقة عن بعضها هنا هو طولها. لذلك قرّرت تمييزها بحسب عدد الخطوات التي أقوم بها قبل الانعطاف. عشرة، سبع وأربعون، اثنتان وعشرون.

قلت: "أنت مخطئ. قد نكون كلانا سيّئان، لكن ثمّة فرق هائل بيننا، فأنا لست راضية عن حالي".

ضحك بيتر ساخراً، بينما مررنا بين طاولات مختبر المعرفة. عندئذٍ، أدركت أين أنا، وإلى أين نحن ذاهبان. إنّنا عائدان إلى الغرفة التي أرتني إيّاها جانين، الغرفة التي سيتمّ إعدامي فيها. ارتعدت بقوّة بحيث صكّت أسناني، وأصبح من الصعب عليّ متابعة السير، أو التفكير بشكل سليم. قلت في نفسي، *إنّها مجرّد غرفة، كغيرها من الغرف*.

يا لي من كاذبة.

هذه المرّة لم تكن غرفة الإعدام خالية، بل وقف فيها أربعة من الشجعان الخونة، في إحدى الزوايا، واثنان من المعرفة، امرأة سمراء ورجل أكبر سنّاً، كلاهما يرتديان معاطف المختبر، ويقفان مع جانين بالقرب من الطاولة المعدنية في الوسط. أحاطت بالطاولة عدّة آلات، وامتدّت الأسلاك في كلّ مكان.

لا أدري ما هي وظيفة معظم هذه الآلات، لكن كان بينها شاشة لرصد نبض القلب. ما الذي تخطّط جانين لفعله ويتطلّب شاشة كهذه؟

قالت جانين، وقد بدا صوتها ضجراً: "لتجلس على الطاولة". حدّقتُ للحظة إلى اللوح الفولاذي الذي ينتظرني. ماذا لو غيّرت رأيها حيال موعد إعدامي؟ماذا لو كان هذا هو الموعد؟ أحكم بيتر يديه حول ذراعيّ، فجنّدت كلّ طاقتي للمقاومة.

غير أنّه اكتفى برفعي ببساطة، وتلافى قدميّ اللتين تركلان الهواء، ثمّ رماني على اللوح المعدني مسبّباً الألم في أنحاء جسدي. شهقتُ، ووجّهتُ

قبضة عشوائية أصابت معصم بيتر. تقلّص وجهه ألماً، فتقدّم بقيّة الشجعان الموجودين للمساعدة.

ثبّت أحدهم كاحليّ، والآخر كتفيّ، بينما قيّدني بيتر بأحزمة سوداء. وعندما شعرت بألم في كتفي المصاب، توقّفت عن المقاومة.

سألتهم وأنا ألوي رأسي لأنظر إلى جانين: "ما الذي يجري بالله عليكم؟ لقد اتّفقنا على أن أتعاون مقابل الحصول على النتائج! اتّفقنا-"

قالت جانين، وهي تنظر إلى ساعتها: "هذا منفصل تماماً عن اتّفاقنا. الأمر لا يتعلّق بك، بياتريس".

فُتح الباب مجدّداً.

دخل توبياس، وهو يعرج، يحيط به اثنان من الشجعان الخونة. كان وجهه مكسواً بالرضوض، بينما ظهر شقّ فوق حاجبه. لم تكن مشيته طبيعية، بل يقف على نحو مستقيم تماماً. لا بدّ أنّه مصاب، غير أنّني حاولت عدم التفكير بما حلّ به.

قال بصوت خشن: "ما هذا؟"

لا بدّ أنّه كان يصرخ.

أحسست بورم في حلقي.

قال وهو يندفع نحوي: "تريس"، لكنّ الشجعان كانوا أسرع منه. فأمسكوا به قبل أن يقترب أكثر. "تريس، هل أنت بخير؟"

"أجل، وأنت؟"

أجاب بإيماءة من رأسه، لكنّني لم أصدّقه.

"عوضاً عن إضاعة مزيد من الوقت، سيّد إيتون، فكّرتُ باعتماد الإجراء الأكثر منطقية. بالطبع، يُفضَّل استخدام مصل الحقيقة، لكنّني سأحتاج إلى أيّام لإجبار جاك كانغ على تسليمي بعضاً منه، ذلك أنّ جماعة النـزاهة حريصة عليه أشدّ الحرص، ولا أودّ أن أضيع بضعة أيّام

سدى". اقتربت خطوة إلى الأمام، حاملة قطنة بيدها. كان هذا المصل رمادي اللون. قد يكون شكلاً جديداً من مصل المحاكاة، لكنّني أشك في ذلك.

تساءلت ما هو مفعوله، لكن بالنظر إلى مدى سرورها بنفسها، لا يمكن أن يكون جيّداً.

"خلال ثوانٍ، سأحقن تريس بهذا السائل. لكنّني واثقة أنّ ميولك اللاأنانية ستدفعك في النهاية إلى إخباري بما أريد معرفته".

قاطعتُها قائلة: "ماذا تريد أن تعرف؟"

أجاب من دون أن ينظر إليّ: "تريد معلومات عن مخابئ المنبوذين".

حملقت وأنا أفكّر أنّ المنبوذين هم آخر أمل لدينا بعدما أصبح نصف الشجعان الأوفياء وجميع أعضاء الوئام جاهزين للخضوع لتأثير المحاكاة، ونصف جماعة نكران الذات في عداد الأموات.

"لا تعطها إيّاها، فأنا سأموت على أيّ حال، لا تقل شيئاً".

قالت جانين: "ذكّرني، يا سيّد إيتون، ماذا تفعل محاكاة جماعة الشجاعة؟"

أجاب وهو يشدّ على أسنانه: "نحن لسنا في فصل دراسي، أخبريني ماذا تنوين أن تفعلي".

"سأخبرك إن أجبت عن سؤالي البسيط".

نظر إليّ توبياس مجيباً: "حسناً. تنشّط المحاكاة اللوزة المسؤولة عن معالجة الخوف، وتُنتج هلوسة ترتكز على ذلك الخوف، ثمّ تنقل البيانات إلى جهاز كمبيوتر لمعالجتها ومراقبتها".

بدا أنّه كان يحفظ تلك المعلومات منذ مدّة طويلة. ولربّما فعل حقّاً، فقد أمضى وقتاً طويلاً في الإشراف على جلسات المحاكاة.

قالت: "ممتاز، عندما كنتُ أطوّر جلسات محاكاة جماعة الشجاعة، منذ سنوات، اكتشفنا أنّ مستويات معيّنة من القوّة تطغى على الدماغ وتمنعه من التفاعل مع الخوف لابتكار محيط جديد، وكان هذا عندما خفّفنا المحلول لتكون المحاكاة تعليمية أكثر. لكنّني ما زلت أذكر كيف أعدّه".

طرقت على الحقنة بإصبعها.

"الخوف أقوى من الألم. لذلك، هل تودّ قول شيء للآنسة برايور قبل أن أحقنها؟"

ضغط توبياس على شفتيه، بينما أدخلت جانبَين الإبرة.

á á á

بدأ الأمر بهدوء، مع نبض قلب. لم أكن واثقة في البداية من مصدر الصوت، لأنّه كان عالياً جدّاً ليكون نبض قلبي. ثمّ أدركت أنّه صادر عنّي، وأنّه يزداد سرعة.

تصبّب العرق من كفّيّ ومن خلف ركبتيّ.

بعد ذلك، بدأت أشهق لكي أتنفّس.

وهنا بدأ الصراخ، ولم أعد قادرة على التفكير.

á á á

راح توبياس يقاوم الشجعان الخونة عند الباب.

سمعت أصواتاً شبيهة بصرخة طفل بجانبي، ورحت أحرّك رأسي لأعرف مصدرها، لكنّني لم أرَ سوى شاشة. فوقي، التوَت خطوط السقف وتحوّلت إلى مخلوقات وحشية. ثمّ فاحت في الهواء رائحة اللحم المتعفّن، وأحسست بالغثيان. أصبح شكل المخلوقات البشعة أكثر

وضوحاً، وتحوّلت إلى طيور، غربان ذات مناقير بطول ساعدي، وأجنحة داكنة جدّاً بحيث بدت أنّها تبتلع كلّ الضوء.

قال توبياس: "تريس". فالتفتّ نحوه.

كان واقفاً عند الباب، حيث كان قبل أن أُحقن، لكنّه يحمل الآن سكّيناً. وجّه نصلها إلى معدته. ثمّ بدأ يقرّبها من جسده، بحيث لامس نصلها بطنه.

"ماذا تفعل، توقّف!"

ابتسم قليلاً وقال: "أنا أفعل ذلك من أجلك".

ضغط السكّين ببطء، وسالت الدماء من قميصه. شهقت، ورحت أقاوم الأحزمة التي تثبّتني على الطاولة. "كلاّ، توقّف!" لو كنت في محاكاة، لتحرّرت الآن، لذلك هذا يعني أنّ ما يجري حقيقي، حقيقي. رحت أصرخ بينما غرز السكّين بأكملها. انهار على الأرض، وسال دمه بسرعة وأحاط به. نظرَت إليه الطيور السوداء بأعينها الصغيرة، وطارت نحوه في إعصار من الأجنحة والمخالب، ثمّ راحت تنقر جلده. رأيت عينيه من خلال دوّامة الريش، وكان لا يزال مستيقظاً.

حطّ طائر على أصابعه الممسكة بالسكّين. أخرجها مجدّداً، ورماها على الأرض. يجب أن أتمنّى أن يكون ميتاً، لكنّني أنانية جدّاً ولم أستطع. ارتفع جسدي عن الطاولة، وتقلّصت كلّ عضلاتي، وآلمني حلقي من هذه الصرخة التي لم تستطع أن تتحوّل إلى كلمات كما أنّها لن تتوقّف.

á á á

"مهدّئ". صدر الأمَر عن صوتٍ قاسٍ.

غُرزت إبرة أخرى في عنقي، وبدأ نبضي يتباطأ. تنهّدت بارتياح، ومرّت ثوانٍ لم أستطع فيها سوى البكاء.

لم يكن هذا خوفاً، بل شيء آخر، انفعال لا يجب أن يكون له وجود.
قال توبياس: "أفلتوني"، وبدا صوته أكثر خشونة من ذي قبل. رففت عينيّ بسرعة، لكي أرى من خلال دموعي. كان ثمّة آثار حمراء على ذراعيه حيث أمسك به الشجعان الخونة، لكنّه لم يكن يُحتضر. كان على خير ما يرام. "لن أخبركم إن لم تفلتوني".

هزّت جانين رأسها موافقة، فتركوه يُهرع إليّ. أمسك بيدي ومرّر يده الأخرى على شعري. ابتلّت أصابعه بالدموع، لكنّه لم يمسحها، بل انحنى وضغط جبينه على جبيني.

قال بيأس، على مقربة من وجهي: "مخابئ المنبوذين... أحضروا لي خارطة لأحدّدها لكم".

بدا جبينه بارداً وجافاً. آلمتني عضلاتي، وذلك على الأرجح من شدّة توتّرها خلال ذلك الوقت الذي تركت فيه جانين المصل في جسدي.

تراجع، وأبقى أصابعه حول أصابعي، إلى أن أتى الشجعان الخونة وأجبروه على إفلاتي لاقتياده إلى مكان آخر. سقطت يدي على الطاولة. لم أعد أرغب في مقاومة القيود، بل كلّ ما أريده هو النوم.

بعد ذهاب توبياس ومرافقيه، قالت جانين: "بما أنّكم هنا..." وركّزت نظرها على أحد أعضاء جماعتها، "أحضروه، فقد حان الوقت".

نظرت مجدّداً إليّ.

"بينما أنت نائمة، سنجري اختباراً قصيراً لمراقبة دماغك من بضع نواحٍ. لا يشتمل الأمر على أيّ خطورة. لكن قبل ذلك... لقد وعدتك بالالتزام بالشفافية التامّة في هذه الاختبارات. لذلك أرى أنّه من العدل أن تعرفي من الذي كان يساعدني في هذه المساعي". ابتسمت قليلاً، ثمّ تابعت: "من الذي أخبرني بالجماعات الثلاثة التي كنتِ مؤهّلة إليها،

وبأفضل الطرق لإجبارك إلى المجيء إلى هنا، وبإدخال أمّك في آخر محاكاة لجعلها أكثر فاعلية".

نظرَت إلى الباب بينما كان المسكّن يعطي مفعوله، ويجعل رؤيتي تبدو ضبابية عند أطراف حقلي البصري. نظرتُ إلى الأعلى، ومن خلال ضباب العقاقير، رأيته.

كاليب.

الفصل الثاني والثلاثون

استيقظت مع ألم في الرأس. حاولت أن أعاود النوم، لأنّني أهدأ وأنا نائمة، لكنّ صورة كاليب الواقف عند الباب لم تفارقني، بل كانت تراودني تكراراً، مصحوبة بنعيق الغربان.

لماذا لم أتساءل أبداً كيف عرف إريك وجانين أنّني مؤهّلة للانضمام إلى ثلاثة جماعات؟

لماذا لم يخطر ببالي أبداً أنّ ثلاثة أشخاص في العالم فقط يعرفون هذه الحقيقة، وهم توري، وكاليب، وتوبياس.

تسارع نبضي، ولم أفهم شيئاً. لم أعرف لماذا قد يعمد كاليب إلى خيانتي. متى حدث ذلك يا ترى؟ بعد هجوم المحاكاة، أم بعدما هربنا من جماعة الوئام؟ أم قبل ذلك، عندما كان أبـي لا يزال على قيد الحياة؟ فقد أخبرنا كاليب أنّه ترك جماعة المعرفة عندما اكتشف ما يخطّطون له. هل كان يكذب؟

لا شكّ في ذلك. ضغطت بيدي على جبيني. لقد اختار أخي الجماعة قبل الدم، ولا بدّ من وجود سبب لذلك. لا شكّ أنّها هدّدته، أو أجبرته بطريقة من الطرق.

فُتح الباب، غير أنّني لم أرفع رأسي أو أفتح عينيّ.

"أيّتها المتزمّتة". كان بيتر، بالطبع.

"نعم". عندما أنـزلت يدي عن وجهي، سقطت معها خصلة من الشعر. فنظرت إليها من زاوية عيني، ولاحظت أنّ شعري لم يكن يوماً قذراً بهذا الشكل.

وضع بيتر زجاجة ماء وشطيرة بجانب السرير، غير أنّ فكرة تناولها سبّبت لي الغثيان.

سألني: "هل تعانين من موت دماغي؟"

"لا أظنّ ذلك".

"لا تكوني واثقة جدّاً".

"ها-ها. منذ متى وأنا نائمة؟"

"منذ يوم تقريباً. يفترض بـي مرافقتك إلى مكان الاستحمام".

أجبته بتعب: "إن قلت شيئاً عن مدى حاجتي إلى ذلك، سأقتلع عينك".

دارت بـي الغرفة عندما رفعت رأسي، لكنّني تمكّنت من إنـزال ساقيّ عن السرير والوقوف. بعد ذلك، مشينا أنا وبيتر في الرواق. لكن عندما انعطفنا للذهاب إلى الحمّام، رأيت أشخاصاً في آخر الممرّ.

كان أحدهم هو توبياس. عرفت متى سيتقاطع طريقنا، بين المكان الذي أقف فيه وباب زنـزانتي. حدّقت، ليس إليه بل إلى المكان الذي سيكون فيه عندما يمسك بيدي، كما فعل في آخر مرّة مررنا فيها ببعضنا. شعرت بوخز في بشرتي من كثرة الحماس. للحظة واحدة، سألمسه مجدّداً.

ما زالت تفصلنا ستّ خطوات، خمس.

لكن عند الخطوة الرابعة، توقّف توبياس، وارتخى جسده، بحيث فاجأ مرافقيه من الشجعان الخونة. أرخى الحارس قبضته لثانية واحدة، فسقط توبياس أرضاً.

بعد ذلك، استدار، واندفع إلى الأمام، ثمّ أخذ المسدّس من حزام الحارس الأقصر طولاً.

انطلق الرصاص، فانخفض بيتر يميناً، وجرّني معه. مرّ رأسي على الجدار. رأيت فم الحارس مفتوحاً، لا بدّ أنّه يصرخ، لكنّني لا أسمعه.

ركله توبياس بعنف على بطنه. فأُعجِب الجزء الشجاع منّي بكمال شكله، وبسرعته التي لا تصدّق. استدار بعد ذلك، ووجّه المسدّس نحو بيتر، الذي كان قد أفلتني أساساً.

أمسك توبياس بذراعي الأيسر، وساعدني على الوقوف، ثمّ بدأ يركض. لحقت به متعثّرة. في كلّ مرّة أدوس فيها على الأرض، كان الألم يمتدّ إلى رأسي، غير أنّني لم أتوقّف. رففت أجفاني لإبعاد الدموع، ورحت أقول لنفسي، *اركضي*، كأنّ هذا يجعل الفرار أكثر سهولة. كانت يد توبياس خشنة وقوية، فتركته يقودني عند أحد المنعطفات.

قلت له بصوت منخفض: "توبياس".

توقّف، ونظر إليّ. قال وهو يمرّر أصابعه على خدّي: "آه كلاّ. تعالي، اصعدي على ظهري".

انحنى، فأحطت عنقه بذراعيّ، ودفنت وجهي بين كتفيه. حملني من دون صعوبة وأمسك بساقي بيده اليسرى، حاملاً المسدّس باليمنى.

راح يركض بسرعة، على الرغم من وزني. رحت أفكّر *كيف يمكن أن ينتمي إلى نكران الذات* ؟ فقد بدا مصمّماً خصّيصاً للسرعة والدقّة. ليس للقوّة تحديداً، فهو ذكي وليس قوياً. إنّه قوي بما فيه الكفاية لحملي فقط.

كانت الأروقة خالية، لكنّها لن تبقى كذلك. فقريباً، سيندفع الشجعان من كلّ حدب وصوب، وسنعلق في هذه المتاهة الباهتة. تساءلت كيف يخطّط توبياس لتجاوزهم.

رفعت رأسي فجأة، ولاحظت أنّه فوّت مخرجاً.

"توبياس، لقد تجاوزته".

سألني لاهثاً: "تجاوزتُ... ماذا؟"

"مخرجاً".

"أنا لا أحاول الهرب، سنتعرّض لإطلاق نار إن فعلنا، بل أحاول... إيجاد شيء".

كنت لأظنّ أنّني أحلم لو أنّ ألم رأسي لم يكن بهذا الحدّة. فوحدها أحلامي عادة غير منطقية إلى هذا الحدّ. لماذا اصطحبني معه، ما دام لا يحاول الهرب؟ وما الذي يفعله، وما هو هدفه، إن لم يكن الفرار من هنا؟

توقّف فجأة، وكاد يسقطني عن ظهره عندما وصل إلى ممرّ عريض تعلوه الألواح الزجاجية من الجانبين، لتكشف مكاتب خلفها. جلس أعضاء المعرفة جامدين أمام مكاتبهم، يحدّقون إلينا. لم يعرهم توبياس أيّ انتباه، فقد كان نظره مركّزاً، كما أرى، على الباب الواقع في آخر الممرّ، والذي كان يحمل لائحة كُتب عليها غرفة المراقبة-أ.

فتّش توبياس كلّ زاوية في الغرفة، ثمّ أطلق الرصاص على الكاميرا المعلّقة في السقف إلى يميننا، فسقطت. ثمّ أطلق الرصاص على الكاميرا المعلّقة في السقف إلى يسارنا، فتحطّمت عدستها.

قال: "يمكنك النـزول الآن، لا مزيد من الركض، أعدك".

انـزلقت عن ظهره، وأمسكت بيده. فتوجّه نحو باب مغلق مررنا به من قبل، ودخل حجرة مؤونة. أغلق الباب ووضع كرسياً تحت قبضته. وقفت أمامه، واحتكّ ظهري برفّ كُدّست عليه الأوراق، بينما توهّج فوقنا مصباح أزرق. جال نظره على وجهي بشوق كبير.

قال: "لا أملك كثيراً من الوقت، لذلك سأدخل في الموضوع مباشرة".

أومأت برأسي موافقة.

"لم آتِ إلى هنا في مهمّة انتحارية، بل أتيت لسببين. الأوّل هو العثور على غرفتي المراقبة المركزيتين في مقرّ المعرفة لكي نعرف، عندما ننفّذ هجومنا، ماذا ندمّر أوّلاً للقضاء على بيانات المحاكاة لكي لا تتمكّن من تفعيل المواد الناقلة التي حقنت بها الشجعان".

هذا يفسّر لماذا كنّا نركض من دون أن نهرب، وقد وجدنا غرفة مراقبة في آخر ذلك الرواق.

حدّقت إليه، وأنا لا أزال تحت تأثير الدقائق الأخيرة.

تنحنح متابعاً: "أمّا الثاني، فهو التأكّد أنّك ستصمدين لأنّنا نملك خطّة".

"وما هي؟"

قال: "بحسب أحد جواسيسنا، حُدّد موعد إعدامك بعد أسبوعين من اليوم. على الأقلّ، هذا الموعد الذي حدّدته جانين للمحاكاة الجديدة المقاوِمة للجامحين. لذلك، بعد أربعة عشر يوماً، سيقوم المنبوذون، والشجعان الأوفياء، ومن يرغب في القتال من جماعة نكران الذات، باجتياح مجمّع المعرفة والاستيلاء على أهمّ أسلحتهم، أي نظام الكمبيوتر. هذا يعني أنّنا سنفوق الشجعان الخونة عدداً، وبالتالي أعضاء المعرفة".

"لكنّك أخبرت جانين بأماكن مخابئ المنبوذين".

عبس مجيباً: "أجل، هذه هي المشكلة. لكن كما نعلم أنا وأنت، كثير من المنبوذين هم جامحون، وكثير منهم بدأوا بالانتقال أساساً إلى قطاع نكران الذات عندما رحلتُ، لذلك لن يتأثّر سوى عدد قليل من المخابئ. سيتبقّى منهم عدد كبير للمشاركة في الاجتياح".

أسبوعان. هل سأتمكّن من الصمود لأسبوعين؟ أنا متعبة منذ الآن، وأعجز عن الوقوف بمفردي. حتّى عمليّة الإنقاذ التي يعرضها عليّ توبياس لا تجذبني، فأنا لا أريد الحرية، بل كلّ ما أريده هو النوم. أريد أن ينتهي كلّ هذا.

"لا أظنّ..." خنقتني الكلمات وبدأت أبكي. "لا أستطيع... الاحتمال... كلّ هذه المدّة".

قال بجدّية: "تريس". لا يلاطفني أبداً. أتمنّى لو يفعل هذه المرّة فقط. "عليك ذلك، عليك الصمود".

"لماذا؟" خرج السؤال من حلقي مثل أنين. رغبت أن أضرب على صدره بقبضتي، مثل طفل أصيب بنوبة غضب. سالت الدموع على خدّيّ بغزارة، ومع أنّني أدركت أنّني أتصرّف بسخافة، إلاّ أنّني لم أستطع التوقّف. "لماذا عليّ ذلك؟ لماذا لا يقوم أحد آخر بفعل شيء عنّي ولو لمرّة واحدة؟ ماذا لو لم أعد أرغب في ذلك بعد اليوم؟"

ثمّ أدركت أنّ ما أعنيه بذلك هو الحياة. لم أعد أريدها، بل أريد أبويّ، ومنذ أسابيع. لقد كنت أحاول الالتحاق بهم، وأنا الآن قريبة من ذلك، غير أنّه يطلب منّي البقاء.

لم يسبق لي أن سمعت صوته بهذا الحنان. "أعرف، أعرف كم هو صعب. إنّه أصعب شيء مررتِ به".

هززت رأسي رافضة.

"لا يمكنني إجبارك. لا يمكنني إجبارك على الرغبة في الصمود وتجاوز هذه التجربة". احتضنني، ومرّر يده على شعري، ثمّ أبعده خلف أذني. قال: "لكنّك ستفعلين، سواء اعتقدتِ أنّك قادرة عليه أم لا. ستصمدين، فأنا أعرفك".

ابتعدت قليلاً، وعانقته.

لا أريد إخباره الحقيقة، أي أنّه مخطئ، وأنّني لا أريد الصمود.

فُتح الباب، وتجمّع الشجعان الخونة في حجرة المؤونة. فتراجع توبياس، وقدّم السلاح الذي يحمله إلى أقربهم.

الفصل الثالث والثلاثون

"بياتريس".

استيقظت مجفلة. كانت الغرفة التي أنام فيها الآن، من أجل الاختبار الذي يريدون إجراءه عليّ، كبيرة. عُلّقت الشاشات على الجدار الخلفي وتوهّجت المصابيح الزرقاء فوق الأرض وصفوف المقاعد المبطّنة في الوسط. كنت أجلس على المقعد الأبعد، ويقف بيتر إلى يساري، وقد اتّكأ رأسي على الجدار. ما زلت أشعر بالرغبة في النوم.

أتمنّى لو أنّني لم أستيقظ. فقد وقف كاليب على بعد بضع خطوات، ملقياً بثقله على قدم واحدة، في وضعية متردّدة.

سألته: "هل تركتَ حقّاً جماعة المعرفة يوماً؟"

أجاب: "الأمر ليس بهذه البساطة. أنا-"

أردت أن أصرخ في وجهه، "بل هو بهذه البساطة". لكنّ صوتي أتى بلا انفعال. "متى خنت أسرتنا؟ قبل أم بعد وفاة والدينا؟"

"لقد قمت بواجبي. أنت تظنّين أنّك تفهمين ما يجري، بياتريس، لكنّك مخطئة. فهذا الوضع برمّته... أكبر ممّا تظنّين". كانت عيناه تتوسّلان لي لكي أفهم، غير أنّني عرفت نبرة صوته، فقد كان يستخدمها في ما مضى لتوبيخي. إنّها مُذلّة.

أعرف أنّ الغرور هو أحد عيوب أبناء المعرفة، وغالباً ما يشوب قلبي. لكنّ الطمع هو العيب الآخر، وأنا لا أملكه. لذلك، أجد نفسي في وسط الطريق، كالعادة.

ضغطت على نفسي للوقوف. "لم تجب بعد على سؤالي".

تراجع خطوة.

"الأمر لا يتعلّق بجماعة المعرفة، بل بالجميع، بكلّ الجماعات، وبالمدينة، وبما يوجد خارج السياج".

قلت له: "أنا لا آبه"، غير أنّ هذا ليس صحيحاً. فعبارة "خارج السياج" علقت في ذهني. خارجه؟ كيف يمكن لأيّ من هذا أن يكون على علاقة بما يجري في الخارج؟

عادت ذكرى إلى ذهني. فقد قال ماركوس إنّ معلومات تملكها نكران الذات هي السبب وراء هجوم جانين على الجماعة. هل تتعلّق تلك المعلومات بما يوجد في الخارج أيضاً؟

أبعدت الفكرة عن رأسي في الوقت الحالي.

"كنت أظنّ أنّك تهتمّ بالحقائق، وبحرّية المعلومات. حسناً، ماذا عن *هذه* الحقيقة، كاليب؟ متى-" غصّ صوتي. "*متى* خنتَ أبوينا؟"

قال بصوت هادئ: "لطالما كنت من المعرفة، حتّى عندما كان يفترض بـي الانتماء إلى نكران الذات".

"إن كنتَ مع جانين، سأكرهك، تماماً كما كان أبانا ليفعل".

أجاب كاليب ساخراً: "أبانا... أبانا *كان* من جماعة المعرفة، بياتريس. جانين أخبرتني بذلك، فقد كان زميلها في المدرسة".

أجبته بعد بضع ثوانٍ: "لم يكن من جماعة المعرفة، بل اختار تركهم. لقد اختار هوية مختلفة، مثلك تماماً، وأصبح شخصاً آخر. أمّا أنت فاخترت هذا... هذا *الشرّ*".

قال كاليب بحدّة: "تتكلّمين مثل أبناء الشجاعة الحقيقيين، إمّا هذا أو ذاك. لكنّ العالم لا يعمل بهذه الطريقة بياتريس. فالشرّ يعتمد على المكان الذي تقفين فيه".

"مهما يكن المكان الذي أقف فيه، سأظلّ أعتقد أنّ السيطرة على عقول مدينة بأكملها هو عمل فظيع". أحسست بشفتي ترتجف. "سأظلّ

أعتقد أنّ تسليم أختك ليتمّ إخضاعها لاختبارات ومن ثمّ إعدامها هو عمل شرّير!"

مع أنّه أخي، إلاّ أنّني أردت تقطيعه إرباً.

عوضاً عن ذلك، عاودت الجلوس. فمهما آذيته، لن يندمل الجرح الذي سبّبته تلك الخيانة. هذا *الجرح الذي يسبّب لي الألم في كلّ أنحاء جسدي*. ضغطت على صدري ورحت أدلّكه لتخفيف شيء من التوتّر.

دخلت جانين مع جيش من علماء المعرفة والشجعان الخونة في اللحظة التي كنت أمسح فيها الدموع عن خدّيّ. فرففت عينيّ بسرعة لكي لا تراني، لكنّها بالكاد نظرت إليّ.

أعلنت قائلة: "لنرَ النتائج". وقف كاليب قرب الشاشات، وضغط على شيء في أوّل الغرفة، فأضيئت الشاشات، وامتلأت بكلمات وأرقام لم أفهمها.

"اكتشفنا أمراً مثيراً جدّاً للاهتمام، آنسة برايور". لم يسبق لي أن رأيتها بهذا السرور، فهي على وشك الابتسام، لكن ليس تماماً. "أنت تملكين كمية وافرة من خلية عصبية معيّنة تدعى ببساطة الخلّية العصبية المرآة. هل يودّ أحدكم شرح وظيفة هذه الخلّية للآنسة برايور؟"

رفع العلماء أيديهم جميعاً، فأشارت إلى امرأة كبيرة في السنّ في المقدّمة.

"تعمل هذه الخلايا العصبية عندما يقوم شخص ما بعمل معيّن ويراه شخص آخر وهو يؤدّيه. فهي تتيح لنا تقليد سلوك الآخرين".

"وعن ماذا هي مسؤولة أيضاً؟" نظرت جانين إلى "طلاّبها" كما كان أساتذتي يفعلون في المدرسة. فرفع عالم آخر يده.

"لغة التعلّم، وفهم نوايا الآخرين بحسب سلوكهم، و..." عبس متابعاً: "التعاطف".

"تحديداً"، هذه المرّة، ابتسمت لي ابتسامة واسعة خلّفت غمّازتين في خدّيها، "من يملك كثيراً من الخلايا العصبية المرآة القوية يمكن أن يتمتّع بشخصية مرنة قادرة على تقليد الآخرين بحسب الظروف عوضاً عن البقاء ساكناً".

فهمت لماذا تبتسم، وشعرتُ أنّ دماغي انفتح، وانسكبت أسراره على الأرض أمامي لكي أراها أخيراً.

قالت: "على الأرجح، تملك الشخصية المرنة جدارة لأكثر من جماعة، ألا توافقين آنسة برايور؟"

"ربّما. والآن إن استطعتِ جعل المحاكاة تُحبط هذه القدرة، نكون قد انتهينا".

"لا تستعجلي الأمور". صمتت ثمّ تابعت: "أقرّ أنّ لهفتك على الموت تدهشني".

أغمضت عينيّ مجيبة: "كلاّ، لا تدهشك على الإطلاق". ثمّ تنهّدت وسألتها: "هل يمكنني العودة الآن إلى زنـزانتي؟"

لا بدّ أنّني بدوت غير مكترثة، لكنّني لم أكن كذلك. فقد أردت العودة إلى غرفتي لكي أبكي بسلام، ولا أريدها أن تعرف بذلك.

قالت فرحة: "لا ترتاحي كثيراً. سنقوم قريباً بتجربة مصل محاكاة".

"حسناً، مهما يكن".

á á á

هزّ أحدهم كتفي، فاستيقظت مجفلة، وحملقت حولي، ثمّ رأيت توبياس راكعاً قربـي. كان يرتدي سترة لأحد الشجعان الخونة، وكان جانب وجهه مكسواً بالدم. سال الدم من جرح في أذنه التي خسر طرفها الأعلى. عندما لاحظت ذلك، تقلّص وجهي.

سألته: "ماذا جرى؟"

"انهضي، سنهرب".

"ما زال الوقت مبكراً، لم يمضِ أسبوعان بعد".

"لا وقت للشرح، هيّا".

"آه، ربّاه. توبياس".

جلست، وأحطته بذراعيّ. فشدّ ذراعيه حولي وسرى الدفء في جسدي وأراحني. ما دام هنا، فهذا يعني أنّني آمنة. سالت الدموع على خدّيّ.

وقف، وساعدني على الوقوف، فأحسست بألم في كتفي المصاب.

"ستصل التعزيزات قريباً، هيّا".

تركته يقودني إلى خارج الغرفة. عبرنا الرواق الأوّل من دون صعوبة، لكنّنا وجدنا حارسين من الشجعان في الرواق الثاني، شابّ وامرأة متوسّطة السنّ. أطلق توبياس رصاصتين خلال ثوانٍ وأصاب الاثنين، الأوّل في رأسه والثانية في صدرها. فتهاوت المرأة على الجدار، لكنّها لم تمت.

واصلنا التقدّم، ممرّاً تلو الآخر، وكانت كلّها متشابهة. لم ترتخِ قبضة توبياس على يدي. أدركت أنّه ما دام قادراً على رمي خنجر بحيث لا يصيب سوى طرف أذني، فهو يستطيع أن يطلق النار بدقّة على الشجعان الذين يخرجون في طريقنا. مررنا فوق جثث على الأرض، قتلهم توبياس على الأرجح في طريقه إلى هنا، ووصلنا أخيراً إلى مخرج الحرائق.

ترك توبياس يدي ليفتح الباب، فانطلق إنذار الحريق وصمّ أذنيّ، لكنّنا تابعنا الركض. كنت ألهث، لكنّني لم أكترث، ليس وأنا أهرب أخيراً، ليس وقد انتهى هذا الكابوس أخيراً. بدأ الاسوداد يشوب حقلي البصري، فأمسكت بذراع توبياس بقوّة، وأنا على ثقة أنّه سيقودني إلى أسفل السلالم.

انتهت الدرجات، ففتحت عينيّ. كان توبياس على وشك أن يفتح باب الخروج، لكنّني أوقفته قائلة: "أودّ أن... ألتقط أنفاسي..."

توقّف، فانحنيت واضعة يديّ على ركبتيّ. كان كتفي ما زال يؤلمني، فنظرت إليه عابسة.

قال بإصرار: "هيّا، لنخرج من هنا".

غارت معدتي وحدّقت إلى عينيه اللتين كانتا كحليتي اللون، مع بقعة زرقاء في بؤبؤ عينه الأيمن.

أمسكت بذقنه وعانقته، ثمّ تنهّدت قائلة: "لا يمكننا الخروج من هنا، لأنّنا في محاكاة".

ساعدني على الوقوف ممسكاً بيدي اليمنى. كان توبياس الحقيقي ليتذكّر الجرح الذي في كتفي.

سألني عابساً: "ماذا؟ ألا تظنّين أنّني سأعرف لو كنت في محاكاة؟"

"أنتَ لست في محاكاة، بل *أنت* المحاكاة". نظرت إلى الأعلى وقلت بصوت عالٍ: "توقّعت منك أداءً أفضل، جانين".

كلّ ما عليّ فعله الآن هو الاستيقاظ، وأعرف كيف. فقد فعلتها من قبل، في مشهد الخوف، عندما كسرت زجاج الخزّان بمجرّد لمسه براحتي، أو عندما جعلتُ المسدّس يظهر من بين الأعشاب لكي أطلق النار على الطيور. فاستللت سكّيناً من جيبي، لم يكن موجوداً منذ لحظة، ورغبت أن تكون ساقي قاسية كالألماس.

ضربت السكّين على فخذي، فالتوى نصلها.

á á á

استيقظت والدموع تسيل من عينيّ. استيقظت على صرخة جانين الغاضبة.

"ما السبب؟" أخذت المسدّس من يد بيتر، واجتازت الغرفة بسرعة، ثمّ ضغطت فوهته على جبيني. تصلّب جسدي وشعرت بالبرودة. لن تطلق النار عليّ. أنا مشكلة لا تستطيع حلّها، ولن تطلق النار.

"ما الذي يجري في رأسك؟ أخبريني. أخبريني وإلاّ قتلتك".

قمت ببطء عن الكرسي، ثمّ وقفت، وضغطت جبيني أكثر على الفوهة الباردة.

قلت لها: "أوتظنّين أنّني سأخبرك؟ أتظنّين أنّني أصدّق أنّك ستقتلينني من دون أن تحلّي هذه الأحجية؟"

"فتاة حمقاء. هل تعتقدين أنّ المسألة تتعلّق بك أنت وبدماغك المختلّ؟ الأمر لا يتعلّق بك، ولا بـي، بل بالحفاظ على أمن هذه المدينة من الأشخاص الذين يريدون إلقاءها في الجحيم!"

استجمعت ما تبقّى لي من قوّة، واندفعت نحوها، ثمّ غرزت أظافري بقوّة بما وقعَت عليه. صرخت من أعماق قلبها صرخة ألهبت دمائي، ثمّ لكمتُها بقوّة على وجهها.

التفّت ذراعان حولي لإبعادي عنها، ثمّ تلقّيت لكمة في جنبـي. رحت أئنّ وأقاوم بيتر الذي أمسك بـي بقوّة.

"لا الألم سيجبرني على إخبارك، ولا مصل الحقيقة سيجبرني، ولا المحاكاة ستجبرني، فأنا أملك مناعة تجاهها كلّها".

أخذ أنفها ينـزف، ورأيت خدوش أظافري على خدّيها، وعلى جانب عنقها، وهي تتحوّل إلى اللون الأحمر بفعل الدم. حدّقت إليّ وهي تضغط على أنفها. كان شعرها قد أصبح مشعّثاً، ورأيت يدها الأخرى ترتجف.

صحت بصوت عالٍ مزّق حنجرتي: "لقد *فشلتِ*. أنت عاجزة عن السيطرة عليّ!" أخيراً توقّفتُ عن المقاومة، واستندت إلى صدر بيتر. "لن تتمكّني *أبداً* من السيطرة عليّ".

ضحكتُ ضحكة مجنونة خالية من الفرح. وتلذّذت بالعبوس الذي طغى على وجهها، والكره الذي شعّ في عينيها. كانت أشبه بآلة باردة بلا عواطف، لا يحكمها سوى المنطق. وقد كسرتُها.

لقد كسرتُها.

الفصل الرابع والثلاثون

عندما أصبحتُ في الرواق، كففت عن محاولاتي للهجوم على جانين. كان جنبي يؤلمني من لكمة بيتر، لكنّ نشوة النصر التي تنبض في داخلي طغت هذا الألم.

رافقني بيتر إلى زنزانتي من دون أن ينبس ببنت شفة. وقفت في وسط الغرفة مطوّلاً، أحدّق إلى الكاميرا المثبّتة في الزاوية اليسرى من الجدار الخلفي. من الذي يراقبني طوال الوقت؟ أهم خونة الشجاعة، بغرض حراستي، أم جماعة المعرفة، بغرض مراقبتي؟

ما إن تبدّدت الحرارة من وجهي، وتوقّف ألم جنبي، حتّى استلقيت على الفراش.

عندما أغمضت عينيّ، طافت في ذهني صورة لوالديّ. في إحدى المرّات، عندما كنت في الحادية عشرة من عمري، وقفت عند باب غرفة نومهما أراقبهما وهما يرتّبان السرير معاً. ابتسم أبي لأمّي وهما يشدّان الأغطية ويرتّبانها بحركات متزامنة تماماً. فعرفت من نظرته إليها أنّه يقدّرها أكثر من نفسه.

لم يمنعه أيّ مقدار من الأنانية أو عدم الإحساس بالأمان من رؤية مدى طيبتها، كما يحدث معنا غالباً. وربّما لا يمكن لهذا النوع من الحبّ أن يوجد سوى في نكران الذات، لا أدري.

كان أبي رجلاً ولد في جماعة المعرفة، وكبر في جماعة نكران الذات. وغالباً ما واجه صعوبة في تلبية متطلّبات جماعته التي اختارها، مثلي تماماً. بيد أنّه حاول، وكان يعرف ما هو نكران الذات الحقيقي.

احتضنت وسادتي، ودفنت وجهي فيها. لم أبكِ، بل اكتفيت بالإحساس بالألم.

الحزن ليس ثقيلاً مثل إحساس الذنب، غير أنّه يحرمك من أشياء أكثر.

á á á

"أيّتها المتزمّتة".

استيقظت مجفلة، وأنا لا أزال أحتضن الوسادة. كان ثمّة بقعة رطبة على الفراش تحت وجهي. جلست وأنا أمسح عينيّ بأناملي.

كان حاجبا بيتر، المرفوعين عادة، مقطّبين في تلك اللحظة.

"ماذا جرى؟" أيّاً يكن ما جرى فهو ليس خيراً.

"لقد تمّ تعيين موعد إعدامك غداً صباحاً عند الساعة الثامنة".

"إعدامي؟ لكنّها... لكنّها لم تطوّر بعد المصل المناسب، لا يمكنها..."

"قالت إنّها ستتابع اختباراتها على توبياس عوضاً عنك".

"آه". هذا ما استطعت قوله.

أمسكت بالوسادة، ورحت أتأرجح إلى الأمام والخلف. غداً ستنتهي حياتي. قد يعيش توبياس بما فيه الكفاية ليهرب خلال الاجتياح الذي سينفّذه المنبوذون. سيقوم الشجعان باختيار قائد جديد، وسيتمّ حلّ كلّ الأمور العالقة التي سأتركها خلفي.

أومأت برأسي إلى الأسفل. لن تتبقّى أسرة، ولا أمور عالقة، ولا خسارة كبيرة.

قلت: "لربّما سامحتك يوماً ما، أنت تعرف، على محاولتك قتلي خلال التلقين. على الأرجح، كنت سأسامحك يوماً".

صمتنا نحن الاثنين لبرهة. لا أعرف لماذا قلت له ذلك. ربّما لأنّه صحيح ببساطة، والليلة من بين كلّ الليالي هو وقت الصراحة. الليلة سأكون صادقة، وغير أنانية، وشُجاعة. سأكون جامحة.

قال: "لم أطلب منك ذلك"، واستدار للرحيل. غير أنّه توقّف عند الباب وقال: "الساعة 9:24".

كان إخباري بالساعة هو خيانة صغيرة، وبالتالي عمل شجاع عادي. قد تكون المرّة الأولى التي أرى فيها بيتر شجاعاً حقّاً.

á á á

سأموت غداً. مضى زمن طويل لم أعرف فيه شيئاً مؤكّداً في حياتي، لذلك، كانت هذه الحقيقة أشبه بالهبة. الليلة، لا شيء. لكن غداً، سأعرف ماذا يأتي بعد الموت. أمّا جانين، فما زالت تجهل كيفيّة السيطرة على الجامحين.

عندما بدأت بالبكاء، احتضنت الوسادة، وتركت لنفسي العنان. بكيت بقوّة، مثل الأطفال، إلى أن أصبح وجهي حارّاً، وأحسست أنّني على وشك التقيّؤ. يمكنني التظاهر بالشجاعة، لكنّه مجرّد ادّعاء.

أفترض أنّ هذا هو الوقت المناسب لطلب المغفرة على كلّ ما اقترفته، لكنّني لا أعتقد أنّ القائمة ستكتمل أبداً. كما أنّني لا أظنّ أنّ ما يأتي بعد الموت يعتمد على تلاوة القائمة الكاملة لما اقترفته يداي، فهذا يبدو أقرب إلى ما يفعله أبناء المعرفة، الذين تقتصر أعمالهم على الدقّة من دون مشاعر. أنا لا أعتقد أنّ ما ينتظرني لاحقاً يعتمد على ما أفعله.

من الأفضل لي أن أفعل ما علّمتني إيّاه جماعة نكران الذات: الابتعاد عن النفس، والتوجّه دائماً إلى الخارج، والتمنّي أن يكون ما يأتي لاحقاً أفضل ممّا أنا عليه الآن.

ابتسمت قليلاً. أتمنّى لو كنت أستطيع إخبار أبـي وأمّي أنّني سأموت على طريقة نكران الذات. أظنّ أنّهما كانا ليفخرا بـي.

الفصل الخامس والثلاثون

ارتديت هذا الصباح الملابس النظيفة التي أعطوني إيّاها: سروال أسود - واسع جدّاً، لكن من يأبه؟ - وقميص أسود بأكمام طويلة، من دون حذاء.

لم يحن الوقت بعد. لاحظت أنّني أعقد أصابعي معاً وأحني رأسي إلى الأسفل. في بعض الأحيان، كان أبـي يفعل ذلك في الصباح، قبل أن يجلس إلى مائدة الإفطار، لكنّني لم أسأله أبداً عمّا كان يفعله. مع ذلك، أحبّ أن أشعر أنّني أنتمي إلى أبـي مجدّداً قبل أن... حسناً، قبل أن ينتهي كلّ شيء.

بعد لحظات، أخبرني بيتر أنّ وقت الذهاب قد حان. بالكاد نظر إليّ، واكتفى بالعبوس والنظر إلى الجدار الخلفي. أفترض أنّني أطلب الكثير إن سألته أن يكون ودوداً هذا الصباح. وقفت، وعبرنا الممرّ معاً.

كانت قدماي باردتين وهما تلتصقان بالبلاط. انعطفنا عند الزاوية، وسمعت صيحات مكتومة. في البداية، لم أعرف ماذا يقول الصوت، لكن مع اقترابنا، بدأ الكلام يتّضح.

"أنا أريد... ها!" إنّه توبياس. "أنا... *رؤيتها*!"

نظرت إلى بيتر. "لا يمكنني التحدّث معه مرّة أخيرة، صحيح؟"

هزّ بيتر رأسه نافياً. "لكن ثمّة نافذة. ربّما إن رآك سيخرس أخيراً".

اصطحبني عبر ممرّ مغلق، لا يتجاوز طوله ستّة أقدام. كان في آخره باب، وكان بيتر على حقّ. فثمّة نافذة صغيرة في أعلى الباب، على ارتفاع قدم فوق رأسي تقريباً.

"تريس!" أصبح صوت توبياس أكثر وضوحاً. "أنا أريد رؤيتها!"

مددت يدي إلى الأعلى، وضغطت كفّي على الزجاج. فتوقّف الصراخ، وظهر وجهه من النافذة. كانت عيناه حمراوان، ووجهه متوتّراً.

كان وسيماً. حدّق إليّ لبضع ثوانٍ، ثمّ ضغط يده على الزجاج فوق يدي تماماً. ادّعيت أنّني أشعر بدفئها من خلال النافذة.

أسند جبينه على الباب، وأغمض عينيه.

أنـزلت يدي واستدرت مبتعدة قبل أن يفتح عينيه. شعرت بألم في صدري، أكبر من ذاك الذي سبّبته لي طلقة الرصاص في كتفي. فأمسكت بطرف قميصي، ورففت عينيّ لإبعاد الدموع، ثمّ انضممت إلى بيتر في الممرّ الرئيس.

قلت له بهدوء: "شكراً لك". أردت قولها بصوت أعلى.

عبس مجدّداً وأجاب: "لا يهمّ. هيّا بنا".

سمعت ضجيجاً آتياً من مكان ما من أمامنا، كان صادراً عن مجموعة من الناس. وجدت الممرّ التالي مليئاً بالشجعان الخونة، بقاماتهم الطويلة والقصيرة، شيباً وشبّاناً، مسلّحين وغير مسحّلين. وضعوا جميعاً رباط الخيانة الأزرق.

صاح بيتر: "هيّا! افتحوا الطريق!"

سمعه الشجعان الأقرب إلينا، وابتعدوا نحو الجدران لإفساح الطريق لنا. ثمّ قلّدهم بقيّة الشجعان، وخيّم عليهم الصمت. تراجع بيتر لكي أمرّ أمامه، فأنا أعرف الطريق من هنا.

لا أعرف أين بدأ طرق الأيدي، لكنّ أحدهم ضرب بقبضتيه على الجدار، ثمّ انضمّ إليه آخر، لأجد نفسي أسير في ممرّ بين شجعان خونة مهيبين وصاخبين في آن، يطرقون بقبضاتهم على جنوبهم. كانوا يطرقون بسرعة بحيث تسارع نبض قلبـي ليتماشى معهم.

خفض بعض الشجعان الخونة رؤوسهم عند مروري، ولم أعرف السبب تماماً. لا يهمّ على أيّ حال.

وصلت إلى آخر الممرّ، وفتحت باب غرفة الإعدام.

فتحته بيديّ.

تجمّع الشجعان الخونة في الممرّ، بينما تجمّع أعضاء المعرفة في غرفة الإعدام. لكن هناك، كانوا قد أفسحوا لي الطريق أساساً. راقبوني بصمت وأنا أتوجّه إلى الطاولة المعدنية التي تحتلّ وسط الغرفة، بينما وقفت جانين على بعد خطوات. بدت آثار الخدوش على وجهها من خلال مساحيق التجميل التي وضعتها بسرعة. لم تنظر إليّ.

تدلّت أربع كاميرات من السقف، واحدة عند كلّ زاوية من زوايا الطاولة. جلست أوّلاً، ثمّ مسحت يديّ بسروالي وتمدّدت.

كانت الطاولة باردة، وصلبة، تضغط على بشرتي وعظامي. هذا مناسب ربّما، لأنّ هذا ما سيحدث لجسدي عندما تغادره الحياة، سيصبح بارداً وثقيلاً، أثقل ممّا كنت عليه يوماً. أمّا بالنسبة إلى بقيّة كياني، فلست أكيدة. بعض الناس يعتقدون أنّني لن أذهب إلى أيّ مكان. ربّما كانوا على حقّ، وربّما لا. فهذه التوقّعات لم تكن مفيدة لي على أيّ حال.

وضع بيتر قطباً كهربائياً تحت ياقة قميصي، وضغطه على صدري، فوق قلبي تماماً. بعد ذلك، علّق سلكاً بالقطب وشغّل الشاشة. سمعت دقّات قلبي، وكانت سريعة وقوية. قريباً، سيهدأ هذا الإيقاع الثابت إلى الأبد.

فجأة، خطرت لي فكرة واحدة:

لا أريد أن أموت.

لم آخذ يوماً توبياس على محمل الجدّ وهو يوبّخني على المجازفة بحياتي. اعتقدت أنّني أريد أن أكون مع والديّ وأن ينتهي كلّ هذا. كنت واثقة أنّني أريد أن أقلّد تضحيتهما بذاتهما. لكن لا، لا.

كانت الرغبة في الحياة تغلي بداخلي.

لا أريد أن أموت لا أريد أن أموت لا أريد!

اقتربت جانين حاملة إبرة تحتوي على مصل بنفسجي. عكست نظّارتها الضوء اللاصف المنبعث من فوقنا بحيث عجزت عن رؤية عينيها.

كان كلّ جزء من جسدي يهتف بصوت واحد. *قاومي، قاومي، قاومي*. ظننت أنّه لكي أضحّي بحياتي من أجل حياة ويل وحياة أبـي وأمّي، عليّ أن أموت، لكنّني كنت مخطئة. ما أحتاج إليه هو أن أعيش حياتي في ضوء موتهم. أريد أن أعيش.

ثبّتت جانين يدي بإحدى يديها، وغرزت الإبرة في عنقي باليد الأخرى. صرخت في عقلي وليس في وجه جانين: *لم تحن نهايتي! ليس بعد!*

ضغطَت على الإبرة، ثمّ انحنى بيتر فوقي، ونظر إلى عينيّ.

قال: "سيأخذ المصل مفعوله خلال دقيقة واحدة. كوني شُجاعة تريس".

فاجأني كلامه، لأنّ هذا ما قاله لي توبياس عندما أخضعني لأوّل جلسة محاكاة.

بدأ نبضي يتسارع.

لماذا يطلب منّي بيتر أن أكون شُجاعة؟ لا بل لماذا يوجّه إليّ كلاماً لطيفاً على الإطلاق؟

استرخت كلّ عضلات جسدي دفعة واحدة، وملأ أوصالي إحساس بالثقل. إن كان هذا هو الموت، فهو ليس سيئاً. ظلّت عيناي مفتوحتين، لكنّ رأسي انخفض جانباً. حاولت إغماض عينيّ، غير أنّني لم أستطع. لا يمكنني الحراك.

بعد قليل، توقّف الصفير الصادر عن آلة مراقبة القلب.

الفصل السادس والثلاثون

لكنّني ما زلت أتنفّس. ليس من أعماق رئتيّ، لكنّني *أتنفّس*. أغمض بيتر أجفاني. هل يعلم أنّني لم أمت بعد؟ هل تعلم جانين؟ وهل يمكنها أن تراني أتنفّس؟

قالت جانين: "خذوا الجثّة إلى المختبر. سيتمّ تشريحها عصر هذا اليوم".

أجاب بيتر: "حاضر".

دفع بيتر الطاولة إلى الأمام. سمعت تمتمات من حولي ونحن نمرّ بين أعضاء المعرفة. سقطت يدي عن طرف الطاولة ونحن ننعطف عند إحدى الزوايا، وارتطمت بالجدار. شعرت بألم في أناملي، لكنّني لم أستطع تحريك يدي مهما حاولت.

هذه المرّة، عندما مررنا بالرواق الذي تجمّع فيه الشجعان الخونة، خيّم السكون. مشى بيتر ببطء في البداية، ثمّ انعطف لدخول ممرّ آخر، وبدأ يسرع. أخذ يركض تقريباً في الممرّ التالي، ثمّ توقّف فجأة. أين أنا؟ لا يمكن أن أكون قد وصلت إلى المختبر. لماذا توقّف؟

دسّ بيتر ذراعيه تحت ركبتيّ وكتفيّ، وحملني. فسقط رأسي على كتفه.

تمتم قائلاً: "بالنسبة إلى فتاة بطولك، أنت *ثقيلة*، أيّتها المتزمّتة".

بيتر يعرف أنّني على قيد الحياة. إنّه يعرف.

سمعت عدّة رنّات، وصوت انـزلاق. لا شكّ أنّه باب مقفول يُفتح.

"ماذا-" هذا صوت توبياس. *توبياس*! "آه ربّاه. آه-"

قال بيتر: "بربّك، لا تبدأ الآن. لم تمت، بل هي مشلولة وحسب. لن يدوم ذلك سوى لدقيقة تقريباً، لذلك استعدّ للهرب".

لم أفهم.

كيف يعرف بيتر؟

قال توبياس: "دعني أحملها".

"كلاّ، فأنت أفضل منّي في الرماية. خذ مسدّسي وأنا سأحملها".

سمعت المسدّس وهو يخرج من قرابه. ثمّ مرّر توبياس يده على جبيني، قبل أن يبدءا بالركض.

في البداية، لم أسمع سوى وقع خطواتهما، بينما تدلّى رأسي إلى الخلف على نحو مؤلم، وبدأت أشعر بوخز في يديّ وقدميّ. صاح بيتر: "يسار!"

فجأة، سُمعت صرخة في الممرّ. "مهلاً، ماذا-!"

دوت طلقة رصاص، فعمّ السكون.

واصلا الركض، ثمّ صاح بيتر: "يمين!" عندئذٍ، انطلقت طلقة، وتبعتها أخرى. تمتم: "مهلاً، توقّف هنا!"

شعرت بتنميل على طول عمودي الفقري، وفتحت عينيّ بينما كان بيتر يفتح باباً آخر. دخله عبره بسرعة، وقبل أن يرتطم رأسي بإطار الباب، مددت يدي وأوقفته.

قلت بصعوبة: "انتبه!" كان حلقي لا يزال مشدوداً كما كان عندما تلقّيت الحقنة وشعرت بصعوبة في التنفّس. انحرف بيتر جانباً لإدخالي عبر الباب، ثمّ أغلقه بعقب قدمه وأنـزلني على الأرض.

كانت الغرفة خالية باستثناء صفّ من مستوعبات المهملات الفارغة المصفوفة على أحد الجدران، وباب معدني مربّع كبير بما فيه الكفاية ليمرّ عبره أحد المستوعبات.

قال توبياس وهو ينحني بالقرب منّي: "تريس". كان وجهه شاحباً، أصفر اللون تقريباً.

أردت قول الكثير، لكن أوّل ما خطر ببالي هو: "بياتريس".

ضحك بصوت ضعيف.

صحّح قائلاً: "بياتريس".

"ما رأيكما بتأجيل هذا اللقاء العاطفي، أم تريدان أن يقبضوا عليكما مجدّداً".

سألته: "أين نحن؟"

قال بيتر وهو يشير إلى الباب المربّع: "هذه محرقة القمامة، لكنّني أطفأتها. ستقودنا إلى الزقاق. هناك، يستحسن أن تكون رامياً جيّداً، فور، إن أردت الخروج من قطاع المعرفة حياً ترزق".

قال توبياس: "لا تشغل بالك بهذا الأمر". كان حافياً مثلي.

فتح بيتر الباب وقال: "تريس، ادخلي أنت أوّلاً".

كانت محرقة القمامة بعرض ثلاثة أقدام وارتفاع أربعة أقدام. أنـزلت ساقاً، ومن ثمّ الأخرى بمساعدة توبياس. أحسست أنّ معدتي تسقط وأنا أنـزلق عبر أنبوب معدني قصير، ثمّ مرّ ظهري على سلسلة من البكرات.

أصبحت عابقة برائحة الحريق والرماد، لكنّني لم أحترق. بعد ذلك سقطت، وارتطمت ذراعاي بجدار معدني، فصدر عنّي أنين ألم. هبطت على أرض إسمنتية صلبة، سبّبت الألم في قدميّ.

ابتعدت عن الفتحة وهتفت: "هيّا، تعاليا!"

زال الألم في الوقت الذي هبط فيه بيتر، على جنبه لا على قدميه. جرّ نفسه بعيداً عن الفتحة وهو يئنّ ألماً.

نظرت حولي. كنّا داخل المحرقة التي لا يضيئها سوى عدد من المصابيح التي تتّخذ شكل باب صغير عند الجهة الأخرى. كانت الأرض معدنية صلبة في بعض الأماكن، ومعدنية خشنة في أماكن أخرى. والحجرة كلّها عابقة برائحة النفايات والحريق.

قال بيتر: "لا تقولي إنّني لم أصطحبك يوماً إلى مكان لطيف".
قلت: "ما كنت لأحلم بذلك".
سقط توبياس على الأرض، وهبط أوّلاً على قدميه، ثمّ على ركبتيه، وهو يتألّم. ساعدته على الوقوف، ثمّ اقتربت منه. كانت كلّ الروائح، والمشاهد، والأحاسيس تبدو لي مضخّمة. فقد أوشكت على الموت، لكنّ ها أنا حية أرزق، وذلك بفضل بيتر.
بيتر دوناً عن كلّ الناس.
مشى بيتر وفتح باباً صغيراً، فتسلّل الضوء إلى المحرقة. ابتعدنا أنا وتوبياس عن رائحة الحريق، والفرن المعدني، إلى الغرفة ذات الجدران الإسمنتية التي تحتوي عليه.
قال بيتر لتوبياس: "أما زال المسدّس معك؟"
أجاب: "كلاّ، تركته في الأعلى، كنت أنوي إطلاق الرصاص من أنفي".
"آه، اخرس".
حمل بيتر مسدّساً آخر وخرج من المحرقة. وجدنا أنفسنا في ممرّ شديد الرطوبة امتدّت الأنابيب المكشوفة في سقفه، لكنّه كان بطول عشرة أقدام فقط. عُلّقت لافتة بجانب الباب كُتب عليها: مخرج. إنّني حية، وحرّة.

á á á

بدا طريق العودة من مقرّ المعرفة إلى مقرّ الشجاعة مختلفاً. أفترض أنّ كلّ شيء يبدو مختلفاً عندما لا تكون ذاهباً إلى الموت.
عندما وصلنا إلى آخر الزقاق، استند توبياس إلى أحد الجدران وانحنى إلى الأمام للتأكّد من عدم وجود أحد عند المنعطف. كان وجهه خالياً من التعابير وهو يمدّ ذراعه، ويثبّتها بالجدار، ويطلق النار مرّتين.

وضعت إصبعين في أذنيّ محاولة عدم التفكير بالذكريات التي تثيرها طلقات الرصاص.

قال توبياس: "أسرعا".

رحنا نركض، بيتر أوّلاً، ومن ثمّ أنا، ومن بعدي توبياس، عبر جادة واباش. نظرت إلى الخلف لأرى على من أطلق توبياس الرصاص، فرأيت رجلين ممدّدين على الأرض خلف مقرّ المعرفة. كان أحدهما ساكناً، بينما أمسك الآخر ذراعه وركض باتّجاه الباب. سيرسلون جنوداً آخرين خلفنا.

شعرت بثقل في رأسي، بسبب الإرهاق على الأرجح. لكنّ الأدرنالين ساعدني على مواصلة الطريق.

صاح توبياس: "فلنسلك الطريق الأقلّ منطقية!"

قال بيتر: "ماذا؟"

"اسلكا الطريق الأقلّ منطقية لكي لا يجدوننا!"

انحرف بيتر يساراً عبر زقاق آخر، مليء بصناديق الكرتون المحتوية على بطّانيات بالية ووسائد متّسخة. لا بدّ أنّ المنبوذين كانوا يقطنون هنا. قفز من فوق صندوق، أمّا أنا فارتطمت به، ثمّ ركلته خلفي.

عند نهاية الزقاق، انعطف يساراً، باتّجاه المستنقع. لقد عدنا إلى جادة ميشيغان، وأصبحنا على مرأى من مقرّ المعرفة، إن قام أحدهم بإلقاء نظرة على الشارع.

هتفت: "هذه فكرة سيّئة!"

انعطف بيتر يميناً. على الأقلّ، الشوارع هنا خالية، ولا تحتوي على لافتات محطّمة أو حفر علينا القفز من فوقها. أحسست أنّ رئتيّ تحترقان، كما لو أنّني تنشّقت سمّاً. أمّا ساقاي، اللتان آلمتاني في البداية، فقد تخدّرتا الآن، وهذا أفضل. فجأة سمعت صيحات بعيدة.

هنا خطر لي أنّ الشيء الأقلّ منطقية الذي يمكن أن نفعله هو التوقّف عن الهرب.

أمسكت بكمّ بيتر وجررته إلى أقرب مبنى. كان بارتفاع ستّة أقدام، مع نوافذ عريضة مصمّمة على شكل شبكة، تفصل بينها أعمدة من الآجر. حاولت فتح باب، لكنّه كان مقفلاً. فأطلق توبياس النار على النافذة المجاورة إلى أن تحطّمت، وفتح الباب من الداخل.

كان المبنى خالياً تماماً، ولا يحتوى على كراس أو طاولات، بل على عدد كبير من النوافذ. اندفعنا إلى سلّم الطوارئ، وتكوّرت تحت أوّل درج واحتمينا به. جلس توبياس بجانبـي، وبيتر أمامنا، وشدّ ركبتيه إلى صدره.

حاولت أن ألتقط أنفاسي وأهدأ، لكنّ الأمر لم يكن سهلاً. فقد كنت ميتة. كنت *ميتة*، ولم أعد كذلك. وإلى من يعود الفضل؟ إلى بيتر؟ *بيتر*؟

حدّقت إليه. ما زال يبدو بريئاً على الرغم من كلّ ما فعله لإثبات العكس. انسدل شعره الناعم على رأسه، وكان أسود ولامعاً، كما لو أنّه لم يقطع للتوّ مسافة ميل بالسرعة القصوى. جال بنظره على السلّم، ثمّ نظر إليّ.

سأل: "ماذا؟ لماذا تنظرين إليّ هكذا؟"

سألته: "كيف فعلت ذلك؟"

قال: "لم يكن الأمر صعباً. فقد صبغت مصلاً مسبّباً للشلل باللون البنفسجي واستبدلته بالمصل القاتل. كما استبدلت السلك الذي كان يفترض أن ينقل نبض قلبك بسلك مقطوع. كانت المهمّة المتعلّقة بجهاز القلب أكثر صعوبة. واحتجت إلى مساعدة بعض أعضاء المعرفة للحصول على جهاز تحكّم عن بعد وأدوات أخرى. لن تفهمي حتّى لو شرحت لك".

"*لماذا* فعلت ذلك؟ أنت *تريدني* أن أموت، وكنت ترغب في قتلي بنفسك! ما الذي تغيّر؟"

شدّ على شفتيه، لكنّه لم يشح بنظره، ليس طويلاً. ثمّ فتح فمه، وتردّد قبل أن يقول أخيراً: "لا أحبّ أن أكون مديناً لأحد. ولم أحتمل أن أدين لك بشيء، فهذه الفكرة تسبّب لي الغثيان. قد أستيقظ في منتصف الليل وأنا أشعر أنّني على وشك التقيّؤ. أنا مدين لمتزمّتة؟ هذا سخيف، سخيف للغاية، ولا أحتمله".

"ما الذي تتحدّث عنه؟ أنت مدين لي؟"

بدت عليه علامات السأم. "عندما كنّا في مجمّع الشجاعة، أطلق أحدهم النار عليّ، وكانت الرصاصة بمستوى الرأس. كانت ستصيبني بين عينيّ تماماً لو أنّك لم تدفعيني بعيداً. أمّا قبل ذلك، فكنّا متساويين: أوشكت أن أقتلك خلال التدريب، وأوشكت أن تقتليني خلال هجوم المحاكاة. كنّا متعادلَين، صحيح؟ لكن بعد ذلك..."

قال توبياس: "أنت مجنون. العالم لا يسير على هذا النحو... نحن لا نقوم بتسجيل أهداف".

رفع بيتر حاجبيه بدهشة. "حقّاً؟ لا أدري في أيّ عالم تعيش، لكن في عالمي، لا يؤدّي الناس خدمات لبعضهم إلاّ لسببين، إمّا لأنّهم يريدون شيئاً في المقابل، أو لأنهم يشعرون أنّهم يدينون لك بشيء".

قلت: "هذه ليست الأسباب الوحيدة التي تدفع الناس إلى الإحسان إليك. بعضهم يفعل ذلك لأنه يحبّك. حسناً، ربّما ليس أنت لكن..."

ضحك بيتر ساخراً: "هذا بالضبط هو نوع الهراء الذي أتوقّع سماعه من متزمّتة تسيطر عليها الأوهام".

قال توبياس: "إن كان الأمر كذلك، علينا أن نحرص دائماً على أن تكون مديناً لنا، وإلاّ ستسرع للتحالف مع من يقدّم العرض الأفضل".

قال بيتر: "أجل، هذا هو الواقع".

رحت أهزّ رأسي مستنكرة. فأنا لا أتخيّل العيش على هذا النحو، أتابع باستمرار من أدّى لي خدمة وماذا عليّ إعطاءه بالمقابل، من دون أن أكون قادرة على الحبّ، أو الإخلاص، أو التسامح، مثل رجل أعور يحمل بيده سكّيناً ويبحث عن شخص آخر ليقتلع له عينه. هذه ليست الحياة، بل نسخة باهتة عنها. أتساءل أين تعلّم ذلك.

قال بيتر: "إذاً، متى يمكننا الخروج من هنا برأيكما؟"

أجاب توبياس: "خلال ساعتين. علينا الذهاب إلى قطاع نكران الذات. سنجد هناك المنبوذين والشجعان الذين لم يُحقنوا بالمادّة الناقلة".

قال بيتر: "ممتاز".

أحاطني توبياس بذراعه، فأسندت رأسي على كتفه، وأغمضت عينيّ لكي لا أنظر إلى بيتر. أعرف أنّه ثمّة الكثير لقوله، مع أنّني لا أعرف ماهيته بالضبط، لكنّ الزمان والمكان غير مناسبين.

á á á

عندما مررنا في الشوارع التي نشأت فيها، صمتت الأحاديث، وتوجّهت الأنظار نحوي. فعلى حدّ علمهم، أصبحت في عداد الأموات منذ ستّ ساعات. فأنا واثقة أنّهم عرفوا، ذلك أنّ جانين ماهرة في نشر الأنباء. لاحظتُ أنّ بعض المنبوذين الذين مررت بهم قد تمّ وسمهم ببقعة من الصباغ الأزرق. هذا يعني أنّهم جاهزون للمحاكاة.

بعدما أصبحنا هنا في أمان، لاحظت أنّ أخمص قدميّ مكسوّ بالجروح بسبب الركض على الأرصفة الخشنة وحطام زجاج النوافذ.

كانت كلّ خطوة تسبّب لي ألماً مبرحاً. فركّزت تفكيري على هذا الأمر عوضاً عن نظرات الأعين.

نادى صوت من أمامنا: "تريس؟" رفعت رأسي، فرأيت يوريا وكريستينا يتباريان بالرماية. أسقط يوريا مسدّسه على العشب، وأسرع نحوي. فتبعته كريستينا من دون عجل.

مدّ يوريا يديه نحوي، لكنّ توبياس وضع يده على كتفه لإيقافه. فأحسست بموجة من الامتنان، لأنّني لا أظنّ أنّني قادرة على مواجهة عناق يوريا، أو أسئلته، أو دهشته في الوقت الحاضر.

قال توبياس: "لقد مرّت بوقت عصيب، وهي بحاجة إلى النوم. ستكون في المنـزل رقم سبعة وثلاثين، الواقع في آخر الشارع. تعال للزيارة غدا".

نظر إليّ يوريا عابساً. فالشجعان لا يعرفون القيود عادة، ولم يعرف يوريا تقاليد غير تقاليد الشجاعة. لكن لا بدّ أنّه احترم تقييم توبياس لحالتي، لأنّه هزّ رأسه وقال: "حسناً، إلى الغد".

مدّت كريستينا يدها وضغطت على كتفي بخفّة. حاولت أن أقف مستقيمة، لكنّني شعرت أنّ عضلاتي مثل القفص، وأنّها تضغط على كتفيّ. تبعتني النظرات عبر الشارع، وشعرت بضغطها على عنقي. غير أنّني استرخيت عندما قادنا توبياس عبر الممرّ الأمامي من المنـزل الرمادي الذي كان ينتمي إلى ماركوس إيتون.

لا أعرف من أين استمدّ توبياس القوّة لدخول المنـزل. فبالنسبة إليه، لا بدّ أنّ هذا المكان يذكّره بصراخ أبويه، وضربات الحزام، والساعات التي أمضاها في الخزائن الصغيرة المظلمة، علماً أنّه لم يبدُ عليه الاضطراب وهو يقودنا أنا وبيتر إلى المطبخ. كلّ ما بدا عليه هو أنّه

كان أكثر استقامة في مشيته. لكن ربّما هذا هو توبياس؛ عندما يفترض به أن يكون ضعيفاً، يصبح أكثر قوّة.

كانت توري، وهاريسون، وإيفلين في المطبخ. فاجأني وجودهم، فاتّكأت على الجدار وأغمضت عينيّ. كان شكل طاولة الإعدام ما زال مطبوعاً في أجفاني. ففتحت عينيّ، وحاولت التنفّس. كانوا يتحدّثون، غير أنّني لم أسمع ما يقولونه. ما الذي أتى بإيفلين إلى منـزل ماركوس؟ وأين ماركوس؟

أحاطت إيفلين توبياس بذراعها ولمست خدّه بيدها، ثمّ ضغطت خدّها على خدّه. قالت له شيئاً، فابتسم لها وهو يبتعد عنها. ها قد حلّ السلام بين الأمّ وابنها، لكنّني لست واثقة أنّها خطوة حكيمة.

التفت توبياس إليّ، ووضع يداً حول ذراعي والأخرى حول خصري، ليتجنّب جرح كتفي، ثمّ قادني نحو السلّم. فصعدنا الدرجات معاً.

كان الطابق العلوي مؤلّفاً من غرفتين، واحدة لأمّه وأبيه، والأخرى له، يفصل بينهما حمّام. اصطحبني إلى غرفته، فوقفت للحظة، أنظر إلى الغرفة التي أمضى فيها معظم سنوات حياته.

أبقى يده على ذراعي. كان يتعامل معي منذ أن خرجنا من ذلك المبنى الذي اختبأنا فيه كما لو أنّني سأتحطّم إن لم يمسك بـي.

قال توبياس: "لم يدخل ماركوس هذه الغرفة منذ أن رحلت، أنا واثق من ذلك، لأنّ كلّ شيء بقي على حاله".

لا يملك أعضاء نكران الذات كثيراً من أغراض الزينة في منازلهم، لأنّهم يعتبرونها إسرافاً، لكنّ الأشياء القليلة التي سمحوا بها كانت موجودة في هذه الغرفة: كومة من الأوراق المدرسية، ومكتبة صغيرة، وتمثال غريب مصنوع من الزجاج الأزرق وموضوع على المنضدة.

"أهدتني أمّي هذا التمثال خفية عندما كنت صغيراً، وطلبت منّي أن أخبّئه. لكن في اليوم الذي ذهبتُ فيه إلى حفل اختيار الجماعة، وضعتُه على المنضدة قبل رحيلي لكي يراه. كان تحدّياً صغيراً".

هززت رأسي وأنا أفكّر أنّه من الغريب الوقوف في مكان يحمل ذكرى كاملة على نحو تامّ. فهذه الغرفة تنتمي إلى توبياس الذي كان على وشك اختيار جماعة الشجاعة ليهرب من أبيه.

قال: "دعيني أهتمّ بقدميك". لكنّه لم يتحرّك، بل اكتفى بخفض أصابعه إلى مرفقي.

قلت: "حسناً".

ذهبنا إلى الحمّام المجاور، وجلست على حافة حوض الاستحمام. فجلس بجانبـي، ثمّ فتح حنفية الماء، وأغلق المصرف. أخذت المياه تملأ الحوض، وتغطّي أصابع قدميّ، بينما صبغت الدماء المياه باللون الوردي.

قام بغسل قدميّ وتنظيف الجروح العميقة برفق. غير أنّني لم أشعر بذلك، ولا حتّى عندما غسلها بالصابون. بعد قليل، تحوّل لون الماء إلى الرمادي.

تناولت لوح الصابون، ورحت أحرّكه بيديّ إلى أن غلّفت الرغوة البيضاء بشرتي. فأخذت يديه ورحت أمرّر أصابعي فوقهما، وأنظّف خطوط كفّيه والجلد الفاصل بين أصابعه. أحسست أنّه من الجيد فعل شيء ما، وتنظيف شيء ما، وأن نكون سوية مجدّداً.

انتشر رذاذ الماء على أرض الحمّام ونحن نغسل الصابون عن بعضنا. أحسست بالبرد بسبب الماء، وارتجفت، لكنّني لم آبه. بعد قليل، أحضر منشفة وبدأ يجفّف يديّ.

"لا..." بدا صوتي كأنّني أختنق. "أصبحت أسرتي إمّا في عداد *الأموات* أو الخونة. كيف يمكنني..."

لم يكن لكلامي أيّ معنى. في تلك اللحظة، غلبت الدموع على جسدي، وعقلي، وكلّ شيء آخر. فاحتضنني بقوّة، وغاصت ساقاي في مياه الحوض. أصغيت إلى دقّات قلبه، وبعد قليل، هدأت على إيقاعه.

قال: "أنا أسرتك من الآن فصاعداً".

قلت: "أنا أحبّك".

قلت الشيء نفسه مرّة، قبل أن أذهب إلى مقرّ المعرفة، لكنّه كان نائماً. ولا أعرف لماذا لم أقلها عندما كان قادراً على سماعي. ربّما خفت أن أأتمنه على أمر شخصي إلى هذا الحدّ مثل الإخلاص، أو خشيت ألاّ أعلم معنى أن يحبّ المرء أحداً. لكنّني أظنّ الآن أنّ الشيء المخيف هو عدم قول ذلك قبل أن يفوت الأوان، قبل أن يفوت الأوان بالنسبة إليّ.

أنا له، وهو لي، وهذا ما كنّا عليه دائماً.

حدّق إليّ بصمت. انتظرت وأنا ممسكة بذراعيه بينما يفكّر بردّ فعله.

نظر إليّ عابساً. "قوليها مجدّداً".

"توبياس، أنا أحبّك".

كانت بشرته رطبة بسبب الماء، ورائحة العرق تفوح منه. التصقت قميصي بذراعيه عندما أحاطني بهما وعانقني.

قال: "وأنا أحبّك أيضاً".

الفصل السابع والثلاثون

بقي بجانبـي حتّى غفوت. توقّعت أن تراودني الكوابيس، لكن لا بدّ أنّني كنت متعبة جدّاً لأنّني نمت من دون أحلام. عندما فتحت عينيّ، لم أجده، لكنّني رأيت مجموعة من الملابس على السرير بجانبـي.

نهضت ودخلت الحمّام وأنا أشعر بالألم في كلّ أنحاء جسدي، كما لو أنّ جلدي قُشط، وكلّ نفس أتنفّسه يخزني قليلاً. لم أضئ المصابيح في الحمّام لأنّني أعرف أنّها ستكون باهتة وساطعة، تماماً مثل مصابيح مجمّع المعرفة. لذلك استحممت في الظلام، وبالكاد استطعت التمييز بين الصابون والبلسم. رحت أقول لنفسي إنّني سأخرج شخصاً جديداً وقوياً، وأنّ الماء سيشفيني.

قبل أن أغادر الحمّام، قرصت خدّي بقوّة لكي أعيد اللون إلى بشرتي. أعرف أنّ هذا غباء، لكنّني لم أشأ أن أبدو ضعيفة ومنهكة أمام الجميع.

عندما دخلت غرفة توبياس مجدّداً، رأيت يوريا منبطحاً على السرير، وكريستينا تتفحّص المنحوتة الزرقاء الموضوعة على المنضدة. أمّا لين، فكانت واقفة بجانب يوريا، تحمل وسادة، وقد علت وجهها ابتسامة ماكرة.

ضربت لين يوريا بالوسادة على مؤخّر رأسه، بينما قالت كريستينا: "مرحباً تريس!" وصاح يوريا: "آخ! بالله عليك، لين، كيف تستطيعين أن تجعلي ضربة الوسادة مؤلمة؟"

قالت: "هذا من عجائبـي. تريس، هل ضربك أحدهم؟ أحد خدّيك أحمر اللون".

لا بدّ أنّني قرصت خدّاً أكثر من الآخر. "كلاّ، هذا فقط... تألّق الصباح".

جرّبت المزحة كما لو أنّها لغة جديدة. ضحكت كريستينا، ربّما أكثر ممّا يستحقّ تعليقي، لكنّني قدّرت مجهودها. اهتزّ يوريا وهو جالس على السرير بضع مرّات.

قال: "ما كنّا نتحدّث عنه هو أنّك أوشكت على الموت، وأنقذك صعلوك ساديّ، وها نحن الآن نشنّ حرباً خطيرة متحالفين مع المنبوذين".

قالت كريستينا: "صعلوك؟"

أجابت لين: "هذه كلمة نستخدمها عوضاً عن شتيمة كبيرة".

قال يوريا وهو يهزّ رأسه: "هذا أقلّ ما يقال عنه".

شعرت أنّ ثرثرتهم جاءت لمصلحتي، لكي لا أضطرّ إلى قول شيء. يمكنني أن أكتفي بالضحك، وهذا ما فعلته، ساعية إلى بعث الدفء في الصخرة التي تكوّنت في معدتي.

قالت كريستينا: "ثمّة طعام في الأسفل. فقد قام توبياس بإعداد البيض المخفوق، الذي تبيّن لي أنّه طعام مقرف".

قلت: "حقّاً، أنا أحبّ البيض المخفوق".

أمسكَت بذراعي قائلة: "لا بدّ أنّه من أطباق الإفطار التي يتناولها المتزمّتون إذاً. هيّا بنا".

نـزلنا معاً، وعلا وقع خطواتنا على الدرج، وهو من الأمور التي ما كان ليسمح بها في منـزل أهلي. كان أبـي يوبّخني وأنا أركض على الدرج، ويقول: "لا تجذبـي الانتباه إلى نفسك، فهذا ليس مستحبّاً بين الناس".

تناهت إليّ أصوات من غرفة المعيشة، مجموعة منها في الواقع، وتعالت الضحكات من وقت إلى آخر، يصاحبها نغم منخفض منبعث من آلة بانجو أو غيتار. هذا ليس من الأصوات المتوقّعة من منـزل من منازل نكران الذات التي يسودها الهدوء دائماً، مهما يكن عدد الناس المجتمعين

فيها. بعثت الأصوات، والضحكات، والموسيقى الحياة في الجدران الكئيبة، وأحسست بدفء أكبر.

وقفت عند باب غرفة المعيشة لأجد خمسة أشخاص جالسين على أريكة تتّسع لثلاثة، يلعبون الورق الذي رأيته في مقرّ النـزاهة. جلس رجل على الأريكة، وجلست امرأة على حضنه، بينما استند آخر إلى ذراع الأريكة، حاملاً علبة حساء بيده. أما توبياس فجلس على الأرض، واستند إلى الطاولة المنخفضة. كانت وضعيته بأكملها توحي بالارتياح، إذ ثنى ساقاً ومدّ الأخرى، وأسند إحدى ذراعيه على ركبته، بينما أمال رأسه ليصغي. لم يسبق لي أن رأيته بهذا الارتياح من دون المسدّس، ولم أظنّ أنّه أمر ممكن.

فاجأني إحساس الثقل نفسه الذي أشعر به في معدتي عندما أدرك أنّ أحدهم يكذب عليّ، لكنّني لا أدري من الذي كذب عليّ هذه المرّة، أو بأيّ مسألة بالضبط. لكن ليس هذا هو ما تعلّمت أن أتوقّعه من المنبوذين. ما تعلّمته هو أنهم أسوأ من الموت.

وقفت هناك لبضع ثوانٍ، قبل أن يراني الحاضرون، فصمت الجميع. مسحت يديّ بطرف قميصي. كانت العيون كثيرة والصمت ثقيلاً.

تنحنحت إيفلين قائلة: "هذه تريس برايور. أعتقد أنّكم سمعتم عنها كثيراً يوم أمس".

أضاف توبياس: "وهذه كريستينا، ويوريا، ولين". شعرت بالامتنان لمحاولته صرف انتباه الجميع عنّي، إلاّ أنّه لم ينجح.

وقفتُ جامدة عند الباب بضع ثوانٍ، قبل أن يتكلّم أحد المنبوذين، وكان أكبر سنّاً. كانت بشرته المجعّدة مكسوّة بالأوشام.

"ألا يفترض أنّك فارقت الحياة؟"

ضحك بعض الموجودين، وحاولت الابتسام. إلاّ أنّ ابتسامتي أتت عوجاء وصغيرة.

أجبت: "هذا ما كان يفترض أن يكون".

قال توبياس: "غير أنّنا لم نحبّ إعطاء جانين ماثيوس ما تريد". وقف وأعطاني علبة بازيلاء، لكنّها لم تكن تحتوي على البازيلاء، بل على البيض المخفوق. سرى الدفء عبر الألمنيوم إلى أصابعي.

جلس، وجلست بالقرب منه، ثمّ تناولت بعضاً من البيض. لم أكن أشعر بالجوع، لكنّني أعرف أنّني أحتاج إلى الطعام، لذلك مضغته وابتلعته على أيّ حال. أصبحت أعرف كيف يأكل المنبوذون، فأعطيت كريستينا علبة البيض، وتناولت علبة درّاق من توبياس.

سألته: "لماذا يخيّم الجميع في منـزل ماركوس؟"

قال توبياس مبتسماً: "لقد طردته إيفلين. قالت إنّه منـزلها هي أيضاً، وإنّه استخدمه لسنوات، وقد حان دورها. سبّب ذلك فوضى عارمة في الحديقة الأمامية، لكنّ إيفلين ربحت في النهاية".

نظرتُ إلى والدة توبياس. كانت في الزاوية المقابلة من الغرفة، تتحدّث مع بيتر وتأكل مزيداً من البيض من علبة أخرى، فانقبضت معدتي. تحدّث توبياس عنها باحترام، لكنّني ما زلت أذكر ما قالته عن كوني شخصاً عارضاً في حياة توبياس.

تناول سلّة عن الطاولة، وأعطاني إيّاها. "ثمّة خبز هنا، تناولي قطعتين، فأنت بحاجة إلى ذلك".

بينما كنت أمضغ الخبز، نظرت مجدّداً إلى بيتر وإيفلين.

قال توبياس: "أظنّ أنّها تحاول تجنيده. فلديها طريقة بجعل حياة المنبوذين تبدو جذّابة على نحو استثنائي".

"أنا أرحّب بأيّ شيء يخرجه من الشجاعة. لا آبه أنّه أنقذ حياتي، ما زلت لا أحبّه".

"لن يكون علينا أن نقلق حيال انتماءاتنا، كما آمل، بعد أن ينتهي كلّ هذا. أظنّ أنّ هذا سيكون جميلاً".

لم أقل شيئاً، فأنا لا أشعر بالرغبة في الجدال معه هنا، أو تذكيره أنّه لن يكون من السهل إقناع الشجاعة والنـزاهة بمشاركة المنبوذين في حربهم ضدّ نظام الجماعات. في الواقع، قد يتطلّب الأمر حرباً أخرى.

فُتح الباب ودخل إدوارد. كان اليوم يضع رقعة رُسمت عليها عين زرقاء بتفاصيلها، مع جفن شبه مغمض. كان تأثير العين الكبيرة على وجهه الوسيم مضحكاً ومسلّياً.

حيّاه أحدهم قائلاً: "إدي!". غير أنّ نظر عين إدوارد السليمة كان قد وقع على بيتر. اندفع عبر الغرفة، متجاهلاً علبة طعام قدّمها له أحدهم. أمّا بيتر، فابتعد إلى ظلّ الباب كما لو كان يحاول الاختفاء فيه.

وقف إدوارد على بعد إنشات من قدمي بيتر، ثمّ ارتمى عليه كأنّه ينوي توجيه لكمة. فابتعد بيتر إلى الخلف بقوّة بحيث ارتطم رأسه بالجدار. عندئذٍ ابتسم إدوارد، وضحك المنبوذون من حولنا.

قال إدوارد: "لستَ شجاعاً بما فيه الكفاية في ضوء النهار". ثمّ التفت إلى إيفلين، وأضاف: "احرصي على عدم وصوله إلى أيّ أدوات في المطبخ. فلا أحد يعلم ماذا يمكن أن يفعل بها".

وبينما هو يتحدّث، انتزع الشوكة من يد بيتر.

قال بيتر: "أعدها إليّ".

قبض إدوارد على عنق بيتر، وضغط بالشوكة بين أصابعه، على حنجرة بيتر تماماً. فتصلّب هذا الأخير، واحتقن وجهه بالدماء.

قال بصوت منخفض: "لا تُسمعني صوتك، وإلاّ فعلت هذا مجدّداً. لكن في المرّة القادمة، سأقحم هذه الشوكة في حنجرتك".

قالت إيفلين: "كفى". فأسقط إدوارد الشوكة من يده وترك بيتر. بعد ذلك، أتى وجلس بجانب الشخص الذي ناداه "إدي" منذ برهة.

قال توبياس: "لا أدري ما إذا كنت تعلمين أنّ إدوارد يعاني من بعض الاضطراب".

"لاحظت ذلك".

قال توبياس: "هل تذكرين درو، الذي ساعد بيتر في اعتدائه على إدوارد بالسكّين؟ يبدو أنّه بعدما طُرد من الشجاعة، حاول الانضمام إلى مجموعة المنبوذين نفسها التي ينتمي إليها إدوارد. وكما تلاحظين، لم نرَ أثراً له".

سألته: "هل قتله إدوارد؟"

"تقريباً. لهذا السبب، تركت الفتاة المنتقلة إدوارد - كان اسمها ميرا على ما أظنّ. فهي لم تستطع احتمال طباعه العنيفة".

شعرت بالتوتّر عندما فكّرت بدرو، الذي أوشك على الموت بين يدي إدوارد. كان درو من الأشخاص الذين اعتدوا عليّ أيضاً.

قلت: "لا أريد التحدّث في هذا الموضوع".

قال توبياس وهو يلمس كتفي: "حسناً. هل يزعجك وجودك مجدّداً في منـزل من منازل نكران الذات؟ أردت أن أسألك قبل الآن. يمكننا الذهاب إلى مكان آخر في هذه الحالة".

أنهيت قطعة الخبز الثانية. كانت كلّ منازل نكران الذات متشابهة. فغرفة الجلوس هذه هي تماماً مثل غرفة الجلوس في منـزلي، وهي تعيد إليّ الذكريات إن تأمّلتها بعناية. ضوء الصباح المنبعث من خلال الستائر

بقدر كافٍ ليقرأ أبـي كتبه، وصوت الصنانير التي تحيك بها أمّي في المساء. لكنّني لا أشعر أنّني أختنق، بل هي بداية.

قلت: "أجل، لكن ليس بقدر ما تظنّ".

رفع حاجبه استغراباً.

"حقّاً. فالمحاكاة التي خضعت لها في مقرّ المعرفة... ساعدتني إلى حدّ ما، ربّما على التمسّك بالماضي". عبست متابعة: "أو ربّما لا. ربّما ساعدتني على الكفّ عن التمسّك بالماضي بتلك القوّة". بدا ذلك صحيحاً. "سأخبرك يوماً ما عن ذلك". بدا صوتي بعيداً.

لمس خدّي، ومع أنّنا في غرفة مليئة بالناس، وتضجّ بالضحك والأحاديث، عانقني ببطء.

قال رجل إلى يساري: "أيّها الشابّ، ألم تنشأ على التزمّت؟ ظننت أنّ أقصى ما تفعلونه هو... مداعبة الأيدي أو شيء من هذا القبيل".

سأله توبياس باستغراب: "من أين أتى أطفال نكران الذات إذاً؟"

أجابت المرأة الجالسة على ذراع الأريكة: "لقد أتوا بقوّة الإرادة وحسب. ألم تكن تعلم، توبياس؟"

قال مبتسماً: "كلاّ، لم أكن أعلم. أنا أعتذر".

ضحكوا جميعاً، بل ضحكنا جميعاً، وفكّرت في تلك اللحظة أنّني قد أكون مع جماعة توبياس الحقيقية، التي لا تميّزها فضيلة معيّنة، بل تعتبر أنّها تملك كلّ الألوان، والأعمال، والفضائل، والعيوب.

لا أعرف ما الذي يربط بينهم. كان القاسم المشترك الوحيد الذي يجمع بينهم على حدّ علمي هو الفشل. أيّاً يكن، فقد بدا كافياً.

شعرت وأنا أنظر إليه أنّني أراه أخيراً كما هو، وليس كما هو في علاقته بـي. فما مدى معرفتي به إذاً إن لم أكن قد رأيت هذا مسبقاً؟

á á á

بدأت الشمس تغرب، لكنّ قطاع نكران الذات لم يهدأ. تجوّل الشجعان والمنبوذون في الشوارع، بعضهم يحملون زجاجات في أيديهم، وبعضهم يحملون الأسلحة.

أمامي، كان زيك يدفع شونا على كرسيّها المتحرّك أمام منـزل أليس بروستر، وهي زعيمة سابقة لجماعة نكران الذات، غير أنّهما لم يرياني.

قالت: "أعدها مجدّداً!"

"هل أنت واثقة؟"

"أجل!"

"حسناً..." بدأ زيك يهرول خلف الكرسي. وعندما أصبح بعيداً عنّي ولم أعد أراه تماماً، دفع نفسه إلى الأعلى بقبضتيّ الكرسي بحيث ارتفعت قدماه عن الأرض وطارا معاً في وسط الشارع، فيما علا صراخ شونا وضحكُ زيك.

انعطفتُ يساراً عند التقاطع التالي وبدأت أمشي على الرصيف المشقّق باتجاه المبنى الذي كانت جماعة نكران الذات تعقد فيها اجتماعاتها الشهرية. مع أنّه مضى زمن طويل منذ أن ذهبت إلى هناك آخر مرّة، إلاّ أنّني أذكر مكانه. عليّ أن أسلك الشارع المتّجه جنوباً ثمّ أنعطف غرباً.

كانت الشمس تنخفض في الأفق. تلاشت ألوان الأبنية المجاورة تحت شمس المغيب، بحيث بدت كلّها رمادية.

تقتصر واجهة مقرّ نكران الذات على مستطيل إسمنتي وحسب، على غرار كلّ أبنية قطاع الجماعة. لكن عندما فتحت الباب الأمامي، ظهرت الأرضيات الخشبية وصفوف المقاعد الخشبية المرتّبة على شكل

مربّع. كان في وسط السقف مَنوَر مربّع تسلّلت منه أشعّة الشمس البرتقالية. وكان ذلك المنور هو عنصر الزينة الوحيد.

جسلت على مقعد أسرتي القديم. كنت أجلس إلى جانب أبـي، وكان كاليب يجلس إلى جانب أمّي. أحسست في تلك اللحظة أنّني الوحيدة المتبقّية من أسرة برايور.

"جميل، أليس كذلك؟" دخل ماركوس وجلس أمامي، ثمّ شبك يديه في حضنه. كانت أشعّة الشمس تفصل بيننا.

رأيت على فكّه كدمة كبيرة في المكان الذي ضربه فيه توبياس، وبدا أنّه حلق شعره حديثاً.

أجبت بتوتّر: "جيّد. ماذا تفعل هنا؟"

"رأيتك وأنت تدخلين". تفحّص أظافره بعناية. "أردت التحدّث معك حول المعلومات التي سرقَتها جانين ماثيوس".

"وماذا لو فات الأوان؟ ماذا لو أصبحت أعرف ماهيّتها؟"

رفع ماركوس نظره عن يديه، وضاقت عيناه الداكنتان. كانت نظرته سامّة للغاية، ولا يمكن لأحد أن يراها في عينيّ توبياس، مع أنّه يملك عينيّ أبيه. "هذا غير محتمل".

"وكيف تعرف؟"

"أعرف في الواقع، لأنّني رأيت ما يحدث للناس عندما يسمعون الحقيقة. صبحون أشبه بشخص نسي ما يبحث عنه، وأخذ يتجوّل محاولاً أن يتذكّر".

سرت رعشة في عمودي الفقري، وامتدّت إلى ذراعيّ، مرسلة قشعريرة في جسدي.

قلت: "أعرف أنّ جانين قرّرت قتل نصف جماعة لسرقة تلك المعلومات، لذلك لا بدّ أن تكون في غاية الأهمّية". صمتّ قليلاً. أنا أعرف شيئاً آخر أيضاً، لكنّني أدركته للتوّ.

فقبل أن أعتدي على جانين، قالت لي: "الأمر لا يتعلّق بك! ولا بـي!"

والأمر الذي تتحدّث عنه هو ما كانت تفعله بـي، أي محاولتها إيجاد محاكاة تعمل عليّ، وعلى الجامحين.

قلت: "أعلم أن للأمر علاقة بالجامحين وأنّ المعلومات تتعلّق بما يوجد خارج السياج".

"هذا لا يعني أنّك تعرفين ماذا يوجد خارج السياج، وهذه مسألة مختلفة تماماً".

"وهل ستخبرني به أم أنّك ستعلّقه فوق رأسي وتجعلني أقفز للحصول عليه؟"

"لم آتِ إلى هنا للجدال، ولن أخبرك، لكن ليس لأنّني لا أريد. في الواقع، لا أملك فكرة كيف أصفه لك، عليك رؤيته بنفسك".

بينما كان يتحدّث، لاحظت أنّ ضوء الشمس أصبح أكثر ميلاً إلى اللون البرتقالي منه إلى الأصفر، وأنّه ألقى ظلالاً داكنة فوق وجهه.

"أظنّ أنّ توبياس على حقّ. أنت *تحبّ* أن تكون الشخص الوحيد الذي يعرف. فهذا الأمر يجعلك تشعر بالأهمّية. لهذا السبب لن تخبرني، وليس لأنّك تعجز عن وصفه".

"هذا غير صحيح".

"وكيف أعرف؟"

حدّقنا أنا وماركوس إلى بعضنا.

"قبل أسبوع من هجوم المحاكاة، قرّر زعماء نكران الذات أنّ الوقت قد حان لكشف المعلومات الموجودة في الملفّ للجميع. *الجميع*، بمن

فيهم المدينة بأكملها. وكان اليوم المقرّر هو بعد سبعة أيّام تقريباً من هجوم المحاكاة. بالطبع، لم نستطع ذلك".

"لم ترغب جانين أن تكشفوا ماذا يوجد خارج السياج؟ لماذا؟ أساساً كيف عرفَت بذلك؟ فقد فهمتُ منك أنّ زعماء نكران الذات هم وحدهم الذين يعرفون".

"نحن لسنا من هنا، بياتريس، لقد وُضعنا هنا لغرض محدّد. ومنذ مدّة، اضطرّ زعماء نكران الذات للاستعانة بجماعة المعرفة من أجل تحقيق ذلك الغرض، لكنّ كلّ شيء تغيّر لاحقاً بسبب جانين، ذلك أنّها رفضت فعلَ ما يفترض بنا فعله، وفضّلت اللجوء إلى القتل".

وُضعنا هنا.

أحسست أنّ المعلومات تطنّ في عقلي، وتمسّكت بطرف المقعد الذي أجلس عليه.

قلت بصوت مسموع بالكاد: "وما الذي يفترض بنا فعله؟"

"لقد بحتُ لك بما فيه الكفاية لإقناعك أنّني لست كاذباً. أمّا بالنسبة إلى الباقي، فلا أجد نفسي مؤهّلاً حقّاً لأشرح لك. قلت ما قلت لأنّ الوضع أصبح خطيراً".

خطير. فهمت فجأة ما هي المشكلة. فالمنبوذون يخطّطون لتدمير كلّ البيانات التي تملكها جماعة المعرفة، وليس المعلومات المهمّة فقط. يريدون تدمير كلّ شيء.

لم أعتقد يوماً أنّ الخطّة التي وضعوها هي فكرة جيّدة، لكنّني أعرف أنّنا نستطيع التراجع عنها، لأنّ جماعة المعرفة   تعرف تلك المعلومات، حتّى في حال عدم توفّر البيانات. لكنّ هذا الأمر لا يعرفه حتّى أذكى أعضاء المعرفة. فلو دُمّر كلّ شيء، لا يمكننا إنتاج نسخة عنه.

"إن ساعدتك، فإنّني أخون توبياس، وسأخسره". ابتلعت ريقي، مضيفة: "لذلك، عليك إعطائي سبباً وجيهاً".

أجاب ماركوس باشمئزاز: "سبباً غير مصلحة كلّ شخص في هذا المجتمع؟ أليس هذا كافياً بالنسبة إليك؟"

"مجتمعنا ممزّق، لذلك هذا ليس سبباً كافياً".

تنهّد ماركوس.

"لقد مات أبواك من *أجلك*، هذا صحيح. لكنّ السبب الذي دفع أمّك إلى الذهاب إلى مقرّ نكران الذات في الليلة التي أوشكتِ فيها على الموت لم يكن من أجل إنقاذك. فهي لم تكن تعرف أنّك هناك، بل ذهبت لاسترجاع الملفّ من جانين. وعندما عرفَت أنّك على وشك الموت، هُرعت لإنقاذك، وتركت الملفّ بين يديّ جانين".

أجبته بحرقة: "ليس هذا ما أخبرتني به".

"كانت تكذب، لأنّها مضطرّة. لكن بياتريس، الفكرة... الفكرة هي أنّ أمّك كانت تعرف أنّها قد لا تخرج حية على الأرجح من مقرّ نكران الذات، لكن عليها المحاولة. وكانت على استعداد للموت من أجل هذا الملفّ، هل تفهمين؟"

كان أعضاء نكران الذات على استعداد للموت من أجل أيّ شخص، سواء كان صديقاً أم عدواً، إن استدعت الحاجة. ولهذا السبب ربّما، يصعب عليهم العيش في ظروف تهدّد الحياة. غير أنّه ثمّة قليل من *الأشياء* التي يودّون الموت من أجلها. فهم لا يقدّرون كثيراً العالم المادّي.

لذلك، إن كان صادقاً، وكانت أمّي فعلاً على استعداد للموت من أجل نشر تلك المعلومات... فإنّني مستعدّة لفعل أيّ شيء من أجل تحقيق الهدف الذي فشلت في تحقيقه.

"أنت تتلاعب بـي، أليس كذلك؟"

أجاب بينما انسكبت الظلال في تجويف عينيه مثل ماء أسود:
"أفترض أنّه عليك الإجابة بنفسك عن هذا السؤال".

الفصل الثامن والثلاثون

أخذت وقتي في طريق العودة إلى منـزل إيتون، وحاولت أن أتذكّر ما قالته أمّي عندما أنقذتني من الخزّان خلال هجوم المحاكاة. شيء يتعلّق بمراقبة القطارات منذ بدء الهجوم. *لم أعرف ماذا أفعل عندما وجدتك. لكنّني كنت أنوي إنقاذك دائماً.*

لكن عندما أتذكّر صوتها، يبدو لي مختلفاً. *لم أعرف ماذا أفعل، عندما وجدتك* . هذا يعني: لم أعرف كيف أنقذك أنت والملفّ. *لكنّني كنت أنوي إنقاذك دائماً.*

هززت رأسي غير واثقة. هل هذا ما قالته، أم أنّني أتلاعب بذاكرتي بسبب ما قاله ماركوس؟ ما من سبيل إلى معرفة الجواب. كلّ ما يمكنني فعله هو أن أقرّر ما إذا كنت أثق بماركوس أم لا.

مع أنّه ارتكب أموراً سيّئة، إلاّ أنّ مجتمعنا ليس مقسّماً إلى "خير" و"شرّ". فالقسوة لا تجعل المرء كاذباً، كما أنّ الشجاعة لا تجعل المرء لطيفاً. وماركوس ليس شخصاً طيّباً أو شرّيراً، بل الاثنين معاً.

حسناً، قد يكون شخصاً شرّيراً أكثر منه طيّباً.

لكنّ هذا لا يعني أنّه يكذب.

رأيت في الشارع أمامي وهجاً برتقالياً صادراً عن حريق. فحثثت خطاي واكتشفت أنّ النار تنبعث من قدور معدنية ضخمة موضوعة على الرصيف. كان الشجعان والمنبوذون قد تجمّعوا، تفصل بين المجموعتين مسافة ضيّقة، وأمامهم وقفت إيفلين، وهاريسون، وتوري، وتوبياس.

رأيت كريستينا، ويوريا، ولين، وزيك، وشونا واقفين من الجانب الأيمن من مجموعة الشجعان، فانضممت إليهم.

سألتني كريستينا: "أين كنت؟ بحثنا عنك في كلّ مكان".

"ذهبت في نـزهة. ماذا يجري؟"
أجاب يوريا بلهفة: "سيخبروننا أخيراً بخطّة الهجوم".
قلت: "آه".
رفعت إيفلين يدها، فصمت المنبوذون. كانوا أكثر انضباطاً من الشجعان، الذين استغرقت أصواتهم ثلاثين ثانية لتهدأ.
قالت إيفلين بصوت منخفض وسلس: "قمنا خلال الأسابيع الماضية بوضع خطّة لقتال جماعة المعرفة. والآن وقد انتهينا، نودّ إطلاعكم عليها".
أومأت إيفلين برأسها لتوري، التي تولّت المتابعة: "استراتيجيتنا ليست محدّدة بل واسعة. فنحن لا نعرف من في المعرفة يؤيّد جانين ومن لا يفعل. بالتالي، من الأفضل الافتراض أنّ كلّ من لا يدعمونها قد غادروا مقرّ المعرفة أساساً".
قالت إيفلين: "كلّنا يعرف أنّ قوّة جماعة المعرفة لا تكمن في أهلها بل في معلوماتها. وما داموا يملكون تلك المعلومات، فلن نتحرّر منهم أبداً، لا سيّما وأنّ أعداداً كبيرة منّا مؤهّلة للخضوع للمحاكاة. فقد استخدموا تلك المعلومات للتحكّم بنا وإبقائنا تحت سيطرتهم لمدّة طويلة". مكتبة الرمحي أحمد
تعالت صرخة من بين المنبوذين وامتدّت إلى الشجعان، بحيث انبعثت من الحشد كما لو كانوا جسداً واحداً، يتبعون أمراً من عقل واحد. أمّا أنا، فلم أعرف فيمَ أفكّر أو بماذا أشعر. كان جزء منّي يهتف هو أيضاً، ويدعو إلى تدمير كلّ أعضاء المعرفة وكلّ ما يعزّ عليهم.
نظرت إلى توبياس، فوجدت وجهه خالياً من أيّ تعبير. كان يقف خلف وهج النار، بحيث تصعب رؤيته. أتساءل ما رأيه بذلك.

قالت توري: "يؤسفني القول إنّ من حُقنوا بالمواد الناقلة عليهم البقاء هنا، وإلاّ فقد يتمّ تفعيلكم كسلاح ضدّنا في أيّ وقت".

علت صيحات اعتراض، لكنّ أحداً لم يفاجأ. فهم يعرفون جيّداً ما يمكن لجانين تحقيقه بواسطة المحاكاة.

صدر أنين عن لين، التي نظرت إلى يوريا وسألته: "علينا *البقاء*؟"

"عليك *أنت* البقاء".

"لكنّك أصبت أنت أيضاً، رأيت ذلك".

قال: "أنا جامح، تذكّري". نظرت لين إلى الأعلى بسأم، فسارع للمتابعة، ليتجنّب على الأرجح سماع لين وهي تتحدّث مجدّداً عن نظرية المؤامرة. "على كلّ حال، أراهن أنّ أحداً لن يتحقّق من ذلك، ولن تحاول تفعيلك أنت تحديداً، ما دامت تعرف أنّ جميع من يحملون المادّة الناقلة تخلّفوا عن المجيء".

عبست لين وهي تفكّر بذلك، لكنّها بدت أكثر سروراً - بقدر ما يمكن لها أن تكون - عندما بدأت توري تتحدّث مجدّداً.

"سينقسم الباقون إلى أربع مجموعات تتضمّن منبوذين وشجعاناً. ستحاول مجموعة واحدة كبيرة اختراق مقرّ المعرفة وشقّ طريقها داخل المبنى، لوضع حدّ لنفوذ المعرفة. وعلى الفور، ستتقدّم مجموعات أخرى أصغر عدداً إلى الطوابق العليا من المبنى للتخلّص من عدد من المسؤولين الأساسيين في الجماعة. وسيتمّ تحديد أعضاء كلّ مجموعة هذا المساء".

قالت إيفلين: "سننفّذ الهجوم خلال ثلاثة أيّام. استعدّوا لذلك، لأنّه سيكون خطيراً وصعباً. غير أنّ المنبوذين معتادون على المصاعب-"

هتف المنبوذون عند سماع ذلك. وتذكّرت أنّنا، نحن الشجعان، كنّا منذ أسابيع ننتقد نكران الذات على إعطائهم الطعام والضروريات. كيف نسينا بسهولة؟

"والشجعان معتادون على المخاطر-"
رفع الجميع من حولي قبضاتهم في الهواء وهتفوا. شعرت بأصواتهم تضجّ في رأسي، وإحساس النصر يملأ صدري بحيث رغبت في مشاركتهم الهتاف.

كان تعبير إيفلين فارغاً جدّاً بالنسبة إلى شخص يلقي خطاباً ملتهباً. فقد بدا وجهها أشبه بقناع.

صاحت توري: "فلتسقط جماعة المعرفة!" هتف الجميع بالجملة نفسها بغضّ النظر عن انتمائهم. أصبح عدوّنا واحداً، لكن هل يجعل ذلك منّا أصدقاء؟

لاحظت أنّ توبياس لم يشارك في الهتاف، لا هو ولا كريستينا.

قالت: "لا يبدو لي هذا صواباً".

سألتها لين بينما كانت الأصوات تعلو من حولنا: "ماذا تعنين؟ ألا تذكرين ماذا فعلوا بنا؟ لقد سيطروا على عقولنا وأجبرونا على قتل أبرياء من دون أن ندرك، لقد قتلوا جميع زعماء نكران الذات".

قالت كريستينا: "أجل، لكن... أليس اجتياح مقرّ جماعة وقتل كلّ من فيه هو تماماً ما فعلته المعرفة بنكران الذات؟"

قالت لين عابسة: "هذا مختلف. *فهذا* الهجوم لم يأتِ من لا شيء، بل له حافز".

قالت كريستينا: "أجل، أجل، أعرف".

نظرت إليّ، لكنّني لم أقل شيئاً. كانت محقّة، فالخطّة لا تبدو صائبة.

توجّهتُ إلى منـزل إيتون طلباً للهدوء.

فتحت الباب الأمامي، وصعدت السلّم. عندما وصلت إلى غرفة توبياس القديمة، جلست على السرير، ونظرت من النافذة إلى حشد المنبوذين والشجعان الذين تجمّعوا حول النار، يضحكون ويثرثرون.

لكنّهم لم يختلطوا معاً، فما زال ثمّة صدع بينهم، المنبوذون من جهة، والشجعان من جهة أخرى.

راقبت لين، ويوريا، وكريستينا قرب أحد القدور. مرّر يوريا يده بسرعة في النار، من دون أن يحترق. وابتسم ابتسامة أقرب إلى تكشيرة، شوّهها الحزن.

بعد دقائق، سمعت خطوات على الدرج، ثمّ دخل توبياس، وخلع حذاءه عند الباب.

سألني: "ما خطبك؟"

"لا شيء، حقّاً. كنت أفكّر وحسب. فوجئت لأنّ المنبوذين واقفوا على العمل مع الشجعان بهذه السهولة. فالشجعان لم يكونوا يوماً لطفاء معهم".

وقف بقربـي أمام النافذة واستند إلى الإطار.

قال: "هذا ليس حلفاً طبيعياً، لكنّ هدفنا مشترك".

"حاليّاً. لكن ماذا سيحدث عندما تتغيّر الأهداف؟ يريد المنبوذون التخلّص من نظام الجماعات، على عكس الشجعان".

توتّر فم توبياس. تذكّرت فجأة ماركوس وجوانا وهما يتنـزّهان في البستان. يومذاك، بدا تعبير ماركوس مشابهاً عندما كان يخفي شيئاً عنها.

قال: "ستكونين في مجموعتي خلال الهجوم. أتمنّى ألاّ تعارضي. سيكون علينا قيادة المجموعة إلى غرف المراقبة".

الهجوم. إن شاركت في الهجوم، لن أتمكّن من ملاحقة المعلومات التي سرقتها جانين من نكران الذات. عليّ اختيار إحدى المهمّتين.

قال توبياس إنّ القضاء على جماعة المعرفة هو أكثر أهمّية من إيجاد الحقيقة. ولو أنّه لم يَعِد المنبوذين بالسيطرة على كلّ بيانات المعرفة، لكان ربّما على حقّ. لكنّه لم يترك لي خياراً آخر. عليّ أن أساعد

ماركوس، إن كان ثمّة احتمال بسيط أنّه يقول الحقيقة. سأضطرّ إلى العمل ضدّ الأشخاص الأعزّ على قلبـي.

والآن، عليّ أن أكذب.

رحت أتلاعب بأصابعي.

سألني: "ما الأمر؟"

نظرت إليه قائلة: "ما زلت عاجزة عن استخدام السلاح. وبعدما حدث في مقرّ المعرفة..." تنحنحت ثمّ تابعت: "لم تعد المخاطرة بحياتي تبدو لي جذّابة".

لمس خدّي بأنامله قائلاً: "تريس، لست مضطرّة للذهاب".

"لا أريد أن أبدو جبانة".

وضع أصابعه تحت ذقني، وكانت باردة. نظر إليّ بجدّية وقال: "لقد فعلتِ لهذه الجماعة ما لم يفعله أيّ شخص آخر. أنت..."

تنهّد، وضغط جبينه على جبيني.

"أنت أشجع شخص رأيته في حياتي. ابقي هنا، واستريحي".

عانقني، وشعرت أنّني أنهار مجدّداً، بدءاً من أعمق جزء منّي. يعتقد أنّني سأمكث هنا، لكنّني سأعمل ضدّه، وأتعاون مع أبيه، ألدّ أعدائه. ستكون هذه أسوأ كذبة أرويها له، ولن أتمكّن يوماً من محوها.

عندما ابتعدنا عن بعضنا، خفت أن يسمع أنفاسي وهي ترتجف، فالتفتّ إلى النافذة.

الفصل التاسع والثلاثون

قالت كريستينا: "أصبحتِ تشبهين فعلاً عازفة بانجو عاطفية".

"حقّاً؟"

"كلاّ، مطلقاً... دعيني أصلح ذلك".

بحثت في حقيبتها لبضع ثوانٍ وأخرجت علبة صغيرة. كانت تحتوي على أدوات بمختلف الأحجام عرفت أنّها مساحيق تجميل، لكنّني لا أعرف كيفية استخدامها.

كنّا في منـزل أهلي. فهذا هو المكان الوحيد الذي خطر في بالي الذهاب إليه للاستعداد. لم تكن كريستينا تشعر بأيّ تحفّظ حيال استكشاف المنـزل، وقد وجدت للتوّ كتابين مخفيين بين المنضدة والجدار، دليل على ميول كاليب العلمية.

"دعيني أستوضح أمراً. غادرتِ مجمّع الشجاعة استعداداً للحرب... وأخذت معك حقيبة مساحيق التجميل؟"

أجابت: "أجل، فقد تصوّرت أنّ الجنود سيجدون صعوبة في إطلاق النار عليّ أمام سحري. قفي ساكنة".

فتحت أنبوباً أسود اللون بحجم الإصبع، وبدا منه شيء أحمر. من الواضح أنّه أحمر شفاه. مرّرَته على فمي وصبغَت شفتيّ باللون. استطعت رؤية ذلك عندما زممت فمي.

قالت وهي تخرج ملقطاً: "هل أخبرك أحد ما عن عجائب تسوية الحاجبين؟"

"أبعدي هذا الشيء عنّي".

تنهّدَت مجيبة: "حسناً. أودّ إضافة بعض اللون إلى خدّيك، لكنّني واثقة أنّ هذا اللون لا يناسبك".

غادرت المنـزل بشفتين حمراوين، ورموش معقوفة، وثوب أحمر زاهٍ، مع سكّين مثبّتة على الجهة الداخلية من ركبتي. كم هذا متناغم.

سألتني كريستينا: "أين سيقابلنا ماركوس، مدمّر البشر؟" كانت ترتدي لون الوئام الأصفر عوضاً عن الأحمر، وقد بدا زاهياً على بشرتها.

ضحكت مجيبة: "خلف مقرّ نكران الذات".

مشينا على الرصيف في الظلام. لا بدّ أنّ الآخرين يتناولون العشاء الآن، فقد تأكّدت من ذلك، لكن في حال التقينا بأحدهم، قرّرنا ارتداء سترات سوداء لإخفاء ملابس الوئام. قفزت فوق شقّ في الإسمنت بفعل العادة.

علا صوت بيتر: "إلى أين تذهبان؟" نظرت إلى الخلف، ووجدته واقفاً على الرصيف خلفنا. فتساءلت كم مضى عليه هناك.

سألته: "لماذا لست مع مجموعتك، تتناول العشاء؟"

قال وهو يربّت على ذراعه التي أصبته فيها: "لا أملك مجموعة، فأنا مصاب".

قالت كريستينا: "أجل صحيح!"

لمعت عيناه الخضراوان وهو يقول: "في الواقع، لا أرغب في الذهاب إلى القتال مع عصبة من المنبوذين، لذلك فضّلت البقاء هنا".

أجابت كريستينا وقد لوت شفتيها اشمئزازاً: "هذا ما يفعله الجبناء، يتركون الجميع يقومون بالعمل الصعب عوضا عنهم".

"أجل!" قال ذلك بشيء من المكر، وصفق يديه في الهواء مضيفاً: "استمتعوا بالموت".

اجتاز الشارع، وهو يصفر، وسلك الاتجاه المعاكس.

قالت: "حسناً، لقد صرفناه عنّا. لم يسألنا مجدّداً إلى أين نذهب".

"أجل، هذا جيّد". تنحنحت مضيفة: "إذاً، أنت تجدين هذه الخطّة حماقة، صحيح؟"

"ليست... *حماقة*".

"آه، اعترفي. الوثوق بماركوس حماقة، ومحاولة تجاوز الشجعان عند السياج حماقة، ومعارضة الشجعان والمنبوذين حماقة. أمّا كلّها معاً... فهي نوع مختلف من الحماقة لم يسمع به بشر من قبل".

أشارت قائلة: "لسوء الحظّ، هذه أفضل خطّة لدينا، إن أردنا أن يعرف الجميع الحقيقة".

وثقتُ بتفويض كريستينا بهذه المهمّة عندما ظننت أنّني ذاهبة إلى حتفي، لذا بدا من الغباء عدم الوثوق بها الآن. خشيت في البداية ألاّ ترغب في المجيء معي، لكنّني نسيت من أين أتت كريستينا: من جماعة النـزاهة، التي يُعتبر فيها السعي وراء الحقيقة أكثر أهمّية من أيّ شيء آخر. صحيح أنّها تنتمي إلى الشجاعة الآن، لكن إن كان ثمّة شيء واحد تعلّمته في هذه الفترة، فهو أنّنا لا نتخلّى أبداً عن جماعتنا القديمة بشكل نهائي.

عبست قائلة: "إذاً، هذا هو المكان الذي نشأتِ فيه. هل كنت تحبّينه؟ لا أظنّ أنّك أحببته ما دمت أردت الرحيل".

انخفضت الشمس في الأفق بينما كنّا نتحدّث. لم أكن أحبّ أبداً شمس المغيب في الماضي لأنّها تجعل كلّ شيء في قطاع نكران الذات يبدو أحادي اللون أكثر ممّا هو عليه أساساً. لكنّني وجدت اللون الرمادي الثابت في تلك اللحظة مريحاً.

أجبتها: "لقد أحببت أشياء وكرهت أخرى. وثمّة أمور لم أعرف أنّني أملكها إلاّ بعدما فقدتها".

وصلنا إلى مقرّ نكران الذات، وكانت واجهته عبارة عن مجرّد مربّع إسمنتي مثل أيّ مبنى آخر في هذا القطاع. وددت دخول غرفة الاجتماعات وتنشّق رائحة الخشب القديم، لكنّنا لا نملك الوقت. فسلكنا الزقاق المجاور للمبنى، وذهبنا إلى الخلف، حيث سيكون ماركوس بانتظارنا.

وجدنا شاحنة صغيرة زرقاء اللون تنتظر هناك، ومحرّكها يعمل، بينما جلس ماركوس خلف المقود. تركت كريستينا تدخل قبلي بحيث جلسَت في الوسط، لأنّني لم أرغب في الجلوس بالقرب منه إن استطعت. فقد أحسست أنّ الاستمرار في كرهه وأنا أعمل معه يقلّل من خطورة خيانتي لتوبياس.

قلت في نفسي، *ليس لديكِ خيار آخر، ما من حلّ آخر.*

أغلقت الباب وأنا أفكّر بذلك، وبحثت عن حزام الأمان. غير أنّني لم أجد سوى طرف حزام ممزّق ومشبكاً مكسوراً.

سألته كريستينا: "أين وجدتَ هذه الخردة؟"

"سرقتها من المنبوذين الذين يقومون بإصلاح هذه الأشياء. غير أنّه لم يكن من السهل تشغيلها. يستحسن أن تتخلّصا من هذه السترات، أيّتها الفتاتان".

خلعنا ستراتنا وألقيناها من النافذة نصف المفتوحة، بينما انطلق ماركوس بالشاحنة التي راحت تزمجر. توقّعت أن تبقى في مكانها عندما يضغط على دوّاسة الوقود، غير أنّها تحرّكت.

حسبما أذكر، تستغرق الرحلة من مقرّ نكران الذات إلى مقرّ الوئام ساعة من الزمن تقريباً، وتحتاج إلى سائق ماهر. سلك ماركوس أحد الطرقات الرئيسة، وزاد من السرعة. فانطلقنا إلى الأمام، وتجنّبنا بصعوبة حفرة كبيرة في الطريق. تمسّكت بلوحة القيادة لأثبّت نفسي.

قال ماركوس: "استرخي بياتريس، فقد سبق لي قيادة سيّارة من قبل".

"لقد فعلتُ كثيراً من الأمور من قبل، لكنّ هذا لا يعني أنّني ماهرة فيها!"

ابتسم، وانعطف يساراً لكي لا نرتطم بعمود محطّم. صاحت كريستينا ونحن نمرّ فوق قطعة أخرى من الركام، كما لو كانت تمضي وقتاً مسلياً.

قالت بصوت عالٍ بما فيه الكفاية لأتمكّن من سماعه بسبب الريح التي تعصف بالسيّارة: "هذا نوع آخر من الحماقات، أليس كذلك؟"

تمسّكت بالمقعد الذي أجلس عليه وحاولت عدم التفكير في ما أكلته خلال العشاء.

á á á

عندما وصلنا إلى السياج، رأينا حرّاس الشجاعة واقفين على ضوء المصابيح الأمامية، يعترضون سبيلنا. بدت أشرطتهم الزرقاء متنافرة مع بقية ملابسهم. حاولت إبقاء تعابيري مرتاحة. فأنا لن أتمكّن من خداعهم وجعلهم يعتقدون أنّني من جماعة الوئام وأنا عابسة.

اقترب رجل أسمر البشرة، يحمل مسدّساً بيده، من نافذة ماركوس. وجّه ضوء المصباح إلى ماركوس أوّلاً، ومن ثمّ إلى كريستينا، وأخيراً إليّ. بهر عينيّ الضوء، وأجبرت نفسي على الابتسام للرجل كما لو أنّني لا أمانع من توجيه الأضواء إلى عينيّ والأسلحة إلى رأسي إلى الإطلاق.

لا شكّ أنّ أبناء الوئام مختلّون عقلياً إن كانوا يفكّرون حقّاً على هذا النحو، أو ربّما كانوا يكثرون من أكل ذلك الخبز.

قال الرجل: "أخبرني، ماذا يفعل أحد أعضاء نكران الذات في شاحنة مع فتاتين من الوئام؟"

قال ماركوس: "لقد تطوّعت هاتان الفتاتان لجلب المؤونة إلى المدينة، وتطوّعت أنا لإيصالهما بأمان".

قالت كريستينا مبتسمة: "كما أنّنا لا نجيد القيادة. فقد حاول أبـي تعليمي القيادة منذ سنوات، لكنّني كنت أخلط بين دواسة الوقود ودواسة الفرامل، ويمكنك أن تتخيّل الكوارث التي قد أتسبّب بها! على كلّ حال، كانت لفتة لطيفة من جوشوا أنّه تطوّع ليقلّنا، وإلاّ لتأخّرنا كثيراً في العودة، كما أنّ الصناديق ثقيلة جدّاً-"

رفع الرجل يده إلى الأعلى قائلاً: "حسناً، فهمت".

ضحكت كريستينا قائلة: "آه، طبعاً. أنا آسفة. فكّرت أن أشرح لك لأنّك بدوت مستغرباً، ولا عجب في ذلك، فكم مرّة تواجه أمراً كهذا-"

قال الرجل: "حسناً، وهل تنوي العودة إلى المدينة؟"

أجاب ماركوس: "ليس قريباً".

"حسناً، تفضّلوا". وأومأ للحارس الآخر الواقف عند البوابة. فضغط على عدد من الأرقام على لوح المفاتيح، ثمّ فُتحت البوابة أمامنا. أومأ ماركوس للحارس الذي سمح لنا بالدخول، وقاد على الطريق البالي باتجاه مقرّ الوئام. كشف ضوء المصابيح الأمامية آثار عجلات على الطريق، كما بدت في الضوء الأعشاب والحشرات التي تروح وتجيء. في الظلام إلى يميني، رأت يراعات تضيء بوتيرة شبيهة بنبض القلب.

بعد بضع ثوانٍ، نظر ماركوس إلى كريستينا. "ما كان *هذا*؟"

"ما من شيء يكرهه الشجعان أكثر من ثرثرة أبناء الوئام المرحة. لذلك تعمّدت إزعاجه لكي أشتّت تفكيره ويسمح لنا بالمرور".

ابتسمتُ ابتسامة عريضة: "أنت نابغة".

"أعرف"، وأمالت رأسها كما لو كانت تُرجع شعرها إلى الخلف، مع أنّه ليس طويلاً بما فيه الكفاية.

قال ماركوس: "لكنّ جوشوا ليس من أسماء أعضاء نكران الذات".

"مهما يكن، كأنّ أحداً يعرف الفرق".

رأيت أنوار مجمّع الوئام تتوهّج أمامنا، مع مجموعة الأبنية الخشبية المألوفة والبيت الزجاجي في الوسط. مررنا عبر بستان التفّاح، وفاحت رائحة الأرض الدافئة في الهواء.

تذكّرت أمّي مجدّداً وهي تمدّ يدها لقطف تفاحة من هذا البستان، منذ سنوات مضت عندما أتينا لمساعدة جماعة الوئام في القطاف. أحسست بغصّة في صدري، لكنّ الذكرى لم تحزنّي كما فعلت قبل بضعة أسابيع. ربّما لأنّني في مهمّة لتكريمها، أو لأنّني متخوّفة جدّاً ممّا ينتظرني لكي أحزن كما ينبغي. لكنّ شيئاً ما تغيّر.

ركن ماركوس الشاحنة خلف إحدى حجرات النوم، ولاحظت للمرة الأولى عدم وجود مفتاح في مكان التشغيل.

سألته: "كيف شغّلت هذه الشاحنة؟"

أجاب: "لقد علّمني أبـي الكثير عن الميكانيك وأجهزة الكمبيوتر، وهو علم نقلته إلى ابني. هل ظننت أنّه عرف كلّ ذلك من تلقاء نفسه؟"

"أجل في الواقع". فتحت الباب، وترجّلت من الشاحنة. فداعب العشب أصابع قدمي وباطن ساقيّ. وقفت كريستينا إلى يميني، وأرجعت رأسها إلى الخلف.

قالت: "المكان مختلف جدّاً هنا، بحيث ينسى المرء تقريباً ما يجري *هناك*". وأشارت بإبهامها إلى المدينة.

قلت: "وغالباً ما ينسون بالفعل".

سألَت: "لكنّهم يعرفون ماذا يوجد خلف المدينة، أليس كذلك؟"

أجاب ماركوس: "يعرفون بقدر ما يعرف حرّاس الشجاعة. أي أنّ العالَم الخارجي مجهول ويُحتمل أن يكون خطيراً".

سألته: "وكيف تعرف ماذا يعرفون؟"

قال وهو يتوجّه إلى البيت الزجاجي: "لأنّ هذا ما أخبرناهم به".

تبادلت نظرة مع كريستينا، ثمّ هرولنا للحاق به.

"ماذا يعني *ذلك*؟"

قال ماركوس: "عندما يتمّ ائتمانك على كلّ المعلومات، عليكِ أن تقرّري ما هو القدر الذي يجب أن يعرفه الآخرون. وقد أخبرهم زعماء نكران الذات بما كان عليهم إخبارهم. والآن، لنأمل أن تكون جوانا محافظة على عاداتها القديمة. فهي تتواجد في هذه الساعة من المساء في البيت الزجاجي".

فتح الباب. كان الهواء ثقيلاً بقدر ما كان عليه آخر مرّة أتيت فيها إلى هنا، غير أنّه كان ضبابياً الآن أيضاً. فأحسست أنّ الرطوبة تبرّد خديّ.

قالت كريستينا: "أوه".

كانت القاعة مضاءة بنور القمر، لذلك لم يكن من السهل التمييز بين النبات، والشجر، والمنشآت البشرية. داعبت الأوراق وجهي وأنا أشقّ طريقي حول الطرف الخارجي للقاعة. أخيراً رأيت جوانا منحنية بالقرب من أجمة، تقطف ما بدا أنّه توت برّي وتضعه في وعاء تحمله. كان شعرها مشدوداً إلى الخلف، بحيث بدت ندبتها.

قالت: "لم أظنّ أنّني سأراك هنا مجدّداً، آنسة برايور".

"هل لأنّه يفترض بـي أن أكون ميتة؟"

"لطالما توقّعتُ لمن يعيش بجوار السلاح أن يموت به، لذلك غالباً ما أفاجأ". وضعت الوعاء على ركبتيها ونظرت إليّ. "مع أنّني أدرك أيضاً أنّني أعرفك جيّداً، ولا أظنّ أنّك عدت لأنّك أحببت هذا المكان".

أجبتها: "كلاّ، بل أتينا لغرض آخر".

قالت وهي تقف: "حسناً، لنذهب ونتحدّث عن ذلك إذاً".

حملت الوعاء إلى وسط الغرفة، حيث تُعقد عادة اجتماعات الوئام. تبعناها ونحن نمشي على جذور الشجر، ثمّ جلسَت وقدّمت لي وعاء التوت. أخذت حفنة صغيرة منه، ومرّرت الوعاء إلى كريستينا.

قال ماركوس: "جوانا، هذه كريستينا، ولدت في جماعة النـزاهة وتنتمي حاليّاً إلى الشجاعة".

قالت جوانا مبتسمة: "أهلاً بك في مقرّ الوئام، كريستينا". بدا لي غريباً أن أرى شخصين ولدا في جماعة النـزاهة، وانتهى بهما الأمر في مكانين مختلفين تماماً: الشجاعة والوئام.

قالت جوانا: "أخبرني يا ماركوس، ما هو سبب زيارتكم؟"

"أظنّ أنّ بياتريس هي التي يجب أن تخبرك، فأنا مجرّد وسيط".

حوّلت انتباهها نحوي من دون أن تطرح أيّ سؤال، لكنّني عرفت من نظرتها المتحفّظة أنّها تفضّل الحديث مع ماركوس. صحيح أنّها ستنكر لو سألتها، لكنّني واثقة أنّ جوانا ريس تكرهني.

همهمتُ، ولم تكن هذه افتتاحية ناجحة. مسحت كفّيّ على فستاني. "لقد ساءت الأمور".

ثمّ راح الكلام ينسكب من فمي من دون تكلّف. فشرحت لها أنّ جماعة الشجاعة تحالفت مع المنبوذين، وأنّهم يخطّطون لتدمير جماعة المعرفة عن بكرة أبيها، والقضاء على إحدى الجماعتين الأساسيتين. كما أخبرتها أنّه ثمّة معلومات هامّة في مجمّع المعرفة، هذا بالإضافة إلى

المعرفة التي يملكونها، والتي يجب استعادتها. عندما انتهيت، لاحظت أنّني لم أخبرها ما علاقة ذلك بها أو بجماعتها، لكنّني لم أعرف كيف أشرح لها.

قالت: "أنا محتارة، بياتريس. ماذا تريدون منّا بالضبط؟"

أجبت: "في الواقع، لم آتِ إلى هنا طلباً لمساعدتك، بل فكّرت أنّه يجب أن تعرفي أنّ كثيراً من الأشخاص سيموتون قريباً. وأعرف أنّك لا ترغبين في البقاء مكتوفة اليدين في أثناء ذلك، حتّى لو كان بعض أعضاء جماعتك سيفعلون ذلك".

نظرَت إلى الأسفل، وبدا من تعبير وجهها كم أنا محقّة.

قلت: "أردت أن أسألك أيضاً ما إذا كنّا نستطيع التحدّث مع أعضاء المعرفة الذين لجأوا إليك. أعرف أنّهم مختبئون، لكنّني أحتاج إلى الوصول إليهم".

سألتني: "وماذا تنوين أن تفعلي؟"

أجبتها بسأم: "سأقتلهم".

"هذا ليس مضحكاً".

تنهّدتُ قائلة: "أنا آسفة. غير أنّني أحتاج إلى معلومات، هذا كلّ شيء".

قالت جوانا: "حسناً، عليكم الانتظار حتّى الغد. يمكنكم النوم هنا".

á á á

استغرقت في النوم ما إن لامس رأسي الوسادة، لكنّني استيقظت أبكر ممّا كنت أنوي. عرفتُ من الوهج الذي يضيء الأفق أنّ الشمس على وشك أن تشرق.

كانت كريستينا نائمة على السرير الآخر، وجهها مضغوط على الفراش، والوسادة فوق رأسها. فصلت بين سريرينا منضدة وُضع عليها مصباح. كانت الألواح الخشبية التي تغطّي الأرض تصدر صريراً أينما خطوت. عُلّقت على الجدار الأيسر مرآة. كانت كلّ الجماعات، باستثناء نكران الذات، تعتبر المرايا أمراً عادياً. غير أنّني ما زلت أشعر بشيء من الاستغراب كلّما رأيت مرآة مكشوفة.

ارتديت ملابسي، من دون أن أكترث بالضجيج الذي سبّبته، ذلك أنّ جيشاً كاملاً من الشجعان لا يستطيع إيقاظ كريستينا من نوم عميق، مع أنّ همسات أعضاء المعرفة قد تفعل. يا لها من شخص غريب.

خرجت بينما كانت الشمس تطلّ من بين أغصان الأشجار، ورأيت مجموعة صغيرة من الوئام مجتمعين قرب البستان. فاقتربت منهم لأرى ماذا يفعلون.

وقفوا في دائرة، متشابكي الأيدي. كان نصفهم في أواسط سنّ المراهقة، والنصف الآخر في سنّ الرشد. وقفت امرأة ذات شعر رمادي مجدول، هي أكبرهم سنّاً، تتحدّث معهم.

قالت: "نحن نؤمن بالله الذي يمنحنا السلام ويحبّه، لذلك نمنح السلام لبعضنا ونحبّه".

ما كنت لأجد في هذا الكلام إشارة لشيء، على عكس أعضاء الوئام الذين بدأوا يتحرّكون في وقت واحد، ليجد كلّ منه شخصاً آخر أمامه ويشبك يديه معه. عندما أصبح لكلّ منهم رفيق، وقفوا عدّة ثوانٍ ينظرون إلى بعضهم. منهم من تمتم بجملة، ومنهم من ابتسم، ومنهم من بقي صامتاً وساكناً. بعد ذلك انفصلوا، وانتقل كلّ منهم إلى شخص آخر، مؤدّياً الحركات نفسها.

لم يسبق لي أن رأيت جماعة الوئام تؤدّي شعائرها. ولم أعرف يوماً سوى الشعائر التي كانت تؤدّيها جماعة أبويّ، والتي ما زال جزء منّي يتمسّك بها، بينما رفضها الجزء الآخر ولم يقتنع بها، مثل الدعاء قبل العشاء، والاجتماعات الأسبوعية، والقصائد التي تُلقى حول فضائل نكران الذات. كان هذا الشيء مختلفاً وغامضاً.

قالت المرأة ذات الشعر الأشيب: "تعالي وانضمّي إلينا". استغرقت بضع ثوانٍ لأدرك أنّها تتحدّث معي. كانت تشير إليّ مبتسمة.

قلت: "آه كلاّ، أنا..."

قالت مجدّداً: "تعالي". فشعرت أنّني لا أملك خياراً آخر غير التقدّم والوقوف بينهم.

اقتربت منّي، وأمسكت بيديّ. كانت أصابعها جافّة وخشنة، بينما بحثَت عيناها عن عينيّ بإصرار، وشعرتُ بالاستغراب عندما التقى نظري بنظرها.

في تلك اللحظة، كان التأثير فورياً وواضحاً. وقفت جامدة، وسكن كلّ عضو من أعضاء جسدي، كما لو أنّه أصبح أكثر ثقلاً، غير أنّ هذا الوزن لم يكن غير مستحبّ. كانت عيناها بنّيتين، ولا تحرّكان المشاعر.

قالت بصوت منخفض: "ليمنحك الله السلام حتّى في وسط المشاكل".

سألتُها بصوت منخفض، لم يسمعه الباقون: "لماذا؟ في النهاية، لقد ارتكبتُ..."

قالت: "الأمر لا يتعلّق بك، بل هو هدية. لا يمكنك امتلاكها، وإلاّ لن تعود هدية".

أفلتتني وانتقلت إلى شخص آخر، لكنّني بقيت واقفة بمفردي، ويداي ممدودتان. أتى شخص آخر ليمسك بيدي، لكنّني انسحبت من المجموعة، ببطء في البداية، ثمّ بدأت أركض.

ركضت بين الأشجار بأقصى سرعتي، ولم أتوقّف إلاّ عندما أحسست بالألم في صدري.

أسندت جبيني على أقرب شجرة، مع أنّها خدشت بشرتي، وقاومت الدموع.

á á á

في وقت لاحق من ذلك الصباح، ذهبت تحت المطر الخفيف إلى البيت الزجاجي. كانت جوانا قد دعت إلى اجتماع عاجل.

اختبأتُ قدر الإمكان عند أطراف القاعة، بين نبتتين كبيرتين متدلّيتين في المياه المعدنية. استغرقت بضع دقائق لأجد كريستينا، التي كانت ترتدي اللون الأصفر، وتجلس في الجانب الأيمن من القاعة. غير أنّني رأيت ماركوس بسهولة، إذ كان يقف على جذور شجرة ضخمة مع جوانا.

شبكَت جوانا يديها أمامها، وأبعدت شعرها إلى الخلف. كانت الإصابة التي سبّبت لها الندبة قد أتلفت عينها كذلك، بحيث تمدّد البؤبؤ وطغى على قزحيتها، ولم تتحرّك عينها اليسرى مع عينها اليمنى وهي تتأمّل جماعة الوئام المحتشدة أمامها.

غير أنّ الحاضرين لم يكونوا من الوئام فقط، بل كان ثمّة أشخاص قصيري الشعر ونساء عقدن شعرهنّ في كعكة مشدودة، ينتمون من دون شكّ إلى نكران الذات، وجلس في عدد من الصفوف أشخاص يضعون النظّارات، وينتمون إلى المعرفة. كانت كارا بينهم.

قالت جوانا عندما هدأ الجميع: "استلمت رسالة من المدينة، وأودّ إبلاغكم بها".

رتّبت طرف قميصها، ثمّ شبكت يديها أمامها. بدت متوتّرة.

قالت: "لقد تحالف الشجعان مع المنبوذين، وهم ينوون تنفيذ هجوم على جماعة المعرفة في غضون يومين. لن يشنّوا معركتهم ضدّ جيش المعرفة والشجاعة، بل ضدّ أعضاء المعرفة الأبرياء والعِلم الذي اجتهدوا طويلاً لاكتسابه".

نظرَت إلى الأسفل، وأخذت نفساً عميقاً قبل أن تتابع: "أعرف أنّنا لا نعترف بزعيم، لذلك لا يحقّ لي أن أخاطبكم كما لو كنت كذلك. لكن آمل أن تسامحوني هذه المرّة فقط إن طلبتُ منكم إعادة التفكير بقرارنا السابق بالبقاء على الحياد".

سُمعت الهمهمات. ما من شيء يضاهي همهمات الشجعان، فهي أكثر رقّة، مثل عصافير تطير عن الأغصان.

قالت: "بغضّ النظر عن علاقتنا مع المعرفة، فإنّنا نعرف أكثر من أيّ جماعة أخرى كم يُعتبر دورهم أساسيّاً في هذا المجتمع. لا بدّ من حمايتهم من القتل العبثي، إن لم يكن لأسباب إنسانية، فلأنّنا لا نستطيع العيش من دونهم. لذلك أقترح أن ندخل المدينة على أنّنا قوات حفظ سلام حيادية ومناهضة للعنف، لكي نتمكّن من تجنّب العنف المتطرّف بأيّ شكل ممكن، والذي سيقع لا محالة. رجاءً، فلنناقش هذا الاقتراح".

تساقط المطر على الألواح الزجاجية فوق رؤوسنا. جلست جوانا على جذور شجرة تنتظر، غير أنّ جماعة الوئام لم تبدأ بالحديث كما فعلَت في المرّة الماضية التي حضرتُ فيها اجتماعهم. تحوّلت الهمسات، التي لا يمكن تمييزها عن المطر، إلى حديث عادي، وعلت بعض الأصوات فوق الأخرى، بحيث بدت أقرب إلى الصراخ، لكن ليس تماماً.

كلّما ارتفع صوت، أجفلني. فقد شهدتُ كثيراً من الشجارات في حياتي، معظمها في الشهرين الأخيرين، لكن أيّاً منها لم يخفني مثل هذه الجدالات. إذ لا يُفترض بجماعة الوئام أن تتجادل.

قرّرت عدم الانتظار أكثر من ذلك. فمشيت على أطراف قاعة الاجتماع، بحيث مررت بين أعضاء الوئام الواقفين، وقفزت فوق الأيادي والسيقان الممدودة. نظر إليّ بعضهم باستغراب. فصحيح أنّني أرتدي قميصاً أحمر، إلاّ أنّ الوشم عند أعلى صدري كان واضحاً، حتّى من بعيد.

توقّفت قرب صفّ جماعة المعرفة، فوقفت كارا عندما اقتربت، كاتفة ذراعيها.

سألتني: "ماذا تفعلين هنا؟"

"أتيت لإخبار جوانا بما يجري، ولأطلب المساعدة".

"منّي؟ لماذا-"

"ليس منك *أنت*". حاولت أن أنسى ما قالته عن أنفي، لكن يصعب ذلك. "بل منكم جميعاً. لديّ خطّة لإنقاذ بعض بيانات جماعتكم، لكنّني أحتاج إلى مساعدتكم".

قالت كريستينا، التي وقفت إلى يساري: "في الواقع، *لدينا* خطّة".

حوّلت كارا نظرها منّي إلى كريستينا، ومن ثمّ إليّ مجدّداً.

قالت: "*أنت* تريدين مساعدة المعرفة؟ لا أصدّق ذلك".

قلت: "لكنّك أردت مساعدة الشجاعة. هل تظنّين أنّك الوحيدة التي لا تطبّق بشكل أعمى ما تمليه عليها جماعتها؟"

قالت كارا: "هذا ينسجم مع سلوكك. فإطلاق النار على من يعيق طريقك هو من شيم جماعة الشجاعة في النهاية".

شعرت بغصّة في حلقي. كانت تشبه أخاها كثيراً، لا سيّما بالثنية التي تفصل بين حاجبيها، والخصل الداكنة في شعرها الأشقر.

قالت كريستينا: "كارا، هل ستساعديننا أم لا؟"

تنهّدت كارا قائلة: "بالطبع سأفعل، وأنا واثقة أنّ الباقين سيساعدونكم أيضاً. لنلتقِ في عنبر أعضاء المعرفة بعد انتهاء الاجتماع، كي تخبراننا بالخطّة".

á á á

دام الاجتماع ساعة أخرى. بعد انتهائه، كان المطر قد توقّف، مع أنّ الرذاذ ما زال يغطّي زجاج الجدران والسقف. كنّا قد جلسنا أنا وكريستينا إلى أحد الجدران، نلعب لعبة تحاول فيها كلّ واحدة منّا تثبيت إبهام الأخرى، وكانت تربح دائماً.

أخيراً، وقفت جوانا وباقي الأعضاء الذين قاموا بتوجيه المناقشات في صفّ واحد على جذور الشجر. كان شعر جوانا قد انسدل على وجهها المنخفض. يُفترض بها أن تخبرنا الآن بنتيجة المحادثات، لكنّها اكتفت بالوقوف كاتفة ذراعيها، تربّت بأصابعها على مرفقها.

قالت كريستينا: "ماذا يجري؟"

أخيراً، نظرت جوانا إلى الأعلى.

قالت: "من الواضح أن التوصّل إلى اتّفاق كان صعباً، غير أنّ معظمكم يرغب في الالتزام بسياسة الحياد".

لا يهمّني إن قرّرَت جماعة الوئام دخول المدينة أم لا. لكنّني كنت قد بدأت آمل ألاّ يكونوا جميعهم جبناء، وبالنسبة إليّ، يبدو هذا القرار أقرب ما يكون إلى الجبن. تراخى جسدي واستندت إلى النافذة.

قالت جوانا: "أنا لا أودّ التشجيع على الانقسام في هذا المجتمع الذي أعطاني الكثير، لكنّ ضميري يجبرني على معارضة هذا القرار. وكلّ من يدفعه ضميره إلى الذهاب إلى المدينة مرحّب به للمجيء معي".

في البداية، شأني شأن الجميع، لم أكن واثقة ممّا سمعت. غير أنّ جوانا أمالت رأسها بحيث بدت الندبة مجدّداً، وأضافت: "أفهم إن كان هذا يعني أنّني لن أبقى عضواً في جماعة الوئام بعد الآن، لكن كونوا على ثقة رجاءً أنّني إن رحلت عنكم، فأنا أرحل بمحبّة ولا أحمل في قلبي أيّ حقد".

أحنت جوانا رأسها بتحية للحشد عامّة، ثمّ أبعدت شعرها خلف أذنيها، وتوجّهت نحو الباب. وقف عدد من جماعة الوئام، تبعهم عدد آخر، إلى أن وقف كلّ الحاضرين، ولحق بها عدد ليس بكبير.

قالت كريستينا: "ليس هذا ما توقّعته".

الفصل الأربعون

عنبر أعضاء المعرفة هو أحد أكبر غرف النوم في مقرّ الوئام. إذ يحتوي على اثني عشر سريراً، ثمانية مصفوفة على الجدار الأبعد، واثنان من كلّ جانب، لتبقى مساحة كبيرة في وسط القاعة. هناك وُضعت طاولة كبيرة، امتلأت بالأدوات، والقطع المعدنية، وبأجزاء وأسلاك أجهزة كمبيوتر قديمة.

كنّا قد انتهينا للتوّ أنا وكريستينا من شرح خطّتنا، التي بدت أكثر غباءً الآن أمام نظرات أكثر من عشرة من أعضاء المعرفة.

قالت كارا: "خطّتكم فيها عيوب". كانت أوّل من تحدّث.

قلت: "لهذا السبب أتينا إليكم، لكي تخبروننا كيف نصحّحها".

"حسناً، في البداية، فإنّ وضع هذه البيانات الهامّة التي تريدون إنقاذها على قرص هو فكرة سخيفة. فالأقراص تتحطّم أو تنتهي بين أيادٍ خاطئة، مثل أيّ غرض مادّي. لذلك أقترح عليكم استخدام شبكة البيانات".

"ماذا؟"

نظرت كارا إلى شخص آخر بين الحاضرين. كان شابّاً أسمر البشرة، يضع نظّارة، قال: "أخبريهما، فما من سبب لحفظ الأسرار بعد اليوم".

نظرت إليّ كارا مجدّداً. "كثير من أجهزة الكمبيوتر في مجمّع المعرفة معدّة للوصول إلى بيانات موجودة في أجهزة في جماعات أخرى. لذلك كان من السهل على جانين تشغيل محاكاة الهجوم من جهاز كمبيوتر في مجمّع الشجاعة وليس في جماعتها".

سألَت كريستينا: "ماذا؟ هل تعنين أنّه باستطاعة المرء التجوّل عبر بيانات الجماعات الأخرى كلّما شاء؟"

قال الشابّ: "لا يمكنك التجوّل عبر البيانات، هذا غير منطقي".

قالت كريستينا عابسة: "هذه استعارة، صحيح؟"

قال عابساً: "استعارة أم مجرّد صورة بيانية؟ أم أنّ الاستعارة هي فئة محدّدة تحت عنوان الصور البيانية؟"

قالت كارا: "فيرناندو، ركّز".

عندئذٍ هزّ رأسه.

قالت كارا: "في الواقع، شبكة البيانات موجودة، وهذا أمر خاضع للمساءلة على الصعيد الأخلاقي. لكنّني أعتقد أنّنا نستطيع استخدامها لمصلحتنا هنا. فكما أنّ أجهزة الكمبيوتر يمكنها الوصول إلى البيانات من مقرّات جماعات أخرى، تستطيع أيضاً *إرسال* بيانات إلى جماعات أخرى. ولو أرسلنا البيانات التي ترغبون في إنقاذها إلى كلّ الجماعات الأخرى، سيصبح تدميرها مستحيلاً".

قلت: "عندما تتحدّثين بصيغة الجمع، هل تعنين-"

قالت: "أنّنا سنذهب معكم؟ ليس جميعنا بالطبع، لكن لا بدّ من ذهاب بعضنا. فكيف تتوقّعون التنقّل في مقرّ المعرفة بمفردكم؟"

قالت كريستينا: "هل تدركين أنّكم إن أتينا معنا قد تتعرّضون للقتل، ولا يمكنكم الاختباء خلفنا خوفاً على نظّاراتكم، وما إلى ذلك؟"

نـزعت كارا نظّارتها ثمّ كسرتها إلى نصفين.

قالت: "لقد جازفنا بحياتنا بانشقاقنا عن جماعتنا، وسنجازف مجدّداً لإنقاذ جماعتنا من نفسها".

"كذلك، لدينا أدوات مفيدة". خرج الصوت الضعيف من خلف كارا، ليتبيّن أنّه لفتاة صغيرة لا تتجاوز العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها. كان شعرها الأسود قصيراً ومجعّداً.

تبادلنا النظرات أنا وكريستينا.

سألتها: "أيّ نوع من الأدوات؟"

قال فيرناندو: "إنّها مجرّد نماذج، لذلك لا حاجة إلى التدقيق فيها".
قالت كريستينا: "التدقيق ليس من مهاراتنا".
سألَت الفتاة الصغيرة: "كيف تحسّنون الأشياء إذاً؟"
أجابتها كريستينا وهي تتنهّد: "لا نفعل حقّاً، بل تؤول من سيّئ إلى أسوأ".
هزّت الفتاة الصغيرة رأسها قائلة: "أنتروبيا".
"ماذا؟"
قالت: "إنّها أنتروبيا. بحسب هذه النظرية، كلّ المواد الموجودة في الكون تنتقل تدريجيّاً إلى الحرارة نفسها. وهي تُعرف أيضاً باسم القصور الحراري".
قالت كارا: "إيليا، أنت تبالغين في تبسيط المسألة".
مدّت إيليا لسانها لكارا، فضحكتُ رغماً عنّي. إذ لم يسبق لي رؤية أحد من المعرفة يمدّ لسانه من قبل، علماً أنّني لم أتعاطَ مع كثير من أبناء المعرفة الصغار، بل اقتصرت معرفتي بهم على جانين والعاملين معها، بمن فيهم أخي.
انحنى فيرناندو بجانب أحد الأسرّة وأخرج صندوقاً. بحث بداخله لبضع ثوانٍ، ثمّ أخرج قرصاً صغيراً مستديراً. كان مصنوعاً من معدن باهت اللون غالباً ما رأيته في مقرّ المعرفة فقط. وضعه في كفّه وأعطاني إيّاه. عندما مددت يدي لأخذه، أبعده بسرعة.
قال: "حذار! لقد أحضرته من المقرّ، وليس شيئاً اخترعناه هنا. هل كنتِ هناك خلال الهجوم على جماعة النـزاهة؟"
"أجل".
"هل تذكرين عندما تحطّم الزجاج؟"
نظرت إليه متسائلة: "وهل كنتَ هناك؟"

"كلاّ، بل سجّلوا ما جرى وعرضوا علينا التسجيل في مقرّ المعرفة. في الواقع، بدا الأمر وكأنّ الزجاج تحطّم لأنّهم أطلقوا عليه النار، لكن ليس هذا هو ما جرى بالفعل. إذ قام أحد جنود الشجاعة بإلقاء واحدة من هذه الأدوات قرب الواجهات الزجاجية. فهي تُطلق إشارة لا يمكن سماعها، لكنّها تسبّب تحطّم الزجاج".

قلت: "حسناً، وبم يفيدنا ذلك؟"

قال مبتسماً: "قد يساعدك على تشتيت انتباه الناس عندما تتحطّم نوافذهم دفعة واحدة، لا سيّما في مقرّ المعرفة الذي تكثر فيه النوافذ".

قلت: "هذا صحيح".

سألت كريستينا: "وماذا لديكم أيضاً؟"

قالت كارا: "لديّ شيء ستحبّه جماعة الوئام. أين هو؟ آه، وجدته".

أخرجت صندوقاً بلاستيكياً أسود اللون، صغيراً بما فيه الكفاية بحيث لفّت أصابعها حوله. كان على سطح الصندوق قطعتان معدنيتان شبيهتان بالأسنان. ضغطت على زرّ في أسفل الصندوق، فخرج خيط من الضوء الأزرق من الفتحة بين الأسنان.

قالت كارا: "فيرناندو، هل تريد أن تشرح؟"

قال محملقاً بعينيه: "هل تمزحين؟ لن أفعل ذلك مجدّداً. أنت خطيرة مع هذا الشيء".

ابتسمت له كارا، ثمّ قالت: "إن لمستكِ بهذا الصاعق الآن، سيسبّب لك ألماً مبرحاً، ثمّ يشلّ حركتك. لقد اكتشف فيرناندو ذلك بنفسه أمس. صنعتُه لكي يتمكّن أعضاء الوئام من الدفاع عن أنفسهم من دون قتل أحد".

عبستُ مجيبة: "هذا... لطيف من جانبك".

أجابت: "في الواقع، يفترض بالتكنولوجيا أن تحسّن الحياة. مهما تكن معتقداتك، ثمّة تكنولوجيا مناسبة لها".

ماذا قالت أمّي في تلك المحاكاة؟ "أخشى أنّ حقد أبيك على المعرفة أتى على حسابك". ماذا لو كانت محقّة، ماذا لو كانت مجرّد جزء من تلك المحاكاة؟ لقد علّمني أبـي رؤية جماعة المعرفة من زاوية معيّنة، ولم يخبرني أنّهم لا يحكمون على معتقدات الناس، بل صمّموا لهم أدوات تنسجم مع تلك المعتقدات. لم يخبرني أنّهم قادرين على أن التمتّع بالمرح، ولا يتردّدون في انتقاد جماعتهم من الداخل.

اندفعت كارا نحو فيرناندو حاملة الصاعق، وانفجرت ضاحكة عندما قفز مبتعداً.

لم يخبرني أبداً أنّ فتاة من المعرفة قد تعرض عليّ مساعدتها حتّى بعدما قتلتُ أخاها.

á á á

سيبدأ الهجوم عصراً، قبل أن يحول الظلام دون رؤية الأشرطة الزرقاء التي تميّز الشجعان الخونة. ما إن وضعنا اللمسات الأخيرة على خطّتنا، حتّى ذهبنا عبر البستان إلى الفسحة التي رُكنت فيها الشاحنات. عندما خرجت من بين الأشجار، رأيت جوانا جالسة على صندوق إحدى الشاحنات، والمفاتيح تتدلّى من أصابعها.

رأيت خلفها موكباً صغيراً من العربات الممتلئة بأبناء الوئام، لكن ليس الوئام فقط، لأنّ أعضاء نكران الذات، بتسريحاتهم الجادّة وأفواههم الساكنة، كانوا بينهم. كما رأيت روبرت، شقيق سوزان الأكبر، معهم.

قفزت جوانا عن الشاحنة المليئة بصناديق كُتب عليها تفّاح، ودقيق، وذرة. لحسن الحظ أنّنا لا نحتاج سوى إلى مساحة تتّسع لشخصين في الخلف.

قال ماركوس: "مرحباً، جوانا".

قالت: "ماركوس، نودّ مرافقتكم إلى المدينة، أتمنّى ألاّ تمانعوا".

أجاب: "بالطبع لا، تفضّلي أمامنا".

أعطت جوانا ماركوس المفاتيح وصعدت إلى صندوق إحدى الشاحنات الأخرى. توجّهت كريستينا إلى مقصورة الشاحنة، أمّا أنا، فصعدت إلى صندوقها، ولحق بـي فيرناندو.

قالت كريستينا: "ألا تودّين الجلوس في المقدّمة؟ وتسمّين نفسك شُجاعة..."

أجبتها: "ذهبت إلى الجزء الذي يحتمل ألاّ يسبّب لي الغثيان".

"التقيّؤ هو سنّة الحياة".

كنت على وشك أن أسألها كم مرّة يحدث معها ذلك عندما انطلقت الشاحنة. تمسّكتُ بالإطار الجانبـي بكلتا يديّ لكي لا أسقط، لكن بعد دقائق، عندما اعتدت على الاهتزازات، أفلتّها. سارت الشاحنات الأخرى أمامنا، خلف شاحنة جوانا، التي تقدّمت الموكب.

استرخيت إلى أن وصلنا إلى السياج. توقّعت رؤية الحرّاس أنفسهم الذين اعترضوا دخولنا، لكنّ البوابة كانت مهجورة، ومفتوحة. أحسست برعشة تبدأ في صدري وتمتدّ إلى يديّ. ففي خضمّ لقائي بأشخاص جدد، وانشغالنا بوضع الخطط، نسيت أنّ خطّتي تقضي بالدخول إلى وسط معركة قد تكلّفني حياتي. أيعقل أن أخسر حياتي الآن، بعدما أدركت أنّها تستحقّ المحافظة عليها؟

أبطأ الموكب من سرعته عندما عبرنا السياج، كأنّهم يتوقّعون أن يقفز أحدهم ويعترض طريقنا. كان كلّ شيء هادئاً باستثناء صوت زيز الحصاد على الأشجار البعيدة ومحرّكات الشاحنات.

سألت فيرناندو: "هل بدأوا يرأيك؟"

"ربّما، وربّما لا. لدى جانين كثير من المخبرين، وقد أبلغها أحدهم على الأرجح أنّ شيئاً ما سيحدث، لذلك استدعت كلّ قوّات الشجاعة إلى مقرّ المعرفة".

هززت رأسي موافقة، لكنّني كنت أفكّر بكاليب، فهو أحد أولئك المخبرين. أتساءل لماذا صدّق إلى هذا الحدّ أنّه يجب إخفاء حقيقة العالم الخارجي عنّا، بحيث خان كلّ عزيز على قلبه من أجل جانين، التي لا تكترث لأحد.

سألته: "هل تعرف شخصاً يدعى كاليب؟"

قال فيرناندو: "كاليب، أجل، كان في مجموعتي من المبتدئين. كان لامعاً، غير أنّه... كيف أشرح لك؟ كان أعمى البصيرة. فقد حدث انقسام بين المبتدئين. منهم من اتّبع كلّ ما تقوله جانين، ومنهم من لم يفعل. بالطبع، كنت من المجموعة الثانية، أمّا كاليب، فانضمّ إلى الأولى. لماذا تسألين؟"

قلت بصوت بدا بعيداً حتّى بالنسبة إليّ: "التقيت به عندما كنت سجينة لديها. لهذا السبب، شعرت بالفضول".

"لا أودّ أن أحكم عليه بقسوة، ذلك أنّ جانين قادرة على أن تكون مقنعة للغاية مع الأشخاص غير المتشكّكين بطبيعتهم. ولطالما كنتُ كذلك".

حدّقت من فوق كتفه إلى خطّ الأفق الذي يزداد وضوحاً كلّما اقتربنا من المدينة. بحثت عن البرجين اللذين يعلوان مبنى المحور،

وعندما وجدتهما، شعرت أنّني أفضل وأسوأ حالاً في آن؛ أفضل لأنّ المبنى مألوف جدّاً، وأسوأ لأنّ رؤية البرجين تعني أنّنا اقتربنا.

قلت: "وأنا كذلك".

الفصل الحادي والأربعون

عندما وصلنا إلى المدينة، كانت كلّ الأحاديث قد توقّفت في الشاحنة، وحلّت مكانها الأفواه المتوتّرة والوجوه الشاحبة. تفادى ماركوس حفراً كبيرة، وأجزاءً من حافلات محطّمة. أصبحت الطريق أكثر استواءً عندما خرجنا من قطاع المنبوذين ودخلنا الأجزاء النظيفة من المدينة.

فجأة بدأت أسمع طلقات رصاص. بدت عن هذه المسافة أشبه بالمفرقعات.

للحظة، شعرت بالإرباك، ولم أرَ سوى قادة نكران الذات الراكعين على الأرصفة، والشجعان المنوّمين حاملين الأسلحة بأيديهم، لم أرَ سوى أمّي وهي تستدير لتلقّي الرصاصات، وويل وهو يسقط أرضاً. عضضت على قبضتي لأمنع نفسي من الصراخ، فأعادني الألم إلى الواقع.

طلبت منّي أمّي أن أكون شُجاعة. لكن لو عرفَت أنّ موتها سيخيفني إلى هذا الحدّ، هل كانت لتضحّي بنفسها بهذه السهولة؟

انفصل ماركوس عن موكب الشاحنات، وانعطف في جادة ماديسون. عندما أصبحنا على مسافة قصيرة من جادة ميشيغان، التي يدور فيها القتال، أوقف الشاحنة في أحد الأزقّة، وأطفأ المحرّك.

قفز فيرناندو من صندوق الشاحنة، وقدّم لي ذراعه.

غمزني قائلاً: "هيّا بنا، أيّتها المتمرّدة؟"

"ماذا؟" استعنت بذراعه، وترجّلت من الشاحنة.

فتح الحقيبة التي كان يحملها، فوجدتها مليئة بالملابس الزرقاء. فتّش بينها وأخرج ملابس لكريستينا ولي. فحصلت على قميص قطني أزرق زاهٍ، وسروال من الجينـز.

قال: "المتمرّدة، هذه صفة، وتعني شخصاً يتصرّف على نحو معارض للسلطة، ولا يُعتبر بالضرورة محارباً".

سألته كارا، وهي تمرّر يديها على شعرها الأشقر لتسويته: "وهل أنت مضطرّ لإعطاء اسم لكلّ شيء؟ نحن نقوم بعمل وحسب، وصدف أنّنا في مجموعة. فما من داعٍ للقب جديد".

أجاب فيرناندو رافعاً حاجبه الداكن: "أنا أستمتع بالتصنيف".

نظرتُ إلى فيرناندو. آخر مرّة اقتحمت فيها مقرّ جماعة، كنت أحمل بيدي مسدّساً، ورحلت تاركة جثّة خلفي. أريد هذه المرّة أن يكون الأمر مختلفاً، لا بل *أحتاج* هذه المرّة أن يكون الأمر مختلفاً.

قلت: "يعجبني لقب متمرّدة، إنّه مناسب جدّاً".

قال فيرناندو لكارا: "أترين؟ ثمّة من يؤيّدني".

أجابته بجفاف: "تهانينا".

نظرتُ إلى ملابس المعرفة التي أعطانا إيّاها بينما كان الآخرون ينـزعون الطبقات العليا من ملابسهم.

رمقتني كريستينا قائلة: "لا وقت للتواضع، أيّتها المتزمّتة".

كانت على حقّ، لذلك خلعت قميصي الأحمر وارتديت الأزرق عوضاً عنه. نظرت إلى فيرناندو وماركوس لأتأكّد أنّهما لا ينظران ناحيتي، ثمّ بدّلت سروالي. اضطررت إلى ثني طرف السروال أربع مرّات، وعندما وضعت الحزام، بدا أعلى السروال أشبه بطرف كيس مشدود.

قال فيرناندو: "هل نادتك للتوّ متزمّتة؟"

قلت: "أجل، فقد انتقلتُ إلى الشجاعة من نكران الذات".

عبس قائلاً: "يا لها من نقلة. فهذه القفزة النوعية في الشخصية بين الأجيال مستحيلة جينياً هذه الأيّام".

قلت وأنا أفكّر بوالدتي: "في بعض الأحيان، لا علاقة للشخصية بعمليّة اختيار الجماعة". فقد تركَت أمّي الشجاعة ليس لأنّها غير مناسبة لها، بل لأنّها كانت أكثر أماناً في نكران الذات بصفتها جامحة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى توبياس، الذي انتقل إلى الشجاعة هرباً من أبيه. "ثمّة عوامل أخرى تدخل في الحسبان".

انتقل هرباً من الرجل الذي جعلته حليفي. عصر قلبي في تلك اللحظة إحساس كبير بالذنب.

قال فيرناندو: "واصلي الكلام على هذا النحو، ولن يكتشفوا أنّك لستِ فعلاً من المعرفة".

مرّرت مشطاً في شعر، ثمّ أبعدته خلفي أذنيّ.

قالت كارا: "تعالي". ثمّ رفعَت خصلة شعر عن وجهي، وثبّتتها بدبوس فضّي، مثلما تفعل فتيات المعرفة.

أخرجت كريستينا المسدّسات التي أحضرناها معنا ونظرت إليّ.

قالت: "هل تريدين واحداً، أم تفضّلين حمل الصاعق؟"

نظرت إلى المسدّس بيدها. إن لم آخذ الصاعق، سأبقى بلا دفاع ضدّ أشخاص مستعدّين لقتلي بكلّ سرور. وإن فعلت، أقرّ بضعفي أمام فيرناندو، وكارا، وماركوس.

قالت كريستينا: "هل تعرفين ماذا كان ويل ليقول؟"

سألتها بغصّة: "ماذا؟"

أجابت: "كان ليطلب منك تجاوز هذه الحادثة، والكفّ عن هذه التصرّفات غير المنطقية، وأخذ السلاح اللعين".

كان ويل قليل الصبر على الأفعال غير العقلانية. لا شكّ أنّ كريستينا على حقّ، فقد عرفته أكثر منّي.

كريستينا، التي خسرت شخصاً عزيزاً على قلبها في ذلك اليوم، مثلي تماماً، استطاعت أن تغفر لي، وهو عمل ظننت أنّه مستحيل. كنت لأجده مستحيلاً، لو كنت في مكانها. لماذا إذاً يصعب عليّ إلى هذا الحدّ أن أغفر لنفسي؟

أحطت المسدّس الذي قدّمته إليّ كريستينا بيدي. كان المعدن دافئاً في المكان الذي لمسَته فيه. عادت ذكرى إطلاق النار عليه تراودني. حاولت أن أكبتها، لكنّني لم أستطع، فتركتُ المسدّس.

قالت كارا وهي تنـزع شعرة عن كمّ قميصها: "الصاعق هو خيار ممتاز. ولو أردتِ رأيي أعتقد أنّ الشجعان يفرطون في استخدام المسدّس على أيّ حال".

أعطاني فيرناندو الصاعق. تمنّيت في تلك اللحظة أن أعبّر عن امتناني لكارا، لكنّها لم تكن تنظر إليّ.

سألتهم: "كيف سأخفي هذا الشيء".

أجاب فيرناندو: "لا تهتمّي".

"صحيح".

نظر ماركوس إلى ساعته قائلاً: "يستحسن أن ننطلق".

راح قلبـي ينبض بقوّة معلناً عن كلّ ثانية تمرّ، لكنّ بقيّة جسدي كان مخدّراً. بالكاد كنت أشعر بالأرض التي أخطو عليها. في الواقع، لم يسبق لي أن خفت إلى هذا الحدّ. وبالنظر إلى كلّ ما رأيته في جلسات المحاكاة، وكلّ ما فعلته في هجوم المحاكاة، بدا لي هذا غير منطقي.

ربّما كان كذلك. فأيّاً يكن ما أرادت جماعة نكران الذات إعلانه قبل الهجوم، كان يستحقّ أن تتّخذ جانين تدابير جذرية ورهيبة لمنعهم. وها أنا الآن على وشك إنهاء عملهم الذي ماتت جماعتي من أجله. لا بل إنّ حياتي الآن على المحكّ.

مشينا أنا وكريستينا في المقدّمة. ركضنا على الأرصفة النظيفة والمستوية في جادة ماديسون، ثمّ عبرنا شارع ستايت، باتّجاه جادة ميشيغان.

عندما أصبحنا على مسافة قصيرة من مقرّ المعرفة، توقّفتُ فجأة.

كانت تقف أمامنا مجموعة من الناس في أربعة صفوف، معظمهم يرتدون الأسود والأبيض، تفصل مسافة قدمين بين كلّ منهم. كانوا يحملون أسلحة، وعلى أهبة الاستعداد للهجوم. رفّفت عينيّ، فأصبحوا الشجعان المنوّمين في قطاع نكران الذات خلال هجوم المحاكاة. عودي *إلى رشدك! عودي إلى رشدك عودي إلى رشدك...* رفّفت عينيّ مجدّداً، فعادوا من أعضاء النـزاهة، مع أنّ بعضهم كانوا يرتدون الأسود فقط، ويبدون فعلاً كالشجعان. إن لم أكن حذرة، سأفقد إحساسي بالزمان والمكان.

قالت كريستينا: "يا إلهي. أختي، *أبـي وأمّي*... ماذا لو كانوا..."

نظرت إليّ، وأدركت بماذا تفكّر، لأنّني مررت بهذه التجربة من قبل. *أين أبويّ؟ عليّ أن أجدهما*. لكن إن كان أبواها على هذه الحالة، واقعين تحت تأثير المحاكاة ومسلّحين، فلا يمكنها فعل شيء من أجلهم.

تساءلت ما إذا كانت لين واقفة في أحد هذه الصفوف، أو في مكان آخر.

سأل فيرناندو: "ماذا نفعل؟"

اقتربتُ من أعضاء النـزاهة، فربّما كانوا غير مبرمجين لإطلاق النار. حدّقت إلى عينيّ امرأة ترتدي قميصاً أبيض وسروالاً أسود، وبدت كما لو أنّها عادت من عملها للتوّ.

تقدّمت خطوة أخرى، وسرعان ما انطلقت الرصاصة. فانخفضتُ تلقائياً على الأرض، وغطّيت رأسي بذراعيّ، ثمّ تراجعت متعثّرة نحو حذاء فيرناندو، الذي ساعدني على الوقوف.

قال: "ما رأيك بعدم تكرار *ذلك*؟"

ملتُ إلى الأمام، ليس كثيراً، واسترقت النظر إلى الزقاق الفاصل بين المبنى المجاور لنا ومقرّ المعرفة. كان أعضاء النـزاهة موجودين في هذا الزقاق أيضاً. ولن أفاجأ إن عرفتُ أنّه ثمّة قوّة كبيرة منهم تحيط بمجمّع المعرفة بأكمله.

سألت رفاقي: "هل ثمّة طريق آخر لدخول مقرّ المعرفة؟"

قالت كارا: "ليس على حدّ علمي، إلاّ إن كنت ترغبين في القفز على سطوح المنازل".

ضحكَت وهي تقول ذلك، كما لو أنّها نكتة. أمّا أنا فرفعت حاجبيّ.

قالت: "مهلاً، أنت لا تفكّرين-"

قلت: "السطوح؟ كلاّ، بل النوافذ".

توجّهت يساراً، وحرصت على عدم التقدّم ولو خطوة واحدة باتجاه أعضاء النـزاهة. كان المبنى الواقع إلى يساري يتداخل مع مقرّ المعرفة من جانبه الأيسر. ولا بدّ من وجود بضع نوافذ متقابلة بين المبنيين.

تمتمت كارا شيئاً عن مجازفات الشجعان الجنونية، غير أنّها لحقت بـي وتبعها فيرناندو، وماركوس، وكريستينا. حاولت أن أفتح الباب الخلفي للمبنى، لكنّه كان مقفلاً.

تقدّمت كريستينا قائلة: "تراجعوا". صوّبت مسدّسها إلى القفل، فخبّأت وجهي بذراعي، بينما أطلقت النار. سمعنا صوتاً قوياً، تبعه رنين عالٍ نتيجة إطلاق رصاص في مكان ضيّق. هكذا كُسر القفل.

دفعتُ الباب ودخلت. استقبلَنا رواق طويل أرضه مكسوّة بالبلاط، بينما توزّعت الأبواب من جانبيه، بعضها مفتوح والآخر مغلق. عندما نظرتُ إلى إحدى الغرف المفتوحة، رأيت صفوفاً من المكاتب القديمة، وألواحاً على الجدران مثل تلك الموجودة في مقرّ الشجاعة. كان الهواء

رطباً، رائحته شبيهة برائحة صفحات من الكتب التي امتزجت بمحلول تنظيف.

قال فيرناندو: "كان هذا مبنى تجارياً، لكنّ جماعة المعرفة حوّلته إلى مدرسة، للمرحلة التي تسبق اختيار الجماعة. لكن بعد التجديدات الكبيرة التي أجريت على مقرّ المعرفة منذ عقد من الزمن، عندما تمّ ربط كلّ المباني المقابلة للميلينيوم، توقّفوا عن التعليم هنا. فالبناء قديم جدّاً، ويصعب تجديده".

قالت كريستينا: "شكراً على درس التاريخ".

عندما وصلت إلى آخر الممرّ، دخلت أحد الصفوف لأرى أين نحن. فوقع نظري على الجهة الخلفية من مقرّ المعرفة، لكن لم يكن ثمّة نوافذ مطلّة على الزقاق على مستوى الشارع.

خارج النافذة، وقفت طفلة من النـزاهة على مسافة قريبة جدّاً بحيث يمكنني لمسها إن مددت يدي من النافذة، وكانت تحمل سلاحاً بطول ساعدها. وقفَت ساكنة جدّاً إلى حدّ أنّني تعجّبت ما إذا كانت تتنفّس حتّى.

نظرتُ إلى الأعلى، إلى النوافذ التي تعلو الشارع. فرأيت فوق رأسي، في مبنى المدرسة، نوافذ عديدة. وكان ثمّة نافذة واحدة بمستواها في مقرّ المعرفة، وذلك في الطابق الثالث.

قلت لهم: "بشرى سارّة. لقد وجدت طريقة للعبور".

الفصل الثاني والأربعون

انتشر الجميع في المبنى بحثاً عن حجرة ناطور، بعدما طلبتُ منهم إيجاد سلّم. سمعت صرير الأحذية على البلاط، وهتافهم وهم يبحثون قائلين: "وجدتُ واحداً، كلاّ، مهلاً، لقد عُلّقت فيه دِلاء. لا يهمّ". و"كم يجب أن يكون طول السلّم؟ لن ينفعنا سلّم قصير، أليس كذلك؟"

بينما كانوا يبحثون، وجدتُ الغرفة المطلّة على نافذة المعرفة في الطابق الثالث. احتجت إلى ثلاث محاولات لفتح النافذة الصحيحة.

أطللت إلى الزقاق، وصحت لألفت نظر الفتاة، ثمّ انخفضتُ بأسرع ما يمكن. غير أنّني لم أسمع طلقات. *جيّد، هذا يعني أنّهم لا يتجاوبون مع الأصوات.*

دخلت كريستينا إلى الصفّ حاملة سلّماً تحت ذراعها، ولحق بها الآخرون. "وجدتُ واحداً! أظنّ أنّه سيكون طويلاً بما فيه الكفاية عندما نفتحه".

استدارت بسرعة، فارتطم السلّم بكتف فيرناندو.

"آه! أنا آسفة، ناندو".

التوت نظّارته من أثر الضربة، فابتسم لكريستينا ونـزع النظّارة، ثمّ دسّها في جيبه.

قلت له: "ناندو؟ ظننت أنّ أبناء المعرفة لا يحبّون الألقاب".

أجاب: "عندما تناديك فتاة جميلة بلقب، من المنطقي التجاوب معها".

أشاحت كريستينا بنظرها، وظننت في البداية أنّها احمرّت خجلاً، ثمّ لاحظت أنّ وجهها توتّر كما لو كانت قد تلقّت صفعة عوضاً عن المجاملة. ما زال من المبكر أن تتجاوب مع أحد بعد وفاة ويل.

ساعدتُها على إخراج السلّم من النافذة، ومدّه عبر الفجوة بين المبنيين. ساعدَنا ماركوس على تثبيته، وهتف فيرناندو فرحاً عندما وصل السلّم إلى نافذة المعرفة.

قلت: "حان الوقت لتحطيم الزجاج".

أخرج فيرناندو جهاز تحطيم الزجاج من جيبه وأعطاني إيّاه. "أنت أفضلنا في التصويب على الأرجح".

أجبته: "لا يمكن الاعتماد عليّ. فذراعي الأيمن عاطلة عن العمل في الوقت الحاضر، وسيكون عليّ أن أرميها بيدي اليسرى".

قالت كريستينا: "أنا أفعل".

ضغطَت على الزرّ الموجود على طرف الجهاز، ثمّ رمته على النافذة من تحت مستوى كتفها. توتّرت بانتظار وصوله. فقفز على حاجب النافذة، وتدحرج، إلى أن ارتطم بالزجاج. لمع ضوء برتقالي، ثمّ تحطّمت النافذة، ومعها النوافذ الموجودة فوقها، وتحتها، وإلى جانبها، وتحوّلت إلى أجزاء صغيرة لتنهار على جنود النـزاهة في الأسفل.

في الوقت نفسه، التفت الجنود، وأطلقوا النار إلى الأعلى. انخفض الجميع إلى الأرض، ما عداي. فقد كان جزء منّي مذهولاً من ذلك التزامن التامّ في الحركة، بينما شعر جزء آخر بالاشمئزاز من قدرة جانين ماثيوس على تحويل جماعة أخرى من كائنات بشرية إلى أجزاء لآلة واحدة. لم تُصب أيّ رصاصة نوافذ الصفّ، ولم تخترق الغرفة.

عندما توقّف الجنود عن إطلاق الرصاص، نظرتُ إليهم. كانوا قد استعادوا وضعيتهم الأصلية، نصفهم مواجه لجادة ماديسون، والنصف الآخر لشارع واشنطن.

قلت: "إنّهم يتجاوبون مع الحركة فقط، لذلك... احذروا السقوط عن السلّم. من يصل أوّلاً، يُثبّت السلّم من الطرف الآخر".

لاحظت أنّ ماركوس، الذي يفترض أن يتطوّع من دون أنانية لأيّ مهمّة، لم يتطوّع هذه المرّة.

قالت كريستينا: "لا يبدو عليك اليوم أنّك شديد التزمّت، ماركوس".

أجابها: "لو كنتُ مكانك، لكنت أكثر حذراً إلى من أوجّه إهاناتي. ما زلت الشخص الوحيد هنا القادر على إيجاد ما تبحثون عنه".

"أهذا *تهديد*؟"

قلت قبل أن يجيب: "أنا أذهب. أنا أيضاً كنت من نكران الذات، أليس كذلك؟"

وضعت الصاعق تحت حزام سروالي، ثمّ صعدت على أحد المكاتب لكي أصعد إلى النافذة من زاوية أفضل. أمسكَت كريستينا السلّم من طرفه وأنا أصعد عليه، وأبدأ بالتقدّم.

عندما عبرتُ النافذة، ثبّتّ قدميّ على الأطراف الضيّقة للسلّم، ويديّ على الدرجات. لم يبدُ السلّم أكثر متانة من علبة ألمنيوم. فقد كان يصرّ ويتحرّك تحت وزني. حاولت عدم النظر إلى السفل، إلى أعضاء النـزاهة المسلّحين، وعدم التفكير بأسلحتهم الجاهزة لإطلاق النار.

أخذت أنفاساً سريعة، وحدّقت إلى وجهتي، أي نافذة المعرفة. لم يتبقَّ لي سوى بضع درجات.

هبّ نسيم عبر الزقاق، ودفعني جانباً، فتذكّرت اليوم الذي تسلّقت فيه عجلة فيريس مع توبياس. حاول يومذاك إبقائي ثابتة. لكن لم يعد لديّ من يساعدني على الحفاظ على توازني بعد اليوم.

ألقيت نظرة خاطفة على الأرض. كنت على ارتفاع ثلاثة طوابق، بحيث بدت الأرصفة أصغر حجماً ممّا هي عليه، وكذلك صفوف مسلّحي النـزاهة الذين استعبدتهم جانين. آلمتني ذراعاي، لا سيّما ذراعي اليمنى، وأنا أشقّ طريقي من فوق الهوّة.

تحرّك السلّم، وازداد اقتراباً من طرف إطار النافذة من الجهة الأخرى. كانت كريستينا تثبّته من أحد طرفيه، لكنّها لا تستطيع منعه من الانـزلاق عن طرف النافذة الأخرى. شددت على فكّي وأنا أحاول عدم تحريكه كثيراً، لكنّني لا أستطيع نقل قدميّ معاً دفعة واحدة. عليّ أن أترك السلّم يتأرجح قليلاً. على أيّ حال، لم يتبقَّ أمامي سوى أربع درجات.

اهتزّ السلّم يساراً، وبينما كنت أنقل قدمي اليمنى، انـزلقَت عن الدرجة.

صرختُ بينما مال جسدي جانباً، بحيث أحطت السلّم بذراعيّ، وتدلّت ساقاي في الفضاء.

صاحت كريستينا من خلفي: "هل أنت بخير؟"

لم أجبها، بل رفعت ساقي إلى الأعلى، وحشرتها تحت جسدي. أدّت زلّتي إلى انـزلاق السلّم أكثر عن حافة النافذة، ولم يعد مدعوماً سوى بمليمتر من الإسمنت.

قرّرت التحرّك بسرعة. فألقيت بجسدي نحو النافذة المقابلة في اللحظة نفسها التي انـزلق فيها السلّم. التقطتُ حاجب النافذة، وخدش الإسمنت أناملي التي حملت وزن جسدي بأكمله. سمعت عدّة أصوات تصيح من خلفي.

طحنت أسناني وأنا أدفع نفسي إلى الأعلى، واستغاث كتفي الأيمن ألماً. ركلت الجدار، على أمل أن يمنحني بعض الزخم، إلاّ أنّه لم يفعل. فصرخت من بين أسناني وأنا أدفع نفسي إلى الأعلى، من فوق حاجب النافذة، بحيث أصبح جسدي في الداخل وبقي النصف الآخر متدلّياً. لحسن الحظّ، لم تترك كريستينا السلّم يسقط بعيداً، ولم يطلق عليّ النار أيّ من المسلّحين.

سحبت جسدي إلى داخل الغرفة، لأجد نفسي في حمّام. فسقطت على الأرض على كتفي الأيسر، وحاولت التنفّس على الرغم من الألم. كان العرق يتصبّب من جبيني.

خرجت امرأة من جماعة المعرفة من إحدى الحجرات، فوقفت على قدميّ ورفعت الصاعق في وجهها، من دون تفكير.

وقفَت جامدة، ورفعَت يديها إلى الأعلى، بينما التصقت المناديل بحذائها.

نظرت إليّ بذهول وقالت: "لا تطلقي النار!"

تذكّرت عندئذٍ أنّني أرتدي ملابس مثل ملابس المعرفة. فوضعت الصاعق على طرف المغسلة.

قلت: "أنا أعتذر". حاولتُ أن أستخدم أسلوب الكلام الرسمي الشائع بين أعضاء المعرفة. "أنا متوتّرة بعض الشيء، بسبب كلّ ما يجري. نحن ندخل مجدّداً من أجل استخراج بعض نتائج اختباراتنا من... المختبر 4-أ".

قالت المرأة: "آه، لا يبدو هذا القرار حكيماً".

قلت، محاولة أن أبدو متعجرفة مثل بعض أبناء المعرفة الذين التقيت بهم: "البيانات هي غاية في الأهمّية، وأفضّل عدم تركها عرضة للرصاص".

قالت: "لستُ في وضع يسمح لي بمنعك من محاولة استعادتها. والآن المعذرة، سأغسل يديّ وأعود إلى مهمّتي".

قلت: "هذا جيد".قرّرت عدم إخبارها أنّ المنديل الورقي ملتصق بحذائها.

التفتّ إلى النافذة، فرأيت كريستينا وفيرناندو يحاولان رفع السلّم مجدّداً إلى حاجب النافذة. على الرغم من ألم ذراعيّ ويديّ، انحنيت،

وأمسكت بالطرف الآخر للسلّم، ثمّ رفعته وثبّته على الحاجب. فبدأت كريستينا رحلتها عليه.

هذه المرّة كان السلّم أكثر ثباتاً، فعبرَت كريستينا تلك المسافة من دون مشاكل. عندما وصلَت، أمسكته عنّي، بينما قمت بدفع سلّة المهملات ووضعها أمام الباب لكي لا يتمكّن أحد من الدخول. بعد ذلك، وضعتُ أصابعي تحت الماء البارد ليزول الألم.

قالت: "يا لها من فكرة ذكية، تريس".

"لا يجب أن تفاجأي إلى هذا الحدّ".

"أنت..." صمتَت قليلاً. "أنت مؤهّلة للانضمام إلى المعرفة، أليس كذلك؟"

أجبتها بحدّة: "وهل هذا يهمّ؟ لقد دُمّرت الجماعات، وكانت من أساسها فكرة غبية".

لم يسبق لي أن قلت شيئاً كهذا من قبل، حتّى إنّني لم أفكّر فيه يوماً. لكنّني متفاجئة الآن لأنّني أفكّر على هذا النحو وأوافق توبياس في الرأي.

قالت كريستينا: "لم أكن أحاول إهانتك. فامتلاك الجدارة لدخول جماعة المعرفة ليس أمراً سيّئاً، لا سيّما الآن".

"أنا آسفة، لكنّني... متوتّرة وحسب".

أطلّ ماركوس من النافذة، ونـزل على الأرض. كانت كارا رشيقة على نحو مثير للإعجاب. فقد تنقّلت فوق الدرجات كما لو أنّها تعزف على البانجو، بحيث لم تلامس الدرجات سوى قليلاً قبل أن تنتقل إلى الدرجة التالية.

حان دور فيرناندو أخيراً، وسيكون في الوضع نفسه الذي كنت فيه، ذلك أنّ السلّم لن يكون مثبّتاً سوى من جهة واحدة. اقتربت أكثر من النافذة لكي أطلب منه التوقّف إن رأيت السلّم ينـزلق.

فيرناندو، الذي لم أعتقد أنّه سيعاني من أيّ مشاكل، تنقّل بصعوبة بالغة. لقد أمضى على الأرجح كلّ حياته أمام شاشة كمبيوتر أو كتاب. تقدّم، وقد احمرّ وجهه تماماً، وتمسّك بالعوارض الحديدية بقوّة بحيث احمرّت يداه. في منتصف المسافة، رأيت شيئاً يسقط من جيبه. إنّها نظّارته.

صرخت: "فيرنان-"

لكن فات الأوان.

سقطت النظّارة، وارتطمت بطرف السلّم، ثمّ هبطت على الرصيف.

فجأة، استدار جنود النـزاهة، وأطلقوا النار إلى الأعلى. صاح فيرناندو، وانهار على السلّم. أصابت إحدى الرصاصات ساقه. لم أعرف أين استقرّت الرصاصات الأخرى، لكن بالنظر إلى الدم الذي سال من بين العوارض الحديدية، لم يكن وضعه بخير.

حدّق فيرناندو إلى كريستينا، بوجهه الشاحب. فاندفعَت إلى الأمام، من خلال النافذة، محاولة الوصول إليه. غير أنّه قال لها بصوت ضعيف: "لا تكوني حمقاء! اتركيني".

كان هذا آخر كلامه.

الفصل الثالث والأربعون

تراجعت كريستينا إلى داخل الغرفة، ووقفنا ساكنين.

قال ماركوس: "لا أريد أن أكون فظّاً، لكن علينا الذهاب قبل أن يدخل الشجعان والمنبوذون هذا المبنى، هذا إن لم يكونوا قد فعلوا أساساً".

سمعت طرقاً على النافذة، فالتفتّ، وظننت لجزء من الثانية أنّه فيرناندو يحاول الدخول. لكنّه كان المطر وحسب.

خرجنا من الحمّام، وتبعنا كارا التي تولّت زمام القيادة الآن، لأنّها أفضل من يعرف مقرّ المعرفة. مشت خلفها كريستينا، ومن ثمّ ماركوس، وأخيراً أنا. غادرنا الحمّام لنجد أنفسنا في رواق يشبه جميع أروقة مقرّ المعرفة: باهت اللون، وساطع الإضاءة، ومعقّم.

غير أنّ هذا الرواق كان أكثر حركة من أيّ رواق آخر. فقد كان يعجّ بأعضاء المعرفة بملابسهم الزرقاء الذين يروحون ويجيئون، زرافات وفرادى، ويصيحون لبعضهم: "أصبحوا على الأبواب الأمامية! اصعدوا إلى أعلى طابق ممكن!" و"لقد عطّلوا المصاعد! اصعدوا على السلالم!" هنا، في وسط هذه الفوضى، أدركت أنّني نسيت الصاعق في الحمّام. لقد عدت عزلاء.

ركض أمامنا الشجعان الخونة هم أيضاً، لكنّهم كانوا أقلّ ذعراً من أعضاء المعرفة. تساءلت ماذا تفعل جوانا، وأعضاء الوئام، وأعضان نكران الذات في خضم هذه الفوضى. هل يعتنون بالجرحى؟ أم يقفون مشكّلين درعاً بشرياً بين أسلحة الشجعان وأبرياء المعرفة؟

ارتجفتُ بينما قادتنا كارا إلى سلّم خلفي، وانضممنا إلى مجموعة من أعضاء المعرفة المذعورين ونحن نركض عبر عدد من السلالم. أخيراً، دفعت كارا بكتفها باباً بجوار السلّم، وحملت مسدّسها على صدرها.

عرفت هذا الطابق.

إنّه الطابق الذي كنت فيه.

تلبّدت أفكاري فجأة. فقد أوشكت على الموت هنا، لا بل تمنّيته.

أبطأت من خطواتي، ووقفت خلفهم. لم أستطع الخروج من أفكاري الضبابية، مع أنّ الناس كانوا يمرّون من أمامي مسرعين. ناداني ماركوس، لكنّ صوته كان مكتوماً. فعادت كريستينا أدراجها، وأمسكت بـي، ثمّ سحبتني نحو غرفة المراقبة أ.

اصطفّت أجهزة الكمبيوتر في غرفة المراقبة، لكنّني لم أرها حقّاً، بسبب غشاوة نـزلت على عينيّ. حاولت أن أرفّ أجفاني، فرأيت ماركوس جالساً أمام أحد الأجهزة، وكارا أمام آخر. سيقومان بإرسال كلّ البيانات من أجهزة المعرفة إلى أجهزة الجماعات الأخرى.

فجأة، فُتح الباب خلفي، وسمعت صوت كاليب وهو يقول: "ماذا تفعلون هنا؟"

á á á

أيقظني صوته، فالتفتّ واستقرّ نظري على سلاحه.

كانت عيناه مثل عينيّ أمّي، خضراوين باهتتين، رماديتين تقريباً، مع أنّ قميصه الأزرق جعل لونهما يبدو أكثر قوّة.

قلت: "كاليب، ماذا تظنّ أنك فاعل؟"

قال بصوت مرتجف، واهتزّ المسدّس بين يديه: "أنا هنا لإيقاف ما تفعلونه، أيّاً يكن!"

"لقد أتينا لإنقاذ بيانات المعرفة التي يريد المنبوذون تدميرها. لا أظنّ أنّك ترغب في منعنا من فعل ذلك".

"هذا ليس صحيحاً". أشار برأسه إلى ماركوس، وتابع قائلاً: "لماذا أحضرتموه ما دمتم لا تحاولون إيجاد شيء آخر؟ شيء أكثر أهمّية بالنسبة إليه من كلّ بيانات المعرفة؟"

قال ماركوس: "هل أخبرَتك به؟ أيُعقل أن تخبر شابّاً يافعاً؟"

قال كاليب: "لم تخبرني في البداية، لكنّها لم تشأ أن أتحيّز لطرف معيّن من دون أن أفهم الحقائق!"

قال ماركوس: "الحقائق هي أنّها مرعوبة من الحقيقة، على عكس نكران الذات. فهم لم يخشوها في الماضي، ولا يخشونها الآن. وكذلك أختك، على حدّ قولها".

عبست مفكّرة أنّني أرغب في لكمه حتّى وهو يجاملني.

قال كاليب بلطف وهو ينظر إليّ مجدّداً: "أختي لا تعرف ما الذي تتورّط فيه، لا تعرف ما هو الشيء الذي تريد أن يعرفه الجميع... لا تعرف أنّه سيقضي على *كلّ شيء*!"

كان ماركوس يصيح وهو يجيبه: "نحن هنا لهدف معيّن! لقد أتممنا مهمّتنا، وقد حان الوقت لتنفيذ ما أُرسلنا من أجله!"

لم أكن أعرف ما هو الهدف أو المهمّة التي يشير إليها ماركوس، لكن لا يبدو أنّ كاليب يشعر بالحيرة.

قال: "نحن لم نُرسَل إلى هنا، ولسنا مسؤولين سوى تجاه أنفسنا".

"هذا التفكير بالمصلحة الذاتية هو ما أصبحتُ أتوقّعه ممّن يمضون وقتاً طويلاً مع جانين ماثيوس. لقد أصبحتَ متمسّكاً براحتك الشخصية إلى حدّ أنّ أنانيتك جرّدتك من إنسانيتك!"

لم يعد يهمّني أن أسمع المزيد. بينما كان كاليب يحدّق إلى ماركوس، استدرت وركلت أخي على معصمه. فاجأته الضربة، وسقط المسدّس من يديه. فركلته على الأرض بقدمي.

قال وذقنه ترتعش: "عليك أن تثقي بـي، بياتريس".

"بعدما ساعدتَها على تعذيبـي؟ بعدما تركتَها *تقتلني* تقريباً؟"

"أنا لم أساعدها على تع-"

"أنت لم تمنعها! كنتَ واقفاً هناك، واكتفيت *بالتفرّج*-"

"لم يكن بيدي حيلة. ماذا-"

"كان يمكنك أن *تحاول*، أيّها الجبان!" صرختُ بصوت عالٍ جدّاً بحيث احمرّ وجهي وفرّت الدموع من عينيّ. "أن تحاول، وتفشل، لأنّ تحبّني!"

رحت أشهق لأخذ كمّية كافية من الهواء، ولم أسمع سوى صوت لوح المفاتيح الذي تعمل عليه كارا. لم يجبني كاليب، بل تحوّلت نظرته المتوسّلة ببطء إلى نظرة شاردة.

قال: "لن تجدوا ما تبحثون عنه هنا، فهي لا تحتفظ بملفّات بهذه الأهمّية على أجهزة الكمبيوتر العامّة. هذا غير منطقي".

قال ماركوس: "لم تدمّرها إذاً؟"

هزّ كاليب رأسه نافياً. "هي لا تعتقد بوجوب تدمير المعلومات بل احتوائها وحسب".

قال ماركوس: "حسناً، الحمد لله. أين تحتفظ بها؟"

قال كاليب: "لن أخبركم".

قلت: "أظنّ أنّني أعرف". فقد قال كاليب إنّها لا تحتفظ بهذه المعلومات على جهاز كمبيوتر عامّ، ما يعني أنّها تحتفظ بها على جهاز خاصّ. إمّا أن يكون هذا الجهاز في مكتبها، أو في المختبر الذي تحدّثَت عنه توري.

لم ينظر كاليب إليّ.

حمل ماركوس مسدّس كاليب، وقلّبه بيده بحيث برز أسفل المسدّس من قبضته. بعد ذلك، استدار بسرعة، وضرب كاليب على فكّه، فغابت عيناه، وسقط على الأرض.

لا أريد أن أعرف أين تعلّم ماركوس هذه الحركة.

قال ماركوس: "لا يمكننا أن نخاطر بتركه يخبر أحداً بما نفعله. هيّا بنا. بإمكان كارا الاهتمام بالباقي، أليس كذلك؟"

هزّتت كارا رأسها موافقة، من دون أن ترفع نظرها عن الشاشة. أمّا أنا، فتبعت ماركوس وكريستينا إلى خارج غرفة المراقبة، نحو السلالم، يرافقني إحساس بالغثيان.

á á á

أصبح الممرّ خالياً في الخارج، وتناثرت قطع الأوراق وآثار الأقدام على الأرض. صعدنا أنا، وماركوس، وكريستينا السلّم مسرعين خلف بعضنا. حدّقت إلى مؤخّر رأسه، وبدا شكل جمجمته من خلال شعره القصير.

كلّ ما أراه وأنا أنظر إليه هو حزام يلوح باتّجاه توبياس، وقبضة مسدّس تضرب فكّ كاليب. لم أكترث بكاليب، فقد كنت لأفعل ما فعله به أنا أيضاً. لكنّ ما حيّرني هو أنّه رجل يعرف كيف يؤذي الناس، وقادر في الوقت نفسه على التظاهر أنّه قائد جماعة نكران الذات المحبّ للغير والناكر لذاته. وهذه الفكرة أغضبتني فجأة وشوّشت أفكاري.

هذا لا سيّما وأنّني اخترته، اخترته هو عوضاً عن توبياس.

قال ماركوس ونحن ننعطف: "أخوك خائن، ويستحقّ ما هو أسوأ. لذلك، لا داعي لتنظري إليّ بهذه الطريقة".

صرخت: "اخرس!" ودفعته على الجدار، غير أنّ المفاجأة منعته من المقاومة. "أنا أكرهك، أتعلم! أكرهك بسبب ما فعلته به، ولا أعني كاليب". اقتربت أكثر، وهمست قائلة: "ومع أنّني قد لا أقتلك بنفسي، فإنّني حتماً لن أساعدك إن حاول أحدهم قتلك. لذلك، يستحسن أن تدعو الله لكي لا تجد نفسك في هذا الوضع".

حدّق إليّ من دون كتراث كما يبدو. تركته، واستأنفت صعودي، فلحقت بـي كريستينا، وتبعنا ماركوس على بعد عدّة خطوات.

سألتني: "إلى أين نذهب؟"

"قال كاليب إنّ ما نبحث عنه ليس على جهاز كمبيوتر عامّ، لذلك لا بدّ أن يكون على جهاز خاصّ. على حدّ علمي، لا تملك جانين سوى جهازين من هذا النوع، واحد في مكتبها، والآخر في مختبرها".

"وإلى أيّهما نذهب؟"

أجبت: "أخبرتني توري إنّ مختبر جانين يخضع لتدابير أمنية مشدّدة على نحو فائق. وقد سبق ودخلتُ مكتبها، كان مجرّد غرفة عادية".

"إلى المختبر إذاً".

"في الطابق الأعلى".

وصلنا إلى الباب المؤدّي إلى الدرج، وعندما فتحته، رأيت مجموعة من أعضاء المعرفة، بينهم أطفال، يهبطون السلالم مسرعين. فتمسّكت بالدرابزين، وشققت طريقي بينهم بمنكبيّ، من دون أن انظر إلى وجوههم، كما لو أنّهم ليسوا بشراً، بل مجرّد كتلة أدفعها جانباً.

توقّعت أن يتوقّف السيل البشري، لكنّ عدداً أكبر أتى من الطابق التالي، إذ تدفّقت أعداد من الناس بالملابس الزرقاء تحت الأضواء الزرقاء الخافتة، ولمع بياض أعينهم كالمصابيح في الزرقة المحيطة بهم. كان صدى

أصواتهم المذعورة يتردّد في الحجرة الإسمنتية مئات المرّات، لتبدو مثل صيحات عفاريت بأعين برّاقة.

عندما وصلنا إلى الطابق السابع، تضاءل عدد الناس، ثمّ اختفوا. مرّرت يديّ على ذراعيّ لأتخلّص من أثر الشعر، والأكمام، والأجساد التي احتكّت بـي أثناء صعودي. واستطعت رؤية أعلى السلّم من المكان الذي أقف فيه.

رأيت أيضاً جثّة حارس تدلّت ذراعه من طرف إحدى الدرجات، ووقف فوقه رجل من المنبوذين يضع رقعة على عينه.

إدوارد.

á á á

قال إدوارد: "انظروا من أتى". كان يقف عند أعلى درج قصير لا يتألّف سوى من سبع درجات، بينما وقفت أنا في الأسفل. تمدّد حارس من الشجعان الخونة بيننا، فاتحاً عينيه الخاليتين من الحياة، بينما غطّت صدره بقعة داكنة في المكان الذي أصيب فيه بطلقة من مسدّس إدوارد على الأرجح.

قال: "هذه ملابس غريبة بالنسبة إلى شخص يكره جماعة المعرفة. كنت أظنّ أنّك في المنـزل، تنتظرين عودة حبيبك بطلاً".

أجبته وأنا أصعد درجة: "كما ترى، هذا غير صحيح".

ألقى الضوء الأزرق ظلالاً فوق الفجوتين الموجودتين على خدّي إدوارد، الذي مدّ يده إلى الخلف.

ما دام هنا، فهذا يعني أنّ توري قد أتت، وأنّ جانين قد تكون ميتة الآن.

أحسست بكريستينا خلفي، وسمعت أنفاسها.

قلت وأنا أصعد درجة أخرى: "نريد المرور من هنا".

أجاب: "هذا غير ممكن". أمسك بمسدّسه، فرميت نفسي إلى الأمام، فوق جثة الحارس. أطلق النار، لكنّي أمسكت بمعصمه، ومنعته من التصويب بشكل صحيح.

طنّت أذناي، وتعثّرت على ظهر الحارس الميت وأنا أحاول تثبيت نفسي.

وجّهت إليه كريستينا لكمة من فوق رأسي، فأصابت أنفه. لم أستطع أن أحافظ على توازني وأنا أقف على الجثّة، فسقطت على ركبتيّ، وغرزت أظافري بمعصمه. دفعني جانباً وأطلق النار مجدّداً، فأصاب ساق كريستينا.

شهقت كريستينا، ثمّ سحبت مسدّسها وأطلقت النار. أصابت الرصاصة إدوارد في جنبه، فصرخ وأسقط المسدّس، ثمّ انهار إلى الأمام. سقط فوقي، فارتطم رأسي بإحدى الدرجات الإسمنتية، بينما حُشرت ذراع الحارس خلف ظهري.

أخذ ماركوس مسدّس إدوارد، ومرّره فوقنا نحن الاثنين. قال: "انهضي، تريس"، وقال لإدوارد: "وأنت، لا تتحرّك".

بحثت بيدي عن زاوية أتمسّك بها، وحاولت الخروج من بين إدوارد وجثّة الحارس. أمّا إدوارد، فاستقام جالساً على الحارس، كما لو كان *وسادة*، ممسكاً جنبه بيديه الاثنتين.

سألتُ كريستينا: "هل أنت بخير؟"

تشنّج وجهها وهي تجيب: "*آه*، أجل. الإصابة سطحية، ولم تصل إلى العظم".

مددت يدي إليها لمساعدتها على النهوض.

قال ماركوس: "بياتريس، علينا أن نتركها".

سألته: "ماذا تعني، لا يمكننا تركها! قد يحدث شيء فظيع!"

ضغط ماركوس بإصبعه على رقبتي، في الفجوة الفاصلة بين عظمتي الترقوة، ومال نحوي.

قال: "أصغي إليّ. لا بدّ أنّ جانين انسحبت إلى مختبرها عند أوّل إشارة للهجوم، لأنّها الغرفة الأكثر أماناً في هذا المبنى. وفي أيّ لحظة، ستقرّر أنّ جماعة المعرفة ضاعت، وأنّه من الأفضل محو كلّ البيانات عوضاً عن المخاطرة بانتشارها بين الناس، وستكون مهمّتنا هذه بلا جدوى".

في هذه الحال، أكون قد خسرت الجميع: أبويّ، وكاليب، وأخيراً توبياس، الذي لن يسامحني على تعاوني مع أبيه، لا سيّما إن لم أستطع أن أثبت أنّ الأمر كان يستحقّ العناء.

كانت رائحة نفسه كريهة وهو يقول لي: "سنترك صديقتك هنا، ونواصل طريقنا، إلاّ إن كنت تريدين أن أتابع بمفردي".

قالت كريستينا: "إنّه على حقّ، الوقت ليس في صالحنا. سأبقى هنا، وأمنع إدوارد من اللحاق بكما".

هزّزت رأسي موافقة، فرفع ماركوس إصبعه، مخلّفاً دائرة حمراء على عنقي. فركت مكان الألم، وفتحت الباب الموجود عند أعلى السلّم. نظرت إلى الخلف قبل أن أعبره، فابتسمت لي كريستينا على الرغم من ألمها، وهي تضغط يدها على فخذها.

الفصل الرابع والأربعون

كانت الغرفة التي دخلتها أقرب إلى ممرّ عريض، لكنّه لم يكن عميقاً، مكسوّ بالبلاط الأزرق، مع جدران زرقاء، وسقف أزرق، كلّها بلون واحد. كان كلّ شيء يتوهّج، لكنّني لم أعرف أين مصدر الضوء.

لم أرَ في البداية أيّ أبواب، لكن ما إن اعتادت عيناي على اللون، حتّى رأيت مستطيلاً في الجدار الواقع إلى يساري، وآخر في الجدار الأيمن. بابان فقط.

قلت: "علينا أن نفترق، لا وقت لدينا لنجرّب معاً".

قال ماركوس: "أيّ اتّجاه ستسلكين؟"

قلت: "الأيمن. مهلاً، كلاّ، الأيسر".

"حسناً، سأذهب من جهة اليمين".

"إن وجدتُ الكمبيوتر، ما الذي يجب أن أبحث عنه؟"

"إن وجدتِ الكمبيوتر، ستجدين جانين. وأعتقد أنّك تعرفين بضع طرق لإجبارها على فعل ما تريدين. فهي في النهاية غير معتادة على الألم".

هززت رأسي موافقة. مشينا بالسرعة نفسها كلّ في الاتّجاه الذي اختاره. منذ لحظة، كنتُ لأشعر أنّ الانفصال عن ماركوس سيكون مريحاً، لكنّني أحسست في هذه اللحظة أنّ المتابعة بمفردي أصبحت عبئاً بحدّ ذاتها. فماذا لو لم أستطع تجاوز التدابير الأمنية التي فرضتها جانين من دون شكّ لإبعاد الدخلاء؟ وماذا إن تمكّنت من اختراقها، ولم أستطع إيجاد الملفّ الصحيح؟

وضعت يدي على مقبض الباب، غير أنّه لم يبدُ مقفلاً. عندما قالت توري إنّ تدابير أمنية إلاّ مثيل لها تحيط بمختبر جانين، ظننت أنّها كانت

تعني أجهزة لمسح العين، وكلمات سرّ، وأقفالاً، لكن حتّى الآن، كلّ شيء كان مفتوحاً.

لكن لماذا يقلقني ذلك؟

فتحت بابـي، وفتح ماركوس بابه. نظرنا إلى بعضنا، ثمّ دخلت الغرفة التالية.

á á á

كانت الغرفة زرقاء، شأنها شأن الرواق الخارجي، مع أنّ مصدر الضوء يتّضح هنا. فقد كان يشعّ من الألواح، والسقف، والأرض، والجدران.

عندما أُغلق الباب خلفي، سمعت صوتاً شبيهاً بصوت مزلاج يسقط في مكانه. فأمسكت قبضة الباب مجدّداً وحاولت دفعها إلى الأسفل بقوّة، لكنّها لم تتحرّك. إنّني محاصرة.

سُلّطت عليّ الأضواء من كلّ الجهات، ولم أستطع حجبها بجفوني، بل اضطررت إلى تغطية وجهي بيديّ.

سمعت صوتاً أنثوياً هادئاً يقول:

"بياتريس برايور، من الجيل الثاني. جماعة المنشأ: نكران الذات. الجماعة المختارة: الشجاعة. ثَبُت أنّها جامحة".

كيف تعرف هذه الغرفة هويّتي؟

وما معنى "من الجيل الثاني"؟

"الحالة: دخيلة".

سمعت طقطقة، فباعدت بين أصابعي لأرى ما إذا كانت الأضواء قد انطفأت. كانت لا تزال مضاءة، لكنّ البخار الملوّن أخذ ينبعث من أدوات مثبّتة في السقف. وضعت يدي تلقائيّاً على فمي، ثمّ غلّفني خلال ثوانٍ ضباب أزرق. وبعد برهة، لم أعد أرى شيئاً.

وقفت الآن في ظلام دامس، حتّى إنّني لم أستطع رؤية يدي التي رفعتها أمامي، ولا حتّى شكلها. عليّ أن أتقدّم بحثاً عن باب من الجهة الأخرى، لكنّني خفت أن أتحرّك. فمن يدري ما الذي قد يحدث لي إن فعلت؟

عادت الأضواء، فوجدت نفسي في قاعة التدريب في مجمّع الشجاعة، في الحلبة التي كنّا نتبارى فيها. لديّ كثير من الذكريات في هذه الحلبة، بعضها حسن، كاليوم الذي ضربت فيه مولي، وبعضها الآخر مريع، كاليوم الذي لكمني فيه بيتر إلى أن غبت عن الوعي. تنشّقت الهواء، فوجدته عابقاً برائحة العرق والغبار كما كان.

رأيت من الجهة الأخرى من الحلبة باباً أزرق لا ينتمي إلى هذا المكان. فنظرت إليه عابسة.

قال الصوت الذي بدا الآن مثل صوت جانين، لكنّه قد يكون من وحي خيالي: "أيّها الدخيل، لديك خمس دقائق للوصول إلى الباب الأزرق، قبل أن ينطلق السمّ".

"*ماذا؟*"

لكنّني أعرف ماذا قالت: سمّ، خمس دقائق. لا يجب أن أفاجأ، فهذا عمل جانين المجرّد من الضمير، مثلها. ارتعد جسدي، وتساءلت ما إذا كان بفعل السمّ، وما إذا كان السمّ يعطّل دماغي منذ الآن.

ركّزي. لا يمكنني الخروج، بل عليّ المضيّ قدماً، وإلاّ...

وإلاّ لا شيء، عليّ المضيّ قدماً.

بدأت أتقدّم نحو الباب، فظهر شخص في طريقي. كانت فتاة قصيرة القامة، نحيلة، وشقراء، تحيط بعينيها هالات سوداء. هذه أنا.

أهو انعكاس صورتي؟ لوّحت بيدي لأرى ما إذا كانت ستتحرّك معي، لكنّها لم تفعل.

قلت: "مرحباً". غير أنّها لم تجبني، ولم أعتقد حقّاً أنّها ستفعل.

ما هذا؟ ابتلعت ريقي لتنفيس أذنيّ اللتين أحسست أنّهما مسدودتين بالقطن. إن كانت جانين هي من صمّم هذا، فهو على الأرجح اختبار ذكاء أو منطق، ما يعني أنّه عليّ التفكير بوضوح، ما يعني بدوره أنّه عليّ أن أهدأ. وضعت يديّ على صدري وضغطت على أمل أن يشعرني الضغط بالأمان، كما لو كان عناقاً.

بيد أنّه لم يفعل.

خطوت يميناً لأتمكّن من الوصول إلى الباب، فقفزت شبيهتي جانباً، واحتكّت قدماها بالتراب، معيقة طريقي من جديد.

أظنّ أنّني أعرف ما الذي سيحدث إن بدأتُ أتوجّه إلى الباب، لكن عليّ المحاولة. انطلقت أركض، بنيّة الالتفاف حولها، لكنّها كانت على أهبة الاستعداد. فأمسكَت بكتفي المصاب ورمتني جانباً. أطلقت صرخة خدشت حنجرتي، وشعرت كأنّ سكاكين تُغرز في جنبي الأيمن. عندما بدأت أنهض على ركبتيّ، ركلتني على معدتي، فاستلقيت على الأرض، وتنشّقت الغبار مع أنفاسي.

عندئذٍ، أدركت وأنا أضغط على معدتي أنّ هذا بالضبط ما كنت لأفعله لو كنت في مكانها. هذا يعني أنّه لكي أتمكّن من الفوز عليها، عليّ إيجاد طريقة لأهزم نفسي. لكن كيف لي أن أكون أكثر براعة في القتال من نفسي، إن كانت تعرف الاستراتيجيات التي أعرفها، وإن كانت تتمتّع تماماً بالدهاء والذكاء اللذين أتمتّع بهم؟

بدأت تتقدّم نحوي مجدّداً، فنهضت واقفة، وحاولت أن أتجاهل ألم كتفي. أخذ قلبي ينبض بسرعة. أردت أن ألكمها، لكنّها فعلت قبلي. انخفضت في اللحظة الأخيرة، فأصابت اللكمة أذني، واختلّ توازني. تراجعتُ بضع خطوات، آملة ألاّ تلحق بي، لكنّها فعلت. هاجمتني

مجدّداً، فقبضت هذه المرّة على كتفيّ، ودفعتني أرضاً، نحو ركبتها المثنية.

رفعت يديّ، بين بطني وركبتها، ودفعت بأقصى قوّة ممكنة. لم تكن تتوقّع ذلك، فتعثّرَت إلى الخلف، غير أنّها لم تسقط.

ركضت نحوها، وبينما كانت الرغبة في ركلها تتبادر إلى ذهني، أدركت أنّ هذه هي رغبتها هي أيضاً. فانحرفت مبتعدة عن قدمها.

في اللحظة التي أريد شيئاً، تريده هي أيضاً. لذا، فأفضل خيار لدينا هو السكون، لكنّني مضطرّة للتغلّب عليها لعبور الباب، والبقاء على قيد الحياة.

حاولت التفكير، لكنّها اقتربت منّي مجدّداً، وقطّبت جبينها مركّزة على ما تفعله. أمسكت بذراعي، فأمسكت بذراعها، ووقفنا متشبّثتين بأذرع بعضنا.

في الوقت نفسه، أخذنا نحرّك سواعدنا إلى الخلف والأمام بقوّة. غير أنّني انحنيت في اللحظة الأخيرة، فارتطم مرفقي بأسنانها.

صرخنا نحن الاثنتين. نفر الدم من شفتها، وسال على ساعدي. شدّت على أسنانها وصرخت، ثمّ اندفعت نحوي بقوّة لم أتوقّعها.

أطاحت بـي أرضاً بوزنها، ثمّ ثبّتتني بركبتيها، وحاولت أن تلكم وجهي، غير أنّني كتفت ذراعيّ أمامي. أصابت لكماتها ذراعيّ، وبدت مثل الصخر على بشرتي.

زفرت بقوّة، وأمسكت بمعصمها، ثمّ لاحظت بقعاً تتراقص عند زوايا عينيّ. إنّه *السمّ*.

ركّزي.

بينما كانت تصارع لتحرير نفسها، رفعتُ ركبتي إلى صدري، ثمّ دفعتها إلى الخلف، بجهد كبير، بحيث ضغطتُ قدمي على بطنها. عندئذٍ ركلتها، ووجهي يغلي من شدة الانفعال.

الأحجية المنطقية هي التالية: في قتال بين خصمين متكافئَين تماماً، كيف يمكن للمرء أن يربح؟

الجواب: لا يمكنه ذلك.

نهضَت واقفة، ومسحت الدماء عن شفتها.

بالتالي: لا يجب أن نكون متكافئتَين تماماً. ما الذي يميّزنا عن بعضنا إذاً؟

تقدّمَت من جديد، لكنّني كنت بحاجة إلى مزيد من الوقت للتفكير. هكذا رحت أتراجع مع كلّ خطوة تخطوها. مالت بـي الغرفة، وقفزتُ جانباً، ممرّرة أناملي على الأرض لتثبيت نفسي.

بماذا تختلف عنّي؟ نحن نمتاز بالوزن نفسه، ومستوى المهارة نفسها، ونمط التفكير أيضاً...

رأيت الباب فوق كتفها، وعرفت الجواب: لدينا هدفين مختلفين. *عليّ* الخروج من ذلك الباب، وعليها حمايته. لكن حتّى في محاكاة، لا يمكن أن تكون يائسة بقدري للوصول إلى هدفها.

أسرعتُ إلى طرف الحلبة، وكانت توجد طاولة هناك. كانت الطاولة خالية منذ برهة، لكنّني أعرف قوانين المحاكاة وكيفية التحكّم بها. ظهر مسدّس على الطاولة حالما فكّرت به.

سقطتُ على الطاولة، وتزاحمت البقع في حقلي البصري. حتّى إنّني لم أشعر بالألم عندما ارتطمت بها. أحسست بنبض قلبـي في وجهي، كما لو أنّ قلبـي انفصل عن صدري وبدأ يهاجر إلى دماغي.

ظهر مسدّس على الأرض أمام شبيهتي، فتناولت كلّ منّا سلاحها.

أحسست بوزن المسدّس، وبسطحه الأملس، ونسيت أمرها. نسيت أمر السمّ، ونسيت كلّ شيء.

تقلّص حلقي، وأحسست كما لو أنّ يداً تُطبق عليه. آلمني رأسي بسبب نقص الأوكسجين المفاجئ، وأحسست أنّ قلبـي ينبض في كلّ مكان، في كلّ مكان.

لم تعد شبيهتي هي التي تقف بيني وبين هدفي، بل ويل. لا، لا. لا يمكن أن يكون ويل. أجبرت نفسي على التنفّس. كان السمّ يقطع الأوكسجين عن دماغي. ويل هو مجرّد وهم في محاكاة. زفرت الهواء والألم يعتصر صدري.

رأيت شبيهتي مجدّداً، تحمل المسدّس، لكنّها ترتجف كما يبدو، وقد أبعدَت السلاح قدر الإمكان عن جسدها. إنّها ضعيفة مثلي. لا، ليست مثلي، لأنّها ليست على وشك فقدان البصر والاختناق، لكنّها تقريباً ضعيفة مثلي.

بعد ذلك، عاد ويل، بعينيه الشاردتين بسبب المحاكاة، وشعره المحيط برأسه في هالة صفراء. لاحت أبنية الطوب من الجانبين، لكنّني رأيت الباب خلفه، الباب الذي يفصلني عن أبـي وأخي.

كلاّ، كلاّ، إنّه الباب الذي يفصلني عن جانين وعن هدفي.

عليّ عبور ذلك الباب. لا بدّ لي من ذلك.

رفعتُ المسدّس، مع أنّ الحركة آلمت كتفي، وثبّتّ يدي باليد الأخرى.

"أنا..." اختنقت، وسالت العبرات على وجهي، وفي فمي، وتذوّقت طعمها المالح. "أنا آسفة".

ثمّ قمت بالشيء الوحيد الذي لا تستطيع شبيهتي فعله، لأنّها ليست يائسة بقدري:

أطلقتُ النار.

الفصل الخامس والأربعون

لم أره يموت مجدّداً.

أغمضت عينيّ في اللحظة التي ضغطتُ فيها على الزناد، وعندما فتحتهما، كانت تريس الأخرى هي الممدّدة على الأرض، بين البقع السوداء التي تشوّه رؤيتي. إنّها أنا.

أفلتّ المسدّس، وأسرعت إلى الباب، حتّى إنّني أوشكت أن أتعثّر بها. ارتميت على الباب، ثمّ فتحته، وخرجت منه. شعرت أنّ يديّ مخدّرتان وأنا أغلقه خلفي، ورحت أهزّهما لاستعادة الإحساس بهما.

كانت الغرفة التالية بضعف الحجم الأولى، وكانت هي الأخرى مضاءة بنور أزرق، لكنّه أبهت لوناً. وُضعت في الوسط طاولة كبيرة، وعُلّقت على الجدران صور، ورسوم بيانية، ولوائح.

أخذت أنفاساً عميقة، وبدأَت رؤيتي تنجلي، ونبضي يعود إلى طبيعته. من بين الصور المعلّقة على الجدران، رأيت صورتي، وصور توبياس، وماركوس، ويوريا. وعُلّقت بجانب الصور لائحة لما بدا أنّه مواد كيميائية. وكلّ مادّة منها مشطوبة بقلم أحمر. لا بدّ أنّ هذا هو المكان الذي طوّرت فيه جانين مصل المحاكاة.

تناهت أصوات إلى مسمعي، فوبّخت نفسي. *ماذا تفعلين، أسرعي!*

سمعت صوتاً يقول: "اسم أخي، أريد أن أسمعه من فمك".

كانت توري.

كيف خرجَت من هذه المحاكاة؟ أهي جامحة أيضاً؟

قالت جانين: "لم أقتله".

"وهل تظنّين أنّ هذا يبرّئك؟ هل تظنّين أنّ هذا يعني أنك لا تستحقّين الموت؟"

لم تكن توري تصرخ، بل تُولوِل بأعلى صوتها، مخرجة كلّ حزنها وألمها. بدأت أتقدّم نحو الباب، غير أنّني بسبب العجلة، ارتطمت بزاوية الطاولة، فتوقّفتُ متألّمة.

قالت جانين: "إنّ أسباب أفعالي تتجاوز فهمك. كنت أضحّي من أجل صالح أعظم، وهو أمر لم تفهميه أبداً، حتّى عندما كنّا زملاء دراسة!"

تقدّمتُ وأنا أعرج نحو الباب، الذي كان عبارة عن لوح زجاجي مبرغل. فُتح أمامي، فرأيت جانين، مستندة إلى جدار، وتوري تقف على بعد خطوات منها، شاهرة مسدّسها.

خلفهما، رأيت طاولة زجاجية وُضع عليها صندوق فضّي: جهاز كمبيوتر ولوح مفاتيح. واحتلّت الجدار بأكمله شاشة كمبيوتر.

حدّقت جانين إليّ، غير أنّ توري لم تتحرّك إنشاً واحداً، ولا يبدو أنّها سمعتني. كان وجهها محمرّاً ومبلّلاً بالدموع، ويدها ترتجف.

لم أكن واثقة أنّني أستطيع إيجاد ملفّ الفيديو بنفسي. إن كانت جانين هنا، يمكنني إجبارها على إيجاده، أمّا إن كانت ميتة...

صرخت: "كلاّ! توري، لا تفعلي!"

لكنّ إصبعها كان أساساً على الزناد. فارتميت عليها بقوّة، ودفعتها. غير أنّ الرصاصة انطلقت وسمعت صرخة.

ارتطم رأسي بالأرض، فتجاهلت النجوم التي راحت تتراقص أمام عينيّ، وارتميت على توري. دفعتُ المسدّس إلى الأمام، فانـزلق بعيداً عنّا.

لماذا لم تستولي عليه، أيّتها الحمقاء؟!

لكمتني توري على جانب حلقي، فشعرت بالاختناق، واستغلّت الفرصة لدفعي بعيداً عنها، ثمّ زحفَت نحو المسدّس.

تهاوت جانين، وراح الدم ينـزف من ساقها. *ساقها!* تذكّرت، ولكمت توري بقوّة قرب الجرح الذي خلّفته الرصاصة في فخذها. صاحت متألّمة، وتمكّنت من النهوض.

تقدّمتُ من السلاح الذي سقط على الأرض، لكنّ توري كانت أسرع منّي. فقد أحاطت ساقيّ بذراعيها، وراحت تشدّهما. سقطتُ على الأرض على ركبتيّ، لكنّني بقيت أعلى منها، فلكمتها على قفصها الصدري.

أنّت بألم، لكنّ الضربة لم توقفها. فبينما كنتُ أزحف نحو المسدّس، غرزت أسنانها بيدي. كان الألم مختلفاً عن أيّ ضربة تلقّيتها، حتّى إنّه مختلف عن الإصابة بالرصاص. صحت بصوت عالٍ جدّاً، وفرّت الدموع من عينيّ.

لم أتكبّد كلّ هذا العناء لأترك توري تقتل جانين قبل أن أحصل على ما أريد.

نـزعتُ يدي من بين أسنانها، وأحسست أنّ الألم شوّش حقلي البصري، ثمّ اندفعت، وأمسكتُ بالمسدّس، وصوّبته على توري.

كانت يدي مكسوّة بالدماء، وكذلك ذقن توري. فخبّأت يدي لكي يسهل عليّ تجاهل الألم ونهضتُ، والمسدّس ما زال موجّهاً إليها.

قالت بصوت أقرب إلى زمجرة منه إلى صوت بشري: "لم أعتقد أنّك خائنة، تريس".

قلت: "لست كذلك". رففت عينيّ لأراها بشكل أوضح، وانهمرت الدموع على خدّيّ. "لا يمكنني أن أشرح لك الآن، لكن... كلّ ما أطلبه هو أن تثقي بـي، رجاءً. ثمّة شيء مهمّ، شيء لا يعرف مكانه سواها-"

قالت جانين: "هذا صحيح! إنّه على ذلك الكمبيوتر، بياتريس، ولا يمكن لأحد إيجاده سواي. إن لم تساعديني على البقاء، سيموت معي".

قالت توري: "إنّها كاذبة، *كاذبة*، وإن صدّقتِها، تكونين غبية وخائنة مثلها، تريس!"

قلت: "أنا أصدّقها، أصدّقها لأنّ ما تقوله منطقي جدّاً! فالمعلومات الحسّاسة موجودة ومخبّأة على ذلك الكمبيوتر، توري!" أخذت نفساً عميقاً، وخفضتُ صوتي. "أصغي إليّ من فضلك. أنا أكرهها بقدرك، ولا سبب لديّ للدفاع عنها. أنا أقول الحقيقة، هذا مهمّ جدّاً".

صمتت توري، فظننتُ للحظة أنّني نجحت في إقناعها. غير أنّها عادت تقول: "ما من شيء أكثر أهمّية من موتها".

"إن كان هذا ما تصرّين على تصديقه، فلا يمكنني مساعدتك، لكنّني لن أسمح لك بقتلها".

نهضت توري على ركبتيها، ومسحت دمي عن ذقنها، ثمّ نظرت إلى عينيّ.

قالت: "أنا واحدة من زعماء الشجاعة، ولا يمكنك أن تملي عليّ ما أفعله".

قبل أن أفكّر-

قبل أن أفكّر حتّى بإطلاق النار من المسدّس الذي أحمله-

سحبَت سكّيناً طويلاً من حذائها، ثمّ اندفعَت وطعنَت جانين في بطنها.

صرخت، بينما أطلقت جانين صوتاً رهيباً؛ غرغرة، صراخ، وحشرجة احتضار. رأيت توري تصرّ على أسنانها، وسمعتها تتمتم باسم شقيقها - "جورج" - قبل أن توجّه لها طعنة أخرى.

أخيراً، أصبحت عينا جانين كرتين زجاجيتين.

الفصل السادس والأربعون

كانت نظرات توري شرسة وهي تستدير نحوي.

أحسست بالخدر.

كلّ المخاطر التي مررت بها للوصول إلى هنا، من تآمري مع ماركوس، وطلب المساعدة من المعرفة، والزحف على سلّم عن ارتفاع ثلاثة طوابق، وإطلاق النار على نفسي في محاكاة، وكلّ التضحيات التي قدّمتها، علاقتي مع توبياس، وحياة فيرناندو، ومكانتي بين الشجعان، كلّها ضاعت سدى.

ذهبت أدراج الرياح.

بعد برهة، فُتح الباب الزجاجي مجدّداً. اقتحم توبياس ويوريا المكان كما لو أنّهما في معركة. كان يوريا يقحّ، بسبب السمّ على الأرجح، لكنّ المعركة انتهت. ماتت جانين، وانتصرت توري، وأصبحتُ من الشجعان الخونة.

جمد توبياس في مكانه وكاد أن يتعثّر في خطواته، عندما رآني. حملق بـي مذهولاً.

قالت توري: "إنّها خائنة، فقد أوشكت على قتلي دفاعاً عن جانين".

قال يوريا: "ماذا؟ تريس، ماذا يجري؟ أهذا صحيح؟ ما الذي أتى بك إلى هنا أساساً؟"

لكنّني لم أكن انظر سوى إلى توبياس. شعرت ببصيص من الأمل، غير أنّه آلمني عندما امتزج بإحساس الذنب الذي خالجني لأنّني خدعته. توبياس عنيد وفخور، لكنّه لي. ربّما إن أصغى إليّ، ربّما ثمّة فرصة لكي لا يذهب كلّ ما فعلته هباءً.

قلت بهدوء: "أنت تعرف سبب وجودي هنا، أليس كذلك؟"

مددت إليه مسدّس توري، فتقدّم بخطوات غير ثابتة، وأخذه.

قال: "وجدنا ماركوس في الغرفة المجاورة، عالقاً في محاكاة. أتيتِ إلى هنا معه".

"أجل". كان الدم يسيل من موضع العضّة في ذراعي.

قال وهو يغلي غضباً: "لقد وثقتُ بك. وثقت بك، لكنّك تخلّيت عنّي للعمل *معه*".

هززت رأسي نافية: "كلاّ. لقد قال لي شيئاً، وكلّ ما قاله أخي، وقالته جانين عندما كنت في مقرّ المعرفة ينسجم معه. لذلك أردت معرفة الحقيقة، كنت *بحاجة* إلى ذلك".

ضحك ساخراً. "الحقيقة. وهل تظنّين أنّك تعرفين *الحقيقة* من شخص كاذب، وخائن، ومعادٍ للمجتمع؟"

قالت توري: "الحقيقة؟ ما الذي تتحدّثان عنه؟"

حدّقنا إلى بعضنا أنا وتوبياس. أصبحت عيناه الزرقاوان، الرصينتان عادة، قاسيتين الآن، كما لو أنّهما تفتّشاني طبقة طبقة.

قلت: "أظنّ". عليّ أن أتوقّف وآخذ نفساً، لأنّني لم أقنعه. لقد فشلت، وهذا على الأرجح هو آخر ما سيسمحون لي بقوله قبل اعتقالي.

قلت بصوت متهدّج: "أظنّ أنّك *أنت* الكاذب! تقول إنّك تحبّني، وتثق بـي، وتعتقد أنّني إدراكي أكثر حدّة من إدراك الشخص العادي. وفي أوّل لحظة يوضع فيها هذا الاعتقاد بذكائي، وتلك الثقة، وذلك *الحبّ* تحت الاختبار، ينهار كلّ شيء". كنت أبكي الآن، لكنّني لا أشعر بالخجل من الدموع التي تسيل على خدّيّ أو من تغيّر طبقة صوتي. "هذا يعني أنّك كنت تكذب عندما قلتَ لي هذه الأمور... لا بدّ أنّك كنت تكذب لأنّني لا أعتقد أنّ حبّك هشّ إلى هذا الحدّ".

اقتربت منه، ولم تعد تفصل بيننا سوى مسافة قصيرة، ثمّ تابعت بصوت لا يسمعه غيرنا.

"ما زلتُ الفتاة التي كانت على استعداد للموت عوضاً عن قتلك".

تذكّرت في تلك اللحظة هجوم المحاكاة، ونبض قلبه تحت يدي. "ما زلت أنا الفتاة التي تعرفها، وفي هذه اللحظة، أؤكّد لك أنّني أعرف... أعرف أنّ هذه المعلومات ستغيّر كلّ شيء، كلّ ما فعلناه، وكلّ ما نوشك على فعله".

حدّقت إليه كما لو أنّني قادرة على إيصال الحقيقة بعينيّ، لكنّ هذا مستحيل. أشاح بنظره، حتّى إنّني لم أكن واثقة أنّه سمع ما قلت.

قالت توري: "هذا يكفي، خذها إلى الأسفل. ستتمّ محاكمتها مع بقيّة مجرمي الحرب".

لم يتحرّك توبياس. أمسك يوريا بذراعي، وأبعدني عنه. فخرجنا من المختبر، إلى الغرفة المضاءة بالمصابيح، ومنها إلى الرواق الأزرق. انضمّت إلينا هناك تيريز، ورمقتني بفضول.

عندما أصبحنا على السلّم، شعرت بوكزة. نظرت إلى الخلف، فرأيت قطعة من الشاش بيد يوريا. أخذتها منه، وحاولت أن أبتسم له بامتنان، لكنّني لم أستطع.

بينما كنّا نهبط السلّم، لففت الشاش حول يدي، وحاولت تفادي الجثث من دون أن أنظر إلى وجوهها. أمسك يوريا بمرفقي ليمنعني من السقوط. صحيح أنّ الضمادة لم تخفّف من ألم العضّة، لكنّني شعرت بالتحسّن، لا سيّما وأنّ يوريا على الأقلّ لا يبدو أنّه يكرهني.

للمرّة الأولى، لا يبدو تجاهل الشجعان لمسألة السنّ في صالحي، بل سيكون سبب إدانتي. لن يقولوا: *لكنّها صغيرة، ولا تتمتّع بالإدراك الكافي*. بل سيقولون: *إنّها راشدة، وقد قامت بالاختيار*.

أنا أوافقهم بالطبع. فقد قمت باختياري، واخترت أمّي، وأبـي، وما ناضلا من أجله.

هبوط السلالم أسهل من صعودها. وصلنا إلى الطابق الخامس قبل أن أدرك أنّنا ذاهبون إلى الردهة.

قالت تيريز: "أعطني مسدّسك، يوريا. على أحدنا أن يكون جاهزاً لمواجهة المقاتلين المحتملين، ولا يمكنك ذلك ما دمتَ تسندها".

سلّمها يوريا سلاحه من دون تردّد. عبست مفكّرة أنّ تيريز تملك مسدّساً أساساً، فما الذي تريده من سلاح يوريا؟ غير أنّني لم أسأل، فأنا واقعة بما فيه الكفاية من المشاكل.

وصلنا إلى الطابق السفلي، وعبرنا قاعة اجتماعات كبيرة مليئة بأناس بالملابس السوداء والبيضاء. توقّفت للحظة لمشاهدتهم. كان بعضهم محتشداً في مجموعة صغيرة، مستندين إلى بعضهم، ووجوههم مبلّلة بالدموع. وكان بعضهم فرادى، متّكئين على الجدران، أو جالسين في الزوايا، يحدّقون بشرود.

تمتم يوريا وهو يشدّ على ذراعي: "كان علينا قتل الكثير منهم، لمجرّد الدخول إلى المبنى. كنّا مضطرّين لذلك".

قلت: "أعرف".

رأيت شقيقة كريستينا وأمّها متشبّثتين ببعضهما في الجهة اليمنى من الغرفة. وفي الجهة اليسرى، رأيت شابّاً ذا شعر أسود يلمع تحت الضوء، إنّه بيتر. كان يضع يده على كتف امرأة متوسّطة السنّ، عرفتُ أنّها أمّه.

سألت: "ماذا يفعل هنا؟"

أجاب: "أتى هذا الجبان بعد الهجوم، بعدما انتهى كلّ العمل. سمعتُ أنّ أباه قُتل، لكن يبدو أنّ أمّه بخير".

نظر بيتر إلى الخلف، والتقت نظراتنا للحظة. حاولت خلالها أن أشفق على الشخص الذي أنقذ حياتي. لكن مع أنّ كرهي له زال، إلاّ أنّني لم أشعر بشيء.

سألَت تيريز: "ما الأمر؟ فلنتابع طريقنا".

عبرنا قاعة الاجتماعات وصولاً إلى الردهة الرئيسة، التي عانقت فيها كاليب مرّة. كانت صورة جانين العملاقة محطّمة على الأرض. والدخان الموجود في الهواء كان أكثر كثافة حول الرفوف، التي احترقت وتحوّلت إلى رماد. حُطّمت كلّ أجهزة الكمبيوتر أيضاً، وتناثرت أجزاؤها على الأرض.

جلس في صفوف في وسط الغرفة بعضُ أعضاء المعرفة الذين لم يهربوا، والشجعان الخونة الذين ما زالوا على قيد الحياة. بحثت عن وجه مألوف، لأجد كاليب في الخلف وقد بدت عليه آثار الصدمة، فأشحت بنظري.

"تريس!" كان ذلك صوت كريستينا الجالسة في المقدّمة، بجانب كارا، وساقها ملفوفة بالقماش. أشارت إليّ، فجلستُ بجانبها.

سألتني بصوت منخفض: "هل نجحتِ؟" غير أنّني هززت رأسي نافية.

تنهّدت، وأحاطتني بذراعها. كانت حركتها مريحة جدّاً بحيث أوشكت على البكاء. لكن أنا وكريستينا لسنا من الأشخاص الذين يبكون معاً، بل من الذين يحاربون معاً. لذلك، أمسكتُ دموعي.

قلت لها: "رأيت أمّك وأختك في الغرفة المجاورة".

قالت: "أجل، رأيتهما أنا أيضاً. أسرتي بخير".

"هذا جيّد. وكيف حال ساقك؟"

"بخير أيضاً. هذا ما قالته كارا، لأنّ الجرح لا ينـزف كثيراً. فقد قامت إحدى ممرّضات المعرفة بحشو جيوبها ببعض المسكّنات ودواء التعقيم والشاش قبل أن يقتادوها إلى هنا، لذلك لا أشعر بكثير من الألم".
بجانبها، كانت كارا تتفحّص ذراع عضو آخر من أعضاء المعرفة. "أين ماركوس؟"

أجبتها: "لا أدري، فقد افترقنا. لا بدّ أنّه هنا في الأسفل، ما لم يكن قد قُتل".

قالت: "حقّاً، لن يفاجئني ذلك".

عمّت الفوضى لبعض الوقت، إذ دخل أشخاص وخرجوا، وتبادل الحرّاس المنبوذون أماكنهم، كما تمّ إحضار أشخاص جدد من المعرفة الذين يرتدون الأزرق للجلوس معنا. لكن عاد الهدوء تدريجيّاً، وعندئذٍ رأيته. كان توبياس يدخل من الباب المؤدّي إلى الدرج.

عضضت على شفتي بقوّة، وحاولت عدم التفكير، وعدم التركيز على الإحساس البارد الذي غلّف صدري، والوزن الذي ضغط على كاهلي. إنّه يكرهني ولا يصدّقني.

تشبّثت بـي كريستينا بقوّة وهو يمرّ بجانبنا، من دون أن ينظر إليّ حتّى. التفتّ إلى الخلف، ورأيته يتوقّف عند كاليب، ويمسكه من ذراعه، ثمّ يدفعه للوقوف. قاومه كاليب لبرهة، لكنّه لم يكن حتّى بنصف قوّة توبياس ولم يستطع أن يفلت.

سأله مذعوراً: "ماذا؟ ماذا تريد؟"

قال توبياس من دون أن يلتفت إلى الخلف: "أريدك أن تعطّل نظام الأمن في مختبر جانين لكي يتمكّن المنبوذون من الوصول إلى جهاز الكمبيوتر الخاصّ بها".

وتدميره. هذا ما فكّرت فيه، وشعرت أنّ قلبـي أصبح أكثر ثقلاً.
اختفى توبياس وكاليب على الدرج مجدّداً.

تهاوينا أن وكريستينا على بعضنا، وهكذا دعمت إحدانا الأخرى.

قالت: "نشّطت جانين كلّ المواد الناقلة الموجودة لدى الشجعان، كما تعرفين. وقد تعرّضت إحدى مجموعات المنبوذين لكمين من قبل الشجعان الخاضعين للمحاكاة منذ عشر دقائق، وكانت قد وصلت من قطاع نكران الذات متأخّرة. أعتقد أنّ المنبوذين هم الذين انتصروا، مع أنّني لا أعرف كيف يمكن تسمية قتل أشخاص منوّمين انتصاراً".

"صحيح". لم أجد شيئاً آخر أقوله، ويبدو أنّها أدركت ذلك.

قالت: "ماذا حدث بعدما تعرّضتُ لإطلاق النار؟"

أخبرتها عن الرواق الأزرق ذي البابين، والمحاكاة التي أعقبت ذلك، منذ اللحظة التي أدركت أنّني في قاعة التدريب التابعة لمجمّع الشجاعة، حتّى اللحظة التي أطلقت فيها الرصاص على نفسي. غير أنّني لم أخبرها عن أنّني رأيت ويل.

قالت: "مهلاً، هل كانت محاكاة؟ من دون مادّة ناقلة؟"

قطّبت جبيني. لم أكن قد فكّرت بهذا الأمر، لا سيّما في ذلك الوقت.
"إن كان المختبر يتعرّف على الناس، ربّما كانت لديه أيضاً بيانات عن الجميع، ويستطيع إعداد بيئة محاكاة مناسبة لكلّ شخص بحسب جماعته".

لم يعد من المهمّ الآن معرفة الطريقة التي أعدّت فيها جانين التدابير الأمنية التي تحيط بمختبرها. لكنّني أحسست أنّه من المفيد لي التفكير في مشكلة جديدة لحلّها بعدما فشلت في حلّ المسألة الأكثر أهمّية.

استقامت كريستينا في جلستها، وربّما شعرت بالشيء نفسه.

"أو ربّما كان السمّ يحتوي على ناقل".

لم أفكّر بذلك.

"لكن كيف استطاعت توري الخروج من المحاكاة؟ فهي ليست جامحة".

أملت رأسي جانباً، وقلت: "لا أدري".

ربّما كانت كذلك . فشقيقها كان جامحاً، وربّما امتنعت عن الإقرار بحقيقتها بعد ما حلّ به، حتّى عندما أصبح الجموح مسألة معروفة بين الناس.

لقد اكتشفتُ أنّ الناس هم عبارة عن طبقات وطبقات من الأسرار. تظنّ أنّك تعرفهم وتفهمهم، لكنّ دوافعهم تخفى عليك دائماً، وتبقى دفينة في قلوبهم. لا تعرفهم أبداً، لكنّك تقرّر أحياناً الوثوق بهم.

قالت بعد بضع دقائق من الصمت: "ماذا سيفعلون بنا برأيك إن وجدونا مذنبين؟"

"صدقاً؟"

"وهل يبدو الوقت مناسباً للصدق؟"

نظرت إليها من زاوية عيني وقلت: "أظنّ أنّهم سيجبروننا على أكل كثير من الكعك، وعلى أخذ قيلولة طويلة جدّاً بعد ذلك".

ضحكَت، غير أنّني حاولت ألاّ أشاركها الضحك، لأنّني لو فعلت، سأبدأ بالبكاء أيضاً.

á á á

سمعت صرخة، فنظرت حولي بحثاً عن مصدرها.

"لين!" كان يوريا هو صاحب الصوت. ركض نحو الباب، وكان ثمّة اثنان من الشجعان ينقلون لين على حمّالة صُنعت من أحد رفوف الكتب. كانت شاحبة جدّاً، ويداها مطويتان على معدتها.

قفزتُ واقفة، وبدأت أقترب منها، لكنّ عدداً من المنبوذين شهروا أسلحتهم ومنعوني من التقدّم. فرفعت يديّ، ووقفت ساكنة أشاهد.

دار يوريا حول مجموعة مجرمي الحرب، وأشار إلى امرأة من المعرفة ذات شعر أشيب، وقد بدت على ملامحها الجدّية. "أنت، تعالي إلى هنا".

وقفت المرأة، ونفضت سروالها. ثمّ مشت بخفّة على أطراف الحشد الجالس، ونظرت إلى يوريا.

قال: "أنت طبيبة، أليس كذلك؟"

قالت: "أجل".

أمرها عابساً: "عالجيها إذاً! إنّها مصابة".

اقتربت الطبيبة من لين وطلبت من الرجلين وضعها أرضاً. أنـزلوها، فانحنت فوق الحمّالة.

قالت لها: "عزيزتي، ارفعي يديك عن الجرح".

قالت لين: "لا أستطيع، إنّه يؤلمني".

"أدرك ذلك، لكنّني لن أتمكّن من علاج جرحك إن لم ترفعي يديك عنه".

انحنى يوريا من الجهة المقابلة، وساعد الطبيبة على إبعاد يديّ لين عن بطنها. رفعت الطبيبة قميص لين، فظهر جرح الرصاصة، الذي كان بحدّ ذاته عبارة عن دائرة حمراء في بشرتها. غير أنّه كان محاطاً بشيء بدا مثل كدمة. لم يسبق لي في الواقع أن رأيت كدمة بهذا السواد.

زمّت الطبيبة شفتيها، فعرفتُ أنّ لين ميتة لا محالة.

قال يوريا: "عالجيها! أنت قادرة على ذلك، فافعلي!"

قالت الطبيبة وهي تنظر إليه: "على العكس تماماً. فبعدما أضرمتم النار في طوابق المستشفى في هذا المبنى، لم أعد قادرة على علاجها".

قال وهو يصيح: "ثمّة مستشفيات أخرى! يمكنك إحضار أدوات من هناك وعلاجها!"

قالت الطبيبة بصوت هادئ: "حالتها متقدّمة جدّاً. لو لم تصرّوا على إحراق كلّ شيء في طريقكم، كنت سأحاول، لكن الآن، لن تجدي المحاولة نفعاً".

قال مشيراً بإصبعه إلى صدر الطبيبة: "اصمتي! لستُ أنا من أحرق مشفاكم! هذه صديقتي، وأنا... أنا لن..."

قالت لين: "يوري، اصمت. لقد فات الأوان".

خفض يوريا ذراعيه، ثمّ مدّ يده ليمسك بيد لين، وفمه يرتعش.

قلت للمنبوذين الذين يصوّبون أسلحتهم نحوي: "أنا صديقتها أيضاً. هل يمكنكم على الأقلّ تصويب أسلحتكم عليّ هناك؟"

تركوني أمرّ، فأسرعتُ إلى جانب لين، وأمسكت بيدها الأخرى التي كانت لزجة بفعل الدماء. تجاهلتُ الأسلحة الموجّهة إلى رأسي، وركّزت على وجه لين، الذي بدأ يتحوّل من الأبيض إلى الأصفر.

لا يبدو أنّها لاحظتني، فقد كانت تركّز على يوريا.

قالت بصوت ضعيف: "أنا سعيدة لأنني لم أمت تحت تأثير المحاكاة".

قال: "لن تموتي الآن".

قالت: "لا تكن غبياً. يوري، أصغِ إليّ، لقد أحببتها أنا أيضاً، صدّقني".

سألها بصوت مخنوق: "أحببتِ من؟"

"مارلين".

قال: "أجل، كلّنا أحببنا مارلين".

هزّت رأسها مجيبة: "كلاّ، ليس هذا ما عنيته". ثمّ أغمضت عينيها.

مع ذلك، مرّت بضع دقائق قبل أن ترتخي يدها التي أُمسك بها. وضعتُها على بطنها، ثمّ أخذتُ يدها الأخرى من يوريا، وفعلت الشيء نفسه. مسح عينيه قبل أن تبدأ دموعه بالانهمار، والتقت نظراتنا من فوق جثّتها.

قلت: "عليك إخبار شونا، وهيكتور".

"صحيح". شهق، ووضع راحته على وجه لين. تساءلت ما إذا كان خدّها لا يزال دافئاً، لكنّني لم أرغب في لمسها واكتشاف العكس.

نهضتُ، وعدت إلى كريستينا.

الفصل السابع والأربعون

ظلّ عقلي يعيد إليّ ذكريات عن لين، في محاولة لإقناعي أنّها رحلت فعلاً، لكنّني كنت أدفع تلك الومضات القصيرة كلّما أتت. سأكفّ يوماً عن ذلك، إن لم يتمّ إعدامي على أنّني خائنة، أو أيّاً يكن ما يخطّط له قادتنا الجدد. لكن في هذه اللحظة، جاهدت لإبقاء ذهني فارغاً، والتظاهر أنّ هذه الغرفة هي كلّ ما كان وما سيكون موجوداً يوماً. لن يكون الأمر سهلاً، لكنّني تعلّمت كيف أتعامل مع الحزن.

أتت توري وهاريسون إلى الردهة بعد مدّة، واقتربت توري من أحد المقاعد وهي تعرج. أوشكتُ أن أنسى إصابتها مجدّداً، فقد كانت رشيقة جدّاً عندما قتلَت جانين. تبعها هاريسون.

أتى خلفهما أحد الشجعان حاملاً جثّة جانين على كتفه، ثمّ أنـزلها كأنّها صخرة على طاولة أمام صفوف أبناء المعرفة والشجعان الخونة.

سمعت خلفي شهقات وهمهمات، لكنّني لم أسمع أيّ بكاء. فجانين ليست من الزعماء الذين يحزن الشعب عليهم.

حدّقت إلى جثّتها، التي بدت أصغر ممّا كانت عليه وهي نابضة بالحياة. لم تكن أطول منّي سوى ببضع إنشات، ولم يكن شعرها أدكن من شعري سوى قليلاً. بدت هادئة الآن، لا بل مسالمة تقريباً، بحيث صعب عليّ الربط بين هذه الجثّة والمرأة التي عرفتها، والتي كانت مجرّدة من الضمير.

لقد كانت أكثر تعقيداً ممّا ظننت، واحتفظت بسرّ اعتقدَت أنّه فظيع جدّاً ولا يمكن كشفه، وذلك بدافع وقائي ملتوٍ وشنيع.

دخلت جوانا ريس إلى الردهة، مبلّلة حتّى العظم بفعل المطر، فبدت ملابسها الحمراء أدكن لوناً. أحاط بها المنبوذون، لكنّها تجاهلتهم، هم والمسدّسات التي يحملونها.

قالت لهاريسون وتوري: "مرحباً، ماذا تريدان؟"

قالت توري بابتسامة حذرة: "لم أكن أعرف أنّ قائدة الوئام بهذه الفظاظة. أليس هذا مخالفاً لعاداتكم؟"

أجابتها جوانا بصوت لطيف وحازم في آن: "لو كنتِ فعلاً على معرفة بعادات الوئام، لأدركتِ أنّهم لا يملكون قائداً رسمياً. مع ذلك أنا لم أعد ممثّلة الوئام بعد اليوم. فقد تخلّيت عن هذا المنصب لكي آتي إلى هنا".

قالت توري: "أجل، رأيتك أنت وعصبتك الصغيرة من قوّات حفظ السلام وأنت تعيقون طريق الجميع".

"أجل، كان هذا مقصوداً، ذلك أنّ إعاقة الطريق كان ترمي إلى الحؤول بين الأسلحة والأبرياء وإنقاذ عدد كبير من الناس".

علا الاحمرار خدّيها، فخطر لي مجدّداً أنّ جوانا ريس لا تزال جميلة ربّما. لكنّني أعتقد الآن أنّها ليست جميلة فقط على الرغم من الندبة، بل هي جميلة بها، مثل لين بشعرها الحليق، وتوبياس بذكرياته عن قسوة أبيه التي يحملها مثل الدرع، وأمّي بملابسها الرمادية البسيطة.

قالت توري: "ما دمتِ بهذا الكرم، أتساءل ما إذا كنت تستطيعين حمل رسالة إلى جماعة الوئام".

قالت جوانا: "لا أشعر بالارتياح لتركك أنت وجيشك تفرضون العدالة كما ترونها مناسبة، لكنّني سأرسل بالتأكيد شخصاً آخر إلى الوئام لإيصال الرسالة".

قالت توري: "ممتاز. أخبريهم أنّه سيتمّ قريباً تأليف نظام سياسي جديد لن يكونوا ممثّلين فيه. فهذا باعتقادنا هو عقاب عادل على عدم اصطفافهم إلى جانبنا في هذا النـزاع. بالطبع، سيتمّ إجبارهم على الاستمرار بإنتاج وتسليم الطعام إلى المدينة، لكنّهم سيخضعون لمراقبة إحدى الجماعات الرئيسة".

شعرت للحظة أنّ جوانا قد ترتمي على توري وتخنقها. غير أنّها استقامت أكثر في وقفتها، وقالت: "أهذا كلّ شيء؟"

"أجل".

"حسناً. سأذهب الآن للقيام بشيء مفيد. لا أعتقد أنّكم ستسمحون لبعضنا بالدخول إلى هنا للعناية بأولئك الجرحى".

رمقتها توري بقسوة.

قالت جوانا: "لم أعتقد ذلك أساساً. لكن تذكّري، أنّه في بعض الأحيان، يصبح الناس المقموعون أكثر قوّة ممّا تتوقّعين".

على ذلك، استدارت وخرجت من الردهة.

أصابتني كلماتها في الصميم. أنا واثقة أنّها أرادتها كتهديد، تهديد مبطّن، إلاّ أنّه رنّ في أذنيّ كما لو أنّه أكثر من ذلك، كما لو أنّها لا تتحدّث عن الوئام، بل عن مجموعة مضطهدة أخرى: المنبوذون.

نظرتُ حولي، إلى كلّ جنود الشجاعة، وكلّ الجنود المنبوذين، وبدأت ألاحظ أمراً واضحاً.

قلت: "كريستينا، لقد استولى المنبوذون على كلّ الأسلحة".

نظرَت حولها، ومن ثمّ إليّ، وعبسَت.

تذكّرت تيريز وهي تأخذ المسدّس من يوريا مع أنّها تملك واحداً. ورأيت فم توبياس المتوتّر عندما سألته عن الحلف الغريب بين الشجعان والمنبوذين، كما لو كان يخفي شيئاً.

فجأة، دخلت إيفلين إلى الردهة، ووقفت بوضعية مهيبة، مثل ملكة تعود إلى مملكتها. غير أنّ توبياس لم يكن يتبعها. *أين هو يا ترى؟*

وقفت إيفلين خلف الطاولة التي أُلقيت عليها جثّة جانين ماثيوس. ثمّ تبعها إدوارد وهو يعرج. أخذت إيفلين مسدّساً، ثمّ صوّبته على لوحة جانين التي سقطت على الأرض وأطلقت النار.

خيّم الصمت على القاعة. ثمّ وضعت إيفلين مسدّسها على الطاولة بجانب رأس جانين.

قالت: "شكراً لكم. أعرف أنّكم تتساءلون ماذا سيحدث الآن، وقد أتيت لإخباركم".

استقامت توري في مقعدها، ومالت نحو إيفلين كما لو أنّها ترغب في قول شيء. لكنّ إيفلين لم تعرها اهتماماً.

قالت: "إنّ نظام الجماعات الذي قام لعقود على حساب الناس المنبوذين سيتمّ تفكيكه حالاً. نحن نعلم أنّ هذا التغيير سيكون صعباً عليكم، لكن-"

قاطعتها توري مستنكرة: " *علينا؟* ما الذي تتحدّثين عنه؟ تفكيك النظام؟"

نظرت إيفلين إلى توري للمرّة الأولى، وقالت: "ما أتحدّث عنه هو أنّ جماعتك، التي كانت قبل أسابيع قليلة تدعو هي وجماعة المعرفة إلى الحدّ من كمية الطعام والبضائع المخصّصة للمنبوذين، وهي دعوة أدّت إلى دمار جماعة نكران الذات، لن يعود لها أيّ وجود".

ابتسمت إيفلين قليلاً.

قالت: "وإن قرّرتم استخدام السلاح ضدّنا، لن تجدوا أيّ سلاح لاستخدامه".

عندئذٍ، قام المنبوذون برفع أسلحتهم. كانوا واقفين على مسافات متساوية على أطراف الغرفة، وصولاً إلى السلالم. إنّهم يطوّقوننا تماماً.

كم كان أسلوبهم أنيقاً وذكياً، حتّى إنّني أوشكت على الضحك.

"لقد أمليتُ على جيشي الاستيلاء على أسلحة جنودكم حال انتهاء مهامهم. وكما أرى الآن، نجحوا في ذلك. أنا أكره الازدواجية، لكنّنا نعرف

جيّداً أنّكم معتادون على التشبّث بنظام الجماعات كما لو كان أمّاً لكم، وأنّه علينا مساعدتكم على الانتقال بسلاسة إلى هذه الحقبة الجديدة".

سألتها توري: "*مساعدتنا*؟" نهضَت واقفة، وتقدّمت من إيفلين وهي تعرج، غير أنّ هذه الأخيرة شهرت مسدّسها في وجهها.

قالت إيفلين: "لم أُمضِ أكثر من عقد من الزمن وأنا أتشوّق إلى هذه اللحظة لكي أستسلم لامرأة من الشجاعة تعاني من إصابة في قدمها. لذلك، ما دمتِ لا ترغبين في التعرّض لإطلاق نار، خذي مجلسك مع بقيّة أعضاء جماعتك السابقة".

رأيت عضلات ذراع إيفلين تتوتّر استعداداً. لم تكن عيناها باردتين مثل عيني جانين، بل يقظتين، تقيّمان وتخطّطان. لا أدري كيف استطاعت امرأة كهذه أن تخضع لإرادة ماركوس. لا بدّ أنّها لم تكن في ذلك الوقت مثل هذه المرأة ذات القلب الفولاذي.

وقفت توري أمام إيفلين لبضع ثوانٍ، ثمّ تراجعت مبتعدة عن المسدّس، وعادت إلى مكانها.

قالت إيفلين: "من ساعدونا في عمليّة الإطاحة جماعة المعرفة ستتمّ مكافأتهم. ومن قاومونا، سيخضعون للمحاكمة ويعاقبون وفقاً لجرائمهم". ارتفع صوتها وهي تلفظ الجملة الأخيرة، وفوجئت من قوّته.

خلفها، فُتح الباب، ودخل توبياس، وفي أعقابه ماركوس وكاليب، من دون أن يلاحظهم أحد تقريباً. غير أنّني لاحظته، لأنّني درّبت نفسي على الانتباه إليه. راقبت حذاءه وهو يقترب. كان عبارة عن حذاء رياضي أسود مع ثقوب معدنية يمرّ بها الشريط. توقّف بجانبي، ثمّ انحنى إلى مستوى كتفي.

نظرت إليه، متوقّعة أن أجد عينيه باردتين وقاسيتين، غير أنّهما لم تكونا كذلك.

تابعت إيفلين حديثها، لكنّ صوتها اختفى بالنسبة إليّ.

قال توبياس بصوت منخفض: "كنتِ محقّة". ابتسم قليلاً وتابع: "أنا أعرف من أنت، لكنّني كنت بحاجة إلى التذكير".

فتحت فمي، لكنّني لم أجد ما أقوله.

فجأة، أُضيئت كلّ الشاشات في ردهة مقرّ المعرفة، على الأقلّ تلك التي لم تُدمّر في الهجوم، بما في ذلك مسلاط مثبّت فوق الجدار الذي كانت تحتلّه صورة جانين.

توقّفت إيفلين في وسط حديثها، بينما أمسك توبياس بيدي وساعدني على الوقوف.

سألت إيفلين: "ما هذا؟"

قال لي وحدي: "هذه هي المعلومات التي ستغيّر كلّ شيء".

أحسست برجفة في ساقيّ بسبب الارتياح والخوف على السواء.

سألته: "فعلتَها؟"

"أنت من فعلها. كلّ ما قمتُ به هو إجبار كاليب على التعاون".

أحطتُ عنقه بذراعيّ وعانقته، وحاولت التخلّص من ذكرى كلّ الأسرار التي أخفيناها عن بعضنا والشكوك التي ساورتنا، وذلك إلى الأبد كما آمل.

عندما سمعنا صوتاً، ابتعدنا عن بعضنا والتفتنا إلى الحائط، التي ظهرت عليه صورة امرأة ذات شعر بنّي قصير. جلسَت إلى مكتب معدني طاوية ذراعيها، في مكان لا أعرفه. كانت الخلفية باهتة جدّاً.

قالت: "مرحباً، أنا أدعى أماندا ريتر. لن أخبركم في هذا الشريط سوى بما تحتاجون إلى معرفته. أنا قائدة منظّمة تكافح من أجل إحلال العدالة والسلاح. وقد أصبح هذا الكفاح أكثر أهمّية مع الوقت، وبات مستحيلاً تقريباً، خلال العقود الماضية. والسبب هو هذا".

تلاحقت الصور على الجدار، بسرعة كبيرة. رجل راكع على ركبتيه والمسدّس مضغوط على جبينه، تصوّبه إليه امرأة وجهها خالٍ من أيّ عاطفة.

على مسافة منه، تدلّى شخص معلّق من عنقه بعمود هاتف.

تلت ذلك صورة حفرة في الأرض بحجم منـزل، مليئة بالجثث.

تتابعت صور أخرى أيضاً، لكن على نحو أسرع، بحيث أخذت انطباعاً وحسب عن الدماء، والعظام، والموت، والقسوة، والوجوه الخالية، والعيون المذعورة.

عندما طفح بـي الكيل، وشعرت أنّني على وشك الصراخ، عادت صورة المرأة للظهور على الشاشة.

قالت: "أنتم لا تذكرون شيئاً من هذا. لكن إن كنتم تظنّون أنّ هذه هي أعمال مجموعة إرهابية، أو نظام استبدادي، فأنتم مخطئون إلى حدّ ما. ذلك أنّ نصف أولئك الناس الذين ظهروا في الصور وهم يرتكبون تلك الأعمال الفظيعة كانوا جيرانكم، وأقاربكم، وزملاءكم. فالمعركة التي نخضوها ليست ضدّ مجموعة معيّنة، بل هي ضدّ الطبيعة البشرية بحدّ ذاتها، أو على الأقلّ ما أصبحت عليه".

هذا ما كانت جانين تسعى إلى استعباد العقول وقتل الناس لمنعنا من معرفته، وإبقائنا جاهلين وآمنين *داخل السياج*.

جزء منّي فهم ذلك.

قالت أماندا: "لهذا السبب أنتم مهمّون. فنضالنا ضدّ العنف والقسوة هو علاج لأعراض المرض وليس للمرض بحدّ ذاته. *أنتم العلاج*".

"لكي نحافظ على أمنكم، صمّمنا طريقة لفصلكم عنّا، وعن مياهنا، وعن التكنولوجيا التي نستخدمها، وعن بنيتنا الاجتماعية. لقد بنينا مجتمعكم بطريقة خاصّة على أمل أن تعيدوا اكتشاف الحسّ الأخلاقي

الذي فقده معظمنا. ومع الزمن، نأمل أن تبدأوا بالتغيّر على نحو يعجز عنه معظمنا".

"وسبب ترك هذا التسجيل لكم هو لكي تعرفوا متى يحين الوقت لمساعدتنا. ستعرفون عندما يصبح بينكم عدد كبير من تلك العقول التي تبدو أكثر مرونة من غيرها. والاسم الذي يجب أن تطلقوه على أولئك الأشخاص هو الجامحون. عندما يصبح عددهم كبيراً بينكم، سيعطي قادتكم الأمر لجماعة الوئام لفتح البوابة إلى الأبد، لكي تخرجوا من عزلتكم".

وهذا ما أراد أبـي وأمّي فعله: أخذ ماعرفناه واستخدامه لمساعدة الآخرين. لقد كانا ناكرَين للذات حتّى الرمق الأخير.

قالت أماندا: "يجب أن تقتصر المعلومات الموجودة في هذا الشريط على أعضاء الحكومة فقط. نريدكم أن تكونوا مجتمعاً نظيفاً، لكن لا تنسونا".

ابتسمَت قليلاً.

قالت: "أنا على وشك الانضمام إليكم. مثلكم جميعاً، سوف أنسى اسمي، وأسرتي، ووطني بكامل إرادتي. سأتّخذ هوية جديدة، ذات ذكريات مزوّرة وتاريخ مزوّر. لكن لكي تعرفوا أنّ المعلومات التي زوّدتكم بها دقيقة، سأخبركم بالاسم الذي سأتّخذه لنفسي".

ابتسمَت ابتسامة عريضة، فأحسست للحظة أنّني أعرفها.

قالت: "سيكون اسمي إديث برايور، وسأكون سعيدة بنسيان الكثير".

برايور.

انتهى الشريط، وسُلّط وهج أزرق على الجدار. أمسكتُ بيد توبياس، ومرّت لحظة من الصمت، كأنّ الجميع يمسكون أنفاسهم.

ثمّ بدأ الصراخ.

انتهى